فداء عيتاني

ملاك الثورة وشياطينها

عامان في شمال سورية

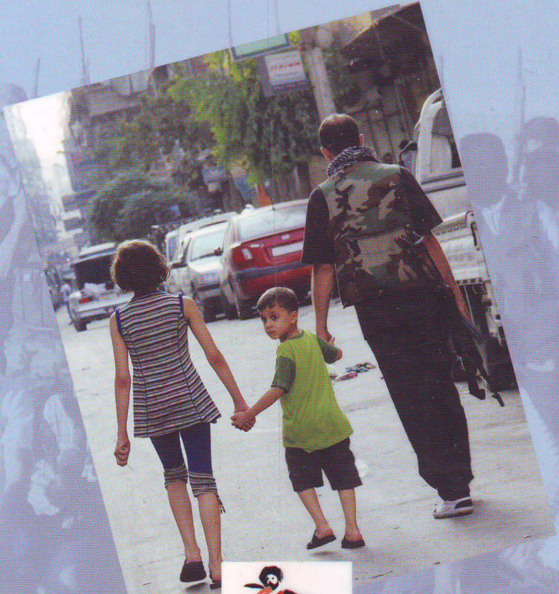

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

فداء عيتاني

ملاك الثورة وشياطينها
عامان في شمال سورية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

The Revolution's Angel and Demons
Two Years in Northern Syria
Fidaa Itani

First Published in January 2015
Copyright ©**Riad El-Rayyes Books S.A.L.**
BEIRUT — LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb — www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-601-0

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, elctronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠١٥

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف والإخراج الفني: آرتيستو — علي الحاج حسن

المحتويات

إهداء ١١

شكر ١٣

تمهيد ١٥

٢٥ تشرين الأول ٢٠١٤ .... ١٥

نهاية تشرين الأول ٢٠١٢ : إلى بيروت أخيراً ١٧

العام ٢٠١٢: خطيئة صحافي ٢١

الفصل الأول: ٢٠١١ .... ٢٥

المهنة وأشياء أخرى ٢٧

الفصل الثاني: ٢٠١٢ .... ٣٩

الطريق إلى حلب ٤١

حلب تتصنع الحياة ٥٧

بأمان مع «العصابات الإرهابية» ٦٩

ملائكة ما بعد المعركة ٧٩

لماذا الثورة؟ لماذا الآن؟........................... ٨٥
ثوار مدن وثوار قرى ٩٩
اليوم منعنا تعرصة كبيرة ١٠٥
إلى تركيا١٠٩
الى سورية مجدداً ١٢١
«كيف يمكنك مساعدتنا؟» ١٣٧
رفاهية الطعام ١٤٧
مجزرة في المدينة ١٥٧
تصوير ومطالب........................... ١٦٥
حرب شوارع بلا ذخائر ١٧٧
تسلح محلي وابتكارات ١٨٥
العاصمة الاقتصادية تنهار ١٩٥
خالد النسر........................... ٢٠١
الى الزنزانة........................... ٢٠٩
استجواب لحفظ ماء الوجه ٢١٧
صورة عن النظام........................... ٢٢٣
رسائل ورسائل مضادة ٢٢٩
الصورة من بيروت ٢٤١
الى اللقاء أيتها الثورة........................... ٢٤٩
الفصل الثالث: ٢٠١٣ .... ٢٥٩
سراقب وجوارها: سلمية ومدنية ٢٦١
وجوه لا تمسّها النصرة ٢٦٥

كفرنبل العاصمة ٢٦٩
سكان الكهوف وسكان القبور........ ٢٧٥
مآسي معرة النعمان........ ٢٨١
جريمة في المتحف ٢٨٥
قصف كيميائي وعنقودي........ ٢٩١
بحثاً عن المطرانين ٢٩٧
الموت المتنوع ٣٠٥
الشيخ علي التكفيري........ ٣١٣
شهداء نحاس وشهداء المراحل ٣١٩
القاعدة هنا منذ زمن طويل ٣٢٧
العودة إلى البدايات ٣٣١
القاعدة برعاية رسمية ٣٣١
القتال لوجه الله........ ٣٤١
من أجل الدولة لا من أجل الله ٣٤٩
رغماً عن أنفوكم ٣٥٧
إما العراق أو لبنان........ ٣٦٣
الفصل الرابع: ٢٠١٤ .... ٣٦٩
الحسابات الخاطئة ٣٧١
من الشمال إلى الحدود التركية........ ٣٧٧
الأسئلة المعقدة والاجابات البسيطة ٣٨٥
لاجئون ونازحون ٣٨٩
سورية ما بعد الخلافة ٤٠٣

ترهل القيادات وموت المقاتلين ٤٠٧
المهزومون يتبنّون نظريات داعش ٤١١
الأمم المتحدة تتصل بداعش ٤١٩
خاتمة ٤٢٥
ملاك الثورة وشياطينها ٤٢٥
ملاحق ٤٢٩
- ملحق رقم ١ .... ٤٣١
- ملحق رقم ٢: كلمة حسن نصر الله حول المخطوفين الـ ١١ .. ٤٣٥
- ملحق رقم ٣: مقالات ٤٣٩
- ملحق رقم ٤: مقابلة مع أبو أسامة التونسي ٤٥٣
- ملحق رقم ٥: صور ٤٥٩
فهرس الأعلام ٤٦٩
فهرس الأماكن ٤٧٥

إهداء

إلى فرح طبعاً

شكر

أولاً الفضل في هذا النص لكل المقاتلين من أجل حريتهم في سورية، وإلى مئات من الشبان البسطاء والطيبين الذين استقبلوني في هذا البلد القريب من وطني، والذين أوضحوا لي بالفعل والقول الأسباب العميقة لثورتهم، وفتحوا عيني على حقائق سورية لم نكن ونحن نبعد بعض العشرات من الكليومترات عنهم نعرفها أو نتوقعها.

وأخص الثوار الذين يدركون بوعيهم المباشر وبعلومهم القليلة التي أتيح لهم تحصيلها بأن ثورتهم لم تتلقّ يوماً دعماً مجانياً من أي طرف دولي أو خارجي، وأن الدول الغربية خاصة تنفذ مصالحها بما لا يتوافق مع كفاحهم وقتالهم من أجل حريتهم ومستقبل أبنائهم.

وإلى حسام عيتاني الذي قاتل بأسنانه وأظفاره من أجل إخراجي من المعتقل حيث أُسرت، فهو أيضاً له فضل كبير في هذا النص الذي يروي

تجربة ثورة لن تتكرر في هذا العصر، حول سورية التي انتفضت في آذار من العام ٢٠١١ ولم تستكن لخوف أو استسهال.

وإلى صديقي وسيم الذي يصوّب دائماً بأسئلته العميقة أسلوب نظري إلى الأحداث ويدفعني لأبحث عن الإجابات، ومايا التي عرفتني إلى جوانب في سورية عبر الفضاء الافتراضي.

وقبل أي أحد آخر الفضل الأكبر لصبحي لطوف، الصديق المخلص، والعميق على الرغم من أن الحياة في سورية دمرته، وأنظمة التعليم أقصته، واحتفظ بقدرة عالية على فهم ما يدور حوله، وثقة ثورية مذهلة، وإقدام لا يستكين، وتحول إلى دينامو حقيقي في منطقته، وقام بكل الأعمال التي لم يُجِدْها آخرون، وبقي محافظاً على موقعه المجهول، رغم أن الإعلام السوري نعاه عدة مرات بصفته إرهابياً قتل في اشتباك هنا أو هجوم وهمي هناك. وإلى وليد شهاب الدين، الصديق الآخر الذي لا يمكن ذكر صبحي دون ذكره، ولا يحضر وليد دون أن يكون لصبحي نصيب.

وأشكر صبحي الذي لولاه لما وجدت منزلاً حين احتجْت، ولقتلت عدة مرات لو لم يهبّ لنجدتي وسحبي من بين براثن الطامعين بالمال والمتسترين بالثورة، وكان جاهزاً دائماً لنقلي من منطقة وجدت نفسي فيها دون أن أعرف كيف. كما أوجه كتابي إلى كل الشبان الذين رحلوا عن هذه الدنيا وهم يحملون بنادقهم، وكانوا لي نعم المعين وخير الحامين وأصدق المرشدين خلال أشهر تجوالي في بلادهم، ولا بد أن اسمّي منهم النقيب نمر وخالد إبراهيم، وطارق محمد الحسن.

٢٥ تشرين الأول ٢٠١٤

لم يخطر ببالي سوى خروف العيد ليلة الوقفة على عرفة. كنت في الغرفة وحوالي ٢٥ مقاتلاً وضابطاً من قوات عمار الداديخي يحيطون بي ويكبّرون تكبيرات العيد، وأنا أنتظر غير عارف مصيري تماماً. وحده خروف العيد في تلك اللحظة يمكنه أن يفهم رعبي وحيرتي، ووحدي يمكنني أن أتعاطف مع الخراف في تلك الليلة، وإن كان أوان ذبح الخراف معروف، إلا أن أوان وأسلوب التعامل معي كان عصياً على الاكتشاف تلك الليلة، غداً هو أول أيام عيد الأضحى، يوم السادس والعشرين من تشرين الأول العام ٢٠١٢، وأنا قد تم احتجازي على معبر باب السلامة من قبل عمار الداديخي، بعد طول مفاوضة وعبور آمن ولقاءات مع الرجل، وها أنا أقبع في غرفة في مقر الجبل الأحمر، أنتظر ولا أعلم ما الذي يخبئه لي الداديخي، وبعد ساعات تخللتها تكبيرات العيد وصلاة، ونقلت داخل سيارة داكنة الشبابيك وأنا معصوب العينين إلى مبنى، ثم أنزلت وأصوات الأبواب

الفولاذية تفتح أمامي وتغلق خلفي، تركت وحيداً في غرفة فارغة إلا من فراش شديد القذارة، وتجولت في غرفتي تلك الليلة يسيطر علي جفاف الحلق من الرعب والتوتر من القلق.

بعدها بأيام، وقبل أن يفرج عني الداديخي، وجّه لي مجموعة نصائح، منها أن أستخدم ذكائي لمصلحتي الشخصية، ومنها أيضاً أن أكتفي بما عشته في سورية وألا أعود إليها. لحسن الحظ أنني أفلتّ من الداديخي، كما أفلتّ من توقيفي من قبل عناصر الدولة الإسلامية في شهر آب العام ٢٠١٣، وربما كنت من آخر الصحافيين الذين أوقفتهم الدولة وتركتهم يسيرون ورؤسهم على أكتافهم، ومن دون افتدائهم بملايين الدولارات.

عدت مراراً إلى سورية لأستكمل هذا الكتاب، كما لأشهد على واحدة من أعقد الثورات في العصر.

كل هذا لا يكفي كاعتذار من القارئ، فبدل أن أخفي صيغة المتكلم في الكتابة لم يعد هناك صيغة أخرى يمكنها أن توضح ما حصل، وبدل أن أكتب عن الـ «هم» أو عن الثوار، صرت أكتب عن الـ «النحن». إلا أن الهدف لا يزال هو نفسه بالنسبة لي، أي محاولة تصوير ما شهدته في خلال أكثر من عام من ترحالي في حلب وإدلب، والتي لم تنقطع حتى لحظات تدوين هذا الكتاب بصيغته النهائية، والسعي لفهم ما جرى في هاتين المنطقتين خلال الأشهر المفصلية في عمر الثورة، وكيف تحولت حلب من منطقة نائمة، أو بحراك هامشي نسبة إلى مناطق حمص ودرعا وغيرهما، إلى المنطقة التي تتصدر أخبارها كل الشاشات.

نهاية تشرين الأول ٢٠١٢: إلى بيروت أخيراً

في الأول من تشرين الثاني العام ٢٠١٢، وبعد أن جلست في مقعدي في الطائرة المتوجهة من مطار إسطنبول إلى بيروت في الرحلة المسائية، بدأت أفكر بما عساي أقوله بعد كل ما حصل، كان زميلي علي من الدوحة، وشقيقي حسام من بيروت قد أبديا قلقاً كبيراً تجاه ما يمكن أن أقوله، رجاني حسام ألا أطلق تصريحاً قاسياً لحظة عودتي إلى لبنان، وألا أفتح معارك مجانية. أجبته وأنا الخارج من الأسر، أنني بحالة نعس شديد تفرض عليّ الكسل والمسالمة، وأنني لا أنوي فتح أية معركة أو تقديم أية معلومة، ليس قبل أن أفهم تماماً ما الذي حصل في غيابي في بيروت.

اسندت رأسي إلى شباك الطائرة، وفكرت بالأشهر الخمسة التي قضيتها في سورية، مع إجازات متقطعة في بيروت، فكرت بخلاصة يمكن الخروج بها من أول رحلة لي في بداية شهر حزيران من العام ٢٠١٢ إلى لحظة عودتي في الأول من تشرين الثاني من العام نفسه.

لم أتمكن من منع نفسي عن التفكير في المخطوفين اللبنانيين لدى لواء عاصفة الشمال، التابع لعمار الداديخي (أبو إبراهيم) وضرورة إخراجهم من هناك، ليس فقط لأن لا ناقة لهم ولا جمل في الثورة السورية وموقف الأطراف اللبنانية منها، بل لأن إخراجهم سيخفف - ولو بالنذر اليسير حينها - من الاحتقان الطائفي في لبنان ومن الصورة السلبية للثورة السورية في آن معاً. والنقطة التالية التي فكرت فيها هي أن هذه الثورة تواجه خطراً حقيقياً.

رحت وأنا أقاوم التعب أستعرض النقاط التي يمكن أن تشكل خطورة على الثورة:

- انفصال الخارج عن الداخل.
- النقص الحاد في كوادر الداخل، إلا من نشأ ونما في رحم الثورة، وهم قلة لا يلبثون أن يقتلوا في المعارك والقصف والهجمات المتبادلة.
- الاعتماد الكامل على وعود خارجية ودولية بتسليح الثوار ومدّهم بالذخائر والأسلحة النوعية.
- عدم تطوير القدرات الذاتية على المستويات القتالية والخدماتية الداخلية والبلدية المحلية.
- شدّة الانقسامات بين المجموعات القروية وأحياناً بين مجموعات القرية أو البلدة نفسها.
- دخول المجموعات السلفية الجهادية - تلك التي تتخذ من اساليب تنظيم القاعدة طريقة عمل - إلى كل النسيج الاجتماعي السوري

أو أغلبه، وانتشارها بقوة بصفتها المحرك الرئيسي والقوة الضاربة في المعارك.

- تهميش الحراك السلمي المدني لمصلحة تمجيد العمل العسكري بقيادة مجموعات الجيش الحر.

- استمرار قوات الجيش الحر بالولاء لقيادات القرى، والتصرف كحرس قروي، وعدم قدرتها على تجميع صفوفها لخوض معارك واسعة بقوات شبه نظامية أو حتى بقوات ثورية تلتزم بالحد الأدنى من الانضباط.

- الغرق في معارك استنزاف بوجه النظام وخاصة في مدينة حلب وبعض النواحي الأخرى في سورية.

- انفتاح شهية العديد من الأشخاص ومن المجموعات على أعمال السلب، والنهب وعدم قدرة المجموعات الثورية على ممارسة مراقبة ذاتية وإقامة أجهزة قضائية حقيقية.

- ارتفاع وتيرة التوتر الطائفي، الذي، ولأشهر خلت فقط، كان عبارة عن مجرد حديث يدور همساً أو تلميحاً، وانتقل ليكون هو الحديث المعتمد بين الناس. أصحاب هذا الحديث الطائفي والذي يدين الطوائف الأخرى في موقفها من الثورة وعملها ضد الثوار، يتجاهلون أن أغلب قواعد النظام في سورية مكوّنة من السنة أنفسهم، وخصوصاً في مناطق كحلب، حيث لا تزال النسبة الأكبر من المؤيدين هي من السكان الأصليين لمدينة حلب، ويقاتل أبناء هؤلاء ضمن قوات الجيش النظامي كما ضمن اللجان الشعبية (الشبيحة)، ويهاجمون بشراسة مواقع

الثوار، ويتصرفون في الكثير من المعارك بعقائدية عالية، على الرغم من كل الدعاية السياسية التي تشير إلى طائفية الصراع أو أن كل المقاتلين إلى جانب النظام هم من طوائف معيّنة، وأن السنة مجبرون على القتال غصباً عن إرادتهم الحرة.

- توسع أعمال تجارة السلاح، واستئجار المقاتلين والأسلحة بين المناطق، وسيطرة بعض التجار على القرار الميداني، واحتكار أطراف سياسية خارجية (سورية وغير سورية) لعمليات التمويل، مما يتيح لها التحكم بكل القرارات الكبرى في مجرى الثورة.

- والأهم مما سبق، استمرار الصراع لمدة تقترب من العامين (في الأول من تشرين الثاني ٢٠١٢) مخلّفة وراءها حجماً مهولاً من الدمار والقتل والإصابات وتقلص أسباب الحياة في كل المناطق التي زرتها.

أضف إلى ذلك كله العديد من المشاهد التي توحي بأسباب أخرى كانت تدور في رأسي.

النتيجة هي ما قلته حين وصلت: لا بد من العمل على إطلاق المخطوفين اللبنانيين وبأي طريقة، والنقطة الأخرى: الثورة السورية في خطر ومنذ شهر تموز العام ٢٠١٢.

العام ٢٠١٢: خطيئة صحافي

تدهورت ظروف عمل الصحافة بشدة منذ انطلاقة الانتفاضة السورية في العام ٢٠١١. وقد واصلت الحكومة السورية تعتيمها الإعلامي من خلال منع دخول معظم الصحافيين الدوليين والسيطرة على التغطية الإخبارية المحلية. وقد لجأ الصحافيون الأجانب إلى التسلل إلى البلاد، غالباً عبر الحدود مع تركيا ولبنان، كي يتمكنوا من تغطية النزاع. وقد واجه المواطنون الصحافيون مخاطر شديدة لتصوير الاضطرابات وتوثيقها. وقد احتجزت السلطات عشرات الصحافيين خلال العام، وثمة تقارير بأن بعضهم تعرضوا للتعذيب أثناء احتجازهم من قبل الدولة. وقد تعرض صحافيون دوليون ومحليون للاختطاف على يد القوات الحكومية وقوات الثوار وجماعات إسلامية متطرفة غير سورية، وظل بعضهم في عداد المفقودين بحلول نهاية العام. ومع تجاوز عدد الصحافيين القتلى ٢٨ قتيلاً جراء رصاص القناصة أو النيران المتقاطعة، فقد صنفت لجنة حماية الصحافيين سورية على أنه أخطر بلد في العالم للصحافة في العام ٢٠١٢.

إحدى أكبر الرذائل في مهنتي هي حين يتحول الصحافي إلى الحدث، بدل أن يكتب عنه ويغطيه، ومن نكد العمل في سورية أنك تتحول إلى شاهد رغماً عنك، والشاهد هنا ليس بالمعنى المهني، حيث من واجب الصحافي لعب دور عين القارئ أو المشاهد حيث لا يتمكن هذا المتلقي من الوصول، بل الشاهد بمعنى الانحياز إلى طرف، بدل أن يبقى على حياد لا يعنيه من الصراع فيه سوى الجانب المهني ورصد مختلف الجوانب من السياسية إلى الإنسانية، والبحث عن الأسباب العميقة لما يراه الصحافي من الصراعات. ومن سوء طالعي أنني تحولت إلى أسير لدى أحد أجنحة الثورة السورية وبالتالي أصبحت خبراً بدل أن أكتب عن الخبر. فجمعت معصيتين: أنني أشهد بأن النظام السوري هو من دفع البلاد بإجرامه المتعمد إلى النزاع الأهلي، وأنني أصبحت خبراً أو جزءاً من الخبر.

ولأعترف صراحة بأنني اضطررت إلى حمل البندقية عدة مرات في سورية، دائماً دفاعاً عن النفس، لم أطلق النيران بهدف القتل، ولا المشاركة في القتال، ولكن ببساطة كان لا بد من حماية نفسي وحماية آخرين في لحظات معينة.

إلا أن مسار الأمور كان لا بد أن يصل إلى هنا، وإن كنت أتوقع أن أقتل في غارة عشوائية من تلك التي تشنها الطائرات على المنازل والسيارات في القرى وفي الطرق الرئيسية، أو أن أصاب. أو بالحد الأدنى كنت أتوقع أن توقفني يوماً المخابرات التركية لكثرة دخولي وخروجي إلى الأراضي السورية عبر الحدود المشتركة بين البلدين.

وبسبب معرفتي بانحدار العديد من المجموعات العسكرية السورية إلى ممارسات انتقائية وغير مدروسة ومزاجية تجاه المواطنين السوريين وتجاه

كل من يمر من أمام هذه المجموعات المقاتلة، إلا أنني كنت على الدوام حذراً، حتى في القرية التي تحولت إلى موطن جديد لي في الريف الغربي من حلب، كنت قلما أخرج دون رفقة أحد الثوار، أو أنتقل إلى قرى أخرى إلا برفقة أشخاص أعرفهم مسبقاً، وعلى الرغم من كل ذلك وقعت في ما يحظر على الصحافي الوقوع فيه، وصرت جزءاً من لعبة أكبر من شخصي، وهي بكل الأحوال من خارج مهنتي أو من خارج المعلن من مهنتنا.

الفصل الأول

٢٠١١

المهنة وأشياء أخرى

خمسة أشهر من العمل انتهت باعتقالي ومكوثي في زنزانة، ستة أيام طويلة، بعدها عدت إلى بيروت، وطالبت باعتذار اعتقاداً مني بأن الثورة السورية ومكوناتها بقيت صامتة بعدما احتجز عمار الداديخي حريتي.

في عمر السجون وروادها الأيام الستة لا تحتسب، ويمكن لأي مسجون في أحد السجون السورية التابعة للنظام أن يقضي ستة أيام في إطار الانتظار، أو التحقيق، أو النسيان إلى أن يتذكره من طلب اعتقاله، أو يتم تحويله من فرع إلى فرع، وفي نوعية الحياة في السجون السورية الرسمية أيضاً لا تعد هذه الأيام الستة سوى نزهة، فلا تحمل بين ساعاتها أية وسائل تعذيب، ولا ترهيب، ما عدا يوماً واحداً، هو عبارة عن ليلة اعتقالي وخطفي، وساعة أو يزيد استغرقتها عملية التحقيق معي في صباح اليوم التالي، حيث مارس المحقق أسلوباً بسيطاً في الترهيب النفسي، وعدا ذلك فلا شيء يذكر على الإطلاق.[1]

---

(١) عن الاعتقال راجع: «القوقعة»، مصطفى خليفة. «خيانات اللغة والصمت»، فرج بيرقدار. كتاب «بالخلاص يا شباب»، ياسين الحاج صالح.

إلا أن هذه الأيام الستة التي أوقفت عملي في سورية لمدة أربعة أشهر، كانت ضرورية لأتعرف إلى جانب آخر من الثورة، جانب مخفي تحت الأرض، ويعيشه عشرات آلاف المواطنين السوريين، ومن أعضاء في اللجان الشعبية سقطت مناطقهم بين أيدي الثوار، ومن المخطوفين، ومن الضباط وعناصر الجيش السوري الذين تم اعتقالهم خلال معارك عسكرية أو على الحواجز. كما من الاجانب المشتبه في أنهم من عملاء النظام، أو من الإيرانيين الذين اعتقلوا هنا أو هناك.

توقفت عن زيارة سورية لأشهر أربعة هي المدة الفاصلة ما بين تاريخ إطلاق سراحي في الأول من تشرين الثاني ٢٠١٢ وما بين الرحلة التاسعة إلى سورية في منتصف شهر شباط ٢٠١٣.

ومن اللحظة الأولى لاختطافي لم يغير اعتقالي أي شيء في قناعاتي، ولكنه وسع مدى رؤيتي لتشمل زوايا معتمة في الثورة، وكان أكثر ما نغص علي هو الشعور بالإهانة، ومعرفتي الكاملة بأن ما بعد السجن لن يكون كما قبله، وأنني لن أتمكن من متابعة سفراتي إلى سورية بحرية كما كنت أرغب وأفعل.

قبل الذهاب إلى سورية وقبل اندلاع الثورة السورية أمضيت في ليبيا ثلاثة أسابيع، إذ وصلت بعد أيام من اندلاع الثورة الليبية، وعملت على تغطية أحداثها، ثم خرجت فاراً من ليبيا يوم العاشر من شهر آذار ٢٠١١، كانت يومها كتائب القذافي القتالية تقوم بهجوم مضاد سيصل خلال ساعات إلى حدود مدينة بنغازي، وكان واضحاً أن اليوم التالي سيكون يوم صدور موقف دولي مساند للثورة ولكن ليس قبل أن تصل سكين القذافي إلى رقبة عاصمة الثورة الليبية في الشرق أي بنغازي.

وصلت بيروت يوم الثاني عشر من الشهر نفسه، كانت مصر تحتفل بسقوط مبارك حين عبرت هناك في محطة سريعة للوصول إلى بيروت، ولا زال ميدان التحرير في القاهرة يضم جموعاً من الشباب والباعة المتجولين الذين يحملون شعارات الثورة الشبابية المنتصرة، وحين وصلت العاصمة اللبنانية كان أول ما طالعني هو الجدل الدائر حول سورية وهل يصل إليها الربيع العربي.

حين بدأت العمل في سورية كنت أقف في الوسط، على معرفة مسبقة بأن النظام السوري قد نخره السوس وفقد إمكانية حياته منذ أكثر من عشرة أعوام، وأن دوره في المنطقة يقوم على الحفاظ على وجوده أولاً، ولكن لم أكن منحازاً إلى الثورة، كانت الثورة السورية ضبابية بالنسبة إلى أمثالي ممن يتابعون الأخبار، فلا التقارير الميدانية لوكالات الصحافة الدولية أعطتنا صورة واضحة، ولا الأخبار التي تتناقلها المحطات الفضائية العربية أظهرت صورة مقنعة لما يجري في سورية، ولا الفضائيتان السوريتان[١] تمكنتا من إقناعنا بالرواية الرسمية لما اعتبره النظام مجموعات مسلحة وقوات إرهابية مستوردة، ولا حتى التقارير العربية والدراسات التي كانت تصدر على خجل، كان يمكنها أن ترينا صورة دقيقة للأحداث[٢].

---

(١) الفضائية السورية الرسمية أو الإخبارية السورية، وقناة الدنيا الخاصة، وهما عملياً وسيلتا الإعلام المتلفزتان الأكثر تمثيلا لوجهة نظر النظام الحاكم.

(٢) باستثناء بعض المقالات والإحصاءات المهمة، ككتاب محمد جمال باروت «**العقد الاخير في تاريخ سورية**» وتقارير دولية حول الوضع الاقتصادي والاجتماعي في البلاد وحالة التدهور التي يعيشها المواطنون السوريون والتي كان رصدها ونشرها حكراً على مجموعات دراسية غربية على العموم أو هيئات ومنظمات دولية.

كانت مجموعة من الأبحاث مفيدة في متابعة مآلات النظام وسيرورته، ومنها، إن لم يكن أهمها كتاب محمد جمال باروت «العقد الاخير في تاريخ سورية»، خصوصاً أنه نشر على الإنترنت قبل صدور الطبعة الورقية الكاملة. إلا أن شيئاً فعلياً وعميقاً لم يتوفر حول المعارضة السورية في الداخل، وطغت على المعارضة في الخارج صورة تراوح بين ما سبق أن شاهدناه للمعارضة العراقية، والتباسات صورة الإخوان المسلمين المنفيين من بلادهم والذين سبق أن أقاموا تفاهمات ليس أشنعها مع عبد الحليم خدام نائب الرئيس السوري في عهد حافظ الأسد والحاكم الفعلي للبنان أيام الصراع الاهلي وما تلاه من توافق أميركي سوري سعودي على إدارة مرحلة السلم الأهلي البارد.

لم أكن وحيداً في عدم قدرتي على التمييز بين الضخ الإعلامي المتصادم مع حقيقة الصورة، كنت أجد العديد من الأصدقاء المختصين من صحافيين ومتابعين سياسيين، ورجال السياسة المحترفين أولئك الذين تحتم عليهم مواقعهم السياسية الانحياز إلى جانب النظام أو المعارضة، إلا أنهم فعلياً بدوا بأغلبهم ضائعين، فحيناً يتخذون المواقف يميناً وأحياناً يساراً، إلى جانب الثورة أو إلى جانب النظام، دون أن يتمكنوا من تقديم صورة مقنعة عما يحصل في سورية، رغم أن الحدود السورية لا تبعد عن عاصمتنا اللبنانية أكثر من ساعة ونصف ساعة بالسيارة.

الضخ الدعائي في بداية الثورة كان عالي المنسوب، الحياة السياسية في بيروت ولبنان عامة تسممت جراء ما يحصل في سورية، وزاد السم فتكاً الدعاية السياسية التي كان يطلقها مؤيدو النظام السوري، بينما المعارضة السورية ولا سيما في داخل الأراضي السورية كانت تخضع لموجبات البث

الفضائي، وكأن ماكينة الإعلام الثورية السورية كانت موظفة لدى عدد من الأقنية الفضائية، فتنقل لنا من الأحداث الجانب القمعي الذي يمارسه النظام ضد مظاهرات مدنية وسلمية، وبعض المشاهد لقتلى وجثث مشوهة لا غير.

استولى الجانب التعبوي والدعائي على الإعلام المعارض، وخضع الإعلاميون الجدد في سورية لموجبات هذه السياسة سواء عن وعي وإدراك أو في محاولة محمومة للحصول على دعم سريع هم بحاجة إليه، اصبحت الدعاية هي المحور الوحيد الذي تقوم عليه أشرطة فيديو الثورة، وهو ما أضاع علينا لزمن طويل إمكانية فهم ما يحصل في سورية بالمعنى العميق للكلمة.

إلا أن صوراً بذاتها كانت تحسم النقاش، وهي تحمل ما تحمل من شعور بالعار، كتلك المشاهد لجنود النظام يدوسون على شبان مقيدين في درعا، بعد أن اعتقلوا، أو مقاطع فيديو تحمل صور وأشكال التعذيب الذي يمارس ضد المتظاهرين المعتقلين المكبلين الذين لا حول لهم ولا قوة، دائماً مع سؤال استنكاري من الجنود -الجلادين: بدكم حرية؟ وكأن الجواب البديهي الذي يفترض أن يجيب به الكل، سواء الخاضعون للتعذيب أو المشاهدون: لا، لا نريد الحرية.

سورية الرسمية التي كانت إلى زمن تدير الشؤون السياسية والأمنية في لبنان عبر جيشها وجهاز مخابراتها[1]، كانت تعرف كيف تعيش داخل

(١) انسحب الجيش السوري من لبنان يوم ٢٧ نيسان من العام ٢٠٠٥ إثر صدور القرار الدولي الرقم ١٥٥٩ واغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري.

الأسوار وتحيط شعبها بحاجز من الرعب يمنع إمكانية قراءة واقعها الاقتصادي - الاجتماعي كما يفترض، وبالتالي فإن اندلاع الثورة في سورية أتى بالنسبة إلى الكثيرين مفاجئاً، وكان جهاز الدعاية الرسمي السوري المكوّن من المخبرين والمؤيدين للنظام وعدد من وسائل الإعلام اللبنانية، كان يؤكد استحالة انتقال الربيع العربي إلى سورية حتى بعد أشهر من اندلاع الثورة في درعا وانتقالها إلى باقي المناطق السورية.

مجرد قراءة اسم سورية على غلاف أي كتاب أو تقرير يمكن أن يصيبك بالنعاس، وبينما المعارضة السورية كانت مشتتة في الخارج، كانت المطبوعات التي يصدرها النظام تحمل الغث من المعلومات، فلم يبق إلا القليل مما يمكن الركون إليه: تجارب المعارضين الذين تعرضوا للاضطهاد في بلادهم، دراسات دولية تبدو مسوقة أكثر الأحيان بدوافع سياسية تتحدث عن هشاشة الوضع السوري عامة.

النعاس الذي يتسلل إلينا كمتابعين لبنانيين حين نسمع تقارير عن سورية منبعه كمّ من المعلومات المغلوطة والمشوهة والاشاعات التي سمعناها منذ بداية وعينا، ومنذ فرض النظام السوري نفسه على لبنان في حرب أهلية متعددة المحاور، فكان كل أخصام سورية وأعدائها يطلقون توقعات يبنونها على السطحي من المعلومات لخدمة دعايتهم السياسية المباشرة. وحين انفجر الوضع في سورية كانت صورة النظام السوري الذي يقوده الرئيس بشار الأسد بشناعة ذلك الذي قاده والده حافظ الأسد، إلا أن صورة الثورة والمعطيات الاقتصادية الاجتماعية بقيت ضبابية.

قليلة كانت الدراسات التي تفيد بحقائق الوضع الاقتصادي الاجتماعي السوري، على عكس الشهادات الشفهية والمكتوبة حول قدرات النظام القمعية، إلا أن شبكة العزل، أو بناء جدران قلعة الصمت الرسمية كان لا يزال يعطي مفعوله في الأسابيع الأولى من بداية الحراك السوري، بينما الحراك نفسه كان سقف طموحه هو «الحرية والإصلاحات»، متواضعاً دون طرح إسقاط النظام.

كان جهاز الدعاية الرسمي يتحدث في بيروت وعلى عدة مستويات عن أعمال إرهابية وتخريبية مبرمجة تجري في سورية، وقبل هبّة درعا، عن مجموعة لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة حاولت التظاهر في دمشق. وعلى مستوى آخر كان هذا الجهاز الذي يضم في من يضم صحافيين وأصحاب صحف ومواقع إخبارية ومراكز ابحاث، يتحدث عن ضرورة الإصلاح في سورية وعن النخبة الفاسدة المحيطة بمركز القرار، في محاولة صادقة (أوفي غاية الانتهازية لتحقيق مركز متقدم وحظوة لدى النظام) لوقف تدهور الأمور ومنعها من الانتقال من حركة احتجاج سلمية تطالب ببعض الإصلاحات إلى ثورة شاملة على غرار ما حصل في تونس ومصر وليبيا واليمن والبحرين وغيرها.

في تلك المرحلة كانت المخابرات السورية التي باتت في غاية الضعف، تدسّ رجالها بين المتظاهرين ليصرخوا «الشعب يريد إسقاط النظام» بينما يحاول المتظاهرون ضبط الشعارات بحدود الحرية والإصلاح. ويحاولون طرد هؤلاء المندسّين من بين صفوفهم، مما يثير الاضطراب ويؤدي إلى انفراط المظاهرات السريعة أصلاً والتي كان أغلبها مظاهرات خاطفة تلي صلاة الجمعة أو ما يعرف في لبنان بالمظاهرات الطيارة.

أتقن النظام السوري طرح الدعاية الأكثر جاذبية للغرب، متوهماً في مقابل الإعلام الثوري أن الغرب لن يبدي تعاطفه مع الثورة بصورتها السلفية الجهادية (أو الإرهابية) بحسب تعبير النظام السوري وأجهزة إعلامه، فراح يردد عبارة «مجموعات إرهابية مسلحة» ويضيف أحياناً اسم تنظيم القاعدة، مشيراً إلى ما يحصل في سورية ليس تكراراً لما حصل في مصر أو تونس أو ليبيا، وخصوصاً ليبيا، حيث صدر قرار دولي مرعب بالنسبة إلى النظام هناك بتدخل قوات حلف شمال الأطلسي لتوفير الحماية الجوية للثوار الليبيين[1].

انفجر الوضع في سورية، وبدأت بيروت تحتضن وجهتي النظر: مؤامرة ثورة، ثم تحرك الشارع في بيروت، مظاهرات مؤيدة للثورة، وأخرى مؤيدة للرئيس السوري. قبل أن يتم قمع مظاهرات التأييد للثورة بالقوة والعنف من الأطراف السياسية الموالية للنظام، تولى الحزب القومي السوري الاجتماعي لعب دور القوة الضاربة في قمع المظاهرات في لبنان بينما وقفت باقي الأطراف داعمة ضمناً ومساعدة على حشد العمال السوريين ولو بالقوة من أماكن عملهم للتجمع والتظاهر تأييداً للنظام السوري.

كل ذلك وسط أزمة جدية عصفت بجريدة الأخبار، حيث كنت اعمل، عنوانها الثورة السورية، حيث انقسم الفريق الرئيسي في الصحيفة بين مناصر للثورة وبين مؤيد للنظام، وظهرت الصحيفة كمنشور متعدد التوجهات، قبل أن يحسم أنصار النظام فيها تحت الضغط والحصار، الموقف وينهوا خدمات الأسماء التي سبق أن سرّبتها إحدى أعلى

---

(١) القرار ١٩٧٣ الصادر خلال تقدم قوات القذافي تجاه الشرق الليبي ووصوله إلى مشارف مدينة بنغازي في آذار من العام ٢٠١١.

المرجعيات في النظام السوري لمناصريها مطالبة بإخراجها من جسم الصحيفة في نهاية العام ٢٠١١[١].

خلال أشهر طويلة كنت أحاول الدخول إلى سورية، ولكن العمل في صحيفة «**الأخبار**» كان بحد ذاته تهمة، فهذه الصحيفة أيدت منذ انطلاقتها حزب الله بصفته القوة المقاومة لإسرائيل في لبنان، وهي انتقلت من صفوف الدفاع عن الشعب السوري في بدايات الحراك إلى الهجوم عليه وتأييد النظام بشكل مطلق خلال فترة وجيزة من بداية الثورة، ولم يعد يمكن تمييز موقف البعض فيها من المؤيدين للثورة، خصوصاً مع إغراق الصحيفة في إعلان تأييدها للمقاومة ولحزب الله في لبنان، مترافقاً مع بداية جلاء موقف الحزب الداعم بالمطلق للنظام، والمتجاهل لعمق الأزمة السورية التي أدّت إلى اشتعال الثورة، والذي يصر على أن «لا شيء يحصل في سورية سوى تآمر عربي دولي على نظام الممانعة».

في تلك المرحلة من العام ٢٠١١ فضلت العمل على ملف آخر مرتبطاً أيضاً بسورية ولكن من ناحية شرق البلاد: تنظيم القاعدة في العراق، وجذوره وبناه والأخطاء التي أدّت به إلى مصيره وتخلي الناس عنه وتراجع قوته ونفوذه.

وهرباً من موقف الصحيفة المؤيد للنظام، والتي كانت تصفي وجود المعارضين فيها، وتبعد من يؤيد الثورة، وبانتظار أن تحسم الصحيفة

---

(١) تحدث أحد القادة الامنيين الذين تم اغتيالهم لاحقاً إلى زملاء بأسماء عدد من الصحافيين في جريدة **الأخبار** طالب النظام السوري بإخراجهم من الجريدة كشرط لتحسين علاقة النظام بالجريدة والسماح لها بالعودة إلى التوزيع في سورية ودفع المستحقات المالية السابقة، ولاحقاً حوصرت كل الاسماء التي ذكرها المسؤول الأمني المقتول بالتضييق والإزعاج، وخرج جميعهم من الصحيفة.

موقفها من رئيس تحريرها الفعلي، ومدير تحريرها عملياً آنذاك (خالد)، وبانتظار ما سيقوم به خالد نفسه داخل الجريدة، ذهبت لاتفاق مع حزب الله يخفف من ضغطه على الصحيفة على أن يحصل الحزب على ملخص لما أقوم به من دراسة لتنظيم القاعدة في العراق. أبدى المسؤولون المعنيون في الحزب حماسة فائقة للعمل على ملف القاعدة في العراق، وقدموا تسهيلات عملانية نادراً ما يقدمونها، كصلة بأطراف عراقية متعاونة مع الحزب وأجهزته السرية، وملاذاً آمناً في بغداد، وغيرها من الخدمات التي تسرع وتسهل عمل الصحافي الباحث بانتظار تحويل العمل إلى خلاصات سياسية لدى الحزب.

أتى الإهتمام، بحسب ما علمت لاحقاً، من أعلى جهة في أجهزة أمن الحزب، أي بمن يلقب بـ«ذي الفقار»، ومن قادة ومعاونين له.

جلت في المحافظات العراقية، وخصوصاً في المحافظة الغربية المتاخمة للحدود السورية أي الأنبار، هناك حيث يكتشف المرء تداخل العشائر، ودور سورية في دعم تنظيم القاعدة والتسامح معه ما بين العامين ٢٠٠٣ و٢٠٠٧، قبل أن تتحول الصورة إلى نقيضها[١]، وفي كل المحافظات كانت شبكة تحالفات القاعدة والدعم بيّنة بالنسبة لمن شاركوا سابقاً في إدارة العمل القاعدي، ولمن تمكن من متابعة الحياة بعد خروجه من المعتقلات

---

(١) الاكتشاف الذي سيرتبط لدي لاحقاً بارتفاع وتيرة الحملات الأمنية التي شنها النظام في كل الأرياف والمدن الهامشية السورية انطلاقاً من العام ٢٠٠٧ وصولاً إلى بداية الثورة. بحثاً عن الأسلحة وعناصر السلفية الجهادية تنفيذاً لاتفاقات والتزامات عقدها مع الغرب ومع المملكة العربية السعودية تقضي بتجفيف كل مصادر القاعدة مالياً وبشرياً وتسليحياً، وتحيل القرار الفعلي في الشارع السني في العراق إلى الصحوات والعشائر.

الأميركية، كانت الشبكة تبدأ بالمملكة العربية السعودية أو جهات غير رسمية فيها، ولا تنتهي بسورية وإيران.

بعد حوالي الشهر من التجوال في العراق، عدت إلى بيروت ونشرت عدة حلقات حول تنظيم القاعدة في العراق، وأرسلت إلى الأمين العام لحزب الله ملخصاً حول التحقيقات التي أجريتها، والتي لم تستكمل لأسباب كثيرة، وفي ملخصاتي كانت إيران وسورية ودورهما حاضرتين في دعم تنظيم القاعدة العراقي وجناحه المتميز الممثل بأبو مصعب الزرقاوي أولاً ثم دولة العراق الإسلامية لاحقاً. بعدها بأسابيع قليلة أجرى الأمين العام للحزب مقابلة مع قناة المنار التابعة للحزب، ومن دون مناسبة واضحة[١]، عرض فيها كمّاً من المعطيات التي قدّمتها، مضيفاً إليها أمثلة توضيحية مده بها جهاز الرصد في الحزب، واللافت ليس فقط تجاهل دوري إيران وسورية في دعم تنظيم القاعدة في محطات عديدة، بل إعلان «ضلع ثالث لمثلث الأعداء» سماه «التكفيريين»، إضافة إلى الأميركيين والإسرائيليين، مفتتحاً مرحلة جديدة كلياً في تاريخ الحزب.

في ذلك الصيف من العام ٢٠١١ زرت أحد مراكز التدريب التابعة لحزب الله برفقة مجموعة من الصحافيين، قضينا نهارنا بضيافة ضباط الحزب العاملين على التدريب، خضنا جولات من الرماية بمختلف الأسلحة الخفيفة، وهناك كان المعسكر يغص بالمتدربين الشبان، حركة

(١) أجريت المقابلة ضمن برنامج «بين قوسين» على تلفزيون المنار وبثت يوم ٢٤ تشرين الأول من العام ٢٠١١.

http//:www.almanar.com.lb/programs/pdetails.php?did&205856=pid&3=eid&18056=wid786=

التدريب هذه غير اعتيادية، كان الضباط يخبروننا أن التدريبات هذه السنة استثنائية، وانه ربما كانت القيادة تتوقع حرباً ضد العدو الإسرائيلي. كان الشبان المتدربون الذين حرصنا على عدم كشف هويتنا أمامهم يقومون بدورة تدريبية لمدة شهر كامل بنهاراته ولياليه.

انقضى العام ٢٠١١ وأنا أحاول البحث عن مدخل إلى سورية مع احتساب حجم المخاطرة في الدخول إلى البلاد الثائرة من ناحية النظام أو التسلل إلى مناطق الثوار، فكلا الأمرين قاتلان في سورية في تلك المرحلة وفي ظروف صحافي يعمل في جريدة مؤيدة لحزب الله والنظام السوري، وموقفه المعارض للنظام السوري معلن وإن كان محايداً تجاه الثورة.

هكذا هربت مؤقتاً من الصراع الداخلي في الجريدة، واستفدت من وقتي في البحث ميدانياً عن تنظيم القاعدة في العراق، مستكشفاً المسار الذي سلكه طوال أعوام النزاع هناك، ووقائع الدعم السوري لتنظيم القاعدة، ثم للأميركيين في العراق، ولاحقاً التقاطع ما بين النظام السوري والمملكة العربية السعودية على تعيين أياد علاوي مقابل نوري المالكي وانفجار صراع بين إيران وسورية قبل تسويته بتعيين المالكي واستكمال استيعاب القاعدة وضرب سنة العراق.

وصلت إلى ساعة الحقيقة في مواجهة موقف الصحيفة التي ضيّق رئيس تحريرها الخنّاق حول مقالاتي إلى الحد الذي سمح لنفسه فيه بالنهاية باقتطاع أجزاء من مقالي وإعادة صياغته وتغيير العنوان ليلاً ومن دون العودة الي، في رسالة واضحة ومباشرة «إما أن تقبل وإما أن ترحل». فرحلت إلى سورية. ولم يبق في الصحيفة من المؤيدين للثورة السورية في النهاية أحد، أقصي الجميع تدريجاً.

الفصل الثاني

٢٠١٢

الطريق إلى حلب

بكل بساطة لم أصدّق التهديد، وكان لدي من الأسباب «العقلانية» ما يجعل عدم تصديقي معقولاً. غير أن أسبابي العقلانية لا تدل إلا على عدم استيعابي للعقلانية «غير المتوازية» للسلطة المطلقة والاعتباطية، أعني قدرتها دائماً على اختراق سقف العقل، على مفاجأتك بما لا يخطر لك ببال...
(ياسين الحاج صالح «بالخلاص يا شباب!»).

انفتحت بوابة الحدود اللبنانية - السورية لنطل على مشهد حرب بامتياز، حاجز على مبعدة مئات الأمتار، أرض مليئة بقطع من الإسمنت والأحجار المتناثرة، غبار في كل مكان، وجنود يبدو أنهم من الجيش النظامي أو من المخابرات السورية أو المتطوعين، لكن لا شيء يشي بنظاميتهم، وطريق وُضعت حواجز أرضية ومرتفعات رملية لتحويلها إلى ممر ملتوٍ يلزم السيارة بتخفيف سرعتها حين الاقتراب والسير بين الكتل الإسمنتية

والكثبان الرملية المنخفضة، ودبابة من طراز «تي ٥٥» محترقة في منتصف الشارع، لم تجد من يرفعها من مكانها. كان ذلك صباح الثاني من حزيران العام ٢٠١٢. لكن ما الذي أوصلني إلى هنا؟

كانت نهاية العمل مع صحيفة «**الأخبار**» التي تحولت حدّ الالتصاق بالنظام السوري. هي بداية حياة جديدة صحافياً ومهنياً. انتهيت من الكتابة فيها يوم ١٦ أيار من العام ٢٠١٢، لم تكن الأمور على خير، وإن كنت من أواخر الراحلين عن الصحيفة، وقد سبقني جميع المعارضين للنظام السوري تقريباً، حيث دُفعنا للمغادرة دفعاً، مع انعدام أي تنسيق في ما بيننا، ما عدا الشعور المشترك في مصيبة فقدان صحيفة شاركنا جميعاً في تأسيسها.

اتصل بي زميلي السابق خالد، بعد ثلاثة أشهر من تركه «**الأخبار**» والتحاقه بتلفزيون «المؤسسة اللبنانية للإرسال» كان ذلك في ٢٥/ ٥/ ٢٠١٢. سألني خالد عن مدى استعدادي لمغامرات مجنونة كالتي كنت أقترحها وأقوم بها سابقاً، رحّبت بحرارة. في غضون ساعة كنا في اجتماع مع بيار الضاهر رئيس مجلس إدارة المؤسسة، نتفق على الملف: المخطوفون اللبنانيون في سورية، ١١ مخطوفاً تم أسرهم خلال عودتهم من زيارة المقامات المقدسة الشيعية، واختفوا على الطريق ما بين معبر باب السلامة الحدودي التابع للنظام السوري، ومدينة أعزاز التي تدور فيها معارك بين الثوار والنظام.

«ما الذي تريده منهم أو عنهم بالضبط؟» أسأل بيار فيجيب: كل ما يمكن، أو أي شيء ممكن، ويسأل خالد:«ماذا لو أفرج عنهم خلال هذه الأيام التحضيرية؟» فنجيب بيار وأنا في اللحظة نفسها: «تلك قصة إضافية».

يتولى هنا خالد الجانب المهني، أنجز الاتفاق خلال أقل من نصف ساعة، الآن إلى العمل.

لارا في «المؤسسة اللبنانية للإرسال» ستتولى جانب إدارة العمليات، وللحقيقة لن يكون لدى المؤسسة كثير من الإمكانات العملية للدعم، لم تعتد المؤسسة على عمليات مهنية مشابهة، وسيكون الأمر منوطاً بي، وتحاول لارا المساعدة بقدر ما تسمح الإمكانات وانخراطها في العمل.

غادرت المؤسسة اللبنانية للارسال في أدما[١] متجهاً للقاء صديق في مدينة جبيل، وحين تركت صديقي بعد حوالي ساعتين من انتهاء لقائي ببيار الضاهر، هاتفني أحد ضباط الأمن في حزب الله[٢] ليبارك لي العمل مع «المؤسسة اللبنانية للإرسال»، متمنيا لي التوفيق في مهمتي. هكذا دون سابق إنذار ودون حتى أن أتحدث مع أي كان هاتفياً أو شخصياً عن اتفاقي مع المؤسسة.

في البداية يتعثر إيجاد زميل مصوّر، وحين نستقر على أحدهم سيغير الواقع الميداني قراري باستخدام مصوّر.

قبل يوم واحد من مغادرتي لبنان، تناولت طعام الغداء مع زميل لبناني كان يعمل في تلفزيون فرنسي، هو الآخر كان ممن خبروا الثورة الليبية، ولكن في العمل التلفزيوني، وسبق لهذا الزميل والصديق أن علم بمدى

---

(١) شمال مدينة جونيَة السياحية اللبنانية.

(٢) هو ضابط ارتباط عمل معي لفترة طويلة من قبل قيادة حزب الله، وكان يزودني بالمعلومات في معظم الاحيان.

رغبتي في التعرف على الثورة السورية. خلال تناول الغداء يضع أمامي علبة مستطيلة فيها قلم «خذه معك، على سبيل الاحتياط فقط»، ثم قدم لي شرحاً مختصراً: «ليس هذا القلم بالكاميرا الرائعة، ولكنه يلتقط الصور بجودة لا تقل عن تلك التي يرسلها الثوار السوريون على شبكة الإنترنت، لن تخسر شيئاً، احتفظ بالقلم وصوّر به حيث لا تتمكن من استخدام الكاميرا».

ملفّ المخطوفين اللبنانيين لا يزال ساخناً، بل أكثر من ساخن، هؤلاء أوقفوا يوم ٢٢ أيار من العام ٢٠١٢ على الطريق الواصل ما بين معبر باب السلامة الحدودي ومكان ما في محيط أعزاز المدينة الشمالية الصغيرة، وأنزل من الباصين ركابُهما من الزوار الشيعة، احتفظت الجهة الخاطفة بـ١١ من الرجال بينما أخلي سبيل النساء وأُفرج عن الباصين.

قبل الدخول الأول إلى سورية والذي كان دخولاً شرعياً، كان القلق يسيطر على ليلي ونهاري: صعوبة إيجاد مصور محترف مرافق، مَطالب المصوّرين المتعددة، إمكانية إدخال أجهزة التصوير شبه معدومة، الطرق الخطرة، الوصول إلى محافظة حلب، الاتصال بمن يستقبلك هناك، وفوق كل ذلك أخبار الاعتقالات والتعذيب التي يمارسها طرفا المعارضة والنظام في سورية، ومقتل عدد الصحافيين، واعتبار سورية أخطر النقاط على الأرض للصحافيين العاملين على تغطية الأحداث[1]، العمل بسرية تامة في بيروت

---

(١) حتى شهر نيسان ٢٠١٢ كان قد قتل في سورية ما لا يقل عن ٣٠ صحافياً ميدانياً أجنبياً، إضافة إلى عدد من الصحافيين المحليين العاملين إلى جانب الثورة. (موقع لجنة حماية الصحافيين يشير إلى مقتل ٢٨ في العام ٢٠١٢ وحده إضافة إلى صحافي لبناني قتل عبر اطلاق النار عليه من الجانب السوري وهو في الاراضي اللبنانية). وبحسب=

التي تحولت مركز رصد لكل من تسول له نفسه الذهاب إلى سورية، ورغم ذلك توفير موطئ قدم في سورية في أقرب نقطة من موقع اختفاء الزوار الشيعة، حتى نتمكن من تقفّي أثرهم.

إلا أن أقسى ما يرافق ليالي الصحافي العازم على الذهاب إلى سورية هو ذكرى كتابات أناس مثل فرج بيرقدار ومصطفى خليفة وياسين الحاج صالح، وغيرهم كثر من الذين سجلوا تجاربهم في السجون السورية، وأيام التعذيب الوحشي التي تعرضوا لها، كما تعرض لها عشرات الآلاف من السوريين، وكل الذكريات التي تجمعت في البال منذ أيام وجود الجيش السوري في لبنان، وعذابات اللبنانيين الذين قضوا أسابيع وأشهراً وأعواماً في السجون السورية، أضف إليها عدد اللبنانيين الذين حاولوا العبور إلى سورية سراً وعلانية وفشلوا من أول الطريق، أو اعتقلوا في منتصفها واختفت آثارهم.

يسّر لي زميل صحافي أمر الدخول، كانت روحه المعنوية العالية، وإجابته الدائمة بـ «أي» (نعم) حول كل ما أسأله كافية وحدها لكسر حاجز رهبة أقمته حول الدخول إلى سورية، دون أن أعلم يقيناً إن كان اسمي موجوداً ضمن جداول المطلوبين أو الممنوعين من الدخول على الحدود السورية أم لا، زميلي الصحافي يتحدث مع أصدقاء في حلب، يقطنون منطقة خان العسل، سبق أن التقيت بهم في بيروت مرة واحدة عرضاً، ولطالما اعتبروني

= «مراسلون بلا حدود» فإن العام ٢٠١١ شهد مقتل ٧ صحافيين في سورية بينما شهد العام ٢٠١٢ مقتل ١٨، فيما قتل ٤٦ غيرهم من المواطنين الإعلاميين ومن مخرجي الأفلام والمصورين والكتّاب الأحرار أو المدونين. وفي آخر الإحصاءات سجل مقتل ١٣٨ صحافياً في سورية منذ بداية الثورة وحتى الشهر الثاني من العام ٢٠١٣.

من «الشبيحة» بحكم عملي في جريدة «**الأخبار**»، وافقت العائلة على استضافتي، رغم ما في ذلك من مخاطر[١].

طلبتُ من لارا تأمين حجز لي في أحد فنادق حلب، ومضيت فجر يوم الثاني من حزيران إلى مصيري، ليس من دون ليلة أرق، تذكرت فيها كل اللبنانيين الذين أعرفهم وأمضوا فترات في الاعتقال لدى النظام السوري، وفكرت بكل الذين اغادرهم من الأحبة، كانت تلك أصعب الرحلات، أصعب من دخول بغداد في النصف الأول من العام ٢٠٠٧، وأصعب من التسلل إلى ليبيا عبر مصر، وحتما أصعب من تغطية الحروب الإسرائيلية على لبنان. كان الاحتكاك السابق بالجيش السوري ومخابراته في لبنان كافياً لإحداث أثر نفسي ضاغط، لم تزله أكواب القهوة وتدخين السجائر فجراً.

صباحاً يضج معبر جوسة في شمال شرق لبنان بمئات من السوريين الهاربين بالاتجاهين، هناك من هو هارب من سورية، من المعارك اليومية، ومن هو هارب من لبنان وعائد إلى بلاده بعد أن تمادت موجة العنصرية والمذهبية اللبنانية المغطاة بستار ردة الفعل على اختطاف ١١ من الزوار اللبنانيين قبل عشرة أيام، ولكن على كل القوافل التوقف والانتظار، وترك الأثاث المنزلي

(١) علمت «مراسلون بلا حدود» بحالات العشرات من السوريين الذين اعتقلوا وتعرضوا للتعذيب بعد أن أدلوا بشهاداتهم أمام وسائل إعلام أجنبية حول القمع في بلدهم. وألقي القبض على آخرين لتعاونهم مع صحافيين. وشنّت الأجهزة الأمنية السورية حملة مطاردة حقيقية ضد كل من كانوا يساعدون أو يتواصلون مع المراسلين الأجانب. ودعت المنظمة أسر التحرير والصحافيين إلى توخي الحذر الشديد في اتصالاتهم مع السوريين.
http://en.rsf.org/IMG/pdf/syrie___ar___pdf2-.pdf

البسيط الذي حملوه على أسطح الشاحنات والباصات مكانه بانتظار أن يجد موظفو الأمن العام السوري (دائرة الجوازات) حلاً لمشكلة انقطاع التيار الكهربائي وتوقف أجهزة الكومبيوتر عن العمل.

السوريون المغادرون للأراضي اللبنانية حملوا متاعهم، تماماً كأولئك الآتين إلى لبنان، لاجئون بلاجئين، من هرب من سورية مفضّلاً النزوح على أصوات القصف وأصداء الموت التقى في المعبر بمن هرب بعد أن عمّت المظاهرات لبنان إثر اختطاف الزوار الـ(١١)، وبعد أن تعرض المئات من العمال واللاجئين السوريين إلى الضرب والإهانة في الشوارع في بعض مناطق بيروت والضاحية وغيرها، وبعد أن طعن ما يقارب العشرين سورياً على الأقل بآلات حادة.

وكان أحد المعنيين قد أخبرني في بيروت قبل أيام أن المصابين تجاوز عددهم السبعين بين من تعرض منهم للطعن أو الضرب المبرح، وأن السفير السوري في لبنان علي عبد الكريم علي أبلغ سراً الجهات اللبنانية المعنية بأنه لم يعد ممكنا السكوت عن التعرض للرعايا السوريين، ورغم مساعي حسن نصرالله وخطابه المباشر على الفور يوم ٢٣ أيار[١] أي بعد أقل من

(١) عصر يوم ٢٣ أيار ٢٠١٢ خرج الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله عن صمته عبر رسالة صوتية بثتها المحطات الإخبارية التابعة للحزب، ونقلتها عنها الأقنية اللبنانية العاملة ليؤكد مباشرة على الملأ: أن «حزب الله وحركة أمل يتابعون قضية المختطفين في سورية بشكل حثيث».
وقال السيد نصر الله في مداخلته العاجلة: «إن كلامي الآن باسمي وباسم رئيس مجلس النواب نبيه بري وقيادتي حزب الله وحركة أمل. العملية مدانة بكل المعايير وأنا ودولة الرئيس بري والقيادتان نتعاطى مع الموضوع بمسؤولية كبيرة جداً ونعمل على الملف بشكل حثيث جداً وهذا نعتبره مسؤوليتنا كما لو كان اخوتنا وأولادنا مخطوفين».=

أربع وعشرين ساعة على انتشار أنباء عملية الخطف، إلا أن ردات الفعل في بعض المناطق اللبنانية لم تتوقف لعدة أيام، وإن كانت قد خفّت حدّتها، إذ توقفت عمليات حرق الإطارات وإغلاق الطرق العامة واختطاف مواطنين سوريين وضربهم وطعنهم ليحل بعدها انتظار ثقيل مع بعض عمليات الانتقام المحدودة التي لم تصدر عن عائلات المخطوفين أو من يمت لهم بصلة مباشرة، بل من جمهور غاضب وخائف مما يحصل في سورية.

في صباح الثاني من حزيران معبر جوسة من الناحية السورية يعج بالعابرين، المنتظرين رحمة الله وعودة التيار الكهربائي، للتدقيق في جوازاتهم وبطاقاتهم قبل السماح لهم بالعودة إلى بلادهم أو الدخول نحو لبنان، الأمن العام

= وأضاف «الحكومة يجب أن تتحمل مسؤوليتها في هذا الموضوع وأنا والرئيس بري اتصلنا برئيس الوزراء نجيب ميقاتي ونحن قمنا باتصالات أخرى على خطوط أخرى».
وتابع «لذلك أتمنى على كل أهالي الضاحية والمنطقة والبقاع وكل المناطق شبابنا وشباب أمل والعائلات كلنا يجب أن نتعاون.. لا نريد قطع طرقات لأنه لا يفيد لأن من يقوم بذلك على من يريد أن يضغط؟ إذا كان يريد أن يضغط على القيادات السياسية والحكومة اللبنانية لتحمّل المسؤولية فنحن كلنا متحملون للمسؤولية من اللحظة الأولى ومعتبرون هذا الموضوع بالنسبة لنا أولوية مطلقة».
وأشار نصر الله إلى أن «قطع الطرقات يلحق الأذى بالناس ويعطل حياة الناس، وفي الأجواء المحتقنة يمكن أن ياخذ إلى مكان آخر». وأكد أن تهديد البعض بخطف رعايا سوريين «ممنوع وحرام من الناحية الأخلاقية والشرعية والوطنية، والرعايا السوريون إخواننا وأهلنا ولا يجوز أن يتصرف أحد من تلقاء نفسه بتصرف خاطئ من هذا النوع».
وأعلن أن «الاتصالات بدأت مع السلطة في سورية ومع بعض الدول الإقليمية المؤثرة من اللحظات الأولى. هناك دول وقوى إقليمية مؤثرة في هذا النوع من الملفات. نحن لم نعدم أي وسيلة. أولادكم وشبابكم وأهلكم أمانة في أعناقنا وتعرفون كيف نتحمل المسؤولية».
وأكد نصر الله أن «المسؤولية مسؤولية الدولة والكل مدعو إلى انضباط كامل وحقيقي وسنعمل في الليل والنهار حتى يكون الأحبة في ما بيننا».

اللبناني في الناحية المقابلة من المعبر من جهة الهرمل - مشاريع القاع لم يأخذ أكثر من دقائق لملء استمارتي واستمارات كل العابرين معي في سيارة الأجرة، ولكن معبر جوسة أمر آخر.

ساعة انتظار ومحاولات دائمة من الموظفين لتشغيل أجهزتهم على بطاريات الشاحنات، ثم المزيد من الانتظار، ركاب سيارة الأجرة -رفاق سفري -لم يتحدثوا بعضهم مع بعض، وحده السائق كان يحدثنا لماماً، «منذ أيام كانت الطريق مغلقة بالكامل، أمس الأول أعادوا افتتاحها»، لا يسمع سوى همهمات، يضيف «من هنا الطريق أفضل نحو حلب، سابقاً اضطررنا إلى المرور من الشام ثم انعطفنا نحو حلب»، يبدي أحد الركاب استغرابه، «سلكتم هذه الطريق الطويلة؟»، «نعم» يجيب السائق ثم يعود الصمت إلى السيارة.

الازدحام على المعبر يزداد مع مجيء أعداد إضافية من اللاجئين. وحين تنظر حولك تشاهد حركة ناشطة لا يبدو معها أن ما قاله السائق يحمل أية صدقية، لا دمار حولك في المعبر، ولا آثار اشتباكات، بعض العناصر الأمنية يسيرون بثياب مدنية حاملين بنادقهم من مخازنها بإهمال جرياً على عادة الجنود السوريين، وفوق أحد المباني الصغيرة الملحقة رُفعَت لافتة بلاستيكية «مركز الرئيس الأسد البيطري» ووسط العبارة صورة للرئيس السوري الشاب.

سبق أن تعطل مولّد الكهرباء كما يروي لنا أحد المبكرين في الانتظار على المعبر، وتعطلت أيضاً البطاريات الاحتياطية، ولكن بعد ساعة وبضع الساعة يتمكن العاملون في دائرة الجوازات من تشغيل الأجهزة على

بطاريات الشاحنات، ويستدعيني ضابط الجوازات للتدقيق في أسباب الزيارة ومكان الإقامة في حلب، أخبره بأنني تاجر أخشاب وأنني مقيم في فندق فخم في حلب (أرسلتُ اسم الفندق والحجز ذلك الصباح لارا عبر رسالة نصية). يقلب ضابط الجوازات شفتيه غير راض ويضرب الورقة البيضاء بختم العبور إلى سورية.

تمر أمامنا سيارات، تُفتش كما هي العادة، يخرج السائق ويفتح الصندوق، يبحث عنصر الجمارك في حمولة الصندوق، في هذه الأثناء يضع السائق في يده ورقة نقدية بخفة لا تصدق، ثم يغلق العنصر الصندوق لتتقدم السيارة التالية، مررنا ثم أوقفنا على المخرج الأخير من الحدود للتدقيق في سمات العبور والبطاقات عند آخر جهاز أمني هذه المرة، وأمامنا كانت البوابة الحديدية الكبيرة مقفلة فلا نرى إلى أين تؤدي الطريق من هنا.

يفتح الحاجز الحديدي الأسود حيث تذهل بالمشهد المفتوح أمامك، ركام على جانبي الطريق، أكوام من التراب، آثار جنازير الدبابات على ما يظهر من الإسفلت، وعلى مسافة قريبة جداً تبدو الطريق مقطوعة بسواتر رملية، ومع اقترابنا يظهر حاجز عسكري أقيم على أول بناء بعد المعبر الحدودي، على مسافة ١٦٠ متراً تماماً[١] من بوابة المعبر السوداء، جنود متعبون، ولباسهم غير نظامي، بعضهم لم يحلق ذقنه، عدائيون وساخرون، ينظرون شذراً إلى الركاب، توقفنا عند الحاجز الأول المقام بين ساترين رمليين يمنعان السيارات من العبور السريع ويجبرانها على الانعطاف بحدة للمرور بينهما.

---

(١) بحسب المسافات على خرائط Google earth.

هنا وعلى عكس الأمن العام، لم يدفع السائق أية رشى، فتّش عنصران من الحاجز في حقائبنا، انطلقنا مجدداً، كل شيء يوحي بأن الحرب قد توقفت الآن فقط، مشهد الطريق المليء بالغبار الرمادي، والركام وظروف الطلقات الفارغة المرمية بكثافة على الأرض، كأن الآن فقط توقف الرصاص، وهبط غبار القذائف والمنازل المدمرة على الأرض فقط قبل ثوان من عبورنا، والسيارات التي سبقتنا كنست ممرات لدواليبها لا أكثر.

بعد ٣٥٠ متراً بالضبط يوقفنا الحاجز الثاني، وعند العثور على الكمبيوتر المحمول في حقيبتي انفتحت أبواب جهنم، الكثير من الكلام والتدقيق والأسئلة، ومحاولات لتفتيش الجهاز وإدارته، وتقليبه، وأسئلة لا تنتهي عن سبب وجود الجهاز في الحقيبة، والإتيان به إلى سورية، ثم سؤالي «ألا تعلم بأنه ممنوع إدخال الحواسيب؟» لا لم أكن أعلم، ويقول الضابط للعنصر الذي يبحث في جهازي بعدما اداره «اكسره على رأسه وليرحل» ثم يحاول الاحتفاظ بالكمبيوتر على أن استعيده في طريق الإياب، أرفض، ونبقى أكثر من نصف ساعة بين أخذ وردّ، عندها جفّ حلقي من الخوف، خصوصاً أن في حقيبتي كاميرا الفيديو المخفية في القلم، وهي تشير إلى هويتي الصحافية وعلى عكس ما أعلنت أمام العناصر من أنني مجرد تاجر أخشاب. وحين يوافق الضابط على تركنا نمر بسلام، يتقدم عنصر آخر من الحاجز ويبدأ بالبحث في حقيبتي من البداية وكأنني الآن فقط توقفت على الحاجز، أحاول الاعتراض بالقول لقد فتشوا كل شيء، فلا يجيب الشاب بل يتابع تفتيش حقيبتي بهدوء وصمت.

يتركنا الحاجز لنمر بعد طول تدقيق، وهو المشهد الذي سيتكرر بعنف أكثر مع كل حاجز نعبره. السائق يتطوع بعد عبور الحاجز الثاني للحديث

ولعب دور الدليل، «لا تخف ولا تهتم فقط أجبهم على أسئلتهم»، ثم يتابع الكلام: «منذ أيام كانت الطريق تحت سيطرة المعارضة»، ويشير بيده إلى دبابة أخرى محترقة تكاد تقطع الطريق، قبل أن يتوقف على حاجز آخر هو الثالث على مسافة ٤٠٠ متر، ويمكن مشاهدته من الحاجز السابق، هذه المرة العناصر أشد إهمالاً لمظهرهم، من الذقون غير الحليقة إلى اللباس شبه المدني المتسخ، ومرة أخرى يجري التدقيق في جهاز الكومبيوتر، والعناصر يجلسون على مقاعد خشبية يبدو أنهم استعاروا كل مقعد من منزل مهدم مختلف، وفي حين فتحت الحقيبة كنت أفكر بما عساه أصاب الدبابة التي خلّفناها وراءنا، فلا يمكن لقذيفة RPG أن تؤدي إلى انفلاق الدبابة وسقوط البرج مع أعلى الجسم على جانب الطريق بينما بقي متن الدبابة من طراز T 55 في منتصف الطريق، فإما أن تكون تعرضت لصاروخ مالوتكا، أو قذيفة SPG9 أو B 10، أو لعبوة مزروعة على جانب الطريق. ولكن لم ألاحظ حينها آثاراً للعبوة، فلا حفرة كبيرة، إلا إذا تم تغطيتها بالرمل، وعندها لن نتمكن من ملاحظتها بسهولة في ظل فوضى الرمال والدمار على الطريق.

يتوقف السائق عند محطة الوقود الأولى بعد الحدود، يدوي صوت مدفعية ميدان وهي تطلق قذائفها: قذيفة تليها أخرى، ثم أخرى، على الأقل ثلاثة مدافع من عيار١٢٢ و١٣٠ ملم بأصواتها المميزة تعمل بشكل متصل، «لا تخافوا إنها تضرب باب عمرو» يقول السائق الذي يدفع لعامل المحطة نقوده.

يرافقنا صوت انطلاق القذائف طوال الطريق إلى حمص، يمزح السائق بأنها مدفعية ترحيب، الركاب أكثر توتراً من أن يجيبوا، وطوال الطريق توقفنا

الحواجز، حتى حين لا نتوقف فإن نقاطاً عسكرية تراقبنا، حيث أقيمت دشم ترابية نصفها أسفل الطرق والنصف الآخر يطل على الإسفلت، ويخرج من فتحاتها رشاشات BKC موجهة نحو السيارات القليلة التي تعبر الطريق نحو حمص.

على هذه الطريق يتكرر مشهد الدبابات المنفلقة أكثر من مرة، يمكن عد أربع دبابات منفجرة كلياً، لاحقاً ومن التجربة في المعارك، سأتأكد من أن انفجار ذخيرة الدبابة على دفعات في داخلها لا يؤدي إلى انفلاقها إلى شقين، أعلى وأسفل، وعلى جانب الطريق هنا وهناك يمكن مشاهدة جنازير دبابات يبدو أن الجيش السوري تمكن من سحبها بعيد تدميرها، اذ يبدو واضحاً على الجنازير آثار الحرائق والتقطع، أي انها ليست عملية تغيير لجنزير انقطع من إحدى حلقاته بل جنازير تعطلت من أكثر من نقطة.

لا بد أن معركة طاحنة جرت في القصير حتى تم تدمير كل هذه الدبابات وسقطت المنطقة بيد الثوار قبل أن يستعيد الجيش النظامي الطرق الرئيسية ومحيطها - دون القرى - ويقيم نقاطه العسكرية على الطريق العام مدققاً ومشدداً على السابلة.

وعند مستديرة حمص نشاهد للمرة الأولى جنوداً اقرب إلى الجيش النظامي، ضابطهم يرتدي سترة واقية من الرصاص، إلا أنه لا يضع أية إشارة لرتبته العسكرية، ويتحدث مع السائق، أصوات المدفعية تصلنا الآن بشكل واضح، لا وبل نسمع هدير القذائف تمر من فوقنا متجهة إلى باب عمرو، والمواقع النظامية تتوسع على أطراف الطريق الدولية، أليات عديدة تنتشر في المكان تحت الطريق الدائري، جنود يتحركون هنا وهناك، والعديد من

الجنود على الحاجز يقتربون من السيارة وينظرون بداخلها في وجوهنا، يقترب السائق من شباك سيارته ويطلب منا بضع علب دخان، وحين يجلس خلف مقوده يقول «مساكين، لا يعطونهم ما يأكلونه أو يدخنونه، قال الضابط إنه ومنذ أيام لا يحصل على دخان، وهو يخجل من طلب الدخان من الركاب مباشرة».

بعدها بأمتار قليلة يشير السائق إلى منطقة ترتفع منها كل حين أعمدة دخان انفجارات قذائف الميدان، «باب عمرو» يقول السائق بحيادية. كانت الأحياء التابعة لمدينة حمص تدك بالمدفعية الثقيلة، مدفعية الميدان من عياري ١٢٢ و١٣٠ ملم. ويرتفع منها دخان القذائف المنفجرة في كل حين. المشهد نفسه الذي نراه من الداخل على موقع يوتيوب، الآن يظهر أمامنا بالعين المجردة، رحت أحاول احتساب المسافة الفاصلة بين السيارة وموقع سقوط القذائف، إلا أنني لم أوفق، الآن وعلى (Googl Earth) يمكن قياس المسافة البالغة ٣ كيلومترات عن قلب باب عمرو، ومئات الأمتار عن بساتينها.

حين نمر أمام مدينة دُمرت واجهتها، يشير لي السائق «هذه الرستن»، الواجهة تعرضت لمئات القذائف المباشرة من مدفعية الدبابات ومن أسلحة رشاشة ثقيلة، ويشير الدمار إلى أن معارك قد جرت هنا، إلا أنني سأشهد لاحقاً على استخدام الجيش السوري لغزارة نيران قبيل اقتحامه للمناطق، بما يفوق الحاجة بأضعاف.

الطريق المتبقية ما بين حمص وحلب تبدو أكثر طبيعية، إلا أنها لا تخلو من دبابة محترقة هنا، وقاطرة دبابات منقلبة على جنبها هناك، وطوال الوقت

يعطي السائق إشارات بسيطة عن المناطق التي نمر بها، وفي الاستراحة حيث نتوقف، الكل يتصرف بشكل طبيعي، وإن كانت الرفوف في الاستراحة خالية من صدور الحلويات التي كانت تتكدس هنا، حسب ما يقول سائقي ومرشدي، وحدها الخدمات السريعة متوافرة، أصناف من السندويشات والشاي والقهوة طبعاً، والمياه، إلا أنك لن تسمع كلمة واحدة حول الحرب الدائرة.

وبين الفينة والأخرى تظهر بضعة مبانٍ على جانب الطريق مهدمة وقد نخرها الرصاص أو قضت عليها المدفعية. هي الحرب تجر نفسها على الطريق الممتد من جوسة نحو حلب لمسافة ٢٣٠ كيلومتراً إضافة إلى بعض الالتفافات التي نفذها السائق حتى يتحاشى المناطق الساخنة أو التي لا يعلم تحديداً ما هو مصيرها في تلك اللحظة.

حلب تتصنع الحياة

قبل مئات الأمتار من الوصول إلى الحاجز الأمني جنوب مدينة حلب يطلب أحد الركاب في سيارة التاكسي النزول جانباً، ينزل على مفترق فرعي ويختفي مع أغراضه بينما تتابع سيارة التاكسي طريقها نحو الحاجز. هنا صف الانتظار طويل، سيارات تخضع للتفتيش الدقيق، وأخرى تعبر دون فتح صناديقها، تمر سيارات مسرعة، تؤمن الطريق لوفد من المراقبين الدوليين، المرتدين لخوذات زرقاء والجالسين في سيارات الدفع الرباعي البيضاء المدموغة بحرفي UN، السيارة الأخيرة في الموكب تطلب من الحاجز وقف سيارة مدنية تتبعهم، يقف جندي أمام السيارة المدنية التي تتبع الوفد ويشهر سلاحه بمواجهتها تماماً مستعداً لإطلاق النار.

تمر الحادثة دون دماء، ويصل دورنا للتفتيش، يوقفنا أحد الجنود، إلى جانب الحاجز مبنى غير منجز، وبين جدرانه دبابتان متوقفتان، وعلى جانب الحاجز

متراس من أكياس الرمل وقف خلفه جندي وراء مربض عليه رشاش BKC.

ما إن نتوقف حتى يطلب الجندي منا الترجل وفتح حقائبنا، ويبدأ بحثه في متاعنا كما كل الحواجز الكثيرة التي مررنا عليها.

الجندي الشاب الذي يقف على الحاجز والذي يبحث في كل الحقائب يسأل السائق: عن أي طريق اتيتم من لبنان؟ فيجيبه عن طريق القصير -الرستن. «القصير؟» يسأل الشاب بابتسامة، «أنا من القصير، كيف الأوضاع هناك؟» «عادية، كل شيء بخير» يجيب السائق حول المنطقة التي شاهدنا على طريقها العام دبابات T 55 مدمرة تدميراً كاملاً قرب حواجز القوات النظامية والأمن، وحيث نمت أذقان المقاتلين والضباط والعناصر المتطوعين، وكفّوا عن ارتداء الزي النظامي وشارات الرتب، وباتوا يحملون أسلحتهم كل الوقت مثل جنود في درجة استنفار رقم صفر جاهزين لإطلاق النار في أية لحظة.

«عادية، كل شيء بخير» يقول السائق، فيخبره الجندي القصيري «منذ تسعة أشهر لم أحصل على إجازة لأزور أهلي في القصير». واضح أن العابرين من على الطريق الدولي سبق أن أجابوا الجندي عن أسئلته الإجابة نفسها، هذه سورية تحت سطوة النظام «كل شيء عادي وبخير».

حلب في منتصف النهار: ازدحام وكثرة بائعين، ومتجولين، سيارات كثيرة تجوب الشوارع، المناطق الفقيرة حية، وتنبض، الخضرة على أطراف الشوارع والأزقة، بيع وشراء للمواد الغذائية، كل شيء بخير، لقد صدق الذين يخبرونك بأن المدينة تعيش حالة طبيعية، إلى الآن بعض من رجال

الأمن بثياب مدنية في الشوارع، والكثير من رجال الشرطة بدراجاتهم النارية أو سياراتهم، هؤلاء لا يشيرون إلى حالة غير طبيعية، بل على العكس، وجودهم دليل انتظام الأمور وسير الحياة بشكل طبيعي. لكن الصورة لن تكتمل في الدقائق الأولى لدخول الشهباء.

قرب محطة التاكسيات يصرّ سائقي على تركي في مكان آمن بانتظار مضيفي، يحاول الاطمئنان إلى أنني بخير، وأنني لن أضلّ طريقي، لا يصرّ، يساعدني في تعبئة رصيد هاتفي السوري مخافة أن أتعرض للخداع، ثم يوصلني إلى مطعم فلافل شعبي يقدم القهوة أيضاً والشاي، وعلى الطاولات تراكمت الأوساخ وبقع القهوة وبقايا الفلافل، يجهد صبي بائع القهوة في تنظيف طاولة، إلا أنها تحافظ على سوادها وتزداد اتساخاً من الممسحة القماشية القذرة. سائقي لا يعرف عن هويتي إلا بضعة أكاذيب أطلقتها على الحواجز النظامية لأسهل عبوري إلى الشهباء، وأي خطأ هنا يعني الموت المباشر، ومن المعلومات التي جمعتها قبل الانطلاق كان يمكن القول بأن لكل حاجز أمني سلطة حكم ذاتي، يمكنه أن يتحول إلى محكمة ميدانية تقرر خلال ثوان وتنفذ حكمها، والحكم إما إعدام وإما تسهيل مرور، وإن أي خطأ أو معلومة تفيد بأن العابر هو صحافي يعني الموت المباشر، ولاحقاً يمكن إلصاق التهمة بالطرف الآخر.

إلا أن السائق الذي لاحظ ولا شك أنني تاجر بقدر ما هو متموّل يحاول مساعدتي من دون إحراجي، «قليلون هم التجار الذين يسيرون في حلب وحقائبهم على ظهورهم، الأفضل أن تنتظر أصدقاءك هنا» يقول وهو يمنعني من دفع ثمن فنجان القهوة. ويخبرني عن حياته وعمله وعيشه في

بيروت، واضطراره للعمل في هذه الظروف الصعبة، مجرد ذكر الظروف الصعبة يدفع السائق إلى خفض صوته، ثم يترك المطعم -المقهى الشعبي في وسط سوق الخضرة ويعود إلى سيارته في الموقف.

أرغب بشدة باعتبار ما قام به السائق مجرد كرم أخلاق، إلا أن الرعب ينتابني من أن صاحبي السائق متعاون مع المخابرات السورية. وعلى الرغم مما في هذه الفكرة من لامعقولية، حيث كان بإمكانه بسهولة تسليمي عند أي حاجز على الطريق، إلا أنني أترك المقهى وأسير، وحقيبتي على ظهري، نحو مكان اللقاء بأصدقاء من حلب سيستضيفونني ريثما أجد طريقي نحو مناطق الجيش الحر، وأتابع السير حيث تنتشر بسطات الخضرة والمحال التجارية الفقيرة يكثر الباعة، والعابرون، لكن عمليات الشراء نادرة، الصورة أوضح الآن مع السير على الأقدام والتلكوء أمام المحال التجارية، الباعة يقفون أمام محالهم أو داخلها ولا عمليات بيع، وأصحاب البسطات التي تبيع الخضرة والأدوات الكهربائية البسيطة والاختراعات الكمالية الصينية، ولعب الأطفال الرخيصة، أو السكاكين والشوك والملاعق لا تشهد عمليات بيع، بل ثمة ملل يدفع بالبائعين إلى الثرثرة مع أي كان، أو الصراخ لجذب انتباه المارة إلى سلعهم.

وغير بعيد عن سوق الخضرة أسفل القلعة التاريخية لحلب، يسير الكثير من الأشخاص في الحديقة، أو يستظلون شجرة وارفة، يبحثون عن نسمة هواء في صيف حار، وسط الظهيرة والشمس الحادة، والرطوبة المنخفضة إلى حد خانق، أغلبهم من كبار السن، والواضح من سيرهم البطيء وتلكؤهم أنهم متبطلون متسكعون لا يلوون على شيء. وفي السيارة التي تقلني، يتولى

مضيفي شرح الأمور، والتجوال الطويل في المناطق قبل الانتقال إلى المنزل، حوالي الساعتين يدور بي في الشوارع الحلبية، هنا مقر المخابرات الجوية، وقد سدت منافذه بكتل الإسمنت الضخمة، ومنعت السيارات من العبور، تم تحويل العديد من الطرق إلى ممرات أخرى، مقر الأمن العام أغلق منفذه بحواجز إسمنتية قصيرة، هنا شارع فرعي ندخله ولكن نكتشف أنه أغلق بالكتل الإسمنتية نفسها، «أمس مررت من هنا وكان الشارع سالكاً، لا أعرف أي مقر رسمي هنا ولا أعرف لماذا أغلق الشارع» يقول مضيفي.

سيخبرني مضيفي خلال الجولة أن هذه هي المناطق الرئيسية والكبرى في حلب، أما تلك المناطق الفقيرة والعشوائية فلا يدخلها لأنه ما دخلها مرة إلا وتاه في مسالكها، والآن ليس الأوان المناسب للضياع في مناطق لا نعرفها، ويعدد أسماء لم تعن الكثير لي حينها، ولا له على الأرجح، مثل صلاح الدين والسكري، ثم يدور قرب جامعة حلب، وهو يخبرني عن الأمور وكيف تطورت في الجامعة، من اعتصامات تعرضت لقمع، ثم مظاهرات طلابية انطلقت من الجامعة إلى الأسواق، ثم قمع أكبر وأشد، وطرد للطلاب والطالبات من مساكنهم داخل حرم الجامعة، ونوم بعضهم في الشارع قرب الجامعة لاستحالة عودتهم إلى عائلاتهم في حمص أو غيرها من المحافظات الملتهبة والتي يطوقها النظام، وبعدها قمع أشد قبيل نهاية العام الدراسي ٢٠١١ -٢٠١٢، وتنفس الإدارة والأمن الصعداء مع انتهاء العام وطرد الطلاب وإخلاء أغلب مساكنهم[١].

---

(١) لاحقاً في قرى ريف حلب سأستمع إلى شهادات طلاب تحولوا من العمل السلمي إلى القتال في الجيش الحر، كما سيخبرني الكثير من الشبان القرويين عن المظاهرات التي شاركوا فيها في مدينة حلب في تلك الفترة.

الحياة ليست على ما يرام هنا، المئات من عناصر الأمن المسلحين، يقفون أمام كل مركز في المدينة، الشوارع الرئيسية والطرق الداخلية في المناطق المتوسطة خالية، شارعان أو ثلاثة تعمر بالمقاهي الحديثة، وفيها شبان وشابات يجلسون داخل المحال مكيفة الهواء، ويحتسون الشاي أو القهوة ويبدون ضاحكين. «انتظر حتى الغروب، لن ترى احداً في الشوارع عندها» يعلّق مضيفي على مظاهر الحياة الطبيعية.

لم تخلُ الشوارع بسبب حر الظهيرة، سيارات الأمن المنتشرة، عناصر مدنيون من المخابرات على الأغلب في سيارات الشرطة على المقاعد الخلفية بينما الشرطي يقف قريباً من سيارته، الطرق المغلقة، ناقلات الجند المضادة للرصاص أمام مقر المحافظ، المواطنون الذين لا يكترثون بنظام السير وبالإشارات الضوئية، ويسيرون في الطرق عكس اتجاه السير، بعد أن كان مجرد ظهور شرطي يثير الذعر في نفوس السائقين، أصبحت اليوم قيادة السيارة نابعة من، وتابعة للمزاجية وللطريق الأسرع الذي يوصل المواطن إلى وجهته.

مئات يقفون في طوابير فوضوية أمام الأفران وينتظرون دورهم في الحصول على ربطة الخبز بالسعر الرسمي، الباعة الواقفون على مبعدة أمتار من الأفران والذين يبيعون ربطات الخبز على الرصيف يستفيدون من سعر مضاعف، السوق السوداء هنا متاخمة للسوق الرسمية، ولا من يسأل أو يهتم. محطات الوقود (الكازيات) لا تبيع الوقود من بنزين أو مازوت، فقط تفتح أبوابها للعمل من دون أية مواد للبيع، ما عدا بعض الزيوت ربما، أما متجر الأدوات الزراعية حيث تتجمع عدة مولدات وماكينات

رش وضخ وشفط في داخله فلا يوجد فيه سوى رجل يقرأ صحيفة، أسأل عن الصحف فيجيب مضيفي، ثم أسأله كيف يمكن لأحد أن يقرأ جريدة «**الثورة**»؟ فيخبرني بأنها توقفت عن الصدور منذ فترة، إلا أنني شاهدت الرجل في المتجر يقرأ جريدة «**الثورة**». يؤكد مضيفي أن «**الثورة**» قد توقفت عن الصدور منذ مدة، إلا أنني وبعد البحث على شبكة الإنترنت أعثر عليها معافاة سالمة تعبر عن لسان ثورة لا تشبه الحالية بشيء.

يصطحبني مضيفي إلى ساحة سعد الله الجابري سيراً على الأقدام. هناك نرى إلى الناس وحركتهم الكثيفة فيخبرني بأنه وقت انصراف الموظفين والكل سيذهب إلى المنازل الآن، وبعد الساعة الخامسة لن يكون من متجولين كثر في الشوارع.

يطلب مني مضيفي أن أنتبه لما أشاهده، مئات من الشبان، سواء أولئك الموجودون في خيم نصبت في منتصف الساحة رافعين عليها الإعلام السورية الرسمية، أو المتواجدون على أطراف الساحة واقفين مستندين إلى الاعمدة، أو جالسين قرب بسطات خلت تقريباً من السلع، وقرب كل بسطة شابان من أعمار متباعدة أو متقاربة، «هؤلاء هم الشبيحة» يقول مضيفي، ويشرح «يفترض بهم أن يمنعوا أية تظاهرة من الوصول أو الانطلاق من الساحة الأكبر والأهم والأكثر رمزية في المدينة، أي ساحة سعد الله الجابري، وهم يخفون أسلحتهم الرشاشة في خيم نصبت في الساحة ورفع عليها العلم السوري أو في البسطات حيث ستجد تحتها الأسلحة الرشاشة، سبق أن تعرضوا لمظاهرات طلابية بالرصاص، وهم يتواجدون دائماً احترازاً من أي تحرك شعبي».

كل ما تراه في حلب في بداية ذلك الصيف يشير إلى أن المدينة في حالة حرب سرية. أو أنها تنتظر حرباً لن تلبث أن تندلع[١].

فقط بعدما انفجرت المعارك في منطقة خان العسل أصبح من الممكن القول إن من استضافني يسكن في فيلا (مزرعة بالتعبير الحلبي) في الخان المشرفة على حلب، والتي يطغى على سكانها التأييد للنظام والتعاون معه، والتي يعتبرها أبناء القرى المحيطة منطقة للشبيحة، ومن الفيلا التي تتاخم الشهباء يتولى مضيفي وزوجته شرح طبيعة المنطقة، يطمئنانني إلى أن المنازل المجاورة خالية، ويرشدانني إلى المناطق الأكثر عرضة للهجمات، حيان وعندان وأورم الكبرى، كانت عندان القرية الغنية قد صدّت الهجوم الأول للجيش، ووقعت تحت الحصار، وتنتظر هجوماً آخر في المرحلة التي كان الجيش السوري لا يزال يعتمد فيها التكتيك الهجومي في مسعاه إلى إخماد المناطق الثائرة[٢].

ويتحدث مضيفاي عن عمليات يومية للجيش الحر في المناطق المحيطة بهم، وعن ضربات يومية يوجهها المقاتلون في الجيش الحر إلى مواقع وحواجز الجيش النظامي، للأسف، أغلب هذه المعلومات لن تكون إلا إشاعات وأخباراً متناقلة بين المواطنين سواء عبر شبكات

---

(١) في الأيام الأولى من رمضان دخلت برفقة أولى مجموعات الجيش الحر إلى مدينة حلب، وفي ٢٩ تموز تعرضت المناطق إلى هجوم شامل من الجيش السوري أدى إلى مقتلة كبيرة نأتي على ذكرها لاحقاً. ومنذ ذلك التاريخ لم تتوقف المعارك في المدينة.

(٢) في مرحلة قريبة جداً، وإذا ما أردنا تحديد موعد دقيق ربما نقول إن معركة حلب قلبت استراتيجية الجيش السوري وحولته إلى القيام بقصف وعمليات انتقامية وجر الثوار إلى الهجوم بعد اتضاح استحالة قمع الثورة أو القضاء عليها عسكرياً وفي محاولة لاستنزافها بشرياً وعسكرياً.

التواصل الاجتماعي، والفايسبوك في طليعتها، أو عبر التناقل الشفهي. ولاحقاً سيتبين كم هي نادرة ومضللة المعلومات المتناقلة عبر وسائط التواصل الاجتماعي، وكم هي قليلة الوضوح المعلومات التي توزعها المجموعات المقاتلة للجيش الحر، وغير موجهة على مستوى إفادة المواطنين بالأحداث.

هنا يعبّر مضيفاي كما غيرهما عن مزاج مديني بالكامل، رؤية رومانسية للثورة، للنضال الشعبي من أجل التخلص من الطغيان، مع الكثير من المعلومات حول الأعوام القليلة الماضية التي أتاحت للثورة أن تتحول إلى حقيقة، ولكن ليس دون القليل من الانفصال عن المحيط الجغرافي والديموغرافي للمدينة، الفكرة الأولى حول الثورة ومدنيتها ومشاركة أبناء الجامعات ستكون سطحية إلى حد بعيد إذا ما بنيت من خارج المناطق الثائرة، وهو ما يقع فيه كل من يشاهد وسائل الإعلام العربية أو يتابع الأخبار من مصادر مدنية تعطي معلومات آنية أكثر مما توضح أسباب ثورة المناطق الملتهبة.

في تلك الليلة يصدر صوت انفجار يليه آخران، للحظة اعتبر الكل أن هذا صوت ضرب الحاجز على المدخل الجنوبي لمدينة حلب، على اوتوستراد دمشق حلب قبل أكاديمية الأسد للهندسة العسكرية، ثم تتكرر أصوات الانفجارات، إنها مدفعية الهاوتزر، أو الميدان، تطلق قذائفها نحو مواقع الثوار وقراهم، سرية من المدفعية الثقيلة ترمي ثلاث قذائف متسلسلة، ثم نسمع أصوات انفجارها في مناطق قريبة، قد تكون الأتارب، أو أي موقع آخر محاصر، أو قرى ثار أهلها مؤخراً.

تنتشر تعليقات أهل حلب من المؤيدين للثورة على الفايسبوك ومواقع التواصل الأخرى، وينقل لي مضيفاي ما يتردد:

- إنها انفجارات في قلب حلب.

- إنها عمليات نوعية للثوار.

- تفجير في مقرات للنظام.

- انشقاق جنود ومحاولتهم الفرار واشتباكهم مع آخرين.

- تبادل للقصف في داخل مدرسة المدفعية بعد انشقاق عدد من العناصر.

وعشرات التفسيرات الأخرى التي صدرت على الإنترنت وفي الغرفة حيث نجلس، بشأن أصوات القصف التي يسمعها أبناء حلب للمرة الأولى منذ بدء الثورة في ١٥ آذار من العام ٢٠١١. ولم تبد العائلة التي تستضيفني كبير حماسة للتفسير الذي قدمته: مجرد قصف مدفعي من عيار ١٢٢ و١٣٠ ملم على الأرجح يمكنه أن يطال بمدى أقصى ٣٨ كيلومتراً، وإن القصف يصدر من مكان ما من مدينة حلب بحسب الصوت ولمعة الإضاءة، ويتوجه نحو المناطق الغربية.

كلية المدفعية في حلب يومها، دخلت في المعارك الدائرة، ووجهت نيرانها إلى القرى الحلبية في عمليات قصف تمهيدية لن تطول قبل أن يشرع الجيش السوري في محاولات اقتحام هنا وهناك. ومنذ تلك الليلة سينتشر استخدام مدفعية الميدان في أكثر من منطقة في حلب، أهمها ربما كلية المدفعية وجمعية الزهراء.

كانت تلك الليلة الأولى لأبناء الشهباء مع القصف المدفعي الصادر من مدينتهم، والتي أعلنها المؤيدون للنظام ليلةً للتجارب التقنية، وكانت أيضاً الليلة الأولى لقريتي الاتارب وعندان مع القذائف المدفعية الثقيلة المنهمرة عليهما من مدينة حلب. وبقي المؤيدون للنظام وأجهزته في الأيام القليلة التالية محافظين على رواية «تجارب علمية وتقنية في حلب» مع كل صلية من صليات مدفعية الميدان.

بأمان مع «العصابات الإرهابية»

الخلاصة التي يصل إليها زائر مدينة حلب من خلال التجوال والاستماع لمدة يومين، أن الثورة هي ثورة أبناء الريف، حسابات أبناء المدن أكثر تعقيداً كما يبدو. الحياة الهادئة، التي بدأت تنغصها أصوات مدفعية الميدان، والحواجز والإجراءات الأمنية الكثيرة ولكن غير الفاعلة، هذه الحياة المدينية لا تزال تحافظ على سحرها لكل من امتلك أسباب العيش، ولكن أبناء الريف، في المدينة وخارجها، ثائرون، وإن كان التعميم وإطلاق الأمر على هذا النحو يلزمه تدقيق دائماً، فلطالما شارك أفراد ومجموعات مدينية في الأعمال الثورية منذ انطلاقتها.

وعلى الرغم من أنه كتب الكثير حول أسباب الثورة السورية، التدخلات الخارجية والعوامل الداخلية، انحصارها في الأرياف، الصدمة الحضارية التي تسبب بها النظام مع سياسة التغريب والانفتاح، وفشل سياسة الانفتاح

في الأرياف ونجاح كبير لها في المدن، صراع صامت بين التقاليد الإسلامية التي يدين بها أغلب المجتمع السوري، وبين تقاليد السياحة الجديدة التي لم تعد تجارة الجنس إلا أحد أسبابها الرئيسية، بين فقر لا يقاوم، واستهلاك لا يتوقف، والصراع الدائم بين دمشق وحلب، والغرق السوري بين موجتي لجوء عراقية ولبنانية (٢٠٠٣ و ٢٠٠٦) وبين مواسم زراعية رديئة واعوام من شح المياه وسياسة حكومية تنكر اعتماد شرائح واسعة من الشعب السوري على القطاع الزراعي.. على الرغم من كل ذلك، تجد دائماً المزيد من الأسباب للقيام بثورة على النظام القائم. باختصار، لقد تم تحويل البلد إلى شركة خاصة، ووضعت هذه الشركة بيد مجموعة لا تتعدى المئة شخص[١]، أغلبهم من المحيط الضيّق للعائلة الحاكمة والجنرالات، وتم إلغاء أي دور للشباب في البلاد، أغلقت الآفاق أمامهم وتُركوا ليتحولوا إلى مصدر لجني الأرباح مناصفة ما بين القطاع العام والقطاع الخاص.

في مدينة حلب، يخبرك الثوار السريون عن تحركات جامعة حلب، رمي الطلاب من الطوابق العليا مع أولى التظاهرات الطلابية، طردهم من السكن الطلابي، اعتصام الطلاب في الشوارع مع استحالة عودتهم إلى منازلهم البعيدة، حالة التضامن مع هؤلاء الطلاب، الآتين من الأرياف ومن المدن الأخرى. يخبرونك عن تجمعات السكن الريفية المركزة في بعض الأحياء، وتظاهراتها الليلية، حيث كانت مناطق كالسكري وصلاح الدين ومساكن هنانو وغيرها من تلك التي أتى سكانها من الأرياف، تصر على التظاهر كل يوم جمعة، وأحياناً تتظاهر في المساء وتتعرض للقمع في كل

(١) راجع كتاب **العقد الأخير في سورية** لمحمد جمال باروت «شركتان تقبضان على سورية كلها».

مرة، ويعتقل أبناؤها، وتُضرَب نساؤها اللواتي يتجرأن على محاولة التدخل لمنع الأمن من القيام بأعمال القمع.

وفي حلب، كان عدد من المجموعات المقاتلة التابعة للجيش الحر تتسلل أحياناً إلى المدينة لتنفيذ عمليات ضد الجيش وحواجزه، وإن لم تصل هذه العمليات إلى المستوى الذي اعتقد السكان أنها عليه، لم تكن عمليات اسطورية ولا في غاية الجرأة ولا تمتاز في براعة التخطيط وحسن الاستطلاع، إلا أنها كانت كافية لاعتقال عدد من أعضاء اللجان الشعبية (الشبيحة)، وبعض الممولين لهذه اللجان وأصحاب المصانع والأعمال الكبرى الذين سلموا بعض عمالهم أو موظفيهم من الناشطين إلى الاعتقال. كان أغلب العمليات يجري بسرعة وليلاً وبسيارات سبق أن غنمها المقاتلون الثائرون من المواقع التابعة للجيش والتي سقطت في أيديهم، أو بسيارات مدنية كانت للمخابرات السورية قبل أن يتمكن الثوار من سرقتها من حلب، أو من توقيفها بمن فيها على حواجزهم، وأغلب هذه السيارات والآليات تحمل آثار إطلاق النار على زجاجها أو أبوابها.

شددت الإجراءات الأمنية على قصر الرئيس في حلب، بات بإمكان المارة مشاهدة عناصر المخابرات وأجهزة الحماية الرسمية بلباس مدني وهم يحملون الأسلحة الحربية واقفين على قمم أعمدة المدخل الرئيسي للقصر، أخبار كثيرة تتردد عن قيام مجموعات مسلحة بتنفيذ إطلاق نار وإغارات نارية على عدد من المرافق الرئيسية والرمزية للسلطة السورية الرسمية.

يأخذك مضيفوك إلى من يمكنه أن يقدم لك المشورة في كيفية الانتقال، إلى أرض «المجموعات المسلحة»، الجميع هنا حريصون عليك، ولاحقاً

سيعلم المرء أن النظام يطارد اثنين بقسوة لا هوادة فيها: «الأطباء والصحافيين»، أما الأطباء فلأنهم ببساطة يسعفون الجرحى من الجيش الحر والمتظاهرين، وأما الصحافيون فليس من مصلحة النظام في سورية وجود صحافيين يتحركون كما يرغبون في البلاد، وهو أمر لم يحصل في سورية منذ ٤٠ عاماً، ودائماً، واليوم أكثر من أي وقت مضى، توضع الشروط على أي صحافي يرغب في زيارة البلاد، ويفرز له مرافقون ومراقبون ويؤخذ إلى حيث يرغب النظام الحاكم، وليس إلى حيث يرغب الصحافي في الذهاب. أما من ناحية المجموعات المسلحة والثوار، فالأمر أكثر خطورة، يحذّر الكثيرون من أن المجموعات المقاتلة والجيش الحر ليست كتلة واحدة، ولا ينضبط الكل في إطار عمل محدد وبشروط موحدة، وبعض المجموعات ليست أكثر من مجرمي حرب أو لصوص، بينما عناصر الجيش الحر يدققون بهويات الزائرين، أضف إلى كل ذلك أن السير إلى جانب المقاتلين سيعرض الصحافي إلى نيران عشوائية من الطرف الآخر.

في إحدى المؤسسات التجارية يستقبلنا ضابط كبير متقاعد، سبق أن تعرض للاعتقال عدة مرات خلال مراحل الثورة للاشتباه في تأييده للحراك الثوري في مدينة حلب شأنه شأن المئات من الضباط المتقاعدين، ورغم ذلك لا يزال الرجل يعمل إلى جانب الثوار داخل مدينة حلب، يتحدث ببطء وبكثير من الحذر بداية حول الوضع في المدينة، يسأل كثيراً عن الدافع من خلف التوجه نحو أعزاز. ثم يبدأ في شرح الوضع الميداني ولا سيما لمناطق شمال حلب، بعض الطرق قد تؤدي بك إلى الاعتقال على يد الثوار، بعض الطرق قد تؤدي بك إلى الوقوع في أيدي النظام، الذي باتت حواجزه لا ترفع العلم

السوري الرسمي، بل قد تتعمد رفع علم الثوار، شبكة الطرقات غير ثابتة، أحياناً يتقدم الجيش النظامي أو الجيش الحر ويحتل مواقع ثم يخليها، من الصعب تقدير أي الطرق الآن بيد الجيش الحر وايها تحت سيطرة الجيش النظامي، وبالتالي فالوصول إلى المناطق المحررة لن يكون آمناً.

عمليات الكرّ والفرّ تشمل الريف الحلبي بأغلبه، ولا سيما الشمالي والغربي، يوضح الضابط الكبير المتقاعد، من السهل معرفة أي قرى قد تحررت من قوات النظام وأيها لم تتحرر، لكن الطرق أمر آخر تماماً.

الضابط الكبير هذا يمثّل نموذجاً للضباط المتقاعدين، وعلى الرغم من اعتقاله احترازياً عدة مرات خلال أقل من عام ونصف عام من عمر الثورة، إلا أنه يمثل فئة من الضباط الكبار الذين ما إن يتقاعدوا حتى يتحولوا إلى الأعمال والتجارة مستفيدين من شبكة علاقاتهم بالنظام، ومن تركيبة الاعمال والنظام في سورية، حيث النفوذ والسلطة يسهّلان القيام بالاعمال التجارية والاستثمارية، وغياب الصلة بالمركز العسكري والأمني في البلاد يؤدي إلى فشل أي عملية استثمار مالية بفعل البيروقراطية والفساد والمنافسة المرعية من أركان النظام وسلطاته العسكرية والأمنية.

«لقد تغير أسلوب العمل العسكري لقوات النظام»، يقول الضابط المتقاعد، ويضيف أن ضابطاً جديداً تسلّم الإدارة العسكرية لمحافظة حلب، وهذا الضابط حصل على الدعم الكامل من الدولة، ويريد أن يثبت شدة قبضته، وبالتالي فان الضباط العاملين في حلب اخبروا صديقنا المتقاعد بأن الرجل الجديد في إدارة المحافظة عسكرياً سيغير أساليب العمل، وهو سيعتمد القصف أكثر من المطاردة المباشرة، سيعمد إلى السياسة الاحتوائية

والدفاعية والعقابية، أي أنه لن يعمد إلى هجمات كبيرة ولن يصد الهجمات بشكل حاد بل سيكتفي بالدفاع عن مناطق تواجد القوات النظامية بدل أن يحاول اقتحام مناطق الثوار، وسيعاقب المناطق التي تحتضن الثوار. وخلال اليومين الماضيين نفّذ اختباراته الميدانية في قصف مناطق الثوار، نهاراً سيسيطر على الطرقات والمسالك وليلاً سيقصف لشل حركة الثوار ومنعهم من الاستيلاء على مواقع أو طرق رئيسية.

يتحدث الرجل عن تجربته في السجن، وعن أسباب اعتقاله وعن الثوار في المناطق المحيطة بحلب، ويتضح لأول مرة بالنسبة لي تفكك تركيبة التنسيقيات، فكل تنسيقية تعمل في إطارها الخاص، إضافة إلى تفكك «الجيش الحر» حيث لا اتصال فعلياً بين المجموعات إلا بقدر تقارب اعمالها ميدانياً، ويؤكد الضابط الكبير المتقاعد عدم قدرته على الاتصال بأي من المجموعات العسكرية، ليس فقط بسبب الرقابة التي يخضع لها، ولكن لأن لا رابط فعلياً بين ما يقوم به ومحيطه الحلبي (المديني) وبين المجموعات القروية المقاتلة. ثم يورد ذكر أحد معارفه من الثوار في القرى، ويشير إلى علاقة عملية معه، ولكنه يفضل إبعاده عن دائرة الاتصال حالياً، ويجنبه ونفسه المحادثة الهاتفية.

«الطريق إلى أعزاز شمالاً خطرة جداً»، يقول الضابط المتقاعد، «لا تحاول، وإذا نجحت فقد تقع في يد مجموعات غير متعاونة أو خطرة، قد تتعرض للسرقة أو القتل، إضافة إلى أن النظام لا يزال يمسك بالعديد من المناطق ما بين حلب واعزاز».

يتطوع مضيفي المدني بالذهاب وإقامة صلة مع المجموعات قبل نقلي إليها، فأرفض، فالمضيف مدني، وتدخل المدنيين في مناطق القتال لا ينتج

إلا الكوارث والموت. أسأل الضابط المتقاعد عن افضل نصائحه. يخلص الضابط المتقاعد إلى القول بأن أسلم الطرق هو الالتحاق بإحدى مجموعات الجيش الحر القريبة من حلب، قبل متابعة الطريق نحو أعزاز، بعد التأكد من قدرة هذه المجموعة على تأمين الخط نحو أعزاز.

«اذهبْ في سيارة أجرة نحو الحدود التركية في باب الهوى غرباً، وستدخل حتماً في مناطق الثوار، فكل الطرق المؤدية إلى الحدود ستدخلك إلى مناطقهم، ومن ناحية الغرب لن تمر السيارة في الأتارب، فهي محاصرة، بل سيسلك السائق طريقاً آمنة، وحين تصل إلى عمق مناطق الثوار تتصل بهم. ولكن احذر الحواجز، فهي متشابهة وقد لا تميز بين حواجز الثوار وحواجز الأمن والمخابرات خاصة»، يقترح الضابط المتقاعد. وبعد نقاش طويل يستقر رأينا على تنفيذ الاقتراح بحذافيره.

في طريق العودة أقترح على مضيفي الذي ينشغل في مراقبة التحولات في مدينته طريقة حتى لا يبلّغ سائق التاكسي الأمن عن التحاقي بالثوار، طريقة تضمن أمن مضيفي وعائلته، حينها فقط يسرّ لي المضيف المغامر بأنه كان يفكر في هذه الثغرة.

الصباح الباكر يحمل الكثير من الهواء المنعش في خان العسل القريبة من مدينة حلب، تصل سيارة الأجرة، وتحمل حقيبتي في صندوقها، ونتوجه على الطريق العام باتجاه أورم الكبرى والأتارب، ثم ينعطف السائق بعد الشركة الوطنية للصناعات الدوائية، فأسأله إلى أين من هنا؟، «الطريق الأساسية مغلقة، علينا سلوك طرق أخرى»، وقبل الوصول إلى طريق بسرطون تبدأ الشعارات المناهضة للنظام بالظهور على الجدران، كل

الشعارات التي كنا نراها عبر شاشات التلفزة، إنه الريف حيث ينادي المرء «يا الله ما لنا غيرك» ولا يجد ملاذاً.

مئات قليلة من الأمتار ونصل إلى حاجز يرفع العلم السوري ذا اللون الأخضر والأسود. تتوقف السيارة ويترجل السائق، شبان ملتحون، هادئون، احدهم يحمل بندقية «فال» سوداء سبق أن شاهدتُ مثيلاتها في ليبيا ابان الثورة هناك، وآخر يحمل بندقية «بومب أكشن» (أو أوتوماتيك كما يسمونها في سورية) آخرون يحملون بنادق كلاشنكوف صينية الصنع (أو «روسيات» بحسب التسمية الشائعة هنا). لا شيء في ثياب هؤلاء الشبان يمت إلى العسكرية بصلة، ولا حتى إلى الانضباط العسكري.

أترجل من السيارة وأفتح حقيبتي للشاب المسلّح، أقترب منه وأهمس له «اعتقلني». ينظر الشاب بعيون مندهشة، واضح أنه لم ينم جيداً وأنّ الصباح لم يتسلل إلى عقله بعد، «اعتقلني» أكرر، فينظر إلى بعيون فارغة ويسأل «لماذا؟».

«يا أخي اعتقلني وأدخلني إلى موقعكم لأخبرك»

«نعم ولكن لماذا؟» يكرر الشاب بدهشة كلية.

«يا أخي انت اعتقلني وأنا أخبرك، تصرف» أقول له زاجراً وأنا أقدم له بطاقتي حتى يشعر السائق بأن ما يجري عملية تدقيق بالأوراق واعتقال.

يمسكني الشاب المسلح من زندي ويجرني إلى داخل منزل قيد الإنشاء تحول إلى منامة لعناصر الحاجز، فأخبره أنني صحافي جئت للعمل انطلاقاً من

المناطق المسلحة، وأنني بحاجة للتحدث إلى مسؤوله، وأطلب منه دفع بدل أجرة السائق وصرفه واعتقالي أمامه حماية لمن استضافني في مدينة حلب ومن التقيت بهم هناك. وهكذا كان.

ننتقل إلى قرية أخرى، عنجارة، هؤلاء هم إذاً العصابات المسلحة والمندسون، وهؤلاء إذاً من ثار على النظام، الأغلبية لا تعرف عني إلا أنني معتقل، واثنان فقط يعلمان أنني صحافي، يدخل من يدخل ويخرج آخرون، يحرصون على عدم ظهوري أمام الناس، يجلسني بعضهم في مخفر الشرطة في قرية عنجارة وقد تحول إلى مركز للثوار، الكثير من الشاي، والقهوة، يوزعون الدخان، تلك العادة السورية المحببة: يفتح علبة دخان ويخرج منها السيجارة ويرميها مباشرة في حضن الآخر، قاطعاً أي مجال للرفض، يجلسون على الأرض، بعضهم يحاول النوم، طبعاً يفشلون، يأتي زوار إلى المخفر، رجل عجوز يسأل «من هو الأخ؟»، «مشتبه بتعامله مع الأمن ولكنه من لبنان» يجيبه شاب بنصف ابتسامة، يبدأ العجوز بسرد قصة حياته البائسة في ظل أنظمة الحكم المتواترة في سورية، التعب والهوان، الفقر والجهل، وأسأل الموجودين عن مستوياتهم التعليمية، لم يتجاوز أي منهم المرحلة الابتدائية، شبان في بداية العشرينيات يحملون السلاح ويقتنون الجعب، مخازن قليلة في كل جعبة، ملتحون، مبتسمون، يسمعون للعجوز ويزيدون عليه.

«لن تقع فرية يا ولدي» - يقول العجوز - «ستحاسب على أعمالك فقط» يضيف، «المنطقة هنا من أفضل مناطق الثورة، لا أعمال خطف ولا فدية، لا سرقات ولا تعدّيات، ولكن ستحاسب على أعمالك، ولا

تخف، فلكم في القصاص حياة يا أولي الألباب». سألته أن كان يعني أنني سأقتل، فأجاب لا تخف، الله غفور رحيم، عسى ألا تكون متورطاً بدم الشعب السوري.

يبتسم شاب اشقر مسلح من المكلفين بمرافقتي وفي يده بطاقتي الصحافية، «أنت بأمان في أيدي العصابات المسلحة والإرهابيين» يقول، ثم يقول لي: «تعال شاهد مواقع الجيش النظامي»، ومن مدخل مركز الشرطة اشاهد على مبعدة كيلومترين حاجزا للجيش السوري، ثم آخذ منظاراً من أحد الشبان فأشاهد حركة العناصر.

«لماذا لم تضربوا هذا الحاجز؟» أسأل، «صعب الوصول إليه وهو يحوي الكثير من العناصر».

من الخارج يصدر صوت صراخ «طيران طيران» ثم صوت هدير مروحية تحلّق في مكان قريب.

ملائكة ما بعد المعركة

ينطلق الجميع في حركة نشطة، يهبّ الكل خارج مركز الشرطة، يحملون أسلحتهم المتوافرة، وينقلون أكياساً فيها ذخائر متنوعة وينطلق كل في اتجاه، يقول لي أحدهم «اتكل على الله وتدبر أمرك» مخلياً سبيلي، بينما يشير لي الشاب الأشقر أن أرافقه في السيارة، تنطلق هذه في طرقات ضيقة بعيداً عن قرية عنجارة، وبين الأشجار والصخور تمر السيارة لتعود إلى طريق رئيسية تحت سيطرة النظام، لمسافة مئات الأمتار، حيث ينظر إلينا العابرون بسياراتهم على المسلك الرئيسي وكأننا خارجون من الجحيم، ثم تلتف سيارتنا لتعود إلى الطرق الفرعية، ونصل إلى قرية تحمل اسماً غريباً «قبتان الجبل».

في مركز استولى عليه الثوار من النظام وحوّلوه إلى مقر لهم، يجلس توفيق شهاب الدين، أو الشيخ أبو سليمان، شاب بلحية طويلة، يرتدي «الدشداشة»

الرمادية، ويضع على رأسه «الشلحة» أو الكوفية الحمراء، هكذا شاهدته أول مرة، وهكذا سيبقى دائماً، ينظر بشك إلى وجودي، بينما أنظر بريبة إلى ذقنه السلفية الطراز، أشهر له ومن اللحظة الأولى سبب وجودي بينهم «المخطوفون اللبنانيون في أعزاز»، وأطالبه «أريد أن توصلني إلى أعزاز».

يرفض الرجل، وأعطيه بطاقتي الشخصية وبطاقة قناة LBC. نتحدث طويلاً في السياسة، وفي أحوال سورية، وفي أخبار لبنان، يحاول أن يستشف موقفي، أحاول أن أكسب ثقته، ثم ينهي الحديث بأنه لن يتمكن من مساعدتي، ويفضل أن أرحل عنهم.

«إذاً اعتبرْني مجرد صحافي أتى ليغطي أعمال الثورة، وارسلني ضمن القوات المقاتلة، وحين تثق بي يمكننا إعادة الحوار نفسه حول أعزاز».

يبتسم الرجل وكأن كلماتي شرحت صدره وأعطته ما كان ينقصه لحظتها «عظيم، اليوم لدينا عمل، ارتحْ قليلاً لنعد العمل»، ثم ينادي على شاب في بداية الثلاثينيات «يا عموري، الصحافي سيكون ضيفكم في المنزل»، يوافق عموري بهزة رأس، وبعد قليل يبدأ الشيخ توفيق بإجراء الاتصالات وتلقيها: «هذا التقدم لن نسمح به، يجب أن يعلم النظام أنه لا يمكنه التمدد».

حاولت صباح ذلك اليوم قوات النظام إقامة نقطة ثابتة على الطريق الواصل ما بين قريتي إبزيمو وتقاد عند إحدى النقاط على مفترق الإبزيمو، وكالعادة تداعى المقاتلون من الثوار المحليين خلال ساعات للرد في ما يسمونه «معركة» وفي ما يصنف عسكرياً بمجرد «اشتباك».

في عربة نقل صغيرة احتشد حوالي ستة مقاتلين، كانت تلك آخر شاحنة تتوجه إلى نقطة الاشتباك، مرت على قرية عنجارة حيث تزودت الشاحنة الصغيرة البيضاء بالمزيد من المقاتلين، فأصبحت تقلّ أكثر من دزينة من الشبان الذين يحملون بنادقهم بشكل عشوائي، ويكادون لا يجدون متسعاً للجلوس، بينما قائد القوة العسكرية العجوز، النزيل السابق في سجون النظام يجلس في المقدمة إلى جانب السائق وشخص آخر.

في تلك المرحلة كانت المروحيات تثير ذعر الثوار، وكان من النادر أن تتمكن المجموعات من المرور على الطرق الإسفلتية، وعلى مدى أكثر من خمسين دقيقة كانت الشاحنة الصغيرة تتهادى على طرقات رملية وفوقها مروحيات تمر، وبعض المقاتلين يصرخ بالسائق ليتوقف، وآخرون يطلبون منه الإسراع، بينما الغبار يشق عباب السماء والمروحيات العسكرية السورية تذهب وتجيء على مبعدة أكثر من خمسة كيلومترات من مكان مسيرنا. توزع المقاتلون بحسب المجموعات بين أشجار الزيتون، أنشىء خط مواجهة وخط ثان للدفاع، وكانت الخطة أن يبدأ إطلاق النار مع بداية مغيب الشمس، كان يمكننا رؤية ضباط وجنود الجيش النظامي يتحركون، وبفضل عدسة الكاميرا التي اقترضتُها من طاقم إعلام الكتيبة كان يمكنني رؤية الضباط وهم يوزعون قواتهم قرب منزل قديم على مسافة لا تقل عن ٤٠٠ متر، كانوا يعملون على نقل بعض أكياس الرمل على سطح المبنى لتمركز قناص يحمي ظهر الجنود، وإقامة حاجز على الطريق.

بدأت مجموعات صغيرة من الرجال تصل إلى المكان، ووصل رجل معه بندقية معدلة (تسمى في سورية «ميكانيزما» وهي من صناعة العام ١٩٣٨)

وقال إنه استعارها من زوج شقيقته، بينما الطلقات التي يحملها لا تتجاوز العشر اشتراها من جاره، ووقف زوج شقيقته في مكان بعيد يراقب الرجل، ربما ليسترد البندقية عند مقتل نسيبه. ثم وصل شاب يحمل بندقية صيد «بومب اكشن» التي لا يصل مدى كِللها الرصاصية أكثر من مئات قليلة من الامتار. وبدأ كثر يخترقون صفوف المجموعات التي أتت من خارج القرية، ويتجولون بينها وينتشرون حيث يرغبون بمقابل قوات الجيش النظامي.

قبيل الساعة الرابعة بعد الظهر كانت المروحيات لا تزال تحلق وترمي برصاصها من عيار ٧,٦٢ عشوائياً على المكان، ويمنعها ارتفاعها عن الأرض من تحقيق أية إصابات أو أضرار، وبدأ اطلاق الرصاص متفرقاً من جانب بعض الشبان الذين لم تسعفهم أعصابهم على ضبط أسلحتهم حتى لحظة إصدار الأمر بإطلاق الرصاص، وتكثف إطلاق الرصاص رويداً رويداً، ثم عملت القوة النظامية على مواجهة إطلاق النار. سادت الفوضى بين الطرفين، أطلقت الدبابة أولى طلقاتها نحونا، لم يكن مكانها يسمح لها بتحقيق إصابات، فراحت تصل قذائفها إلى مبنى يبعد عنا ٥٠ متراً إلى الميمنة، ولم تعدل الدبابة من وضعية الرمي، حتى تم تدمير المبنى، ولم يعدل الثوار من أماكنهم، حتى اكتشفوا أول إصابة بينهم.

يومها قتل الشاب فواز تحت إحدى أشجار الزيتون بطلقة من عيار ٥,٥ ملم، من بندقية شرقية مجهزة بمنظار، وأطلقت قذيفتا «ب ٧» باتجاه دبابة من طراز «تي ٥٥» فانحرفت عنها بعد اصطدامها بها، ومن مكان قريب كان يمكن مشاهدة صندوق قذائف الـ «ب ٧» مكتوب عليه باللغة العربية، ومصنّع في جمهورية مصر العربية. وحين أجلى الجيش النظامي النقطة تحت

النيران، تقدمت مجموعة طارق محمد الحسن نحو المكان وفتشته، عثرت فيه على مسدس من طراز «ماكاروف»، وذخيرة متروكة أرضاً بشكل متفرق، ولكن لم تعثر على نقطة دم واحدة.

في طريق العودة تلك الليلة، كانت معنويات الثوار مرتفعة، بدأت القوات التابعة للنظام بقصف المنطقة بشكل عشوائي ومتفرق، بينما أجرت القوات الروسية تجربة اختبارية لصواريخ باليستية[١]، وحين شاهد موسى (احد المقاتلين) الصواريخ وهي ترسم أشكالاً بيضاء في السماء صرخ من السيارة المتحركة «إنها الملائكة أتت لتناصرنا وتبشّرنا بالانتصار».

علت صرخات التكبير والسيارة تشق طريقها بين التراب، وحين وصلنا إلى الطريق الإسفلتية التي كانت لا تزال تحت سلطة النظام كان من في السيارات المدنية التي تحاذينا يدهشون من رؤية هؤلاء المقاتلين الثائرين وهم يكبّرون في سيارات النقل وهي تسير بينهم، ثم لا تلبث أن تعود إلى طرق ترابية تقودهم إلى القرى الريفية المعزولة، بينما تستمر في الفضاء ليلاً الأشكال البيضاء للملائكة وأبواق نتيجة الغازات الدافعة للصواريخ الروسية.

---

(١) صادف ذلك اليوم من شهر حزيران العام ٢٠١٢ قيام القوات الروسية بمناورة لصواريخ بعيدة المدى في سورية على ثلاثة محاور كان أحدها منطقة حلب، وشوهدت الصواريخ وهي تلقي الأجزاء الدافعة الخلفية خلال طيرانها، مما رسم أشكالاً ضوئية بيضاء في السماء. وشوهدت التجربة الصاروخية من لبنان أيضاً.

لماذا الثورة؟ لماذا الآن؟

لا يمكن المرور بسهولة أمام مشهد الثورة، حالة من الفرح تعم بين أوساط الثائرين، وللدّقة فإن أجواء من التحرر تخيّم على كل المناطق التي سقطت من بين أيدي النظام وباتت تحت سيطرة الثائرين، وكان من الممكن لكل من زار المناطق المحررة في صيف العام ٢٠١٢ أن يلاحظ جواً من الود بين السكان، ما عدا بعض الذين ستسود بينهم أجواء القلق والريبة من الآخرين، هؤلاء ممن كانوا إلى الأمس القريب يتعاملون مع النظام ضمن اطر المخابرات ومجموعات الشبيحة المختلفة، وبقوا في القرى التي سقطت الآن بيد الثورة.

في الرحلات القليلة التي قمت بها إلى سورية قبل أزمنة الثورة وبرفقة أصدقاء من حمص أو من لبنان، كانت الملاحظة الأبرز أن وجه الإنسان السوري هو الوجه العابس والذي يمتص سيجارة وهو يسير في الشارع،

أو في أحسن الأحوال هو وجه لاعب البوكر[١] وفي فمه سيجارته، الوجه السوري هو ذاك الذي يتجه دائماً إلى الأمام، مع انحناءة نحو الأرض، وتتحرك العينان لترصدا المحيط دون أن يتحرك الوجه.

إلا أنه ومع دخول المناطق التي سيطر عليها الثوار ستجد وجوهاً مليئة بالتعابير، نكات تلقى بكل الاتجاهات، أناس يضحكون، وابتسامات، وترحيب حارّ بالقادم القريب أو الغريب. نقاشات دائمة تبدأ بالسياسة ولا تنتهي بالدين أو الزراعة أو أي شيء يمكن أن يخطر على بال، التصريح يحل مكان التلميح، صارت التلميحات التي يطلقها المحادث بفعل العادة تسبق توضيحات جلية ومحددة.

ليس الفقر عاملاً وحيداً في قيام هذه الثورة، لو كان كذلك لقامت منذ عهد بعيد، حين كان السماع بوجود صندوق حديدي يبرد المياه ولا حاجة لوضع الثلج في داخله، ويتوافر في عدد من المنازل في المدينة. (البراد) يعد شائعة مغرضة، وقد تصل إلى حد منافاة المنطق والعقل والدين حتى[٢]، تلك أيام الفقر التي يرويها لك كل من يبلغ اليوم الأربعين من العمر، حين كان يقطع عشرات الكيلومترات يومياً على قدميه للذهاب إلى المدرسة، ثم يترك الدراسة بعدها للتفرغ للعمل في الحقول والمقالع الصخرية، أو

---

(١) الوجه الخالي من التعابير، وينسب إلى لاعبي البوكر الذين يخفون بهذا الوجه ما يحصلون عليه من أوراق خاسرة أو رابحة.

(٢) حدثني الكثير من السوريين الذين تجاوزوا الخمسين عن الصدمة حين اكتشفوا أن المدن مثل حلب والشام يعيش بعض سكانها بحال من الرفاهية، سواء لوجود برادات، أو غسالات أو غيرها من الأدوات المنزلية التي كانت بالنسبة لأغلبية الشعب السوري مجرد أساطير في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي.

النزول إلى المدينة والعمل بين أزقتها. ويخبرني أبو عمر الذي لم يتجاوز الخمسين من العمر أن «الفقر كان يأكلنا، كنا نعمل كالدواب ليل نهار، وكنت أريد متابعة تعليمي، وحين أضع يدي على شعري كانت تفرّ وتسرح منه حشرات القمل، ولا نجد مياهاً للاغتسال، إلى أن تطورت الأمور في الأعوام العشرين الأخيرة فقط».

وليس العامل الديني المذهبي عاملاً أساسياً في قيام الثورة، فأكثر من نصف القوى المقاتلة إلى جانب النظام السوري مكوّنة من جنود وضباط من الطائفة السنية، وأغلب الشبيحة أيضاً من الطائفة نفسها، هؤلاء يبدون من الشراسة في أعمال القتال كما في أعمال التنكيل بما يشير إلى اقتناعهم بما يقومون به، ولو كان العامل الديني حاسماً لكان أغلب السوريين انضموا إلى الثورة من أيامها الأولى، أو من أشهرها الأولى.

ليس العامل الديني أساسياً، ولكنه مركزي بطريقة خاصة، إنها أعوام من الظلم، الذي تعرض له أغلب المواطنين السوريين، والأكثرية كانت من الطائفة السنية، لا يمكن إلغاء العامل المذهبي، الذي تطور خلال مراحل الصراع ما بين العام ٢٠١١، بداية الثورة، إلى العام ٢٠١٣ عام سيطرة الجهاديين على الساحة، وهذا العامل هو ما أتاح للقوى السلفية الجهادية الحياة في البيئة السورية، التي لم تكن حتى وقت قريب شديدة التعاطف مع الفكر الوهابي، ولا أليفة مع العنف المتفلت من عقاله الذي تمارسه المجموعات القاعدية.

أما ذكريات ما حصل في حمص وحماه وحلب وإدلب من صراع ما بين الإخوان المسلمين وطليعتهم المقاتلة والنظام السوري أعوام

١٩٧٩ -١٩٨٢، والذي انتهى بمجازر شهيرة في حماه وحلب خصوصاً، فهي ذكرى مكبوتة، كان الأهل يمنعون أطفالهم من التحدث بها أو الإشارة إليها، وباتت عبارة «للجدران آذان» هي الأكثر شيوعاً في سورية، ولم يفرج عن هذه الذكريات بحرية إلا بعد بداية الثورة وشعور المواطنين السوريين بأنهم في مناطق آمنة من بطش النظام، أو ما بات يعرف بالمناطق المحررة، حينها وحينها فقط بدأت تتناقل المعلومات التي نامت في الصدور ثلاثين عاماً، وصار الشاب السوري يعلم أن أقرباءه الذين اختفوا لم يهاجروا وإنما قتلوا أو اعتقلوا وانتهى أمرهم في المعتقلات، وبات ابن إدلب يعلم أن حملات المداهمات كانت تصل إلى منزل والده لأن أقرباء لهم كانوا من ضمن جماعة الإخوان في سورية، وعرف ابن الريف الحلبي أن جاره الذي عاش من دون ساقين إنما مرت الدبابة على ساقيه وعشرات من أترابه تم اصطيادهم على حواجز للنظام في مدينة حلب العام ١٩٨١، أو خلال مداهمات لأحياء وشوارع، وقس على ذلك من إعادة تكوين الذاكرة الجمعية السورية، هذه الذاكرة التي تعرضت للكبح والضبط والكتمان طوال أعوام، والتي انفجرت لاحقاً، لتخرج مكنونات مذهبية كانت جزءاً مما سيسمح للثورة بالتحول إلى حرب طاحنة، ومن الحرب الطاحنة إلى شرذمة لا متناهية، ما بين قوى إسلامية وقوى قاعدية ونظام وحلفاء النظام آتين من الخارج، كما القاعديون تماماً. لكن هذه الذاكرة لاحقة على انفجار الثورة. قبيل بدء الثورة كانت الذاكرة هذه من التشويش والضبابية ومسكونة بالذعر من نفسها ومما تعلم، بحيث لا تدعو إلى أي حراك فعلي، كما أن غيابها وتشوشها هو أحد أهم أسباب نجاح الشباب في قيام الثورة.

حاجز الخوف الذي ذرعه النظام في الوعي السوري الجمعي هو أهم ما كان يكبح الحراك السياسي السوري، أو النقابي، أو أي نوع من أشكال التحركات الجمعية، كان حاجز الخوف - ونزعم أنه لا يزال -مسيطراً على عقول ملايين من الشعب السوري، خصوصاً أولئك الذين عاشوا مرحلة الإخوان. فالخوف اليوم هو أحد العوامل الحاجبة للسياسة، والمانعة للنقاش أحياناً، والتي تسمح بالذهاب بعيداً في أسلمة الثورة، منعاً لعودة الماضي، وسعياً إلى تحطيم كامل للنظام، ولو كانت النتيجة نفسها في المحصلة، إلا أن الخوف المكبوت في اللاوعي الجمعي أو الخارج من هذا اللاوعي بشكل مجموعات مسلحة دفاعية بأغلبها، هذا الخوف من الماضي قد يدفع المنتفضين الثائرين في سورية إلى هاوية، أو إلى الخيار الأكثر تشدداً للقطع الكامل مع الماضي ومع إمكانية عودة الماضي المرعب إلى الحياة في مناطقهم وبين مساكنهم.

مع بدايات الثورة كان معدل الأعمار المشاركة في العمل السلمي أولاً ثم في العمل المسلح لاحقاً متدنياً جداً، كان أبناء العقدين هم من يقودون الحراك ومن ينشطون، ويحركهم أو يشاركهم بعض الأشخاص الأكبر سناً، إلا أن النواة الصلبة والكتلة المتماسكة التي قامت بالثورة السورية في بداياتها، ولاحقاً تعرضت للملاحقة والاعتقال وحملت السلاح كانت أعمارها بأغلبيتها المطلقة دون الثلاثين.

هذه الفئة لم تكن عشوائية تماماً، ولا جاهلة أو من الرعاع، هؤلاء الشبان الذين التقيت بالعشرات منهم في مختلف الأماكن في إدلب وحلب، كانوا بأغلبهم من المتعلمين، أو من الموظفين، والأغلبية الساحقة كانت من

المنتمين إلى حزب البعث الحاكم بحكم الضرورة، سواء في الجامعات أو المدارس الثانوية أو في وظائفهم الرسمية، وجدوا أن طبيعة الأمور في البلاد تقتضي أن يملأوا استمارات الانتساب إلى حزب البعث كما طلب منهم مندوبو الحزب، وهكذا كان، ما أتاح لهم متابعة عملهم الشاق للحصول على التعليم والوظيفة.

هذه الفئة من الشبان الجامعيين والموظفين الشبان كانت على تواصل مع العالم الخارجي، بدأت بتعلم اللغات الأجنبية إلى حد ما، وحملت طموحات كبيرة مع بداية سنوات الانفتاح، وشاهدت طموحات أهلها محطمة ومكبوتة، وهي راقبت التحولات في المنطقة حولها، وشاهدت من جهة الانفتاح الكبير الذي عاشته سورية في الأعوام العشرة الأخيرة قبل الثورة، وفي المقابل عاشت الحرمان من نتائج هذا الانفتاح، وراقبت تدهور مستوى الحياة في مقابل ارتفاع مستويات الفساد واحتكار القلة لنتائج الفساد المعمم والمدول، باتت حتى الفئات التي تتعيش على الفساد كأفراد الشرطة والضباط والموظفين الحكوميين يعانون من احتكار قلة غير حزبية ولا من موظفي القطاع العام لأسباب الحياة الرغيدة.

هذه الفئة الشابة الخليط بين سكان المدن من أبناء الريف، والذين جلبتهم التحديثات من قراهم ليتمكنوا من تلبية احتياجات الحياة، وبين شبان المدن المتعلمين، هي من أشعل فتيل الاحتجاجات في بداياتها، حيث كانت التحركات خجولة جداً ومتأثرة بما شاهده هؤلاء في بلدان أخرى وخصوصاً تونس ومصر، وتركزت بداية في المدن السورية الكبرى، وأتت بعدها انتفاضة حمزة الخطيب وما جرى له ولرفاقه الأطفال في سجون

النظام، ومقتله تحت التعذيب ليطلق شرارة أكثر عمقاً في قش الثورة وحطبها فتشتعل المحافظة التي كانت تعتبر خزان النظام السوري أي درعا، وتشعل بعدها المناطق الأخرى بتواتر لم يتوقف حتى اللحظة.

تعامل النظام بالقمع والنار والقسوة مع الشرارة الدرعاوية، كان يمكنه أن يتعامل كذلك بالقسوة نفسها مع قرى علوية لو ثارت عليه، وهو لم يوفر معارضاً علوياً من قسوة متفلتة من عقالها، فلا يمكن أن يقبل النظام انتفاضات أو اعتراضات مناطق نفوذه الرئيسية ودوائرها وأرضيته، وإذا ما قيس حجم العنف فإن ما تعرضت له درعا في البداية لا يقاس بما تعرضت له باقي المناطق المنتفضة في الفترة اللاحقة.

ودرعا بالنسبة إلى النظام الخزان السني في مواجهة المناطق السنية المعاقبة، سواء إدلب، التي كرهها الأب حافظ الأسد بعد تلقّيه إهانة خلال أولى زياراته لها، وامتنع بعدها عن زيارتها، أو حلب، التي تجد نفسها في مواجهة الشام والطبقة الحاكمة فيها، أو حمص وحماه المتشددتان في مواجهة النظام وجبروته الأمني. ولا يشكل الفساد وحده سبباً لانتفاضة درعا، التي بدأت أهميتها بالنسبة إلى النظام بالتراجع، ولا لبداية انتشار الثورة السورية في كل المناطق، فالفساد في سورية هو آلية سير الأمور الطبيعية، سواء لتخليص المعاملات البسيطة أو إقامة المشاريع الكبرى في البلاد، ومن الولادة إلى الموت والدفن مروراً بالحياة العامة والأعمال البلدية والتوظيف والسكن فإن الفساد هو الحل الوحيد لمتابعة الحياة هنا، لكن انحصار الفساد ونتائجه بفئة واحدة من القابضين على سير الأمور هو المشكلة، واستحالة حصول المواطن السوري على حصته من الفساد، والتي قد تتمثل بتسجيل ابنه في

جامعة، هو ما أدى إلى الامتعاض من مستوى الفساد في سورية ونتائجه.

كذلك فإن قمع الأجهزة الأمنية وحده لم يكن هو ما حرك أبناء درعا، فالقمع هو ما خبروه وشاهدوه منذ عقود، وزاد بعد انتشار «تجفيف منابع الإرهاب» في سورية في الأعوام ٢٠٠٨ -٢٠١٠، ولكن تحوّل القمع إلى فعل دون مبرر، مثل مقتل حمزة الخطيب، أو إطلاق النار على المحتجّين على مقتله، أو إهانة رؤساء العشائر الحوارنة، وإلقاء الشلحة في القمامة، ومقولة محافظ درعا الشهيرة «اذا لم تتمكنوا من تعويض الأطفال الذين قتلوا فهاتوا نساءكم ونحن ننجب بدلهم».. كل ذلك إضافة إلى تراجع دور درعا في النظام وطلب رشى كبيرة مقابل السماح بحفر الآبار الأرتوازية وحصر عمليات التهريب بين الأردن وسورية، أدت إلى انتشار النار في درعا.

ولم يشكل الأكبر سناً في سورية، ممن هم فوق الثلاثين عاماً أكثر من عشرة بالمئة من المشاركين في الثورة في بدايتها بأحسن الاحوال، وفي أغلب الأحيان كانوا أقل من اثنين في المئة، في الأرياف كما في المدن، كان حاجز الخوف لدى الأكبر سناً يقعدهم ويشلّهم عن الإتيان باي حراك، وأن كان قلبهم مع أبنائهم، إلا أن لسانهم كان يأمر هؤلاء الشبان العصاة بالتزام المنازل وعدم المشاركة في الحراك السلمي في بدايات الثورة.

وخلال الأشهر الأولى من تردّدي على سورية وسكني فيها، كنت دائماً أسأل شبان إدلب وحلب السؤال نفسه: لماذا الثورة ولماذا الان؟ وتأتي الإجابات من التنوع إلا أنها تصب في إطار كبير واحد: رفض الواقع الذي لم يعد يطاق والسعي إلى إقامة العدالة على الأرض. وبغضّ النظر

عن شكل هذه العدالة واسمها ومرجعيتها الفكرية أو السياسية.

في الأرياف كان الشبان مع الأشهر الأولى من الثورة يعتبرون أن الفقر هو المسبب الأول، ولا شك في أن حالة الفقر كانت ملموسة، من ناحية نوعية البضائع التي يستهلكها المواطن السوري، والبناء والمفروشات القليلة التي يحصل عليها الفرد، ولكن لم يكن هذا السبب وحده كما سبق القول.

ثم بدأت مقولات الاضطهاد الديني بالبروز، ظلم أبناء الطائفة السنية على يد أبناء الطائفة العلوية، وذهاب المكاسب إلى أبناء العلويين، وغيرها من أسباب الاضطهاد الأخرى، كل تلك المقولات صارت تظهر علانية أكثر فأكثر مع مرور الوقت، وبعد انتصاف العام ٢٠١٢، بات الحديث محصوراً عن الشيعة، واستبدلت كلمة «العلويين» بـ«الشيعة»، وصار الصراع مع هؤلاء، والكراهية الطائفية هي مركز الأمور، في الصورة الظاهرة، وكان يمكن إيجاد تبريرات واضحة وملموسة في كل حين لتبادل الكراهية.

لم يكن إعلان الأمين العام لحزب الله عن مشاركة حزبه في القتال الدائر في سورية هو ما ينتظره السوريون المنتفضون لإعلان عدائهم للشيعة، فاسباب العداء موجودة من قبل، وموجهات العداء أيضاً موجودة، فمشاركة الشبان المتدينين في بدايات الثورة، وتحولها إلى ثورة مسلحة خاصة على يد أبناء الريف المحافظين، وذوي الميول الإسلامية، وسيطرة متخرجي مدارس الشريعة على المحاكم الشرعية الثورية وعلى إدارة أمور الناس، مدعومين من مسلحين تابعين أولاً لتجمعات الجيش الحر، ثم من قوات جهادية، كل ذلك دفع بالعداء ليكون على قاعدة مذهبية إضافة إلى

كل التاريخ السوري الحديث.

كما أن حجم الاستثمارات الإيرانية في سورية، واختراقها النسيج المحلي، وخاصة في القرى الأشد فقراً، وتحوّل جزء من المواطنين من الإسلام السنّي إلى التشيع، وبناء المجمعات السكنية (الجمعيات) بأموال إيرانية وإسكان التابعين الجدد للمذهب الشيعي فيها، كل ذلك يمكنه أن يثير السكان ويحرّضهم ضد جارهم الشيعي، الذي حصل بتحوله «عن دين الآباء والأجداد» على تقديمات لم يتمكن المواطن السوري الريفي من الحصول عليها.

فكيفما سار المواطن من ريف حلب سيجد لافتة لجمعية سكنية باسم المهدي أو أي اسم آخر، ساهمت إيران في بنائها، أو سيتذكر أن سكان هذه القرية أصبح نصفهم من أتباع المذهب الشيعي، الذي تولى بثه ونشره شيخ غريب أتى وسكن في القرى وحوّل أبنائها عن دينهم.

حاملوا البطاقة الحزبية البعثية باتوا يسخرون من أنفسهم، ومن انتمائهم، ولم يعد لهم ملاذ إلا دينهم، على الأقل في المرحلة العسكرية من الثورة، بعد أن انطلقوا أولاً، كطلاب جامعيين وموظفين حكوميين شبان ينشدون في الشوارع لثوان «حرية» و«سلمية»، هاهم اليوم يصرخون «يا الله ما لنا غيرك».

حول أطباق الطعام في إحدى قرى حلب، تجمّع حوالي ١٥ شخصاً، وخلال الحديث سألتهم عمن كان من ضمنهم منتمياً إلى حزب البعث، ما عداي أنا شخصياً وعدا صديقي السوري صبحي، كان الجميع قد انتموا

إلى الحزب، الذي سخروا منه حتى قبل قيام الثورة، كل لأسبابه، سواء لضرورات متابعة التعليم الرسمي، أو الجامعي، أو الوظيفة الإدارية في الدولة، أو للفوز بانتخابات محلية. وحده صبحي اختار منذ صباه التخلي عن الدراسة والعمل سائقاً للباصات والشاحنات، ولم يحظ بوظيفة في القطاع العام، وبالتالي لم يضطر مرة إلى الانتساب للحزب أو الحصول على الخدمات المخصصة للحزبيين.

«أرأيت؟» يقول صبحي ممازحاً، «نحن نتناول الطعام مع شلة من الشبيحة». الإدارة الحكومية والبلدية والمحلية والسياسية كانت في غاية التراخي في الأعوام الأخيرة السابقة للثورة، وبدأت تفقد نفسها في خضم أمواج متلاطمة من التحديثات والإفقار، وباتت الإدارة في البلاد عاجزة وفقيرة وبحالة من التشتت بين الموافقة على كل شيء أو رفض كل شيء واعتباره غير قانوني، بين قمع كل المخالفات وفرض قوانين وضرائب جديدة لا يجد أحد تفسيراً لها، كالعلبة السوداء في سيارات الأجرة والباصات، وأسعارها المرتفعة بالنسبة إلى الدخل الفردي، وتجاهل مئات من المخالفات اليومية لشبان متهورين هم أبناء محاسيب وأزلام رجال المال والأعمال الجدد، والآتي من هوامش النظام السياسي والأمني والعسكري، ومن خارج دوائر الفساد المعتادة من العسكر والمخابرات والموظفين السياسيين.

في المقابل نما حقد كبير في نفوس عشرات الآلاف من المتخرجين والطلاب الجامعيين، ومن بينهم تلك الفئة التي درست الشريعة الإسلامية، وبدل أن تتوظف في الملاك الحكومي لعلماء الدين المعروف باسم الإفتاء، ومؤسساته

المتعددة، وجدت نفسها مرمية في الشوارع وتجهد لكسب رزقها. في إحدى السهرات الطويلة يتحدث شاب من متخرجي معاهد الشريعة الإسلامية في سورية عما حدا به إلى المشاركة في الثورة من أيامها الأولى والدعوة لها والتحريض عليها، وهو يخبرني كيف عانى الأمرّين بعد تخرجه في منتصف العقد الأول من القرن الحالي، دون أن ينسى خلال حديثه الإشارة إلى أنه نموذج لحالات متعددة من المتخرجين.

بعد انتهائه من دراسته، كان ينتظر توظيفه في الملاك الحكومي التابع للإفتاء السوري، ومضت الأشهر ثم الأعوام وهو ينتظر، ويقرأ الكتب الدينية، ويجلس خلف بسطة في أحد الشوارع التجارية في أسواق حلب المكتظة بالسكان، ويبيع ما تيسر مما تمكن من شرائه من تجار الجملة، لم يفرق حينها كثيراً بين بيع الدخان أو سكاكين المطبخ، وكان يحمل كتابه دائماً إلى السوق، ويمضي نهاره وهو يقرأ ويبيع ما حملته بسطته، إلى أن بدأت تلاويح الثورة.

«كنت أعيش بانتظار وظيفة حكومية، وفقدت كل احترام لنفسي وأنا أجلس خلف كشة (بسطة) أبيع الأطفال والمارة، وأضطر إلى رشوة الشرطة وكل من هبّ ودبّ، وأقرأ في كتب العلم مع يأسي من عدم استفادتي من علومي الشرعية، واليوم أنا مستشار في محكمة حلب، تحت تصرفنا قوة مقاتلة من ٨٥ ألف شاب مسلحين تمام التسليح[١]، ونسعى إلى هدّ النظام كلياً، ونحكم بأمور الناس، من الطلاق إلى النزاعات التجارية والإرث». يقول الشاب الذي لم يبلغ الثلاثين من العمر.

---

(١) هم مجمل المقاتلين المسجلين في محافظة حلب.

هذا النموذج ينطبق على جيش هائل من المتخرجين الذين لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم عاطلين من العمل في بلد وصلت فيه نسبة البطالة إلى حدود ١٦ بالمئة من السكان البالغين سن العمل، قبل أن يجدوا أنفسهم متمردين على نظام لم يفسح لهم المجال لتسويات أو للعودة إلى الخلف ولو خطوة واحدة، فحين نزلوا إلى الشارع اكتشفوا أنهم لن يتمكنوا من العودة إلى منازلهم كما كانوا في أي يوم في المستقبل، فإما أن ينتصروا أو يموتوا في الحرب.

مع اشتداد عمليات القصف المدفعي كان الشبان المتجمعون غالباً في منازل غير محمية يطلقون صيحات التكبير كحماية نفسية وحيدة، وحين تنتهي القذائف من السقوط دائماً تجد من يمزح قائلاً «لو علمنا ما ينتظرنا لما نزلنا استنكاراً وتضامناً مع حمزة الخطيب، أساساً نحن لا تربطنا صلة بآل الخطيب»، أو ببساطة «يا إخوان ليتصل أحدكم بآل الأسد ويسألهم إن كانوا راغبين في الصلح».

طبعاً هذه النكات النامّة عن محاولة تنفيس احتقان المتجمعين وتوتر أعصابهم دون حماية تحت قصف عشوائي لا تبعد كثيراً عن الحقيقة، إلا أن الكل يعلم أن التسويات مع النظام غير متاحة، وأنه ما إن بدأت عمليات العنف فهي لن تتوقف قبل أن تطالهم فرداً فرداً، وأنها ستشمل عائلات بجريرة تظاهر أحد أبنائها، ونساء وشقيقات بذنب إخوتهن أو أزواجهن أو أبنائهن.

يعلم الشارع السوري تماماً مع أي نظام يتعاملون، وعلى الرغم من مفاجأتهم بجيشهم وموقفه المتشدد، ورهانهم على أن الجيش سيقف على الحياد، على الأقل هو ما اعتقده كثير ممن سألتهم، فإن كل من التقيتهم

يعلمون أن النظام الذي طارد الإخوان المسلمين أكثر من عشرين عاماً، لن يتوانى عن مطاردتهم حتى آخر لحظة في أعمارهم، وأن الاشتباك الذي بدأ بمظاهرات سلمية لن ينتهي إلا بصيغة قاتل ومقتول.

ولا يعتقد المقاتلون أو المدنيون الموجودون في المناطق المحررة بإمكانية حصول تسوية سياسية، وبكل الأحوال فإن الحديث عن التسويات في منتصف العام ٢٠١٢ كان بالنسبة إليهم أقرب إلى المزاح، فهم كانوا يعتقدون بصدق أن الثورة ستنتصر خلال أسابيع، أو أشهر قليلة، وأن الغرب يمكن أن يتدخل في أية لحظة لنجدتهم بغطاء جوي، أو بمنطقة حظر طيران، أو بإرسال أسلحة نوعية. وهو ما سينتظرونه طويلاً، وسيتابعون المسير في طريق الحرية الدموي، دون أية إمكانية واقعية للالتفات إلى الخلف.

ثوار مدن وثوار قرى

لاحقاً، مع انتشار القمع واستخدام النيران ومطاردة الثوار، انكشفت صورة أخرى: «ثوار الأرياف وثوار المدن»، كانت أغلب المظاهرات تجري في المدن، وبعض أهمها جرى في المدن الرئيسية من دمشق وحلب وحماه وحمص، كما في المدن الهامشية كإدلب والرقة ودرعا وغيرها من المدن الهامشية المئة ألفية[1] في سورية. وفي هذه المرحلة ظهرت الحاضنة الفعلية للثورة السورية، إنها الأرياف والعائلات الريفية، التي تمتد سكنياً إلى المدن.

في العقد ونصف العقد الأخير من تاريخ سورية وخاصة بعد تسلّم بشار الأسد وحاشيته زمام السلطات وبداية تصفية الحرس القديم، قامت القوة الاقتصادية الدافعة بإخراج العديد من القرويين من سكنهم في الأرياف، وتحوّلت الزراعات إلى الإهمال، وصار العمل في المدن أمراً لا مفرّ منه، على

(١) هي المدن التي يقطنها مئة الف، وهي كثيرة العدد في سورية، بعضها لا يزال يشبه القرى مثل مدينة سراقب في إدلب.

الأقل لفرد من كل عائلة، وقليلاً ما أصبحت تجد عائلة ريفية، في شمال سورية خصوصاً، لم ينقل فرد منها سكنه وعمله إلى المدينة، وباتت المدن الهامشية (أو المدن المئة ألفية) أقل أهمية مما كانت عليه في أيام حكم حافظ الأسد.

تضخمت مدينة حلب بأسرع وأكثر مما تحتمل مدينة الاستيعابَ، دليلي في مدينة حلب، الذي يقطنها منذ أنهى دراسته الجامعية وبدأ في التعليم وحتى بلغ الخمسينيات من عمره، لا يدخل إلى الأحياء العشوائية، فهو أولاً لا يعرفها، وثمة نوع من احتقار سكان تلك المناطق خلال حديثه عنها، على الرغم من موقف الرجل المؤيد للثورة والذي ينحدر هو نفسه من الأرياف. ومع الدخول لاحقاً إلى تلك المناطق العشوائية تكتشف حجم الاختراق الأخلاقي الذي مارسته السلطات هناك حيث أطلقت يد عصابات حقيقية بين السكان وحمتهم في بيعهم للمخدرات وتجارة الدعارة وفرض الخوات على المحال التجارية وعلى تجار البناء، وتركت المباني العشوائية تنهض كل حين، حتى أصبحت المنطقة تشبه غابة تسكنها النعاج والذئاب فقط.

وشكل السكن في المدينة، وخصوصاً في العشوائيات، مأساة مزدوجة للسوريين، فالسكان الأصليون باتوا يرون في أبناء القرى قوماً لم يجلبوا معهم إلا المنافسة والأعمال الرخيصة والتي تشوّه مدينتهم وتجارتهم، وهي بكل الأحوال لم تتسارع إلا مع التدهور الذي عرفوه في الصناعة والزراعة، ومن ناحية أبناء الأرياف فهم يشعرون بإلزامية انتقالهم من الحيّز الريفي المريح إلى الأحياء الأكثر اكتظاظاً وعشوائية في المدينة، وحيث تسود شريعة الغاب بإدارة شبيحة النظام وزبانية أجهزة المخابرات.

النظام نفسه ميّز في بدايات الثورة بين مواجهة ثوار الأرياف ومواجهة ثوار المدن. القسوة التي تعامل بها مع ثوار المدن ومنتفضيها كانت أقسى بما لا يقاس مما شهده أبناء القرى في الريف، إذ عمد إلى حملات اعتقال واسعة ومنظمة، سحب خلالها الآلاف من المنتفضين من المدن مركزاً على المتعلمين والكوادر والفاعلين وأصحاب الخبرات والسوابق في العمل السياسي، وأبقاهم في سجونه لأشهر تحت التعذيب قبل أن يفرج عنهم بشكل متفرق ومتتال، ويسمح لهم بالحصول على تسهيلات للخروج من سورية، كمثل جوازات السفر، وأحياناً تهديدات جسدية مباشرة دفعتهم للفرار إلى الحدود القريبة منهم ليتركوا الساحة لأبناء الأرياف، وليشرعوا في رحلة شتات طالت لأعوام.

التقي بالكثيرين من أبناء المدن، الشبان الذين حصلوا على نسبة لا بأس بها من التعليم وشغلوا وظائف مقبولة اجتماعياً، وأعادهم النظام بقوة العنف والقمع الطاردتين إلى قراهم، بعدها عاش أغلبهم فترات من العطالة، بعدما تسلّم الشبان القرويون ومن سيسمّون «المشايخ» زمام الأمور في الثورة، وانتهى مآل أغلب من التقيتهم من المتعلمين أبناء القرى الذين انضموا إلى الثورة وتخلوا عن أعمالهم ومناصبهم إلى الهجرة واللجوء السياسي في الدول الأوروبية الغربية.

أكثر من قاض في المحاكم المدنية تعرفت إليهم في أرياف حلب وإدلب، هؤلاء أعلنوا انشقاقهم عن النظام صراحة، وعملوا لفترة إلى جانب الثوار، بعضهم تمكن من الانشقاق بعد عام من بداية الثورة، حيث كان الانسحاب من المواقع الرسمية لا يزال في غاية الخطورة، كما أنه يعد مغامرة

في ظل ثورة غير متكونة الملامح ما بين سلمية وشبه عسكرية. ورغم ذلك هناك قاضيان التحقا بمناطق الثوار، ثم فضّل أحدهما الذهاب إلى تركيا، حيث أنفق مدخراته في إيجار منزل يضمه ومن شاء من عائلته، بعد أن قرر ترك سورية وثورتها واكتشف أن لا مكان له بعلومه وخبرته بين أقرانه من المتحمسين للتغيير.

هذا القاضي، ولنسمه جميل (اسم مستعار)، عاش لفترة في قريته الجبلية، وعمل بين أبناء الثورة، ولكن طغى في القرية الفكر الديني البسيط في بداية أيام الثورة وتحرر القرية، وسيطر رجال الدين البسطاء، ومحليو التعليم على شؤون المنطقة وأمور الناس، وبات الناس أنفسهم يرفضون الاحتكام إلى القضاء المدني بصفته وضعياً ومن إنتاج النظام الذي يقصفهم بالمدفعية ويقتل ابناءهم، وفي بدايات الثورة تلك كانت المحاكم الشرعية تكاد تكون مسبقة الأحكام، لا محامين ولا حق دفاع عن النفس، وكل ما يقال يؤخذ بعين الاعتبار.

وعلى الرغم من محاولات القاضي عقلنة الأمور إلا أن بساطة الناس وقلة خبرة القيمين على الثورة دفعت الأمور في النهاية إلى ما يشبه الكارثة القانونية، ورحل القاضي جميل إلى تركيا، حيث أمضى حوالي العام محاولاً من هناك تصويب الأمور في بلده من الناحية القانونية، ورسم سياسة قضائية وتكوين ملفات تصلح لتقديمها للمحاكم الدولية، ثم تلقى دعوة لحضور مؤتمر قانوني دولي في إحدى الدول الأوروبية، وهناك تلقّى نصائح من قانونيين سوريين بعدم العودة إلى تركيا ومتابعة حياته وأعماله من أوروبا، فقدم طلباً للجوء السياسي وبقي حيث هو بعدما استدعى عائلته للعيش بقربه.

وهذا تقريباً حصل مع قاض آخر، وهو من كبار القضاة في شمال سورية ويتحدر من الريف، وانتهى به الأمر إلى اللجوء من قرية إلى أخرى، حتى وصل إلى جنوب تركيا منتظراً أن يكفّ الله عنه أذى داعش، وحتى تعود الأمور إلى القليل من المنطق ويعاود هو البحث عن صديقه (احد المطرانين المختطفين في حلب) ويتابع محاولاته في إنشاء اتحاد سياسي بين القوى الثورية المحلية في الشمال وعموم سورية.

ويمكن إيراد قصص العشرات من الكوادر والموظفين الحكوميين، وربما ما حصل مع حسن، الذي يعتبر أحد أعلى ضباط الشرطة رتبة في منطقته، يشكل أيضاً حالة نموذجية لواقع الأمور، فهو حاول بداية توفير ظروف تتيح إنشاء شرطة محلية تحفظ أمن المواطنين، ثم استسلم سريعاً نظراً إلى تشتت القوى المقاتلة وتوزعها مناطقياً وتعقد العلاقات في ما بينها، وانتظر لأكثر من عام ونصف عام من عمر الثورة وهو يعمل ساعياً سياسياً وديبلوماسياً عند القوى العسكرية، قبل أن يقرر في النهاية مغادرة سورية نهائياً إلى إحدى الدول الأوروبية والعيش هناك مع عائلته، بعد أن شرح لي مرة وجهة نظره بالقول: إن القوى المحلية لن تسمح لضابط شرطة متخصص في الحقوق بإدارة الشرطة أو لعب دور في تطبيق القوانين، أغلب القوى المحلية لا ترى في القوانين الوضعية أية مصلحة مباشرة لها، بينما الشريعة الإسلامية يمكنها تحميلها الأوجه التي تفهمها وتريدها، وبالتالي فإن من سيديرون أعمال الشرطة بحال تشكلت، ومن اليوم إلى زمن يطول هم من رجال الدين والمشايخ، وليسوا من ضباط الشرطة المختصين.

اتسع هنا موضوع المدن والأرياف ليشمل العلم والتقانة والضوابط الاجتماعية في العلاقة بين الناس، ومحددات هذه الضوابط، وسادت المدن حالة تريف في ظل الثورة، لاحقاً ستسقط المناطق، هي العشوائيات التي يقطنها ريفيون شاركوا أساساً في بدايات الثورة.

اليوم منعنا تعرصة كبيرة

مضت أيام وأنا بضيافة عائلة عموري، حيث ستنشأ صداقة مع أخيه صبحي، وقريب العائلة وليد شهاب الدين، وأعيش بينهم وكأنهم عائلتي. باقي أفراد العائلة في تركيا في أحد معسكرات اللجوء، الوالد، الشرطي المتقاعد، والزوجات والأبناء الأصغر سناً، لن أحفظ عدد الأخوة في هذه العائلة، سيفوق عدد أفرادها قدرتي على الحفظ، إلى اليوم ومع معرفتي باسماء الشبان، إلا أنني أحياناً أخطئ في تسميتهم بالترتيب العمري.

العائلة تحمل الصفات نفسها، من صغيرها إلى كبيرها، عائلة حسن عيدي، كل شجرة العائلة يمكن تمييزها من تصرفاتها وأسلوبها التهكمي وكبّها لأقداح الشاي سهواً في السهرات المسائية، وتحطيمها للأواني الزجاجية كل حين، حتى أصبحت أنا نفسي حين أدخل هذا المنزل أسكب أقداح الشاي أرضا سهواً وبحركات غير محسوبة. ومن خصائص هذه العائلة تحلق الناس حول أفرادها.

شجرة العائلة هي تلك التي قال صبحي لوالده إن برميل الطائرة قد نبشها حين ضرب المقبرة، حينها اتصل صبحي بوالده في تركيا وسأله: جدي حسن عيدي في أية مقبرة مدفون؟ فأجابه الوالد: في المقبرة القديمة، ليش؟ نكتوه (نبشوه)؟ فرد صبحي: نـ... مرتو، ونبشوا شجرة العيلة كلها.

صبحي أعلن التلفزيون السوري نقلاً عن الجيش وقوات حفظ النظام أنه مات قتلاً خلال اشتباك في أحد الأنحاء، يومها كنت قد وصلت إلى القرية تهريباً من تركيا، واضطررت إلى إيقاظه عند الساعة الواحدة ظهراً لأتأكد أنه هو صبحي المقصود الذي ورد اسمه، وبالفعل كان هو نفسه الذي اعلن عن مقتله، بعدها أعلن التلفزيون السوري مرة أخرى مقتله للمرة الثانية.

ذهب صبحي في إجازة لزيارة والده في مخيم اللجوء في تركيا، تاركاً أشقاءه الباقين بين مدير إداري لشؤون الثورة في عدة قرى وبين مدير للمنزل الذي لا يخلو من الزوار الصباحيين كما المسائيين، قبل أن يبدأ قصف الطيران الحربي للقرية ويُخلي المنزل نهائياً من زائريه وسكانه. خلال شهر رمضان أمضى صبحي بضعة أيام في مخيم تركي للجوء، حيث والده مجيد يعتني بنساء الاسرة وأطفالها المبعدين عن قريتهم بعد اشتداد الأعمال العسكرية في المنطقة، ومجيد ليس من القادرين على الصيام، ببساطة هو يفضّل أن يكون الصيام لعدة ساعات، وحين يسأله شبان من القرية الحديثة في الالتزام الديني عما إذا كان يصوم مثلهم يجيب عبر الهاتف: حين كان الصيام في الشتاء لمدة ساعتين لم أصم، أتريدونني أن أصوم الآن؟

خلال العصر، وبينما كان صبحي يحاول النوم ليمضي الوقت قبل موعد الإفطار وصل أحد النازحين الجدد يسأل عمن يكتب حجابات في المخيم. «أنا جديد هنا، يمكنك أن تسأل الشيخ» قال صبحي وأشار إلى والده الجالس في صدر خيمة تحولت، كما منزله في القرية إلى مضافة لكل العابرين والراغبين في تجاذب الأحاديث.

دخل الرجل على مجيد، وشرح قصته، ابنته تصاب برعب شديد طوال الوقت، وابنه يَبرد ويُحَرّ في آن معاً. «وصلت إلى المكان المناسب، خذني إلى خيمتك» قال مجيد وتبع الرجل إلى خيمته، فاهتم أولاً بالطفلة، قال له «لا عليك، احضنها ليلاً ودللها قليلاً في النهار ولا تدعها تشاهد الكثير من الناس طوال الوقت». ثم أعطى الطفلة خمسين ليرة وقال لها «اشتري سكاكر بالخمسين ليرة».

ثم جلس قرب الصبي المحرور المقرور، وقال للرجل «لا تعرّضه للشمس، ودفّئه كل الوقت، وليكثر من الشاي والسوائل» ومدّ يده وأعطى الصبي خمسين ليرة طالباً منه شراء السكاكر مثل أخته.

سأله الوالد «هذا كل شيء؟ ألا يجب أن نقرأ لهما الأدعية؟» انتبه مجيد وردّ: «بلى، أكثر من الأدعية ولكن بعيداً عن مسامعهما، ولا بأس بتلاوات من القرآن، وخاصة جزء عمّ».

قبل أن يغادر مجيد كان الخبر قد وصل إلى خيمة مجاورة، فأتى رجل يسأله أن كان يمكنه كتابة حجاب له ضد آلام الظهر، ففحصه مجيد، وطلب منه أن ينام على لوح خشب كل ليلة، وفي النهار ينام عدة مرات على لوح الخشب

أيضاً، ويقرأ سوراً من القرآن لمدة ساعة كل مرة، ثم أخرج من جيبه خمسين ليرة وأعطاها للرجل «واشتري لنفسك سكاكر بهذه الليرات».

حين عاد مجيد إلى خيمته أخبر صبحي عن طفلة تعاني من رهاب القصف ولا تزال بحالة صدمة، وطفل أصيب بضربة شمس، ورجل يعاني من بدايات آلام ديسك في العمود الفقري.

أتعلمُ يا صبحي؟ اليوم أوقفنا تعرصة كبيرة، لو عرف بأمر هؤلاء أحد كتبة الحجابات لكان أثرى من هذا العمل في المخيم، وإذا لم تنفع الأطفال السوائلُ والدفء والعاطفة تنفعهم السكاكر. قال مجيد قبل أن يصمت لوهلة متأملاً وأضاف، بكل الأحوال غداً سأنصب أعلاماً حمراء أمام خيمتنا وأكتب لافتة كبيرة «هنا خيمة الشيخ كاتب الحجابات».

إلى تركيا

بعد أيام قليلة أطلب من الشيخ توفيق إرسالي إلى تركيا لأشتري كاميرا، وأتمكن من مراسلة قناة «ال بي سي»، لا نتائج واضحة في ما يتعلق بالمخطوفين اللبنانيين، بتّ أعلم مَن الذي خطفهم فقد أسرّ لي الشيخ توفيق بنذر يسير من المعلومات كان يفوق كل ما هو متوافر في بيروت عن الأمر.

يرسلني الشيخ توفيق إلى أحد قادة المجموعات في أطمة، الرجل كان يعمل في الزراعة والتهريب، وأغلب منطقة أطمة الحدودية اتجهت إلى أنواع التهريب المختلفة مع بداية الثورة مستفيدة من خبرة عدد من أبنائها بالعمل في مرحلة ما قبل الثورة.

هناك يسهّل لي أبو فراس، قائد المجموعة الذي أرسلني إليه الشيخ توفيق، العبور نحو تركيا، مع عدد من الشبان السوريين الذين يتجهون لزيارة عائلاتهم في مخيم اللجوء في الريحانية.

ما إن نعبر الشريط الحدودي في حرّ حزيران حتى يتبعنا عنصران من حرس الحدود التركي، يصرخان ويقبضان على عدد من العابرين. نترك أصدقاءنا ونتابع الزحف بين شجر الزيتون، ونختبئ ونحن نسمع ونشاهد عناصر الحرس الأتراك يضربون الشبان الذين كانوا منذ لحظات يسبقوننا بالسير إلى القرية التركية الصغيرة ذات السكان البدو أو العرب، نصل بعد نصف ساعة من السير منحنين بين الأشجار القصيرة، وحين ندخل القرية نعثر على مهرّبنا أبو علي، الذي ينقلنا إلى الريحانية، المدينة التركية الصغيرة.

من تراب شجر الزيتون في أطمة وأوحال الأشجار المروية حديثاً في برنياس على الجانب التركي، إلى بلدة أو مدينة الريحانية، أو الريحانلي كما يدعوها الأتراك، هناك كانت هذه المدينة الصغيرة لا تزال هادئة بسكانها القلة في العام ٢٠١٢، وتنتظر نهاية الثورة في سورية حتى تستعيد دورها كممر لكل السياح العابرين من سورية نحو تركيا براً، حيث يقضون فيها ساعات ليرتاحوا من عناء الطريق، ثم يتابعون نحو المدن التركية الساحلية أو في العمق التركي.

سيارات قليلة تعبر الشارع الرئيسي في الريحانية، المحال التجارية تعيش حركة بسيطة، أكثر ما ينشط كان بيع الأرقام الخلوية، والمأكولات البسيطة وبعض ما يحتاج إليه العدد القليل من السوريين المتسربين من قبضة مخيمات اللجوء أو العابرين إلى تركيا تهريباً قبل أن يعودوا إلى بلدهم مجدداً.

الأسعار في تركيا لم تكن تشجع أياً من السوريين على المجيء إلى هنا، ولا الخليط السكاني المتشكل بأغلبه من ذوي الأصول السورية من العلويين، ومناطق الثورة لم تكن تشمل خط الحدود، إذ إن معبر باب الهوى كان لا

يزال بيد النظام، وكذلك قرية سرمدا، والعديد من الطرق الرئيسية، بينما كان علينا أن نسلك طرقاً معقدة، متجاوزين الفوج ١١١ في دارة عزة، وداخلين في مناطق تحت سيطرة حزب العمال الكردستاني، وملتفّين على قوات النظام حتى نصل إلى الحدود التركية، فكان أغلب الفارين من مناطق الثورة في سورية يفضلون الذهاب مباشرة إلى حِمى السلطات التركية في معسكرات اللجوء بدل المغامرة ودفع تكاليف عالية في القرى والبلدات التركية.

حصلتُ على كاميرا من محل صغير لبيع الإلكترونيات، وعدتُ إلى سورية بعد قضاء ليلة في زريبة للأبقار في برنياس، تحولت مع الوقت إلى مستودع للسلع المهربة، وبعدها إلى مضافة لتهريب البشر من وإلى سورية. مضيفي في الزريبة أبو علي كان يخبرني عن أعماله في التهريب، حيث تحولت الأعمال من استيراد الدخان من سورية إلى تصدير بنادق الأوتوماتيك (البومب أكشن ذات الطلقات الخمس المخصصة للصيد) إلى سورية، وتحولت كل صناعة البنادق من هذا النوع في تركيا للتصدير إلى سورية تهريباً خلال الجزء الأخير من عام ٢٠١١، وبعدها صار تهريب البشر هو الأكثر ربحية، ومع ذلك بقي تهريب السلاح مطلوباً، ولكنه يتضمّن مغامرة كبيرة.

«تلك أعمال تحتاج إلى مهربين كبار» يقول أبو علي، ويتابع أن الشاحنات التي تهرّب السلاح تمرّ ليلاً عبر الحدود، وعادة ما يكون أحد ضباط حرس الحدود الأتراك برفقتها، ويعترف بأنه يفضّل ألّا يطل برأسه حين تمر هذه الشاحنات، ولكنها وبكل الأحوال لا تمر بكثافة.

ركضاً هذه المرة إلى الجانب الآخر من الحدود، بعد الاتصال بأبو فراس يرسلني أبو علي باتجاه الأراضي السورية، وأسرع نحو الشريط الشائك،

فأدخل إلى المنطقة المحرمة من الأراضي السورية، وهي بحسب الاتفاق بين الحكومة التركية والنظام السوري تتكوّن من مسافة ٢٠٠ متر بعيدة عن الشريط الشائك الحدودي يمنع على السوريين الزرع أو السير فيها، وتم انتزاع كل ما عليها لتسهيل مراقبة الأتراك لخط الحدود. من هناك أعود في طريق متعرج وطويل إلى قرية قبتان الجبل، حيث أمضي بضعة أيام في العمل بين المقاتلين المحليين. حينها وقبل انتصاف شهر حزيران من العام ٢٠١٢ ألتقي لأول مرة بمقاتلين عرب من الجزيرة العربية، وضمن تشكيلات القاعدة المتعددة في تلك الفترة، كانوا يتخذون من إحدى ساحات المدارس في دارة عزة موقعاً للتدريب، إلى ذلك الحين كانت المناطق ترفض وجودهم بين سكانها، فكانوا يلجأون إلى السكن في الجبال القريبة في مبان شبه مهجورة، ويحسنون معاملة السكان، ويحاولون اختراق شبكتهم الاجتماعية، كثيرو الابتسام قليلو الاعتراض، ودائماً يتحدثون عن الجهاد. صورت المجموعات القاعدية وهي تتدرب وطلبت من مسؤولهم تلاوة بيان يعرف عنهم أمام الكاميرا، فوافق.

أقرر المغادرة إلى بيروت، أسأل الشيخ توفيق عن أفضل السبل للعودة إلى بيروت، فيقول لي عد كما جئت، أتخذ طريق النظام، من حلب إلى بيروت في وسائل النقل العامة.

قبل ليلة المغادرة زار الشيخ توفيق المنزل حيث أبيت، وسهر، وفي نهاية السهرة خرجنا قليلاً إلى الشرفة، هناك قال لي الشاب البالغ من العمر ٣٨ عاماً، والذي تحول من قصاب إلى قائد للثورة في منطقته، أن المخطوفين بين أيدي عمار الداديخي، وهو قائد لواء عاصفة الشمال، وإنه خلال لقاءات

قيادات الثورة والتي ضمت عمار، طالبه بالإفراج عنهم من دون شروط، وكذلك فعل عدد من القادة، ولكن عمار امتنع عن إعطاء جواب، ثم طلب مني توفيق أن أبقي الأمر طي الكتمان حالياً، عسى أن تنتهي الأمور إلى خاتمة سعيدة قريباً، ونصحني بألّا أتعامل مع عمار الداديخي، لمكره وخداعه وشدة بطشه. فلم أرتدع، بل أكدت له أنني سأواصل العمل حتى يصلني هو أو غيره بالداديخي.

في آخر الليل فككت جهاز «اللاب توب»، وأخرجت منه القرص الصلب تاركاً أغراضي وجهازي بعهدة صبحي، وانطلقت صباحاً من قرية قبتان الجبل برفقته إلى أحد مفارق قرية حوَّر ملتفّين على حواجز النظام السوري، وهناك أودعني صبحي في حافلة ركاب صغيرة، أوصلتني إلى مدينة حلب، حيث أضعت الطريق لساعات قبل أن أصل إلى موقف الباصات المتجهة إلى دمشق. وطوال الطريق الطويل ما بين حلب ودمشق كانت مشاهد الحرب قد ازدادت كثافة بعد أسبوع واحد من الغياب، وعلى مفترق الطرق المؤدي إلى معرة النعمان لم يكن ممكناً معرفة هوية الواقف على الحاجز، أقرب إلى الطفل منه إلى الشاب، يحمل بندقية كلاشنكوف ويرتدي ثياباً مدنية، يصعد إلى الباص ويدقق في هويات الركاب، ينزل أحد الشبان بعد عثوره على دفتر العسكرية معه، ثم يطلق سراحه بعد أن تتدخل والدته بكلام طويل. لم يكن ممكناً تسجيل الملاحظات، إذ نجوت من الحواجز فإن الركاب أنفسهم قد يشون بك.

عند الاقتراب من العاصمة دمشق تظهر شاحنات ناقلة للجند وهم يوجهون أسلحتهم إلى السيارات العابرة قربهم، كما تظهر شاحنات أخرى تنقل ذخائر بحماية مشددة من سيارات عسكرية فيها جنود يصوّبون

بنادقهم أيضاً نحو السيارات المدنية، ويصبح مشهد الحرب هنا مشهد توتر لا أكثر.

في الباص الصغير الذي ينقلني من موقف حلب إلى موقف باصات بيروت، يسأل الطفل الجالس خلفي أباه عند مرورنا أمام مجموعة من المسلحين بثياب مدنية «هل سيضعون لنا متفجرة بحال علموا أننا مسيحيون؟»، فينهره أبوه بصوت منخفض ويطلب منه السكوت الكامل، «كم مرة طلبت منك الصمت حين نخرج من المنزل؟»

في بيروت لم تكن النتائج كما نرغب، بيار الضاهر أعجب بالصور التي جمعتها، وطلب مني بيعها لفضائيات أخرى، رفضت فكل تمويلي من الـ«ال بي سي»، وبالتالي كل هذه الصور هي ملك للمحطة، ولها حرية التصرف بها حتى لو قررت رميها في القمامة، كل ما كان يريده بيار الضاهر هو صور المخطوفين اللبنانيين، بدا أن الأمر سيتطلب المزيد من العمل والرحلات، لم يتردد بيار في الموافقة على المتابعة، ونصحني بشراء كاميرا تفي بالغرض، مع كل مستلزماتها التقنية.

قبل مغادرتي بيروت التقيت بضابط الارتباط من حزب الله في منزل والدتي، كانت والدتي المسنّة مريضة، وشقيقتي الكبرى عاجزة عن الاهتمام بها، بل وأغلب أوقات شقيقتي في المستشفيات تعالج من مرض عضال.

حاول ضابط الارتباط الحصول على معلومات حول المخطوفين، ذكر لي أن قيادة الحزب لا تملك أية معلومة يُركن لها في هذا الموضوع، سخرت منه، عاد وأقسم أن قيادته تتصرف وكأنها غير معنية، وقلّة في جهاز الأمن

يهتمون بالأمر، ولكن دون جدوى، صمتُ عن ذكر اسم الخاطف أمامه، وأخبرته أنني لم أقابل أي شخص له علاقة بالأمر مباشرة، وأنني لا زلت في بداية البحث عنهم.

خلال أحاديثنا في تلك الليلة أخبرني الضابط أن حجم تدخل الحزب في سورية هامشي، وأن مجموع القتلى من الحزب حتى بداية العام ٢٠١٢ لا يتجاوز ٢٢ شاباً، وأن العمل الرئيسي هو في الإعداد العسكري والديني وتدريبات مكثفة حول الإدارة الذاتية تجري في مناطق ومواقع خاضعة لسيطرة الحزب في لبنان، وزودني بأسماء مشائخ وأرقام هواتفهم في المناطق القريبة مني في ريف حلب، وتحديداً في نّبل والزهراء، بحال احتجت للاتصال بهم بأي شكل ولأي سبب كان. وطبعاً تركت هذه الأرقام خلفي في بيروت، ونسيت الأسماء والأوراق التي سجلتها عليها.

اتصلت بالمستشار الإعلامي للأمين العام لحزب الله، تحدثنا طويلاً وكان لا يزال يعتقد بأنني أرغب في العودة إلى صحيفة **الأخبار**، لم أقل صراحة إنني خارج هذا الإطار كلياً، كنت أخشى الإعلان الصريح عن رأيي في موقف الحزب من الثورة السورية، وكنت اخشى القول بأن ما شاهدته حتى اللحظة في سورية يناقض كل الكلام السياسي الذي نسمعه في بيروت من جانب مؤيدي المقاومة وحزب الله وأجهزة إعلامه، لـمّحت إلى ذلك خلال الحديث، ولكني اصطدمت بموقفه القريب مما نسمعه في أجهزة الإعلام، كان الرجل متيقناً من موقفه إلى حدّ كبير، سألته عن ملف المخطوفين، وأخبرته أنني أعمل عليه، فقال لي بأن لدى الأمين العام لحزب الله معلومات واسعة حول الملف.

وكذلك قمت ببعض الاتصالات بسياسيين لبنانيين، البعض كان مفيداً لناحية المتابعات، وسياسيين آخرين كانت العلاقة معهم ضمن أطر المهنة والمتابعات المحلية.

قبل أن أغادر عدت والتقيت ضابط الارتباط من حزب الله، ليعود ويؤكد لي أن ملف المختطفين فارغ لدى الحزب، وإن كان من ملف أمام طاولة الأمين العام فلا بد أن يمر من عند جهاز الأمن، وهذا لم يحصل، ثم يقول لي بأن «مستشار الأمين العام لن يعلن أمام صحافي، سواء أكان أنت أم غيرك بأن ليس لدى حزب الله أية معلومات ذات جدوى حول المخطوفين، أو حتى أن القيادة ليست مهتمة بالموضوع، ولكن ما دمنا في لقاء مغلق فاعلم اننا لا نملك أية معطيات، فزودني على الأقل باسم الجهة الخاطفة». أرفض تقديم أي اسم له، وغادرت بيروت مجدداً.

حين قال الأمين العام لحزب الله جملته لخاطفي اللبنانيين الـ ١١ في سورية «بالحرب بالحرب، بالسلم بالسلم، بالحب بالحب» في ١٩ حزيران ٢٠١٢، كان ضابط الأمن في حزب الله يجلس أمامي، نفسه الذي أعرفه منذ أعوام، ويتحدث ساخطاً إلى حد ما «هؤلاء البائسون لم يجدوا من يكترث لأمرهم» بينما يؤكد طوال الوقت أن ملف المخطوفين فارغ من المعلومات، لا دلائل على تفاصيل الخطف إلا ما قدمته النساء العائدات من سورية، ولا معلومات حول مكان تواجد المخطوفين، ولا عن هوية الخاطفين. كان الفشل الأمني هو عنوان تلك المهمة التي أوكلت إلى أحد أقوى أجهزة الأمن في حزب الله، إلا أنه ومع انقضاء الأسابيع الأولى (بعيد رحلتي الأولى إلى سورية) لم يكن قد توفر أي شيء جدي في الملف.

الحوار لم يدفعني إلى تقديم المعلومات المتأتية عن زيارتي الأولى، كان أبو سليمان قد أسرّ لي بعد قضاء خمسة أيام في ضيافة ثوار مناطق الريف الغربي، أن الخاطف أبو إبراهيم رجل غير متعقل، «أصلحه الله». قال، «لقد وَضَعَنا جميعاً في موقف صعب، لقد حذّرته من أن الأمر سينتهي بمحاكمة دولية، وأن عملية الخطف ستكون بمثابة جريمة حرب، وغيري كثر حاولوا الضغط عليه لإنهاء الملف».

في بيروت، عقب الرحلة الأولى، كانت البلاد تعيش النزاع التقليدي الدائم، وكنت قد تخلصت منذ شهر تماماً من الارتباط بجريدة **الأخبار** التي حسمت تأرجحها بين مشروعها السياسي وبين تأييدها للنظام السوري باتخاذ الخيار الأخير نهائياً مستعينة بالطائفة الشيعية كداعم لوجودها ومبرر له، بينما كان حزب الله لا يزال يحاذر الإعلان عن أية مشاركة له في القتال في سورية، وكنت ألتقي الضابط في أحد أقوى أجهزة أمن الحزب. جالسين في مكان ما في الضاحية الجنوبية لبيروت، وهي من المرات الأخيرة التي سأدخل فيها إلى الضاحية، كانت شاشة التلفزيون تنقل أمامنا صورة الأمين العام لحزب الله وهو يلقي خطابه، بينما الحرّ في خارج المكان خانق، والمكيف يعمل بأقصى طاقته، والأمين العام للحزب يعلن في كلمته موقفاً مؤيداً للنظام السوري، ويرفض أي ابتزاز في موضوع المخطوفين، ملقياً المسؤولية الكاملة في الملف على عاتق الحكومة اللبنانية، بصفتها مسؤولة عن مواطنيها.

«ماذا تقرأ في خطاب الأمين العام الآن؟ واضح أن لا اهتمام جدياً بملف المخطوفين، رغم كل محاولاتك الحصول مني على معلومات».

صمَتَ الرجل، كان ينظر إلى مكان ما ساهماً للحظة، ثم قال: هو يتحدث هكذا أمام الإعلام، ولكننا مهتمون بكل تفصيل، ثم سألني إن كنت سأغير موقفي في ما لو اهتمت قيادته أكثر برحلتي الأولى قبل أن أشرع بها؟

«حتماً، كنت لأتأكد من نواياكم، ولكن الآن فقد اقتنعت أن هؤلاء المعتقلين تُركوا لأمرهم، هل تذكر يوم التقيت ببيار الضاهر (المدير العام للمؤسسة اللبنانية للارسال) واتفقنا لأول مرة على العمل على هذا الملف لمصلحة المؤسسة؟ حينها اتصلت أنت بي بعد حوالي الساعة لتهنئني على العمل مع الـ«ال بي سي»، كنت مهتماً بما سأفعله، ولكن ١١ مخطوفاً في سورية لم تحصلوا على معلومة واحدة مفيدة عنهم، هل هذا دليل اهتمام؟».

الرجل الذي يعرّف عن نفسه بأنه أحد الأشباح (تعريف الضباط العاملين في أجهزة أمن حزب الله والذين تختفي كل المعلومات الشخصية عن هوياتهم ويصعب تتبعهم أو معرفة من يكونون وماذا يعملون تحديداً). تحدث طويلاً عن ضرورة متابعة الملف، والحصول على معلومات تتيح لقيادة حزب أن تعمل على حل للملف وإعادة المخطوفين، وحتى وضع القيادة أمام مسؤولياتها.

كان الرجل يتحدث عن موقفه الخاص، أو ربما يحاول استدراجي للحصول على المزيد من المعطيات، وطبعاً لم يغيّر ذلك في واقع الأمور شيئاً، فكان ردي «من يريد العمل على إنهاء الملف لا يقول بالحرب بالحرب، بالسلم بالسلم».

وفي نهاية اللقاء سألني إن كنت سأعود إلى سورية، «طبعاً، التزمت مع بيار

الضاهر، وسأقوم بعملي كاملاً». فطلب مني إجابته حين أعود عن سؤال واحد فقط: «ماذا يريد الخاطفون».

في تلك الراحة في بيروت يكشف لي أحد القادة الأمنيين في حزب الله عن مشاركة الحزب «المحدودة» على الحدود مع لبنان في القرى الشيعية داخل الأراضي السورية، حينها يقول لي القائد هذا إن الحزب تلقّى العديد من الضربات من الجيش الحر، وقرر الرد، فاستخدم مدفعية الهاون من عيار ١٢٠ ملم في قصف مواقع للجيش الحر، وهاجم بعض المواقع الأخرى مباشرة بقوات متخصصة، وهو كان يحاول توجيه رسالة إلى الجيش الحر بعدم التحرك بمواجهة المناطق اللبنانية أو التعرض لقرى تعتبر موالية للحزب، أو قرى شيعية. اكتفى القائد السري في حزب الله بهذا الكلام دون أن يضيف أية معلومات أخرى حينها، لكنه لاحقاً تحدث عن مشاركات أوسع.

عندما وضعتُ هذه المعلومات أمام صديقي الشبح لم ينكر، واعتبر أن هذه المشاركة الدفاعية لن تؤثر على وضع المخطوفين، ولكن لا شك في أن الأمور تتعقد كل يوم أكثر فاكثر.

الى سورية مجدداً

هي الرحلة الثانية، من بيروت شمالاً إلى اسطنبول، حوالي ألف كيلومتر في الطائرة، ثم من اسطنبول إلى الجنوب مع انحراف نحو الشرق، حوالي ٨٥٠ كيلومتراً، ومن مطار هاتاي إلى بلدة الريحانية، ومنها عبر المهربين نحو برنياس، ومن برنياس عبر الشريط الشائك نحو سورية حيث ينتظرني أبو فراس.

أمضيت يومين في منزل أبو فراس، كان الرجل قد بدأ بالتحول من ثائر إلى تاجر، تعرفت هناك إلى أحمد عفش، قائد مجموعات عندان، ولاحقاً سيكون قائد «لواء شهداء سورية» وأحد أكثر الشخصيات المتهمة بالسرقة والفساد وتلقّي الرشى من كل الجهات بما فيها النظام السوري.

لكن في تلك المرحلة كانت عندان تحت النار، وكان أحمد عفش أحد القادة الفعليين للقرية الكبيرة أو المدينة الصغيرة. صادف وصولي إلى منزل أبو فراس محاولة تقدم الجيش السوري لإسقاط عندان، ونجح مقاتلو المدينة

بتكبيد الجيش خسائر كبيرة، وترك خلفه عدد من الآليات، بينها عربتان تحمل كل منهما رشاشين من عيار ٢٣ ملم على شاحنة صغيرة، وصل بإحداهما أحمد عفش إلى قرية أطمة قادماً مساءاً من عندان.

بدأت مفاوضات مع أبو فراس لإيصالي إلى الخاطفين، و أعطيته عربوناً منظاراً ليلياً مدنياً اشتريته في بيروت من السوق السوداء، ما لبث أبو فراس أن باع المنظار خلال وجودي إلى أحمد عفش، وطالبني بإعطاء الأخير مبلغ ٤٠ ألف دولار أميركي لإيصالي إلى الخاطفين.

بعد اتصالات طويلة مع الـ«ال بي سي»، وافقت المؤسسة على وضع مبلغ بتصرفي، إلا أن إصرار أبو فراس على إدخال المبلغ إلى سورية قبل نقلي إلى الخاطفين بدأ يصبح مزعجاً ومثيراً للريبة، فمن أسهل الأمور في بلاد تعيش حرباً فوضوية هو سرقة المال والتنصل من الاتفاقات، هذا إذا لم يتعرض المفاوضون للقتل والإخفاء.

انقضى يومان وأنا أقطن منزل أبو فراس، وأعيش قلقاً من رجل كان يمكنه لعب دور في قيادة الثورة في منطقته قبل أن يقرر التحول إلى مجرد تاجر من تجارها، بعد أن باع ما لديه من أرزاق للمساهمة في شراء السلاح وطرد النظام، ثم صار يتاجر بالبنادق والرصاص وعبور الحدود، اتصلت بصبحي بعد محاولات طويلة وبعيدة عن أعين أبو فراس، رغم أنني كنت أقطن في منزله وتحت مراقبته، وطلبت من صبحي أن يمر سريعاً لأخذي. في تلك الليلة ذهب فراس للقتال في عندان، وبقي أبو فراس يعرض البنادق التي لديه على زواره لبيعها، وأحمد عفش كان يؤسس لمبيت العديد من عناصره في مركز جديد في قرية أطمة، بينما كنت أحسب الدقائق بانتظار

ظهور صبحي الذي أخبرني أنه في مكان قريب وسيمر لأخذي رغم عدم معرفته بمكان منزل أبو فراس.

اعتقد زوار أبو فراس أنني من المجاهدين العرب الذين شرعوا بالتوافد إلى سورية، وكل من زاره كان يتحاشى التحدث إليّ، مهابة وخوفاً من صورة بدأت تلمع للمجاهدين في سورية لشراستهم وغموضهم والتزامهم بالقتال وانعدام الرأفة في دواخلهم. وصل صبحي في وقت متأخر من الليل، حاول أبو فراس ثنينا بصدق عن الرحيل إلى قرية قبتان الجبل، بحجة تجنيبنا القيادة ليلاً في طرق غير مأمونة، وفي مناطق بدأت تتعرض للقصف المدفعي، إلا أنني أصررت على الذهاب، ولم يتأخر صبحي عن تلبية مطلبي، وعلى الرغم من أن الرجل لم يسئ إلي غير أن الشكوك كانت أقوى من أن تطفأ بكلمات لطيفة.

قبل أن نغادر، وعظني أبو فراس بضرورة إقامتي للصلوات، «من يعلم متى نموت في هذه البلاد، وأنت أصبحت مثلنا، قد تقتل الليلة أو غداً، أقم صلاتك». شكرته وانطلقت مع صبحي نحو قبتان ليلاً.

تلك الليلة في السيارة التي تنهب بنا الأرض، وصبحي بقيادته المجنونة بين القرى المحررة من الجيش النظامي، كانت البندقية هناك بيننا، هي الحامي الوحيد لنا، «لا لصوص في هذه المناطق» قال صبحي، قبل أن يتابع بطريقته الساخرة، «إلا بعض جماعتنا»، وهو يعني بعض مجموعات الجيش الحر، إلا أن الحقيقة أن اللصوص لم يكونوا قد انخرطوا بعد في الجيش الحر، كانت المناطق المحررة لا تزال تعيش ليلاً بهاجس وجود أبناء القرى المؤيدين للنظام، والذين لم يسلموا أسلحتهم بعد، أضف أن المناطق لم تكن صافية

بأي شكل من الأشكال، وما بين القرى السنية والطرق المفتوحة مع قريتَيْ نّبل والزهراء، والطرق المشكوك بأمرها، أو غير المرصودة، وقرى الأكراد التي تسهّل حركة كل الجهات، فإن السير ليلاً يعدّ من الجنون المحض.

كان صبحي يقود بسرعة جنونية طوال الوقت، وكان الوقت ليلاً،وبما أنه لن يلتف إلى البندقية، لم يكن أمامي سوى الإمساك بها وتوجيه فوهتها إلى فوق والاستعداد للدفاع عن أنفسنا، وكلي يقين بأن العديد من المراسلين الحربيين في سورية سيحملون السلاح أو هم فعلاً حملوه لحماية أنفسهم، أو سيدخلون برفقة مختصين بالحماية كما جرى في العراق وفي ليبيا وغير مكان.

في تلك الليلة وصلنا إلى القرية الصغيرة، وهي ومحيطها يتعرضان للضرب بمدافع مضادة للطائرات من عيار ٥٧ ملم يستخدمها موقع الفوج ١١١ لضرب دارة عزة والقرى حولها.

في اليوم التالي التقيت بالشيخ توفيق شهاب الدين. كانت القرية لا تزال عملياً مطوّقة من جهتين، ولا تزال العمليات العسكرية تدور في محيطها، أخبرت الشيخ مجدداً بمطلبي مقابلة خاطف اللبنانيين، وحكيت له ما جرى معي في أطمة مع أبو فراس، علّق توفيق مستاءً، قال لي «اتركني لأتدبر الأمور» فاخذت كلامه كتسويف لن ينتج أي شيء.

بقيت في منزل صبحي، الرفيق الدائم، الذي لم يتركني أتحرك في القرية دون مرافقة، كان يخشى من تعرضي لأي مكروه، كما كان حريصاً على ضيافتي ومنعي من شراء أي شيء من الحاجيات من مالي الخاص. تعامل معي

الشاب ذات الثمانية والعشرين عاماً كما لو أنني أخوه الأكبر العائد من بلاد بعيدة، ونشأت إلى جانب الرفقة والودّ حالة من الثقة المتبادلة.

صبحي الذي لم يمضِ في الصفوف الدراسية طويلاً كان يتمتع بذكاء عاطفي وتجربة حياتية إذ ألقته الدنيا في سوق العمل وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره. ولا يشكل الشاب حالة خاصة في الأرياف، إذ سأتعرف في مراحل لاحقة إلى الكثير من الشبان، بعضهم يقضون وهم يقاتلون وآخرون لا زلت على تواصل معهم، يبلغون من الفطنة مبلغاً كبيراً ولمعوا في أعمال الثورة والقتال والإعداد، إلا أنهم كانوا من ضحايا التسرب المدرسي ذي المعدل المخيف في سورية.

يؤكد لي صبحي كل يوم أن الشيخ سيعمل على لقائي بالخاطف، دون أن يتكلم مع توفيق أو يعرف أكثر مما أعلم، إلا أنه كان واثقاً من مسار الأمور.

مع دخول كل قادم إلى المنزل كان يسأل أهل الدار هل شاهد الصحافي الصواريخ التي يضربنا بها النظام؟ في إحدى زوايا الغرفة كان ثمة بقايا صاروخ جو - أرض مضاد للدروع تحمله المروحيات، إذ سبق أن أطلقت مروحية حوالي ثمانية صواريخ باتجاه القرية منذ أسابيع ولا يزال كل قادم يعتبر بأن ما حصل شيء يفوق الوصف. حين دخلت الدار أول مرة أروني الصاروخ معتبرين بأنهم يقدمون لي خدمة إعلامية جليلة، وكان من دواعي إحباطهم أنني لم أمد يدي إلى كاميرتي لأصور بقايا الصاروخ الصغير، بل اكتفيت بأن سألت هل أصاب سياراتكم؟ فأجابوا بأن المروحية قد أطلقته على المنازل الآمنة، فعقّبت قائلاً: إذاً لم يتأذى أحد، وجلست. ومع دخول كل زائر كان الحوار نفسه يجري: هل شاهد الصحافي الصواريخ التي

يضربنا بها النظام؟ ويأتي الجواب من صبحي: نعم ولم تعجبه فلم يصورها.

لاحقاً ومع تطور الحرب ستصبح هذه إحدى النوادر التي يكررها صبحي وعدد من الشبان حول سذاجة المقاتلين والثوار في المراحل الأولى من العمل.

أمضيت أياما وسط أهل ريف حلب، أتنقل في قراها وأصوّر معارك الثوار ونقاشاتهم، والجلسات العامة، والنقاشات المتبادلة حول الأسلحة التي يستخدمها النظام، إلى أن زار الشيخ توفيق منزل صبحي ذات مساء لتناول طعام العشاء، وسألني «يا أبو فرح أنت في الغد مشمِّل؟» (أي متجه شمالاً)، فأجيبه «لا أعلم» وفي اليوم التالي أرسل بطلبي إلى منزل يشغله حيث كان هناك النقيب نمر(١) من عندان وعدد من المقاتلين، وكان قد اتفق أن أصلح المقاتلون في قرية قبتان أحد المضادين للطائرات من عيار ٢٣ ملم المأخوذ من قوات النظام في عندان، وطلب عبد القادر الصالح (الحجي مارع)(٢) استعارته، للقيام بهجوم على قوات النظام في إحدى المناطق.

---

(١) هو المنشقّ عن الجيش السوري علاء منصور أوسو، من سكان بلدة حيان، علماني ومن المقاتلين القلة المحترفين الذين عملوا في فصائل متنوعة الانتماءات دون تمييز بين عناصره. وقتل خلال اقتحام مقر الأمن العسكري في مدينة أعزاز، وكان أول من دخل إلى المقر في ١٧/ ٠٧/ ٢٠١٢، وسبق أن أصيب عدة مرات قبلها، وكان من المرشحين لقيادة عندان وقواتها بعد إبراهيم عفش، الذي قتل في بدايات العمل العسكري، وبعد إبراهيم عفش انقسم الصف في عندان واتجه أحمد عفش إلى تكوين قوة مسلحة بدعم من جهات خارجية تهتم بفرض الخوات أكثر من القتال ضد النظام.

(٢) هو قائد لواء مارع، ولاحقاً أحد مؤسسي لواء التوحيد وقائده العسكري، محبوب من سكان المناطق التي عرفته، ومن عناصره المقاتلة، قاد لواء التوحيد خلال معارك مدينة حلب، وما بعدها واقترب من تنظيم الإخوان المسلمين وحصل على تمويل كبير ودعاية قطرية دائمة عبر قناة الجزيرة، وقتل في غارة للطيران السوري على المقر حيث كان يتواجد يوم ١٨ تشرين الثاني العام ٢٠١٣.

طلب الشيخ توفيق من النقيب نمر إيصالي أمانة إلى الحجي مارع، وأخبرني على انفراد بأن الحجي مارع متعاون جداً بموضوع المخطوفين، وأن بإمكانه إيصالي إلى عمار الداديخي بسهولة، وقال لي انت من اليوم تنطق باسمي، اطلبْ من عمار الداديخي ومن الحجي مارع تخليصنا من هذا الملف، ربما كان العديد من شحنات الذخيرة قد توقف بسبب خطف الداديخي للبنانيين، اعملْ كل ما في وسعك لإطلاق سراحهم، وأخبر عمار أنني من أرسلك وأنك تتحدث نيابة عني.

بعد طريق طويل وشاقّ، ومرور بقرى يحتل الجيش النظامي نصفها ويسيطر الثوار على النصف الآخر، ومرور على طرق دولية بالقرب من حواجز للجيش، بينما النقيب نمر يقود السيارة وترافقنا شاحنة الرشاش المضاد للطائرات، وبعد ضياع في الطرق الزراعية المتربة عدة مرات كادت تودي بحياتنا وتوصلنا إلى مواقع للنظام السوري، وصلنا إلى مارع، وسلم النقيب نمر الرشاش إلى الحجي مارع، ومع الرشاش ترك جمعة الصيدلي[1] الرامي على الرشاش ليدرب شباناً من مارع على الرماية لمدة ساعات، على أن يعيدوه إلى عندان في تلك الليلة. وخاطب النقيب نمر الحجي مارع بالقول «أحمل لك أمانة من الشيخ توفيق»، «حسناً أين هي؟» سأل الحجي (عبد القادر الصالح) فأشار نحوي وقال «ها هي».

---

(١) جمعة شاب من قبتان الجبل، متخصص في الصيدلة، ورام ماهر على رشاش الـ ٢٣ ملم المضاد للطائرات، سبق أن تلقى دورات عليه في الجيش السوري خلال خدمته الإلزامية، واستشهد خلال إحدى المعارك حين كان يتقدم على موقع يسمى «المرش» ويقود سيارة الرشاش صبحي، الذي أصيب بدوره إصابة خطرة.

تلقفني عبد القادر الصالح بحسن الاستقبال بصفتي أمانة، وأجرى بعض الاتصالات، ثم قال لي على الارجح أن أبو إبراهيم (الداديخي) هنا في مارع، وأرسلني من فوره إلى منزل برفقة أحد معاونيه الأمنيين، هناك دخل رجل ضخم البنية وعرفني مرافقي عليه بصفته مساعد أبو إبراهيم، وتحدثنا لدقائق حول هدفي من الزيارة، وشرح له مرافقي الذي يلمّ بلبنان وأحواله لطول سكنه فيه وعمله بين أهله عن محطة «ال بي سي»، وفي النهاية قال الرجل كلمة واحدة «جيد» فأخبرني مرافقي أن هذا الرجل هو أبو إبراهيم.

إذاً يوم الخامس والعشرين من حزيران التقيت لأول مرة بأبو إبراهيم، الذي صرف مرافقي، وتحدث طويلاً، شربنا الشاي وتناولنا الطعام ونحن جالسين على الأرض، بدأ حديثنا بأن المخطوفين هؤلاء من جواسيس حزب الله، وأنه تم ضبط أجهزة تصوير عالية الدقة معهم، وراح يخبرني كيف تم إيقاف الباص الأول، وقال إنه حين صعد إلى الباص الأول ظنّ الموجودون بأن الحاجز تابع للمخابرات السورية، فقام أحد الركاب وعرف عن نفسه بأنه من ضباط أمن حزب الله، فابتسم أبو إبراهيم، فتابع الرجل «نحن مثلكم ضباط أيضاً»، فسأل الركاب عن هدفهم وعلم أبو إبراهيم أن ثمة باصاً آخر، وتم انتظار الباص الثاني[1]، وانزل الرجال من الحافلات

---

(١) لاحقاً سيخبرني أحد المعتقلين المحررين وقبل نهاية أزمة الرهائن بأن أحد الشبان عرّف عن نفسه بأنه من ضباط حزب الله، وأن التحقيقات التي أجراها الخاطفون تركزت مع هذا الشاب، بينما كانت شكلية مع الآخرين. وأن هذا الشاب الذي عرّف عن نفسه بأنه من ضباط حزب الله كان دائماً ما يثير المتاعب للمخطوفين، فهو حيناً يقول لأبو إبراهيم بأن النوافذ في المنزل حيث يحتجزهم بحاجة لإصلاح، مما يدفع الداديخي شديد الريبة إلى إغلاق النوافذ بصفائح الفولاذ، وحينا يحاول الهروب فيجري اعتقاله مجدداً ويمنع المخطوفون من الخروج إلى الشمس من بعدها.

واقتيدوا مأسورين، بينما تم تسيير الباصين مجدداً بالنساء نحو مدينة حلب.

وتحدث عن وضع المخطوفين، فقال بأنهم يعيشون بحالة جيدة جداً، والذي بحاجة منهم إلى أدوية يتم تأمينها له بشكل متواصل، وبعضهم يدخن النارجيلة، وطعامهم يُطهى بحسب طلبهم، وثمة امرأة تهتم بغسل ملابسهم، كما أن هناك حلاقاً لمن يرغب بقص شعره منهم.

طلبت منه تصويرهم، فرفض، وبدأ يساوم حول الأمر، ثم طلبت منه تصويره هو فرفض تماماً، بقينا نتحدث لساعات طويلة، واستدعى مجموعته الإعلامية، فتعرفت إلى محمد نور وجمعة، وشرعا يسألان حول أساليب العمل والتصوير والنشر، وصرف جمعة وأبقى محمد نور، طالباً إليه تصوير اللبنانيين، وإرسال الصور إليّ عبر البريد الالكتروني، ثم سألني «أتعرف عقاب صقر؟»، فقلت لا، ليس شخصياً، ثم أشار إلى محمد نور فبحث في هاتفه وأخرج صورة تجمع أبو إبراهيم وعقاب صقر «كان عندي في المعسكر[1]»، ثم أراني محمد نور صورة أخرى تجمعه وأبو إبراهيم مع عقاب صقر.

ثم زار أبا إبراهيم عدد من كوادره العسكرية، وأبقاني في المكان أثناء الحوار معهم، كانوا يسألون عن عدد من المخطوفين المدنيين وكان يجيب «قولوا بأنهم ليسوا عندنا».

حين بقينا بمفردنا مجدداً أخبرني عن خدمته العسكرية في لبنان، حيث كان في منطقة سهل البقاع، «إذاً ليست المرة الأولى التي تعتدي فيها على اللبنانيين»

---

(١) معسكر جبل الأحمر المتاخم للحدود التركية السورية قرب أعزاز.

قلت محاولاً صياغة جملتي على شكل مزحة، فقال «أعوذ بالله، مرة واحدة ومن شدة الجوع هاجم رفاقي العسكريون بسطة خضرة، وبقيت بعيداً، لكنني في النهاية سرقت برتقالة، وإلى اليوم أقول سامحني الله على ما فعلت».

هذه الروح المتسامية لم تكن موجودة خلال ساعات ماضية حين كان يطالبه مقاتلوه بمخطوفين من المدنيين، وكان يرفض الإفراج عنهم.

تحدث أبو إبراهيم عن أن الله قد رزق الثورة من المال ما يكفي، فلم تعد بحاجة إلى ألف يورو أو نصف مليون يورو، ثم قال لي: لقد عرضت (قطر) مبلغ خمسين مليون يورو لإطلاق المعتقلين، ورفضنا. وسألني كم تدفع لك القناة حتى تجلب لها الصور؟ فقلت أن الأمر مرتبط بالصور ومدة التصوير، فيردّ ممازحاً: «نحن يا سيدي سنعطيك الصور مقابل مبلغ مئة ليرة سورية»[1].

خلال حديثه الطويل قال لي: إنك رجل عاطفي وعمرك مناسب للعمل في هذا المجال. أي مجال؟ مجال الرهائن. هل سيصبحون ١٢، أسأله ضاحكاً. معاذ الله أنت في منزلك ولن يمسك أحد، قال. في جو الحديث الذي قاده أبو إبراهيم كان واضحاً محاولته إشراكي في مفاوضات حول الأسرى، كان يريد خطاً إضافياً يفتح له مباشرة على حزب الله، وسألني إن كنت أعرف جماعة حزب الله وإيران في لبنان، فأجبته: طبعاً، ففي النهاية أنا صحافي ولبنان بلد صغير، والصحافيون يلتقون بكل الجهات. وتابع هو في التلميح إلى إشراكي في المفاوضات، وتجاهلت إشاراته كلياً.

(١) ما يعادل دولاراً ونصف دولار في تلك الفترة.

تناقشنا طويلاً أن عملية خطف لبنانيين شيعة لن تفيد الثورة، بل ستؤلب الرأي العام اللبناني ضدها، وستحرج أصدقاء الثورة، وستشكل حافزاً لحزب الله على تحشيد جمهوره مذهبياً، طالما أن التهمة الوحيدة المثبتة على المخطوفين هي كونهم ينتمون للطائفة الشيعية. ويبتسم الرجل بطرف فمه، ويجيب بكلمات متفرقة، ويقول «على كل هم يتنسمون هواء لبنان الآن، ولكن من جهة أخرى» - قاصداً أنهم في إسرائيل أو في مكان قريب من إسرائيل، وهو الأمر الذي لوح به في بيانه الثاني، كما واصل التلويح بأنه سيسلمهم إلى إسرائيل في الكثير من اللقاءات اللاحقة. فتجاهلت ملاحظته، ورحت اسأله عن سبب عدم طلب مبادلتهم بمعتقلين لدى النظام، وتجاهل سؤالي.

كلما طلبت منه الرحيل كان يؤخر بقائي عنده، وطلب ورقة وقلماً، وبدأ يضع يده على الورقة ويقول: أكتبْ هنا، وهو يحاول أن يصيغ بياناً يبرئ فيه ساحته من عملية الخطف ويحمّلها لـ«ثوار سورية». وكلما قال أكتبْ هنا، كانت يده تمر على الورقة كما لو أنه لا يعرف أيبدأ السطر من اليمين إلى اليسار أم من الأعلى إلى الأسفل، وفهم نظراتي، فقال «لدي ضعف في الكتابة» وعلمت حينها أن الرجل أمّي، لا يمكنه تمييز الأحرف، ومع الوقت اكتشفت أيضاً كراهيته للمتعلمين وشعوره بالدونية.

كتبت البيان، وكلما كتبت فقرة كان أبو إبراهيم يطلب تلاوتها ثم إعادة قراءتها، ويعدل مراراً وتكراراً، مظهراً شخصيته التي ستسبب بإطالة أزمة المخطوفين اللبنانيين لديه.. ويطلب كتابة فقرة تبّرئه، وتعلن أن عمّار الداديخي مجرد «رجل أعمال» لا علاقة له بعملية الخطف، ثم وتحت الحاحي

يلغيها. تتواصل عملية كتابة البيان، لأكتشف مع أي نوع من الأشخاص أتعامل، لا مفر من الاعتراف بدهاء الرجل، إلا أن تبدل مزاجه هو ما يحكم حركته. وحين ننتهي من عملية الكتابة[١] نكون قد أمضينا ست ساعات في الغرفة نفسها.

نخرج إلى باحة المنزل الشامية الطراز والتي تتوسطها شجرة، هناك يتكئ أبو إبراهيم على عصاه وهو يعرج في سير ه جرّاء اصابة تلقّاها حديثاً في قدمه، وأغرق بالمقابل في تحليل سلوكه، رجل أمي على ذكاء فطري خطير، صَموتٌ، مُكابر على آلام إصاباته المتعددة، قائد لا يرحم، ومرهوب الجانب، لا يعرف مَنْ حوله بما يفكر، يخطف مشبوهين من أتباع النظام وينكر معرفته بأماكنهم، يملك موقعاً بين رجاله يخيف أقرب المقربين إليه. علاقاته إلى الآن واضحة بالأتراك، وحسبما تحدث فإن صِلاته قائمة مع الليبيين والقطريين وغيرهم من الداعمين للثورة، وحين حدّثته عن أن عملية الخطف أخّرت وصول الذخائر للثوار أجاب «الذين أخبروك لا يفقهون شيئاً».

وعرض عليّ إرسالي مباشرة إلى تركيا عبر الحدود من موقعه في جبل الأحمر، ومرافقتي من قبل عناصره، فرفضت شاكراً له على بادرته، وأخبرته بأن كل اغراضي لا زالت في قرية قبتان الجبل، وعلي أن أعود «إلى شيخي» توفيق[٢]. أتركه على اتفاق تام، ويتركني على رفض كامل، اعتقدت أنه

---

(١) أنظر الملحق رقم ١

(٢) هذه العبارة ستسرب إلى صحيفة لبنانية تنشرها ضمن مقال يتحدث عن أسباب اختطافي من قبل عمار الداديخي.

سيرسل أشرطة لي وهو حمد ربه[1] اني غادرت من دون أن أحصل على أي شي. ويطلب إخفاء دوره واسمه في اعتقال اللبنانيين.

يوصلني أحد مرافقي أبو إبراهيم إلى قرية حيان، حيث أجلس مع مجموعة مقاتلة قريباً من الطريق العام الذي تسيطر عليه حواجز الجيش، ونأكل المشبك، قبل أن يطرح أحد المقاتلين فكرته المرعبة: لدينا هنا مجموعة من الأسرى، سنعدمهم غداً، أتريد أن تصور إعدامهم الليلة؟

أقفز مرعوباً: ألم تقل بأنه من المفترض أن يعدموا غداً؟ لماذا تريد أن تقصر من أجلهم الليلة؟

«أحاول أن أعطيك سبقاً صحافياً»، يقول الشاب، ثم يطلب مني مرافقته، فأرفض، ويقول «فقط ألق نظرة عليهم، أحدهم عميل للمخابرات السورية وهو مشارك في عملية تسليم المقدم حسين هرموش[2] للنظام». أنهض ثم أقف متجلداً أمام الباب، واقول لا، سأخرج لأتصل بالقناة، وأستخدم هاتفي السوري لأتصل بالقناة وأبلغ لارا وخالد بما وصلت إليه، وأنني سأعود إلى قتبان الجبل عبر عندان قبل أن أتوجه إلى تركيا تهريباً ولكن بعيداً عن أعين عمار الداديخي.

---

(١) اخبرني الداديخي لاحقاً بانه كان يحاول التخلص مني بشتى الطرق، ولكن خلال تلك الجلسة طلبت أكثر من عشرة مرات اعادتي إلى قرية قبتان وكان هو من يماطل.

(٢) المقدم حسين هرموش، ضابط منشق عن الجيش السوري، يعتبر من مؤسسي الجيش الحر، انشق العام ٢٠١١، وتمكن النظام السوري من اختطافه بمساعدة ضابط امن تركي في أيلول من العام نفسه، ساهم في حماية المدنيين وفي العمل العسكري ضد قوات النظام في جسر الشغور. وله رمزية خاصة بين المقاتلين العسكريين في الثورة السورية، لاعتباره من أول الضباط المنشقين.

بعد اتصالات طويلة تتطوع مجموعة من المقاتلين لنقلي ليلاً من حيان إلى عندان، على أن اتدبر اموري من هناك في الانتقال أو المبيت، وبعد أكثر من ساعة من السير في طرق زراعية، وعبور دون إضاءة لمناطق يرصدها الجيش السوري، ولطرق دولية، نصل إلى عندان التي يفترض أنها لا تبعد أكثر من سبعة كيلومترات عن نقطة انطلاقنا. وفي ليل عندان المظلم كان مشهد البيوت المدمرة والركام المنتشر كما أظهره ضوء سيارتنا مرعباً، على الرغم من كل ما سبق أن شاهدته من دمار، إلا أن شمول الدمار والقصف وآثار الرصاص المنتشرة على كل المنازل والجدران المدمرة حيثما ولّيت وجهك أو أسعفك الضوء لتنظر، كان يثير الكآبة في النفس. من الأسهل في عندان تلك الأيام التحدث عن المنازل السليمة بدل محاولة إحصاء المنازل المدمرة.

وتحت التماعات القصف الذي كان يطال عندان ليلتها نصل إلى منزل تتمركز فيه مجموعة تابعة للنقيب نمر، وأجد جمعة الصيدلي، الذي رافقنا وسلم رشاش الـ٢٣ ملم، نائماً بانتظار من يقلّه إلى قبتان الجبل.

يصل النقيب نمر، ويوصلني مع جمعة الصيدلي إلى قبتان الجبل، وعلى الطريق يقول: «سجل عندك أيها الصحافي أننا فقراء، وأن ثورتنا فقيرة، نحن لا نحلق ذقوننا ليس لأننا متطرفون، ولا لأننا مسلمون، نحن فقط نفضل توفير ثمن شفرات الحلاقة». النقيب نمر كان يعتبر من المقاتلين العلمانيين في الثورة، وكان دائماً يبدل تسجيلات القرآن في سيارته بتسجيلات لأغاني الثورة، من سميح شقير إلى إبراهيم قاشوش، ولا يلتفت إلى اعتراضات بعض الشبان المطالبين بوضع القرآن، بل يكتفي

بالنظر الي من المرآة «اسمعت؟ لا تحسب انهم مؤمنون، هم فقط خائفون من السير في الطرقات ليلاً».

وحين نصل إلى القرية لا أعثر على أحد في المنزل، كما تفرغ سيارة النقيب نمر من المحروقات، نبحث كلانا عن محروقات وعن صبحي أو أي شخص يؤويني تلك الليلة، ثم نلتقي بمجموعة مقاتلة تدعى «حزب التحرير»(١) تستقل أكثر من خمس سيارات، وتحمل أسلحتها تحت سترات وبشكل مموه، يعطيهم النقيب نمر بعض النصائح لاخفاء السلاح جيداً، ثم يقول لي :«لا شك بأن وجهتهم حلب المدينة». ثم يحصل على ليترين من الوقود فيتابع سيره إلى أقرب قرية علّه يتزود بالوقود الكافي لإعادته إلى عندان، وأنا أعثر على صبحي ووليد وآخرين محتمين في زريبة للماشية اسفل الطريق مخافة القصف المدفعي الذي بدأ يستهدف القرية. ما إن يراني صبحي حتى يحمل فراشه وغطاءه ويترك الزريبة، «يا رجل كل الوقت أحاول النوم في هذه الرائحة، الآن أفضّل الموت في الهواء الطلق»، يتبعه وليد ثم عموري شقيق صبحي وتفرغ الزريبة من المحتمين من القصف.

تلك كانت آخر مرة التقي فيها بالنقيب نمر، إلى حين شاهدته في فيلم قصير خلال تنفيذ عملية كمين ضد رتل للجيش السوري، وكان يلف رأسه بضمادة إثر إصابة أخبرت أنها كانت قاسية، وبعدها يصبح أول مقاتل يصل إلى باب مقر الأمن العسكري في أعزاز، ويقتل على باب مقر الأمن

(١) لم يتسن لي التأكد من صلتها بحزب التحرير الإسلامي المعروف دوليا.

في اشتباك مباشر مع قوات الأمن العسكري يوم تحرير باقي مدينة أعزاز والمعبر الحدودي في ١٧ تموز من العام ٢٠١٢.

صباح اليوم التالي أخبرت الشيخ توفيق بما حصل، ومن قبتان الجبل عدت إلى بيروت عبر تركيا تهريباً، وانتظرت دون فائدة وصول الصور الموعودة من أبو إبراهيم، وفي بيروت ارتحت لبضعة أيام مع ترقب الإنترنت ومتابعة أخبار الثورة والمناطق في سورية.

«كيف يمكنك مساعدتنا؟»

أهبط في بيروت يوم السابع والعشرين من شهر حزيران، إلى جانب اللقاءات السياسية ولقائي بيار الضاهر، ألتقي بضابط الارتباط من حزب الله، وكذلك بمستشار الأمين العام للحزب. ضابط الارتباط يكرر مطالبه المتعلقة بمعلومات أمنية، أو أي معلومات ممكنة، أبلغه بأنني التقيت بالخاطفين، فقط لا غير، وأكتم باقي المعلومات، وأطالبه بالمقابل بايلاء الموضوع جدية أكبر من قبلهم، فإن تمكنت أنا من لقاء الخاطفين فلا شك بأن اجهزة الدولة اللبنانية وأجهزة أمن أخرى يمكنها الوصول ولقاء الخاطفين بأسرع مما فعلت. يكرر أمامي أنّ لا أحد يبدي اهتماماً جدياً بالملف، «هؤلاء فقراء ولا أحد يهتم بهم، ساعدنا» ابتسم، وأقول أن محاولة اللعب على هذا الوتر في صراع كالصراع السوري تعدّ سذاجة حتى لا أقول إهانة.

مستشار الأمين العام لحزب الله كان أكثر وضوحاً: «كيف يمكنك أن تساعدنا في موضوع المخطوفين؟»، أسأله عن أي نوع من المساعدة

نتحدث؟ فيجيب «لا نريد معلومات ذات طبيعة أمنية، نريد معرفة الجهة الخاطفة فعلياً، ونريد معرفة مطالبها الحقيقية، أما المطالبة باعتذار فهو أمر غير وارد[١]». «ماذا في حال طالبوا بالسلاح؟» سألته، «لا تورطنا مع النظام»، أجاب فوراً.

أحاول ربط تسوية تعويض العمل التي لم تدفعها لي الصحيفة بموضوع معرفة مطالب الخاطفين، ما دامت الصحيفة في النهاية تتمول بشكل غير مباشر من المصدر نفسه، فأفشل، وأكتفي بمبلغ مالي يغطي نفقات الرحلة، فقط لأتأكد أن الأمر ليس من بنات أفكار المستشار وأنه سيكون هناك بند مالي مدرج فيه النفقات التي دفعها لي، ويشترط المستشار بالمقابل عدم إبلاغ جهاز أمن حزب الله بأي من لقاءاتنا، أتهرب من تقديم وعد مباشر بكلمات عامة، حفاظاً على أمني يطلب مني المستشار عدم التصريح بعلاقتي المباشرة بحزب الله، فأرفض، وأقول له بأنني في النهاية صحافي لبناني، ومن طبيعة الأمور أن ألتقي بكل الأطراف وأن أملك شبكة علاقات واسعة. وفي الحقيقة كان من الغباء بالنسبة لي إنكار علاقتي المباشرة بحزب الله، فأي مستخدم للإنترنت يمكنه العثور على عكس هذا الإنكار على محرك بحث Google خلال لحظات.

«ال بي سي» من ناحيتها كانت تغطي نفقات العمل كاملاً، وعلى طريقة بيار الضاهر، «أطلب المبلغ الذي تحتاجه وتصرف أنت بعيداً عن روتين

(١) في البيان الثاني الذي صدر تحت اسم «ثوار سورية» طالب الخاطفون الأمين العام لحزب الله حسن نصرالله بالاعتذار من الشعب السوري على موقف حزبه من الثورة كشرط لإطلاق المخطوفين اللبنانيين. فكان رد الأمين العام بأن موضوع المخطوفين هو شأن يتعلق بالدولة اللبنانية وليس بالحزب.

المؤسسة»، وبالتالي فإن المبلغ الذي تسلّمته من مستشار الأمين العام لحزب الله كان فائضاً، فتبرعت بقسم منه للثورة لاحقاً، واشتريت بالباقي معدات مدنية تنفع في الأعمال القتالية من بيروت ويمكن نقلها عبر المطارات.

يعود صديقي ضابط الارتباط ليزورني قبيل رحيلي عن بيروت، ويعيد تكرار ما سبق أن قاله عدة مرات، من أن الملف حول المخطوفين فارغ، وأن أية معلومات أمنية ستكون مفيدة[1]، مجدداً أرفض إعطاءه أية معلومات، وبعد أن كانت لقاءاتنا تتسم بتدفق معلومات من طرفه باتت تمر ببطء وتكاد تخلو من أية معلومات ذات قيمة: بدأت عملية تجفيف المعلومات بيني وبين حزب الله، والآن كل المطلوب من ناحيتي معرفة الطريق الذي سيعتمدونه لإطلاق الرهائن اللبنانيين.

يرافقني في الرحلة الثالثة الصحافي ثائر غندور، نصل إلى قبتان الجبل صباحاً، يوم مشمس من أيام شهر تموز، الكل في المنزل نيام، صبحي لا يزال غارقاً في النوم العميق، كما كل سكان المنزل، والقرية الهادئة تستفيق بخمول صباحي يصاحب عادة أيام شهر رمضان الأولى، وحده التلفزيون السوري أعلن أن الجيش تقدم وحرر قرية قبتان الجبل، وأن من بين القتلى صبحي، الذي استيقظ من نومه بعد قليل ليعلم أنه نُعي رسمياً لدى الجيش السوري فابتسم قائلاً «يعني لن يطالبوني بدفع فواتير هاتفي المتأخرة؟».

وبعد أيام من وصولنا كانت منطقة حلب تلتهب، المدينة نفسها باتت قاب قوسين أو أدنى من انتفاضة عامة، الشبيحة يكادون يختفون من

(١) انظر الملحق رقم ٢

الشوارع، والثوار المدنيون نزلوا إلى الشوارع في المدينة، وأحياء الفقر فيها خاصة، ما هي إلا أيام حتى لاقاهم المدد، المجموعات الريفية تشكلت تحت اسم «لواء التوحيد» ونزلت باصات المقاتلين بمغامرة مجنونة بين القرى الموالية للنظام لتصل إلى المدينة، وفي أول الباصات كنت أرافق المقاتلين القرويين، المتوجهين إلى منطقة صلاح الدين يوم العشرين من تموز العام ٢٠١٢.

من حيث تقف التنسيقيات وقوات الجيش السوري الحر فإن معركة حلب قد بدأت قبل أسابيع من النزول إلى المدينة، تحديداً منذ أن بدأت المجموعات القتالية في ريف حلب بشراء الأسلحة من بعض ضباط في الجيش النظامي، ثم انتقلت إلى الاستيلاء على الأسلحة والذخائر مباشرة من المواقع النظامية، ومن مهاجمة الدوريات، وتجميع كل ما يمكنها تجميعه من الأسلحة والذخائر الآتية كمساعدة من دول وأجهزة أمنية عبر تركيا، كان العمل محموماً للتجهيز لمعركة حلب. كما كان العمل محموماً وسريعاً لتوحيد مجموعاتها القتالية وتنظيمها تحت إمرة ما سمي في حلب «لواء التوحيد» والذي يمتد نفوذه من أقصى الشمال السوري في أعزاز ومارع إلى وسط الريف وغربه كما بعض المناطق الأخرى.

المجلس العسكري للواء التوحيد الذي بدأ العمل عليه منذ نهايات شهر حزيران وبداية شهر تموز ٢٠١٢، ضم عملياً وفي الأيام الأخيرة ممثلاً عن مدينة حلب، وللدقة عن منطقة صلاح الدين، التي استولى عليها الثوار عسكرياً في اللحظات الأولى لبداية ملاقاتهم للحراك في المدينة والانتفاضة التي قام بها السكان المحليون في هذه المناطق. وأعلن عن إنشاء لواء

التوحيد يوم ١٨ تموز من العام ٢٠١٢. وعملت المجموعات الريفية على فتح خطوط إمداد إلى منطقة صلاح الدين، وغيرها من المناطق، ولكن دون أن تكون خطوطاً آمنة.

في قرية قبتان الجبل وعلى وقع أصوات القذائف المدفعية يفطر شبان القرية التي تم ترحيل عائلاتها في أول أيام رمضان، وقبيل معركة حلب بدا وكأنهم قد اعتادوا على أصوات القذائف القريبة، وبعد أن كان وليد شهاب يرتبك لحظة سقوط القذائف أضحى إلى جانب صبحي من الذين يبقون في المنازل حين يبدأ القصف بمدفعية ١٢٢ ملم ينهمر على القرية، وليلة بعد أخرى تعيش القرية أحوال القصف، ويتلقى صبحي ووليد تنبيهات من قيادتهم بأن سلوكهما يشجع الباقين على الاستهتار بأرواحهم.

في نهاية شهر حزيران، أي قبل أقل من أسبوعين كان سقوط القذائف يعد بين هؤلاء الشبان بمثابة اختلال كبير في ميزان القوى لمصلحة النظام، إلى أن اكتشفوا محدودية أضرار القصف المدفعي واستحالة إحراز أي تقدم عسكري جراء قصف مدفعي غير مترافق مع تقدم بري. وإن القذائف وإلى حد بعيد مسألة حظ، وحين الوصول إلى لحظة النزول إلى مدينة حلب أصبح هؤلاء الشبان لا مبالين بالقصف ونمت شجاعة في قلوبهم أقرب إلى التسليم بالقدر والاستهتار بالحياة، في ظل ندرة العلوم العسكرية التي حصلوا عليها. في البداية اعتقد هؤلاء الشبان، كما كل شبان سورية المنتفضين، أن التظاهرات المدنية كافية لإحداث تغيير في النظام، وأن المثقفين السوريين في الخارج والمعارضة الخارجية سيكون لهما دور كبير، ثم تشكل المجلس الوطني وهيئات المعارضة، وكان أبناء هذه القرى

وعائلاتهم يتعرضون لحملات تأديبية متواصلة من قبل أجهزة الأمن، ولكن لا المجلس الوطني ولا المعارضة الخارجية ولا حتى الجيش الحر بقيادته العسكرية المنشقة والمتواجدة في تركيا قدمت لهؤلاء أية آمال.

كانت بنادق الـ«بومب أكشن» تشترى مهربة من تركيا بمبالغ كبيرة، واعتقد الثوار في القرى والأرياف أنها كافية لإثارة ذعر النظام والدفاع عن النفس، إلا أن الواقع أخذهم إلى طريق أخرى أشد قسوة، بينما المعارضة الخارجية كانت تصدر المزيد من البيانات والمناشدات للدول بالتدخل. وانتقلت بنادق الـ«بومب أكشن» إلى مدينة حلب، وباتت سلاحاً في مواجهة الشبيحة في مناطق وأحياء شعبية وفقيرة بالدرجة الأولى، ومع الوقت بدأت مدينة حلب تتسلح بما تيسر، بعد أن فشلت التظاهرات في الوصول إلى ساحة سعد الله الجابري، وبعد أن اجتاح الشبيحة الجامعة في حلب، ونكّلوا بطلابها. ثم يسمع الثوار في الأرياف عن موجات تسلح وتمويل هائلة، بينما ينظرون إلى بضع بنادق كلاشنكوف صينية الصنع، وطلقاتها الفاسدة بين أيديهم، ويبيعون أبقارهم ومتاعهم ليشتروا أسلحة حربية، وبعض الذخائر. وينتظرون دعماً خارجياً لا يأتي، مرة مع وعود من المجلس الوطني بمنطقة عازلة، ومرة مع وعود من قيادة الجيش الحر في تركيا بتسلح نوعي. ولكن من هو الكاذب؟ أهو أجهزة الإعلام التي تتحدث عن أسلحة متطورة وبكميات هائلة تصل إلى الثوار؟ أم هم أنفسهم الذين يحملون أسلحة لا تتطابق الأرقام التسلسلية على قطعها المختلفة؟

في نهايات شهر أيار حاصر الجيش النظامي قرية في الريف الغربي لحلب

اسمها أتارب، وبدأت محاولات التقدم نحو داخل القرية، ونجح الجيش في اختراق البلدة الصغيرة، قبل أن يعود وينسحب، ثم وبالترافق مع حصار أتارب طوّق بلدة عندان، وأغرقها بالقذائف المدفعية، ويمكن لزائر عندان إحصاء المنازل التي لم تصبها القذائف المدفعية في البلدة على أصابع يديه الاثنين لا أكثر.

لكن مع محاولة دخول الجيش النظامي إلى بلدة عندان اصطدم بمقاومة ضارية، مما ألزمه ترك العديد من أسلحته المتوسطة والثقيلة والذخائر والانسحاب من البلدة مع المحافظة على وجبات القصف المدفعي اليومية.

الأمر نفسه تقريباً تكرر في أتارب التي فك الحصار عنها قبل بدء معركة حلب بأيام، بينما استولى الثوار على قرية حوّر الواقعة على الطريق الرابط ما بين حلب وبلدة دارة عزة، ونصبوا حاجزاً لهم على الطريق، ومع محاولة الجيش النظامي فتح الطريق تعرض لخسارة فادحة، قتل خلالها ٤٧ جندياً وعنصراً من «اللجان الشعبية» أو الشبيحة[1]، واعتقل خمسة من العناصر، وترك لاحقاً أحدهم حراً، وأخذت من قوات الدعم النظامية آلياته، وتمكن

---

(١) جمعت جثث القتلى من الجيش النظامي وشبيحة اللجان الشعبية، ووضعت عند نهاية طريق قرية حوَّر ليلاً، حيث يمكن للجيش النظامي أن يصل ويسحبها نهاراً، وخلال الليل كان يسمع عواء الكلاب التي اقتاتت على الجثث، وفي اليوم التالي جمعت الجثث وصوّرها الإعلام الرسمي السوري، ونشر الصور في تقرير تلفزيوني جاء فيه أن العصابات الإرهابية في قرية دارة عزة قامت بذبح مواطنين مدنيين من القرية، وأن أهالي القرية يطالبون الجيش بالدخول إلى قريتهم. علماً أن الرتل كان يتجه على طريق حوّر لدعم موقع قريب من الفوج ١١١ قرب دارة عزة، وفشل في الوصول، ومنذ تلك اللحظة وحتى لحظة سقوطه، سيتم إمداد الفوج ١١١ بالعتاد والبشر والطعام عبر المروحيات.

من سحب دبابتين معطوبتين، وأخريين صالحتين من أصل تشكيلة قتالية ضمت ما يقارب المئة جندي.

في هذا الكمين تركني صبحي وركض لسحب آليات الجيش السوري والشبيحة، كانت الفوضى سائدة، وعمليات أخذ السلاح من الشاحنات والآليات عشوائية، وشهدت عملية إعدام لجريح من الشبيحة، بينما كان الشيخ علي سعيدو (نائب قائد قوات الزنكي) يصرخ محتجاً ويبكي قهراً وينسحب مع جنوده من المكان فور انتهاء أعمال القتال، وتتردد أصداء مطاردة عشوائية لبعض الجنود الفارين، والحقول المفتوحة والأزقة الضيقة لقرية حوّر يمكنها أن تخفي عن أعيننا الجنود، وبين أقدامنا عشرات الجثث لجنود النظام وشبيحة اللجان الشعبية، مرة أخرى حملت بندقية صبحي لأحميه وأحمي نفسي، وبقيت معي حتى عدنا ليلاً إلى القرية الوادعة.

حصد الثوار من كمين حوّر الكثير من السلاح، في المعايير العسكرية لا يحتسب هذا السلاح، ولكن في المعايير المحلية فإنه يعتبر الشيء الكثير، وفتح كمين حوّر بداية الطريق نحو حلب، حيث لا زالت قرية خان العسل المحكومة بقبضة حديدية من «اللجان الشعبية» الشبيحة، تشكل عقبة في طريق خط الإمداد من الريف الغربي إلى مدينة حلب.

الغنائم التي وقعت في هذه المعارك شجعت الثوار على أمرين، أولاً المزيد من التلاحم القتالي، فأبناء القرى يشاركون بعضهم في العمليات القتالية، حيث ترسل كل قرية مجموعة من عناصرها وتضعها بإمرة المخططين الرئيسين للعمليات أو بإمرة أبناء القرى التي يجري الاشتباك فيها. والأمر الثاني هو

المزيد من نهب القوات النظامية للحصول على ذخائرها. كان ذلك إضافة إلى خيبة الأمل من الحصول على دعم حقيقي بغير الخطابات من المجلس الوطني ومن قيادة الجيش الحر في تركيا، إضافة إلى محاولات الجيش النظامي التمدد في المناطق التي استولى عليها الثوار، هو ما دفع بهؤلاء إلى إعادة تنظيم صفوفهم وتشكيل لواء التوحيد والمشاركة في معركة حلب. الدعم الحقيقي وصل لحظة بداية التسلل إلى حلب يوم التاسع عشر من تموز، حيث حصل لواء التوحيد على كميات من الذخائر تسمح له بالتمركز والتقدم المحدود في مدينة حلب، وتوزعت الذخائر بشكل غير عادل، مما سيؤسس لمشكلات في لواء التوحيد تؤدي إلى انشقاق العديد من المجموعات عنه.

رفاهية الطعام

مع تنامي قوة خلايا الثورة في أحياء حلب، وارتفاع وتيرة التظاهرات المعارضة فيها، أمكن التوحّد والنزول إلى أحيائها وإطلاق النار وتنفيذ العمليات النهارية في مناطق ساخنة في المدينة الثانية في سورية. وتم تنسيق سير العمليات مع مقاتلي المعارضة في مدينة حلب وخاصة في صلاح الدين، أضف انطلاق العمليات العسكرية داخل دمشق، بالتزامن مع تغيير تكتيكات الريف الحلبي وعاصمته.

ويتحدث الشيخ توفيق إلى مقاتليه وهم يستعدّون ليلاً للتوجه إلى مدينة حلب لدعم مناطق ثائرة فيها بالقول: لا تفكروا بالعودة قبل تحرير المدينة. إلا أنّ هؤلاء سينزلون مع الأسف، وستتحول الحرب في المدينة إلى حرب استنزاف طويلة، وتشكل فيها المحاور وتغرق القرى والمناطق بنتائج مدمرة لحرب مدينة حلب الطويلة.

وتنقل الباصات الصغيرة المقاتلين إلى المدينة، ولا يتعب الشيخ علي سعيدو،

الملقب «الخياط» من تكرار توصياته للمقاتلين بالتعامل بالحسنى مع السكان المدنيين محذراً من مخاطر المدينة والحرب فيها، وكيف أن المال الحرام سيكون سهلاً أمام المقاتلين وأن التعامل سيكون حازماً مع من يمدّون أيديهم إلى أموال العامة، لكن هيهات فللمدن شياطينها المختلفة عن شياطين القرى.

تصل الباصات إلى صلاح الدين، وفي اليوم التالي نواصل التقدم نحو السكري التي نصلها ليلاً، حيث يفر الشبيحة من المناطق، وينزل السكان المدنيون في مظاهرات مسائية، وبحراسة أفراد من خلايا الثوار ببنادقهم الـ«بومب اكشن» وبعض الأسلحة الفردية الخفيفة، وحين تدخل الباصات منطقة السكري تبلغ حماسة المتظاهرين ذروتها فيلحقون بالباصات، ويستقبلونها استقبال الفاتحين ورايات الثورة السورية تملأ المكان وتحجب الرؤية عن السائقين، ويحاول الجميع الصعود لتقبيل المقاتلين القادمين بأسلحتهم من القرى.

وفي يوم الثالث والعشرين من تموز نذهب لمؤازرة مجموعة من المقاتلين الحلبيين وهم يدهمون مقر الشرطة الرئيسي في منطقة الكلاسة، غير بعيد عن قوات النظام السوري، وهناك لا يزال الثوار يتخوفون من إظهار وجوههم، ويضعون الأقنعة ويلفّون الكوفيات ويمنعون التصوير، وبعد سقوط المقر وتفجيره يختفي المقاتلون المحليون، ونترك المنطقة بسرعة عائدين إلى مقرنا في السكري، وتتعطل السيارة المغلقة المتهالكة أمام مدخل مقر أمني للمخابرات العسكرية السورية، وتكاد تقع مجزرة متبادلة لو لم يتجاهل حراس المركز وجود سياراتنا المليئة بالمسلحين، ويديروا وجوههم بينما المقاتلون يدفعون السيارة المنهكة بحملها لإجبارها على السير مجدداً.

في تلك الأيام ازدانت مناطق صلاح الدين والسكري بأجمل الرايات، إعلام الثورة ورايات للجيش الحر، وبدأت عملية تطهير المنطقة من المخبرين والناشطين ضد الثورة والشبيحة والمسلحين المؤيدين للنظام، باتت الاعتقالات تحصل على الشبهة، ثم يطلق عدد كبير من المعتقلين بعد التحقيق، صار السلاح يفد إلى المدينة وقوات الثوار تتوسع من صلاح الدين إلى السكري إلى الكلاسة إلى غيرها من المناطق.

المدنيون كانوا قبل الثورة مهددين بتهديم منازلهم المبنية بشكل مخالف، وهي تقدر، بأعلى الأرقام، بـ٤٠ بالمئة من المنازل في كل سورية، وكانوا يعانون من رفع الدعم عن النفط، ومن غلاء المعيشة المترافق مع إهمال القطاع الزراعي، ومن ارتفاع الأسعار المتواصل غير المترافق مع زيادات مناسبة في الرواتب، ومن ازدياد متطلبات الحياة الذي فرضته تحديثات النظام وسماحه للقطاع الخاص الموالي بالاستثمار دون رقيب أو حسيب. وفي تلك الأيام من شهر تموز، وعلى الرغم من حلول شهر رمضان، إلا أن مقاولي البناء استغلوا الفرصة وراحوا يبنون بأقصى سرعة، هي المباني التي تنهض طابقاً في كل يوم، وغرفها بالكاد تشبه الزنازين، إلا أنها كل ما هو متوافر، أو ما يقدر على توفيره السوري الآتي من القرى للعمل في المدن.

وستقابل سرعة البناء هذه سرعة أكبر في الهدم مع الأيام المقبلة، وفي كل اشتباك مع قوات النظام في محيط صلاح الدين سواء لناحية الحمدانية أو الكلية الحربية القريبة، ستهبط جدران كثيرة نتيجة قصف الدبابات، وخلال تجولنا، ورداً على تعرض قافلة عسكرية للنظام للإبادة، تمكنت دبابة من

مدرسة المدفعية من ضرب أحد المنازل في صلاح الدين، فاخترقت القذيفة مبنى لتنفجر في المبنى المقابل له.

«الله اكبر» يصرخ الشبان المقاتلون في الريف، ويردد صيحاتهم الريفيون وأبناء مدينة حلب من الثوار، «تكبير» يطلق أحدهم صرخة كل فينة، فيرتفع التكبير مجدداً، إنها سورية الثورة في مدينة حلب الآن، وتشد فيها مظاهر الأسلمة أنظار الإعلام الغربي خاصة، ويتبناها الإعلام العربي، سواء ذو الصبغة السنية المؤيد لثورة إسلامية تكرر مجازر العراق، أو المؤيد للنظام السوري الذي يعتبر أن أسلمة الثورة السورية تسهل له مهمة ضربها إعلامياً واتهامها بالإرهاب.

الغرب يتهم القاعدة بالإرهاب، والمؤيدون للنظام السوري يتهمون الثورة السورية بالأسلمة والإرهاب أيضاً. أما الثورة السورية فشأن أكثر تعقيداً بكثير.

في اللحظات الأولى مع الثوار، لا بد للزائر أن يلاحظ الصبغة الدينية، وأحياناً الطائفية.

حين تُرفع الصلاة يتجه البعض إلى المساجد، وآخرون يقيمون الصلاة في أماكنهم جماعة، إلا أنه ومع بداية شهر رمضان كان يمكن ملاحظة العديد من المجموعات المفطرة، مجموعات كاملة، أو أجزاء كبيرة من مجموعات قتالية، أبناء العديد من القرى السنية، مناطق في مدينة حلب، أو مدن أخرى، لا تلتزم بالصيام، ولكنها تخفي إفطارها تأدباً وجرياً على العادات المحلية، وبعض الحواجز المسلحة في الأرياف الأكثر محافظة لا يتهيب

الإفطار علناً أمام المارة، وتأدية الشبان للصلاة رهن بالعامل الاجتماعي الذي اوجدهم مع أبناء قرى أخرى أكثر تديناً، فراحوا يصلّون إلى جانبهم، بغير التزام بمواقيت الصلاة بشكل دائم.

هي العادات الاجتماعية، وهو الإسلام الوسطي، الذي بات يتحوّل إلى التشدد مع كل دعاية يطلقها مؤيدو النظام السوري حول التشدد الديني، ولا سيما مع منهجية قصف المساجد التي اعتمدها النظام لفترة طويلة، حيث بدأ ومنذ أيام انطلاق المظاهرات السلمية بمحاصرة المحتجين في المساجد وإطلاق النار عليهم قبل خروجهم من الصلاة، وصولاً إلى استهداف المساجد بالقذائف وبالطيران الحربي، ولكن لم يعد أحد في ريف حلب وإدلب يقيم الكثير من الوزن للشيخ عدنان العرعور (على سبيل المثال)، لقد تخطاه الزمن، اليوم أصبحت الثورة مختلفة.

الحديث الطائفي ممر إلزامي: الظلم الذي تعرّض له أهل السنّة من النظام العلوي البعثي، الأولويات التي تعطى لأبناء الطائفة العلوية في التوظيفات، القمع والصلف والغلاظة التي يتعامل بها الضباط العلويون مع المجندين السنّة، إلخ إلخ.

وحين تسأل عن الشبيحة الذين يرعبون القرى، أو يدهمون الناس وهم نيام، يقولون لك إنهم من مدينة حلب، أو من قرية سنية في محيط مدينة حلب. أي من الطائفة السنية. فينتهي الممر الإلزامي، وتذهب اليافطة الطائفية المرفوعة ليظهر تحتها أسباب أشد عمقاً للصراع ولانفجار الثورة في سورية.

حين تدخل إلى مناطق كصلاح الدين أو السكري تكتشف عالماً آخر، عالماً من الفقر ومن الحياة السفلية الممزوجة بمحاولات الموظفين عيش حياة لائقة، الخدمات الرئيسية غير مؤمنة للمواطن السوري قبل الثورة، ونوعية الخدمات المتوافرة متدنية إلى حدود مذهلة: الدراسة، الطبابة، وصولاً إلى نوعية البنزين والمازوت، كل شيء منخور بالفساد، وها هنا في صلاح الدين وفي السكري وغيرهما من مناطق الفقر المحيطة بالمدينة حيث تنتشر مبان لم يهتم بانوها بإكمالها من الخارج فبقيت الجدران تظهر الأحجار الإسمنتية التي شيّدت بها.

مبان أنشئت غالبيتها بطرق مخالفة للقوانين، تم دفع مبلغ من المال للشرطة وللبلدية، ورشوة قبضايات الحي، الذين سيتحولون إلى شبيحة، أو ينضمّون إلى الثورة مع اشتداد عود الثوار، وقام أصحاب المباني بالعمار ليلاً، غرف لا تتجاوز أكبرها ٣ أمتار بـ ٣ أمتار، جدرانها الداخلية متعرجة، لم يشرف على البناء مهندسون، وإنما بنّاؤون ذوو خبرة، تماماً كما أغلب منازل الريف، وتم صبّ الأسقف ليلاً، وكل ليلة يرفع سقف جديد حتى اكتملت الطوابق الأربعة، أو الخمسة، وقبل أن تكتمل الجدران تبدأ العائلات بسكن هذه المباني، بمبالغ فلكية بالنسبة للمداخيل التي قد لا تتجاوز ١٥٠٠٠ ليرة سورية شهرياً (٣٠٠ دولار قبل الثورة). والعديد من العائلات تبيع أرضاً في الأرياف لتشتري منزلاً في المدينة.

تتوزع المناطق الريفية السكن في أحزمة البؤس حول مدينة حلب، أغلب أبناء دار تعزة يقطنون في منطقة الكلاسة، أهالي قبتان الجبل يفضّلون السكن في منطقة صلاح الدين، وهكذا تنتشر القرى وأبناؤها في المدينة، ويعيشون

اختلاطاً واسعاً مع محيطهم بحكم أعمالهم، وحياتهم اليومية، إلا أنهم يبقون في دائرة فقر مدقع، هم يرونه إلى أمس قريب مقبولاً، إلا أن زيادة الضغط وارتفاع مستوى الحياة حولهم دفعاهم إلى تلمس حدود الظلم، التقديمات الاجتماعية التي كانوا يحصلون عليها من النظام السوري تتقلص وتتراجع وهي مهددة في كل لحظة، غض النظر عن البناء العشوائي يكاد ينتهي مع صدور قانون تنظيم البناء (الذي يبدو أن النظام عاد وتراجع عنه) بات يهدد ٤٠ بالمئة من كل المباني في سورية وبالتالي يلغي قدرة الشباب على الزواج، كما يهدد بتشريد الملايين. المازوت، المادة الأكثر حيوية في سورية ترتفع أسعاره، يبحث المواطن بقلق (قبل الثورة) عما إذا كانت الدولة السورية ستدعم الأسعار قبل موسم الشتاء أم لا.

الشوارع الضيّقة المغبّرة في صلاح الدين تضم مئات آلاف القاطنين، اجتذبت أغلبهم خلال الأعوام العشرة الأخيرة قبل الثورة، حين تمكن الثوار من حسم النزاع في الريف واتجهوا إلى المدينة، نزلت مجموعات من أبناء صلاح الدين وغيرها من المناطق لتضرب مخافر الشرطة في مناطقها، وتعلن نهاية وجود النظام، أضيفت إلى هذه المجموعات بضع مئات من القرى، ثم أصبح العدد حوالي ألفين مقاتل، وبدأ الثوار بالتمدد بمساعدة سكان المناطق إلى أحياء أخرى، فراحت نواحي الفقر تحتفي بالثوار بينما كان النظام والقوات العسكرية للثوار تستعد للمعركة المقبلة لا محالة.

العامل الأول الذي أطلق الثورة والذي تسمعه خلال سهرات الثوار هو حال الفقر، الذي يمكنك أن تشاهده في أزقة صلاح الدين، وحين تسأل صيدلياً عن دواء للرئة تجد لديه مخزوناً كبيراً من هذه الأدوية، ومن مشابهاتها

المخصصة للأطفال، الناس في صلاح الدين مرضى من شوارعهم، ومن عشوائية حياتهم.

في السهرات سيخبرك عمال المقالع عن عدد الرشى التي يتوجب عليهم دفعها إذا ما حصلوا على ترخيص بالعمل، عليهم رشوة ما بين ثلاثة وأربعة أجهزة أمنية، أما اذا لم يحصلوا على تراخيص العمل فإن الدفعات الشهرية ستزيد وعدد من يلاحقهم سيرتفع، ولا تأنف أجهزة الأمن العسكرية عن ملاحقة العمال في الكسارات، فلدى هؤلاء متفجرات يستخدمونها لتفجير الصخور، وبالتالي فإن أعمالهم تمس بالأمن القومي.

يقول شاب أنهى دراسة الحقوق وعاد ليعمل مع عائلته في اقتلاع الصخور: «لم نعد نستخدم المتفجرات إلا نادراً، صرنا نقتلع الصخر بصحتنا، ومع ذلك لا يمكننا أن نحصل على رفاهية». تسأله عن معنى رفاهية في حديثه، ما الذي يفتقده؟ فيصمت للحظة مفكراً ثم يجيب «تناول ما أشتهيه من الطعام».

أما سائقو سيارات «الفان» ونقل الركاب، فيحدثونك عن ارتفاع أسعار المحروقات وكلفة رسوم ميكانيك السيارات السنوية الباهظة، ومشاركة ضباط الشرطة لهم في رزقهم مع الإتاوة اليومية التي يضطرون إلى دفعها.

هي لقمة الطعام التي كان يأمل هؤلاء المواطنون الحصول عليها، إلا أنهم يعتقدون أن رامي مخلوف وبشار الأسد وكل شركائهما في نهب سورية يحرمونهم من الطعام، من القدرة على شراء ما يرغبون فيه.وهم وراء تراجع التقديمات الاجتماعية السابقة على عهدهم، كما أن التقديمات التي لا تزال متوافرة بقيت على قِدّمها، ولم يطلها أي تحديث أو تطوير.

وعلى الرغم من الحديث عن مذهبية الثورة، وهي حالات موجودة في مناطق معيّنة وفي بعض القرى أو لدى بعض المجموعات، فإن ما يمكن أن تسمعه من أي شاب مقاتل، تسمعه أيضاً من أبو علي، ضابط الشرطة العلوي الذي انشقّ وانضمّ إلى الثوار في إحدى قرى ريف غرب حلب: القمع الأمني.

حين وصلت الثورة إلى حلب انتهى عهد من القمع الأمني، وبدأ آخر هو أيضاً ممر إلزامي: مطاردة الثوار للمشبوهين من المتعاملين مع النظام. هي مرحلة لم تتمكن أية ثورة في العالم من تجاوزها من دون هدر دماء بريئة، ولكن في المحصلة فإن جزءاً مما كان يطمح إليه هؤلاء الثائرون قد تحقق، ولو لبضعة أيام، فخلال استقبالهم الحافل من أهل المدينة، كان كل يوم يتقدّم أصحاب محالّ عديدة هنا وهناك بطعام الإفطار للمقاتلين، ويفطر المقاتلون الصائمون على أصناف طالما اشتهوها منذ سنين طويلة، ولكن خارج مقراتهم كانت عائلات فقيرة ترسل أطفالها علهم يحصلون على فتات من طعام هؤلاء المقاتلين الآتين لتحريرهم.

يوم الخامس والعشرين من تموز العام ٢٠١٢ تقف طفلة في التاسعة من العمر أمام مسجد حسن البصري في صلاح الدين، أهلها من الريفيين القاطنين في حلب، ووالدها توقف عن العمل منذ أيام قليلة، تقول للمقاتل الذي يحرس رفاقه بينما يتناولون طعام إفطارهم في داخل الطابق السفلي من المسجد «عمو، عندكم أكل؟ نحن جائعون» وخلفها يقف عدد من إخوتها ومن أطفال الحي الآخرين، يدخل المقاتل ويخرج بعد لحظات بعدة صفائح من الطعام ليوزعها على الاطفال. يومان آخران ولن يبقى في هذه الأحياء أي من سكانها، ستتشرد العائلات يميناً ويساراً وستحصل مجزرة.

مجزرة في المدينة

في مسجد حسن البصري في صلاح الدين يزورني شاب في مقتبل العمر، نتحادث طويلاً، وفي النهاية أقول له «إذاً أنت من العلمانيين هنا»، يصمت وكأنه تلقّى صفعة، «اسمع، مجموعتي وأنا من العلمانيين نعم، ولكن هذه الكلمة مرذولة هنا، إنها تعني النظام، ولو كنت في بيروت في شارع الحمراء لقلت لك إنني يساري، ولكن هنا في بيئتنا، نحنا مقاتلون في الجيش الحر فقط».

يمكن لمجموعات أن تتناول الخمر في رمضان في صلاح الدين، وسيسكت عنها الباقون لأنها من قرى أخرى لا يمكن إبراز العداء لها ولدورها في الثورة، ولكن أن تقول مجموعة إنها علمانية فهو أمر لا يحتمل في شمال سورية خلال أيام الثورة.

ومع تمركز العمل الثوري في الجانب العسكري فقط، أصبح من الطبيعي أن تجد في مكاتب المدرسة الشرعية للإناث في صلاح الدين في حلب مكتباً

مشرّع الأبواب وعلى مدخله لافتة «جبهة النصرة -تنظيم القاعدة في سورية» وبداخله بضعة شبان يقومون بأمور إدارية، بينما هناك مجموعات صغيرة تابعة للجبهة موجودة على الخطوط القتالية الأمامية، وبحسب ما يسرّ لي أحد المشاركين في تأسيس تلك المرحلة، قبل أن يتخلى عن التنظيم مع بداية الخلاف بين النصرة والدولة الإسلامية في العراق والشام، فإن عدد المقاتلين في تلك الأيام لم يتجاوز سبعين شخصاً في مدينة حلب، جلهم من الأجانب.

لقد أصبحت القاعدة أمراً واقعاً هنا. وحين تجادل قادة ومقاتلي الثورة وتحذّرهم من أنّ فتح الأبواب أمام تنظيم القاعدة لن ينتج إلا الكوارث، ينظرون إليك باستغراب ويقولون «نحن بحاجة لكل مساعدة ممكنة»، ويضيفون دائماً «سيساعدوننا، وحين ننتصر سيذهبون إلى بلاد أخرى ليجاهدوا فيها، هؤلاء مجاهدون فقط».

صباح يوم ٢٧ تموز أستيقظ صباحاً في مدرسة تحولت إلى ثكنة عسكرية في السكري، وتردني رسالة خطية على هاتفي من أخي حسام يبلغني فيها بأن شقيقتي قد توفيت، ويطلب مني العودة إلى لبنان قبل دفن شقيقتي التي لم أحظ بنظرة وداع أخيرة لها، وأرفض أن أترك ثائر غندور خلفي. منذ أيام والثوار يرصدون حشودات الجيش النظامي حولهم، كانوا يعلمون بأن الجيش سيقوم بهجوم معاكس، وفي تلك الأيام كان رفيقنا الدائم خالد إبراهيم يهتم بشؤوننا، ثائر وأنا، من الطعام إلى الشراب والأدوية، وكل ما كنا نحتاج إليه، كما أنه أدخلنا مرات إلى مناطق لم تصل إليها قوات الثورة بعد، حيث تمكنا من الاستحمام وشرب القهوة ولقاء عدد من

الشبان والرجال السوريين وسماع شهاداتهم وأخبارهم. وفي هذه الأثناء كانت المدينة تحاصر رويداً رويداً، ونحن ننتظر يوم المعركة الفاصلة، إلا أن وفاة شقيقتي أخرجتنا من مدينة حلب ظهر يوم السابع والعشرين من تموز، وبينما كنا نعبر الجسر فوق المواقع الحكومية كانت الدبابات تتجه نحو الجسر لإغلاقه، وفي صباح اليوم التالي، وبينما نحن نتجه إلى مطار هاتاي تهريباً من الحدود التركية، في صدد استقلال طائرتنا نحو اسطنبول فبيروت، كان الكثير من الشبان الذين تركناهم خلفنا يتلقّون الرصاص، ويصابون بشظايا قصف الدبابات، أو يقتلون تحت الركام جراء قصف الطيران، بدأت مجزرة في حلب، وطحن كل من الجيش النظام والثوار بعضهما، وبعد أسبوع من القتال في حلب، يتلقى خالد إبراهيم رصاصة قناص في رأسه ويلفظ أنفاسه على الفور تاركاً خلفه فتياته الأربع الصغيرات في منزل مجاور في مدينة حلب.

أعود إلى بيروت في لحظة الصلاة على جثمان شقيقتي، أدفنها وأبكي على لحدها، أبقى بضعة أيام، ثم أودع أخي حسام، وأذهب مجدداً إلى سورية، هدفي هذه المرة المخطوفون فقط لا غير.

الأيام القليلة الفاصلة ما بين يوم ٢٨ تموز وأول آب من العام ٢٠١٢ هي أيام مجزرة بالمعنى الحرفي للكلمة، كانت حلب قد نفضت عنها سكانها، أو على الأقل أغلب من كان يقطن في الأحياء المستهدفة، لاسيما صلاح الدين والسكري والمناطق المتاخمة للجيش السوري، ومن منطقة الحمدانية والأوتوستراد الفاصل ما بين الحمدانية وصلاح الدين بدأت يوم الثامن والعشرين من تموز عمليات هجوم الجيش السوري، ليس قبل أن يتكفل

الطيران الحربي بعدة غارات على ارتفاع منخفض تدمر واجهات المباني على طرف صلاح الدين محيلة المنطقة إلى جحيم مشتعل.

تقدمت الدبابات التابعة للنظام، وخلفها الجنود، شيء ما دفع الجنود إلى السير فوق جثث رفاقهم ومتابعة التقدم، كما دفع الثوار إلى لمّ رفاقهم المتهاوين سريعاً والثبات في أماكنهم في المعركة. شهدت محاور صلاح الدين مطحنة بشرية ليل نهار، وطوال أيام، لا يمكن إحصاء عدد القتلى من الشبان الذين أعرفهم، العشرات أيضاً أصيبوا، الشيخ علي كاد يقطع عنقه بشظية قذيفة دبابة، أحمد الإعلامي تلقى من القذيفة نفسها شظايا في قدميه كادت تحيله إلى مُقعد، تحولت المنطقة إلى ساحة مقتلة، وفوق ذلك كانت قيادة لواء التوحيد توزع الذخائر القليلة الواردة بشكل غير عادل، تقلص ورود الذخائر في المعركة، ونشبت النزاعات مما استدعى بعض الفصائل للانفكاك عن لواء التوحيد، والبعض أطلق الإنذار تلو الإنذار بحاجته للدعم البشري والذخائر، إلا أن شيئاً لم يصل، كانت الفوضى سيدة الأرض في المعركة، كما في أغلب المعارك التي خاضها الثوار، ومهما كانت التحضيرات فإن الأرض تشهد الفوضى نفسها الناتجة من اعتبار الثوار دائماً أن المعارك أمر مؤقت، وبالتالي فلا إعداد طويل المدى لتنظيم حركة المقاتلين وتوزيع القوى، إلا وفق معطيات مؤقتة ومتفائلة بقرب سقوط النظام، وبان الجيش السوري لا يقاتل بل يهرب.

تقدمت الدبابات بعد قصف تمهيدي طويل، ثم واصلت القصف خلال تحركها لتؤمن مسيرها، وعلى جوانبها تقدم المشاة، تعرضت عشرات الدبابات لقذائف RPG وبقي الكثير منها معطوباً في مكانه، ولم يُزل الجيش

النظامي منها إلا ما كان يسدّ الطرق، بينما تقدمت خلفها دبابات أخرى وناقلات جند نحو مداخل الشوارع في صلاح الدين، وترك الجيش النظامي القتلى في أرض المعركة، حاول اختراق الشوارع، ومات من جنوده المئات خلال هذه العملية، وكذلك اخترق المباني عبر تحطيم الجدران الداخلية للمباني والسير داخلها نحو الشوارع الموازية أو المقابلة، واعتمد الجيش النظامي على القناصة لتغطية حركة تقدمه، وجُوبَه بنيران غزيرة من أماكن تواجد الثوار، وأدّت العمليات إلى تقدم كبير للجيش النظامي، وإلى تكبد الطرفين مئات من القتلى، بقي العديد منهم في الشوارع حيث لم يتسن الوقت لأي من الطرفين لسحب القتلى، كما أن نيران القناصة المتقاطعة بين الطرفين حوّلت الجثث إلى أفخاخ.

هذه المرة انسحب لواء نور الدين زنكي وغيره من القوى المنتشرة في منطقة صلاح الدين من أمام الجيش السوري، وأخليت المنطقة تماماً، ما عدا بعض مقاتلي جبهة النصرة الذين بقوا في أماكنهم إلى أن أبيدوا، تقدم الجيش السوري واحتل المنطقة كاملة، عامداً إلى تصفية من صادف بقاؤه من السكان المدنيين، وخاض حرب شوارع قاسية كلفته من الجنود أكثر مما كلفت المقاتلين القرويين بأضعاف، وفي النهاية استتب له الأمر إلى حين، وحين دخلت قوات النظام حصدت أرواح الكثير من المدنيين الذين تمكنوا بهذه الطريقة أو تلك من البقاء، بل قل الذين تقطعت بهم السبل ولم يتمكنوا من مغادرة المنطقة، وبقيت الجثث في أماكنها في الشوارع لعدة أيام، وبعضها أصبح نهباً للكلاب الشاردة والقطط تلوك منها ما يُشبع جوعها.

ثم بدأ الهجوم المعاكس بعد أيام وعادت أغلب منطقة صلاح الدين إلى أيدي الثوار، وسيطرت عليها مجموعة الزنكي وغيرها من المجموعات.

وصلتُ قبتان الجبل رأيت وليد شهاب الدين رفيقي الدائم، إضافة إلى صبحي، يشتم ويبكي، كان وليد من آخر المقاتلين الذين سحبوا مجموعاتهم من الميدان، لم يكن يصدق أنه نفذ أمر الانسحاب وترك خلفه مقاتلين من النصرة ومنطقة صلاح الدين ليستبيحها الجيش النظامي، واتخذ وليد قراره بالتخلي عن القتال نهائياً، والسفر إلى تركيا والبقاء إلى جانب زوجته وطفلته تالا، وهو القرار الذي لن يسمح ضميره له بالإصرار عليه، إذ سيعود إلى القتال في غضون أسابيع قليلة. وفي اليوم الأول ألتقي الشيخ توفيق، وتظهر على وجهه أمارات التعب، يشكو بكلام لا ينقل، ويتحدث عن خسارات، للمرة الأولى يبدو هذا الشاب بحالة من الإحباط، وأطلب منه، وعلى الرغم من الظرف الضاغط، إيصالي إلى أعزاز التي تحررت منذ أيام قليلة لأقابل أبو إبراهيم، يخبرني بأن لا صلة له حالياً مع أبو إبراهيم، وإن كنت أوافق فإنه يمكنه تدبير نقلي إلى هناك لا أكثر، بدا الأمر مناسباً تماماً لي، وشكرته رغم فداحة الخسائر ومرارة فقدان الشبان، على اهتمامه بمخطوفين متهمين بأنهم من حزب الله.

كعادته، وكّلني بالتحدث باسمه، وبمطالبة أبو إبراهيم بإطلاق سراح الأسرى، وأوصاني بالانتباه والحذر في التعامل مع الداديخي. وفي صباح يوم الرابع من آب كانت سيارة تنتظرني لنقلي إلى أعزاز المحررة، وفيها شاب يحمل بطاقات من الجيش النظامي والمخابرات العسكرية لتسهيل المرور، ومن أحد الأحزاب السورية المشاركة في القتال إلى جانب النظام.

«لا أريد المرور على حواجز النظام» قلت للشاب المرافق، وكلي فزع من محاولته سلوك إحدى الطرق الرئيسية المليئة بالحواجز حيث سبق أن سمعت مئات القصص عن شبان مروا عليها واختفوا إلى الأبد أو عثر على جثثهم المشوهة بعد أسابيع، «ولكنها أكثر أمناً لنا» أجابني الشاب، وأخرج مجموعة من بطاقات المهمة الصادرة عن أجهزة أمنية تابعة للنظام، «أفضل الموت بالقصف على عبور حواجز النظام والشبيحة» أصررت، فامتثل لطلبي، وحذّرني من أنه لا يعرف الطرق الداخلية المحررة كما يجب.

كل شيء سار على ما يرام إلى أن وصلنا إلى تل رفعت، وبدل التوجه شمالاً إلى عين دقنة فأعزاز توجه السائق المرافق إلى الغرب نحو قرية منغ، ليسير على الطريق الدولية كونها الطريق الوحيدة التي يعرفها، مستسهلاً سلوكها بدل التوقف وسؤال السكان حول الطرق الآمنة.

وصلنا إلى الطريق الدولية العريضة، ولدقائق بدت دهراً كنا البشر الوحيدين في الشارع، لا سيارات، لا بشر، ولا حتى بهائم تسير على تلك الطريق، وكل بضع مئات من الأمتار كان هناك جثة، أو سيارة محترقة ملقاة على جنب الطريق، وقبل أن يقرر رفيق دربي العودة من حيث أتى، ظهر في الأفق علمان سوريان بنجمتين، «يا للمصيبة، هذا مطار منغ العسكري، النقطة الوحيدة التي تحتشد فيها قوات النظام حالياً»، «لا تعدّل سرعتك ولا تحاول العودة» صرخت، بينما كان مرافقي إلى لحظتها يتمتع بهدوء الأعصاب، «لا تنس أننا نحمل بطاقات تفك عن رقابنا حبل المشنقة». تابع سيره وكلي خوف من أن يعمد الجنود النظاميون إلى إيقاف سيارتنا أمام مطارهم، أطلب منه مسدسه، فيرفض تسليمي إياه، «إذا أوقفونا فكيف

أبرر أنك تحمل مسدسي؟»، نصل أمام البوابة الرئيسية، ومن أمامنا تقلع مروحية روسية من طراز Mi 8 وترافقنا لمئات الأمتار محافظة على سيرها فوق سيارتنا، هنا يكاد يفقد سائقي أعصابه، لم يعد أي شيء ينفع الآن، قد يكون مصيرنا مثل السيارات المحروقة على جوانب الطريق، دقائق أخرى وتتركنا المروحية بسلام، كانت من القرب بحيث كان يمكن لمن فيها أن يشاهد وجوهنا، كما كنا نشاهد وجه مساعد القائد فيها.

دقائق أخرى وتصل سيارتنا إلى أعزاز، حيث يصعق مقاتلو الحاجز من مرورنا بهذا الطريق، والحاجز مهمته التصدي لقوات النظام إذا تقدمت، لا لاستقبال وافدين وسيارات، ويقودنا أحد العناصر إلى مركز حزب البعث في المدينة والذي تحوّل إلى مركز «المكتب السياسي للواء عاصفة الشمال».

تصوير ومطالب

في مركز حزب البعث سابقاً، يعاند رجل يدعونه «الأستاذ سمير» طويلاً، يرفض إرسالي إلى أبو إبراهيم، وسمير هو رئيس «المكتب السياسي في لواء عاصفة الشمال»، ولعدة ساعات سأخوض في محاولات متواصلة، حتى يقرر في النهاية إرسالي إلى الموقع الحدودي، في معبر باب السلامة، على أن يتصرفوا هم معي سواء بطردي أو بإرسالي إلى أبو إبراهيم. وفي المعبر ألتقي بطارق المسؤول عن المعبر الحدودي، وبعد انتظار يفتش معدّاتي، ويرسلني مع محمد شوقي معصوب العينين وفي سيارة تحمل سجيناً مدنياً هو سائق سيارة أجرة جريمته أنه تقاضى من ركابه تعرفة أعلى من المتعارف عليه خلال نقلهم إلى تركيا.

أدخل إلى مكان منخفض حال توقف السيارة، يقود خطواتي محمد شوقي، أحد القادة المرافقين دائماً لعمار الداديخي، وأجلس على كرسي، وأنتظر لدقائق قبل أن أئسمع توافد أشخاص إلى الغرفة، ثم صوت الداديخي يقول «أنت مجدداً؟» وترفع العصبة عن عيني، فأجد نفسي في غرفة ضيقة

يحيط بي الداديخي ومحمد شوقي وعدد من المقاتلين بسلاحهم الكامل، «هيا بنا إلى الإفطار» يقول الداديخي، وننتقل خارج الغرفة، فأكتشف أنني في موقع عسكري مبانيه منخفضة عن الأرض قليلاً، وفيه مطعم، كأي ثكنة رسمية، ولكنه حديث البناء، ويلحق به هنغارات بلاستيكية شبه جاهزة.

خلال سيرنا نحو المطعم يقول الداديخي «شغْلتك فاضية، لن تحصل على شيء». يجلسني الداديخي إلى يساره، وأمامي مباشرة يجلس محمد شوقي الذي يستل هاتفه الخلوي ويشرع بتصويري، ويبدأ بطرح أسئلة: ما اسمك؟ كم عمرك؟ ما هي مهنتك؟ وساخراً من أسلوبه المخابراتي البدائي أبدأ بطرح أسئلة عليه: ما هي مهنتك قبل الثورة؟ متى حملت السلاح لأول مرة؟ من أي قرية أنت؟ يوقف التسجيل.

بعد الإفطار يقودني الداديخي مجدداً إلى الغرفة الأولى، كانت تلك غرفة آمر السجن، الموقع الذي وصلت اليه يضم سجناً إضافة إلى مهاجع للمقاتلين، وأمام الغرفة كانت أبواب بعض الزنازين، وعلى الجدار أمام الغرفة علقت أدوات تعذيب، سياط وعصيّ وكماشات، ونظارات مطاطية مطلية بالأسود كلياً.

وفي الغرفة المعتمة يتحدث أبو إبراهيم عن الموقف السياسي للدولة اللبنانية تجاه الثورة السورية، وسماحها لحزب الله بالتدخل العسكري، ومعاداتها للثوار، وحين يخرج محمد شوقي وباقي العناصر من الغرفة يبدأ الداديخي بالكلام المفيد :هل لك صلة بجهات لبنانية نافذة؟ يسألني، فأخبره بأنني مستعدّ لفتح خط تفاوض إضافة إلى ما لديه من خطوط، «لا يوجد أي

خط تفاوضي» يقول في كذبة واضحة، ثم يضيف «ليعطوني خمسين مليون يورو وليأت أي شخص ليستلم خمسة منهم، أريد الانتهاء من الملف»، ماذا عن الباقين؟ أسأله، «أتحدث عن المرحلة الأولى الآن، خمسة مقابل خمسين مليون يورو» حسناً ولكن الرقم كبير، ربما إذا بدأنا بالتفاوض الآن نصل إلى أمر ما؟

يدخل محمد شوقي إلى الغرفة، يصمت أبو إبراهيم، ألقي بعبارة بشكل عرضي «على كل طالما أصبح لدينا رقم يمكننا أن نبدأ» يمتعض الداديخي، ويخرج شوقي، «كيف ذكرت أمامه هذا الكلام؟» يعاتبني الداديخي، «آسف، لم أكن أعلم كيف تدير الأمور هنا».

«وهناك إيراني من الحرس الثوري، اتصل بسفارته ولنبدأ بالتفاوض حوله» يقول، «أعتذر، لا يهمني أمره، هو في النهاية إيراني، ودولته مسؤولة عنه، ومهمتي مع «ال بي سي» تتعلق باللبنانيين فقط، والتفاوض هو أصلاً تجاوز لأصول مهنتي». ينظر الداديخي نحوي بابتسامة ساخرة، «طيب يا سيدي، إذا لم ترُد الاتصال بسفارته في بيروت دعه يتعفن عندي».

ولإظهار ما لديه يطلب الداديخي من آمر السجن عنده إعطاءه ورقة أسماء اللبنانيين، يقلّبها صعوداً ونزولاً، ثم يضعها بين يدي، ويقول «اختر اسماً من بينها، كلهم موجودون». أسأله من أفضل المتحدثين؟ ثم أتردد، لماذا لا يمكننا مقابلة أكثر من شخص؟ ثم أسأله «من أكبرهم سناً؟» يسأل عن الأكبر سناً، فيجيب آمر السجن «علي زغيب»، يصرخ لمحمد شوقي «آتنا بزغيب». وبعد دقائق يدخل علي زغيب الملقب بالمختار، يدخل الرجل لاهثاً، «ما بك؟ هل أنت بخير؟» أسأله، «نعم، إنها المفاجأة،

واللهفة»، يقول، فلا أصدقه، نجلس لأكثر من ساعة، يتحدث «علي» عن المعاملة الحسنة، وعن تخلي أطراف سياسية عنهم، وعن قراره بالعودة إلى لبنان والتحول إلى فريق الرابع عشر من آذار، يحكي بمرارة وحماسة، أسأله «هل كان يستحق هذا السفر كل هذه المغامرة؟ لماذا لم تأخذوا طريق الجو؟»، «لا نملك ثمن تذاكر السفر، السفر براً أقل كلفة، ثم أنا في حياتي لم أشاهد هذه المناظر الجميلة في تركيا وغيرها، الشجرة التي تشكل جزيرة وحدها وسط البحيرة، كل هذه المناظر التي شاهدناها في طريقنا، نعم ربما تستحق هذه الرحلة أن نقبع في الأسر، أقصد في ضيافة الإخوة هنا» يقول علي زغيب، ثم يشرع في التحدث عن المعاملة الحسنة مجدداً وعن كرم «الحاج أبو إبراهيم».ينظر محمد شوقي بنظرة منتشية «ما رأيك الآن؟ هل نحسن معاملتهم أم لا؟»، أحدق في عينيه واجيبه «طوال أربعين عاماً كنتم كسوريين تصوتون لآل الأسد، وحين تأتون إلى بيروت كنتم تتحدثون عن الحياة الجيدة في سورية، وعن رضاكم عن مسار الأمور، وتخدمون عسكريتكم بصمت، الآن أنت حرّ وبين يديك بندقية، وتتحدث عن مساوئ النظام، متى كان علي أن أصدقك؟ حين كان النظام مسيطراً أم حين تحررت من عبئه؟ غداً حين يصل علي زغيب إلى بيروت يمكنه أن يكرر أمام الناس ما قاله الآن، أو يكون اليوم يتحدث تحت الإكراه». يمتعض الداديخي مجدداً، ويخرج محمد شوقي من الغرفة ليدخل جمعة الإعلامي.

أطلب تسجيل مقابلة طويلة مع علي زغيب، يرفض أبو إبراهيم، أحاجج بأن كل ما سأقوله في بيروت سيعدّ مجرد اختلاق، وإن لا إعلام من دون صورة، فيوافق في النهاية على تصوير لقطة قصيرة مع علي زغيب،

طلبت من جمعة تصويري مع علي زغيب بكاميرتي، رفض أبو إبراهيم، ثم طلبت منه صوراً ثابتة فقط بكاميرتي على أن يصور ما يريد بكاميرته. وافق الداديخي، وفكرت ما الذي يمكن إضافته إلى الفيديو الذي سبق أن عرضته قناة الجزيرة القطرية ويظهر عدداً من المخطوفين؟ فجلست إلى جانب علي زغيب، وصورنا جمعة، ثم انطلق إلى مكتب الإعلام على الحدود ليختصر من الصورة التلفزيونية، وبعد دقائق عاد وأعطاني ملفاً مدّته ٢٠ ثانية.

ولا ينسى محمد نور قبل أن أغادر أن يطلب مني معدّات تصوير وكاميرا ليلية وبعض أجهزة الكومبيوتر المحمولة. وهو ما سيتكفل بثمنه بيار الضاهر ضمن نفقات المهمة.

وعبر خط الإنترنت التركي الذي أحتفظ به دائماً أرسلت الصور إلى قناة «ال بي سي»، وأجريت اتصالات متعددة بالقناة وأنا في الموقع العسكري للواء عاصفة الشمال، ثم طلب مني أبو إبراهيم عدم العودة إلى قبتان الجبل، بل عبور الطريق إلى تركيا والعودة من هناك إلى بيروت.

وفي المئة متر الفاصلة بين موقع لواء عاصفة الشمال وبين الشريط الشائك للحدود التركية، كانت «ال بي سي» تبث الشريط وتجري حواراً معي، وحقيبة معدّاتي على ظهري، كنت أمشي بين الأشواك والمزروعات، ومحمد شوقي يستعجلني لإطفاء خطّي الهاتفي، وعبور الحدود، وشخص اسمه محمد من الجهة الأخرى (وهو من متوكلي متابعة أمور لواء عاصفة الشمال في تركيا) يستعجل شوقي لإرسالي، وظللتُ اتحدث حتى وصلتُ إلى أسفل برج المراقبة الحدودي التركي،

فيما كاد شوقي أن يحطم هاتفي، ثم أطفأته بعد قطع الاتصال.

في الجانب الآخر يستقبلني محمد ويقودني إلى المدينة التركية كيليس، وهناك يصر على متابعة السهرة مع جورج بوتلر، الرسام البريطاني الجنسية، الذي حاول يائساً شرح عمله لمحمد ولشبان عاصفة الشمال:

أريد رسم الدبابات السورية المحترقة، يقول جورج بالإنكليزية، بينما يتولى أحمد التركي الترجمة لمحمد السوري.

جورج لا يتقن إلا الإنكليزية والفرنسية، وأحمد يتقن الفرنسية والتركية فقط، ومحمد السوري يتقن التركية والعربية، وتدور الكلمات بينهم طويلاً قبل أن يتمكن محمد من شرح وجهة نظره «ولكن أي عاقل يدخل إلى سورية لرسم مشاهد دبابات محترقة؟ استخدمْ صوراً فوتوغرافية».

وبعد أيام قليلة يدخل جورج إلى أعزاز ويرسم الدبابات المحترقة منتجاً عدداً من الأعمال الفنية التي تؤرخ للثورة السورية[١].

يوم السادس من آب أصل بيروت وأنقل رسالة أبو إبراهيم إلى مستشار الأمين العام لحزب الله «ولكنْ خمسون مليون يورو ستحتاج إلى طائرة خاصة لنقلها، بماذا يفكر أبو إبراهيم؟» يسأل الرجل قبل أن يطلب المزيد من المعلومات أعطيه بعضها وأصمت عن أخرى، ويعدني بإعطائي الجواب في المساء نفسه، طالباً مني ألّا أخبر أية جهة بمطالب أبو إبراهيم حتى لا تتسرب المعلومات.

---

(١) http: / /www.bbc.com /news /magazine-19468300

وفي اليوم نفسه زرت رئيس مجلس النواب نبيه بري، الذي استقبلني مرحباً وببشاشته المعهودة، وسأل عن المخطوفين ولكن دون أن يغوص في التفاصيل، اكتفى بما أخبرته إياه، من أن المخطوفين بخير، وانهم بعهدة شخص يدعى عمار الداديخي، وعلاقة الأخير بالجيش الحر ملتبسة، وأنه يطالب بأشياء مادية مقابل إطلاقهم، ولدى الأمين العام لحزب الله معلومات أكثر تفصيلاً. انتقل نبيه بري للسؤال عن الأوضاع في سورية، حول الدولة السورية، وحول الثوار، ومواقع النفوذ، وما بقي من مؤسسات البلد، وأحوال الإدارات فيها.

بعد ظهر ذلك اليوم أرسل لي خالد صورة وسألني إن كان الشخص الظاهرفيها هو عمار الداديخي. واكتشف أن هناك عدداً من المقابلات مع الداديخي أجريت على عدد من الفضائيات بصفته أحد قادة الثورة في أعزاز، وأكتشف المزيد من اللقطات له على عدد من الأقنية الفضائية التي دخلت إلى مدينة أعزاز، وفي الليلة نفسها ظهر على قناة «ال بي سي» تقرير حول عمار الداديخي خاطف اللبنانيين، وبصوره.

اليوم التالي الثلاثاء في السابع من آب هو يوم زيارة ضابط الأمن في حزب الله، الذي يطلب مجدداً معلومات ذات طبيعة أمنية، «يمكنك أن تحدد مكان المخطوفين؟ «نعم بناء على ما شهدته يمكن ذلك بل حددته فعلاً على Google Earth وأنا في تركيا» أجيب، «حسناً ستخبرنا بذلك؟» يقول بتردد «طبعاً لا» أجيبه.

وكالعادة، وبعد محاولات طويلة للحصول على معلومات ذات طبيعة أمنية دون جدوى، يتحول الحديث إلى السياسة العامة دون أن أقدم أي شيء

للزائر ما عدا ما سبق أن أعلنته لمستشار الأمين العام دون زيادة أو نقصان. وأخبره بأن المعلومات موجودة لدى مستشار الأمين العام أيضاً، فأحرص على إرسال جواب واضح من قيادة الحزب حول المخطوفين.

بعد ظهر ذلك اليوم ألتقي رئيس الحكومة اللبنانية نجيب ميقاتي، الذي يحاول تجاوز موقفه مني وتركي لجريدة **الأخبار** بعد كتابتي مقالاً أطالبه فيه بالاستقالة، ويسأل وهو واقف خلف مكتبه الضخم في السراي الحكومية وينظر في أوراق أمامه ويتحدث بلا مبالاة «ما الجديد؟» فأسأله: «هل تريدون استعادة المخطوفين أم لا؟».

نجلس سريعاً، أخبره بما لدي دون الغوص في الطلب المالي، أقول إن لدى أبو إبراهيم مطلباً واضحاً، وأصبح المطلب لدى حسن نصرالله، أما الجانب السياسي، فهو يطلب موقفاً منكم حول التدخل اللبناني إلى جانب النظام.

يبدأ ميقاتي بشرح وجهة نظر الحكومة اللبنانية، «منذ أن تشكلت هذه الحكومة ونحن نحاول أن نكون في منأى عن الصراع في سورية..»، فأقاطعه: «أعتذر ولكن هذا الكلام لا يهم أبو إبراهيم وبكل الأحوال ثمة مقاتلون من حزب الله هناك، المطلوب خطوات عملية وجواب عملي على رسالة الخاطف».

يتأمل للحظات ويسألني: ألا يمكن أن يفك سعد الحريري كيسه ويدفع الفدية ويريحنا من هذه المشكلة؟ أضحك، ثم أسأله بجدية: ولماذا يفكّ سعد الحريري أزمتنا هذه؟ ثم يقول: ولكن حسن نصرالله يجب أن يتوكل بالأمر، إنهم شيعة. فأذكّره بأن نصرالله اعتبرهم مواطنين لبنانيين من مسؤولية الحكومة فقط.

ينتهي اللقاء بطلبي لصورة رسمية مع ميقاتي، حتى أظهرها للخاطفين. وأغادر دون أية فائدة تذكر.

أنصرف لتجهيز المعدات التي طلبها الخاطف، وتوضيبها تمهيداً لزيارة أخرى إلى سورية، والقلق يتآكلني من موقف حزب الله، الذي سيكون في أسوأ الأحوال كعادة الحزب حين يحاول الرفض فيمارس الصمت المطبق. فعلى الرغم من طلب مستشار الأمين العام للحزب وتشديده على عدم إبلاغ أي طرف بمطالب الخاطف، إلا أن شيئاً لا يمنع عدم إعطاء الحزب أي جواب حول موضوع المخطوفين، والاكتفاء بمعرفة المطلب دون البحث فيه جدياً.

وعلى نشرة الأخبار ليلتها، يتمكن فريق «ال بي سي» من محادثة المخطوفين بعد أن سمح لهم الخاطف بذلك، ويدعو الخاطف الإعلام اللبناني إلى زيارة المخطوفين في أعزاز، وتبدأ فوراً التحضيرات لذهاب صحافيين من مختلف وسائل الإعلام إلى هناك.

وتمضي الليلة دون أي اتصال من حزب الله حول المخطوفين.

الثامن من آب، صباحاً تستضيفني المؤسسة اللبنانية للإرسال لأتحدث عن التجربة السورية، أتى الانقاذ من حيث لا أدري، اعتقدت بأنني سأدفع قيادة حزب الله لإعطائي إجابة واضحة، أتحدث عن المخطوفين وعن مطالب الخاطف، انتبه لخطابي حتى لا يؤدي إلى ردة فعل لدى الخاطف، وأقول إن المطالب أصبحت بحوزة الأمين العام للحزب حسن نصرالله، وكلما سألت المضيفة عن المطالب أجبت «اسألي حسن نصرالله».

بعد الظهر ألتقي ببيار الضاهر لتناول القهوة، وهو يشرب عصيره المفضل، نتحدث عن العمل في سورية، انتهت مهمتي الآن، يتصل بي خلال اللقاء مستشار الأمين العام لحزب الله: لقد استعجلت على نفسك، يقول! على نفسي؟ أقول شبه ساخر. فيصحح: استعجلت على الإعلام. فأجيب: منذ أيام وأنا أنتظر ردكم.

«اليوم مساءً يكون الجواب عندك، يقول قبل أن يغلق الخط حانقاً».

يعلق بيار الضاهر بهدوء حول لعبة المخطوفين بالقول: هذه اللعبة ستنتهي بمقتل طرف، إما أبو إبراهيم أو المخطوفين. فأجيبه: أو «الاثنان معاً» وأنا أدرك أن في كلماته تحذيراً واضحاً لن يخرج بعبارة أوضح من رجل محنك مثله.

أحجز أول مقعد متوفر إلى مطار اسطنبول، ومنها إلى مطار غازي عنتاب، إذا لم يصل الليلة جواب من حزب الله فسأغادر غداً لأحاول تهدئة أعصاب أبو إبراهيم وأخبره بأن الأمر يحتاج إلى المزيد من الوقت.

كان لا بد من الاستفادة من حب أبو إبراهيم للإعلام، والأضواء، وهو الذي كان يلعب دور رجل الأمن، والرجل الغامض، بهرته الأضواء وبات مغرماً بها، واعتمد سياسة أخرى في إظهار ملف المخطوفين ومحاولة حله بسرعة، إلا أن كل هذه الألاعيب والأضواء قد تنقلب إلى كارثة إذا لم نحصل على جواب مناسب، ولكن من لبنان لا جواب على الإطلاق، لم أنتظر أي شيء من نجيب ميقاتي، فالرجل لن يتحرك من أجل بضعة مواطنين، ونبيه بري أذكى من أن يتدخل في ملف مشابه، رغم أن حافلة

من حافلتَي المخطوفين كانت تابعة لتنظيمه حركة أمل، وحزب الله دائماً مطالَب من جمهوره بالقيام بكل الأدوار وهو عادة ما يتصدى لهذه الأدوار، إلا أنه حين يصمت فإنه يشبه أبو الهول.

على المعبر الحدودي باب السلامة قرب أعزاز، كان أبو إبراهيم غارقاً بين الصحافيين والزوار من لبنان، انتظرت لبعض الوقت حتى صرف كل من حوله وجلسنا. أكثر من ساعة، تحدثنا عن الإعلام، ثم نقلت له بعض ما جرى معي، وأشرت إلى أن الموضوع بحاجة إلى الوقت، بانتظار جواب واضح من حزب الله. كان الرجل محاطاً بمن هبّ ودبّ من إعلاميين وطفيليين لبنانيين أدخلوا أنفسهم في ملف المخطوفين لهذه الغاية أو تلك، وسبق أن نقل أبو إبراهيم المخطوفين من مكانهم الأساسي إلى مدينة أعزاز حيث التقى بهم الإعلام اللبناني. وبعدما عرضت له ملخصاً عما جرى وبعد حديث طويل قال: «أخبرني حين يصلك الجواب»، وغادرته لأنام في قريتي قبتان الجبل، ومن هناك كالعادة اتصلت بالعديد من الثوار في إطار العمل المهني.

انتهى المهرجان الإعلامي الذي أطلقه عمار الداديخي في أعزاز، حصد الرجل نجاحاً وفشلاً بارزين، نجح في التحول إلى نقطة تستقطب الإعلام والشاشات، إلا أن الإعلام مل من تكرار الصورة نفسها، المخطوفين والخاطف والمنطقة المحررة، وعاد الإعلام إلى بيروت، أما الفشل فسيتجلى بتسريب أحد الإعلاميين معلومات كاملة حول مكان لقائه بالمخطوفين إلى إحدى الجهات اللبنانية المتحالفة مع النظام السوري، وأجبر الصحافي مصوره على تحديد مكان اللقاء لهذه الجهة على الخرائط الإلكترونية، وبعدها

بأيام قليلة، أي يوم ١٥ آب من العام ٢٠١٢ ينقضّ الطيران الحربي السوري على المكان ملقياً صواريخه ومدمراً المكان تماماً إضافة إلى عدد كبير من المساكن المدنية. كان أبو إبراهيم قد نقل المخطوفين من أماكنهم وأعادهم إلى سجنهم في المبنى المتاخم للحدود التركية فور مغادرة الصحافيين لسورية.

أعود إلى سورية في رحلة هي السادسة، ومعي فريق تلفزيوني، مررت على الحدود، وسألت عن أبو إبراهيم، التقيته في غرفة على معبر باب السلامة، كان الرجل قد نجا من قصف أعزاز، وعلى عكس ما ظهر في تسجيل نشره مكتبه الإعلامي لم يكن مصاباً في رأسه، ولا حتى بخدوش، سألني عن الجديد، فقلت لا شيء ولكن يجب أن تضع رقماً أكثر منطقية.

«اليوم لا أتركهم ولا بمليار من اليوروات، ثم إنس أمر اللبنانيين، أكبر قطعة منهم أصبحت بحجم الكف». قال وهو يبتسم ابتسامته المراوغة، انتهى اللقاء بأقل من نصف ساعة، بدا أن حظوظ التفاوض من دون معطيات جدية من بيروت معدومة، وفضّلت الانسحاب على الرغم من أن الصلة مع حزب الله بقيت قائمة بحدودها الدنيا، وظل الحديث يدور في مكانه حول المخطوفين وآلية الإفراج عنهم، من ناحية حزب الله، كان الكلام يتكرر دون أي تقدم، وبالمقابل كان أبو إبراهيم يتقدم ويتراجع بحسب ما يملي عليه مزاجه والقوى الراعية له. وفي ٢٥ من شهر آب يطلق أبو إبراهيم أول المخطوفين، حسين علي عمر.

حرب شوارع بلا ذخائر

في الرحلة الخامسة دخلت إلى حلب نهاراً، كانت الطريق ممسوكة أمنياً من قوات الجيش السوري التابعة للنظام، ومع ذلك أتيح لنا المرور دون أن نقف على أي حاجز للنظام، ومن السكري إلى صلاح الدين إلى مساكن الفردوس فالفردوس، كانت الحرب تلقي بثقلها على السكان النازحين من حي إلى آخر، ومن مدينة إلى قرية، ومن القرى إلى مخيمات اللجوء في تركيا.

في الرحلة الخامسة تلك جلت على المناطق والتقيت بالجهاديين العرب، والتقيت بأهل المناطق المختلفة أيضاً، كانت قناعتي قد بدأت بالتشكل حول معركة حلب، لقد دخل الثوار إلى فخ الاستنزاف بأرجلهم ولم يعد لهم من مخرج إلا حرب العصابات.

كانت شدة المعارك قد أطاحت أحياء كاملة في مدينة حلب، دخلت صلاح الدين وكل وسائل إعلام النظام تقول إنها ساقطة بيد الجيش منذ أسبوع، الطرفان تقاسما المنطقة الكبيرة بعد الهجوم المعاكس الذي قام به الثوار،

وبقيت المنطقة خالية من السكان المدنيين إلا ما ندر، بينما بقي على خطوط التماس وفي المناطق الفاصلة ما بين الثوار والجيش النظامي بعض الجثث التي لم تجد من يدفنها، وهناك كان المقاتلون يلهون أحياناً بإطلاق النار على القناصة، والقناصة يتصيدون مقاتلاً بين يوم وآخر، تحولت المدينة إلى محلة استنزاف للثورة.

نقاشات طويلة مع الشبان ومع بعض القياديين في الثورة، لماذا لا تعتمدون تدريب مجموعات حرب العصابات، والانطلاق في الاعتماد على الكفاءة البشرية بدل انتظار أسلحة لن تصلكم؟ إلا أن هذه المفاهيم لا تزال صعبة المنال بالنسبة إليهم، فهم يحاولون إظهار قوات الثورة كجيش مقابل الجيش النظامي، المدعوم الآن بشكل شبه معلن من قوات حزب الله وأبو الفضل العباس، اللذين بات يمكن سماع أصوات مقاتليهما على أجهزة الاتصالات اللاسلكية في عمليات الرصد.

ولا تزال لعبة الذخيرة هي نفسها، تقطع الدول الداعمة الذخيرة عن الثوار، ويدور قياديون وقادة مجموعات بين القرى الحدودية لشراء الذخائر، ثم حين تصل الأمور إلى الحائط المسدود وتكاد تسقط شوارع حلب من نقص الإمدادات، تصل شحنات من الذخائر، فتعود الأمور إلى نصابها.

يدور عموري وعمر حسن وطارق وعبد الرحمن[1] على المناطق: «اليوم وصلت إلى أقاصي إدلب» يقول طارق وهو يبحث عن طلقات بينما المعركة

(١) قادة ميدانيون وإداريون في ريف حلب الغربي.

تدور في حلب مستنزفة كل الطاقات، وطارق قائد المجموعة المكلفة بحماية إحدى القرى بات شارياً للذخائر لصالح القوات المقاتلة في حلب.

قبل أن ينطلق هؤلاء الشبان لمسح القرى المحيطة بهم وفي المناطق الحدودية الثائرة يوصون بعضهم باختبار الطلقات، بعدم شراء طلقات «من تلك الوثقة الزرقاء التي لا تنطلق» ثم يتصلون بعضهم ببعض: «عثرت على ألفي طلقة ولكن بسعر ١٧٥ ليرة للطلقة، هل وجدت شيئاً افضل؟».

تجارة الذخائر على قَدَم وساق، وقلة من بين الشباب الثوار في سورية من يعرف التمييز بين الطلقات الروسية المستوردة وتلك التشيكية الصنع أو المصنعة محلياً في مصانع الدفاع، عدا تاريخ الصنع، الطلقات باتت كلها تأتي في أكياس بلاستيكية، أو أكياس الشعير والعلف، هناك من يخرج الطلقات من صناديقها الحديدية ومن علبها الكرتونية ويخلطها ببعضها في أكياس، ثم يبيعها في السوق بأسعار تتراوح ما بين ١٠٠ ليرة و٢٠٠ ليرة بحسب العرض والطلب وحسب اشتداد المعارك أو وصول كميات من الطلقات من تركيا تهريباً أو مساعدة من إحدى الجهات.

من بين مئتي طلقة روسية الصنع عملت حوالي عشرين طلقة بينما استعصت ١٨٠ طلقة رُميت على الأرض وأُعيد تلقيم البنادق، هذه الطلقات روسية الصنع، ولكن على عقبها كُتب تاريخ (٧٦) ولا زالت في أحد المخازن التابعة للجيش السوري، حتى وضع الثوار يدهم عليها وبدأ البعض ببيعها، ثم انكشف أمرها وتدنّى سعرها إلا أنها بقيت سلعة متداولة، مع الكثير من الأقاويل حول «تجفيفها بالشمس ليومين قبل استخدامها» إلى آخر ما يمكن أن يخطر على بال من أساليب تسويق رخيصة لذخائر فاسدة.

إحدى هذه الطلقات انفجرت في بندقية أحد الثوار أثناء التدريب، أعاد الشاب تلقيم بندقيته، فاستعصت البندقية، إلى أن نظر في داخلها واقترب مني ليطلعني على الاستعصاء، نصف قاذف الطلقة بقي عالقاً في بيت النار في البندقية والنصف الآخر علق في كتلة الترباس.

الطلقات المصنعة في مصانع الدفاع السورية ليست بأفضل حالاً، وهي طلقات تشترى وتباع من داخل سورية، أغلبها يبيعه ضباط سوريون من الجيش الرسمي إلى المقاتلين في الثورة، وبعضها يأتي هدايا من ضباط ما زالوا يعملون مع النظام بينما قلوبهم مع الثورة، وبعضها الآخر يأتي من الاستيلاء المباشر على مواقع ومخازن للجيش السوري. هذه الطلقات كثيراً ما لا تبتعد أكثر من ٣٠٠ متر عن نقطة الاطلاق، أضف إلى أنها تستعصي في البنادق، ويضطر الرامي إلى إعادة التلقيم، وأكثر فشلها يكون لحظة تلقيمها أوتوماتيكياً في البنادق الآلية، ويدخل المقذوف لبضعة مليمترات في الغلاف القاذف للطلقة، وكما يبدو فإنه خلل في هندسة الطلقة أو في تثبيت المقذوف في مكانه بمقدمة الغلاف القاذف.

بنادق «الفال» السوداء الآتية من ليبيا تحولت في مرحلة من المراحل إلى عصي تسند الجدران، توقفت فجأة ذخائرها التي تأتي حصرياً من الحدود التركية إلى كل المناطق السورية الشمالية، أما في الناحية القريبة من لبنان فقد ضعف الإمداد بالذخائر مع تشديد الجيش السوري لقبضته على المعابر غير الشرعية للحدود ومشاركة حزب الله في الاشتباكات في المناطق المتاخمة للحدود اللبنانية وتوجيهه ضربات للعابرين والمجموعات القتالية في الجيش الحر.

تحولت بنادق «الفال» إلى عبء، وتركها المقاتلون ليحاولوا البحث عن المزيد من طلقات الكلاشنكوف مختلفة الصناعات والتواريخ.

ومع نهاية شهر حزيران وصلت دفعة من طلقات بنادق «الفال»، ومعها بنادق مستعملة ولكن لم يشاهد مثلها الثوار السوريون من قبل، هي بنادق شتير اوغ، النمساوية الصنع، وظنها الثوار أسترالية، في خطأ بقراءة ما كتب عليها (Austria) وصنفوها كبنادق قناصة لوجود محدّد هدفي عليها شبيه بالمنظار مهمته حصر الضوء وتحديد نقطة الهدف بنقطة سوداء نهاراً وحمراء ليلاً.

إلا أن الكارثة كانت وصول هذه البنادق التي لم يألفها الثوار مع عشرين طلقة في كل بندقية، ومخزن واحد، دون أي إضافات. كالعادة ثارت شكوك بأن من تسلّمها أولاً سرق الطلقات والإضافات ليعود ويبيعها لاحقاً، وأن من أرسلها كان يستهدف ابتزاز الثوار مالياً أو سياسياً، خصوصاً أنها وصلت مع بدايات الدخول إلى مدينة حلب.

لاحقاً بدأت تتوفر لدى التجار في المناطق المتاخمة للحدود مع تركيا طلقات لهذه البنادق، التي شأنها شأن «الفال»، لم تتجاوز أعدادها بضع مئات توزعت بين القرى والكتائب المشاركة في الجيش الحر بمعدل بضع بنادق في كل كتيبة. ما أفقدها فاعليتها وطرح أمام الثوار مشكلة إضافية إلى مشاكل التذخير: تأمين ثلاثة أنواع من الذخائر لكل كتيبة. ٦٢ , ٧ للكلاشنكوف، ٦٢ , ٧ للفال، و٥٦ , ٥ للشتير اوغ.

في شهر تموز خلال معارك حلب، وفي مكان غير بعيد ليلاً وبعد معركة سريعة يسقط موقع للدفاع الجوي في أعلى إحدى التلال في ريف حلب،

المجموعات المهاجمة تدخل الموقع تحت جنح الظلام، لا يتأخر الوقت قبل أن تجد نفسها محاطة بمئات من الشبان القادمين من العديد من القرى والذين ينهبون الموقع، كل شيء عرضة للنهب، الرشاشات البنادق، حتى اذا ترك أحد المقاتلين سلاحه جانباً للحظات فقده حتماً، زحف المئات من الآتين باسم الغنم وهم لم يشاركوا في الغرم.

تخرج الأسلحة والذخائر والعربات من الموقع دون أن يعلم أحد على وجه اليقين إلى من ذهبت هذه الأسلحة، المجموعة المهاجمة تغرق في فوضى النهب فتنتهي العملية مع تدخل المروحيات التابعة للجيش السوري بمحاولة استعادة الموقع بفرار جماعي، إلا للمجموعة الأولى التي اقتحمت الموقع والتي بقيت تقاتل حتى الفجر.

المشهد نفسه يتكرر في أحد الكمائن، حيث لم يكن القتال قد انتهى بعد حين ظهرت جحافل الغانمين آتين من كل القرى المحيطة، من تمكن من تأمين سيارة وصل فيها، وبعضهم أتوا على متن شاحنات «سوزوكي» صغيرة، وآخرون وصلوا على متن دراجات نارية صينية الصنع، وهدف الكل المشاركة في الغنائم وفي نهب العربات التي لا يزال راكبوها ينزفون من موت قريب، ينزل الشبان المصابون والقتلى، ينزعون عنهم الجعب العسكرية، يأخذون البنادق، ويتقاتلون في ما بينهم على البنادق الصينية الصنع التي يوزعها النظام على شبيحته من اللجان الشعبية، بينما تعم الفوضى في المجموعات القتالية التي نفذت الكمين، يعجز القادة عن ضبط مجموعاتهم، يشارك الكل في عمليات النهب، قلة تنضبط وتحافظ على عملها القتالي أو سماعها لقادتها وأوامرهم، يصعد أحد المقاتلين إلى شاحنة

ناقلة للعربات المدرعة محاولاً قيادة عربة النقل الضخمة إلى مكان مجهول، فيحرق محركها في محاولاته هذه قبل أن يتركها مغلقةً الشارع، يقتل أحد الشبان عدداً من الجرحى بقرار فردي، تختفي أجهزة الخليوي من الجثث، وكذلك الأجهزة اللاسلكية العسكرية التي تستحوذ اهتماماً أمنياً للقيادة في الثورة.

لا يتوقف هذا السيرك الدموي والفوضوي إلا مع هبوط الليل وإشاعة معلومات عن معاودة قوات الجيش السوري تنظيم نفسها لشن هجوم آخر سريع.

حيثما وقعت معركة وجدت نفسك في لحظة انتصار الثوار في مشهد من مشاهد فيلم «لورانس العرب»، يأتي عشرات وأحياناً مئات من الشبان المسلحين ببنادق هجومية أو باسلحة من طراز «بومب أكشن» إلى أرض المعركة، للحصول على بنادق، وفي بعض المعارك ينظم بعض قادة المجموعات عمليات إفراغ محتويات المواقع التي يستولون عليها ليشرعوا من بعدها في تصريف غنائمهم بأغلى الأسعار، فتباع البنادق والرصاص من كل الأنواع إلى القرى المقاتلة الأخرى أو إلى مجموعات أخرى في القرية نفسها. بعض المناطق تجهد في ضبط أوضاعها، حيث تقدر القيادات المناطقية بأن هذه الفوضى في غاية الخطورة، إلا أنها تحاول لمّ السلاح من ناهبيه بعد انتهاء المعارك، معلنة عجزها عن وقف تدفق الشبان وممارسة هوايتهم في النهب خلال الاشتباكات أو بُعَيدها. لكن هناك ما يفسر سر هذا الاهتمام بالنهب، إنه عطش السوق أو قل المقاتلين إلى السلاح، حيث يتحول السلاح إلى عملة

نادرة في ظل الحاجة إليه، النقص الحاد في التسلح وفي نوعية التسلح يدفع بالمغامرين إلى الذهاب نحو مواقع القتال لنهب السلاح من أرض المعركة وبيعه لمن يبحث عن بندقية ليقاتل بها ضمن مجموعات القرى الثائرة.

تسلح محلي وابتكارات

من يقرأ خارج سورية عن عمليات التسليح التي تقوم بها دول كبرى وغنية إضافة إلى تركيا، لا يمكن أن يصدق مشهد خلاف بين شقيقين على خلفية امتناع أحدهما عن بيع مسدس لشراء بندقية لشقيقه، أو عن طرد أحد الشبان لشقيقه الأصغر من سورية إلى مخيمات اللجوء في تركيا لأنه لا يملك أن يشتري له بندقية لينضم إلى قوات القرية المقاتلة، ولا يمكن أن يصدق أن أكثر من ٨٠ بالمئة من البنادق هي ملك شخصي للثوار الذين يحملونها، مقابل ٢٠ بالمئة تقريباً سلمها القادة إلى عناصرهم، وهي وصلت إلى أيدي القادة بعدة طرق أحدها الغنائم وأخرى الاستيراد من الخارج.

أكثر الطرق شيوعاً، للحصول على البنادق هو الشراء من السوق المحلية، أن تشتري مجموعة بنادق، أو أفراد يسلحون أنفسهم، فيبحثون في المناطق المحيطة بهم عن بندقية بسعر مناسب، وتصل من تركيا بنادق متهالكة تُهرّب عبر الحدود تحت أعين الضباط الأتراك أحياناً، وتباع في

السوق السورية بأسعار مرتفعة، وأحياناً أخرى ضمن مساعدات دول للثورة السورية، أو لبعض فصائلها، ومع تقدم الوقت ستفتح أسواق في قرى حدودية، كقرية سرمدا، حيث يمكنك الدخول إلى دكان، وشراء أي شيء من طلقة المسدس عيار ٦ ملم، إلى قذيفة RPG، ودفع ثمنها والخروج مزوداً بطلقات مضادة للطائرات من عيار ٥ , ١٤، و٢٣ ملم، المكدسة بصناديق والمعروضة في الواجهة الزجاجية التي يقف خلفها البائع مبتسماً. يراوح سعر البندقية الهجومية AK47 (كلاشنكوف) ما بين ٩٠ ألف ليرة سورية و١٥٠ ألف ليرة، بحسب عدة عوامل، أولها جودة البندقية وأوضاع السوق المحلية، وبحال توفر الكثير من البنادق بعد عمليات غُنم تهبط أسعار البنادق، وبحال وصول دفعات من بنادق «الفال» أو «شتيرن اوغ» فإن أسعار بنادق الكلاشنكوف تتراجع بحدة، وخلال أسابيع الجفاف واشتداد المعارك يمكن أن يصل سعر بندقية الكلاشنكوف الصينية المتهالكة إلى ١٥٠ الف ليرة (حوالي ٢٠٠٠ دولار أميركي).

يسأل أحد المقاتلين عن بندقية، هو يملك واحدة تسلّمها من الثوار ليشاركهم قتالهم، ولكنه كان يرغب في إبدالها ببندقية أفضل حالاً، بندقيته تسبب الكثير من المشكلات، تستعصي خلال إطلاق النار، وقطعها مختلفة الأرقام والتصنيع، أضف أن الفوهة واسعة تسمح بمرور الطلقة بسهولة منها ما يشير إلى استهلاك سبطانتها وضرورة إما تبديل السبطانة أو إحالة البندقية إلى التقاعد، لكن ما يطرح أمامه وبسعر أعلى من بندقيته، هو بندقية أخرى صينية الصنع تم فك حربتها الأمامية وتلميعها، إلا أن عمود المدق الذي يتلقى صدمة الغاز مع كل طلقة مقعّر وكان كرة قد استقرّت داخله

ثم أزيلت، يكتشف الشاب أن الفرق في السعر هو ٢٠ ألف ليرة سورية، لصالح البندقية الصينية، فيعْدل عن التبديل.

وفي إحدى القرى الحدودية ترى على رف في غرفة أحد قادة المجموعات عدداً من البنادق المختلفة، وقد جمعها أمامه بانتظار بيعها، وكل يوم يستقبل هذا القائد عدداً من الزوار الراغبين بالتزود بالسلاح والذخائر، ويطرح عليهم أسعاره، وهو يقسم أغلظ الأيمان بأنه تسلّم هذه البنادق بالسعر نفسه، وأن ما يقوم به إنما يفعله لوجه الله، لاعناً المتاجرين بالسلاح، وفي الغداة يرفع من أسعار بنادقه بعد تواصل منع التهريب على الحدود مع تركيا لأكثر من أسبوعين، ويكرر أمام زواره الراغبين في الشراء القسم نفسه واللعنات نفسها.

يسألك الشبان عن أسعار البنادق في لبنان، وقد تناهت إلى مسامعهم أن في لبنان محلات تجارية تبيع البنادق علناً للراغبين بشرائها، وأن كل أنواع البنادق متوافرة وبأبخس الأثمان، يتحدثون وكأن لبنان جنة للثوار، قبل أن تنبههم إلى أن اللبنانيين يرسلون لكم خردة السلاح ويقبضون منكم ثمنه مضاعفاً في الكثير من الأحوال، وأنهم بأغلبهم يحتفظون باسلحتهم في منازلهم ولا يبدون أي استعداد جدي لدعم الثورة في سورية من مالهم الخاص، وأن مخابرات الجيش اللبناني تلاحق من يحاول تصدير السلاح إلى سورية، والأسلحة غير متاحة في الأسواق الكبرى والمراكز التجارية والمولات كما تعتقدون.

إلا أن الثوار، يميلون إلى تصديق الروايات الخرافية، تماماً كما يميل الكثير من اللبنانيين إلى تنزيه الثورة أو شيطنتها بالكامل.

وتحفل أكتاف الثوار بمنظومة من البنادق غير المتجانسة، كلاشنكوف من مختلف الصناعات والتواريخ، بنادق قديمة من الحرب العالمية الثانية، لا يزال بعض الثوار وخاصة في التنسيقيات المدنية يقتنون بنادق «بومب أكشن» (أوتوماتيك بالتعبير السوري) مخصصة للصيد، ولكنهم يستخدمونها للدفاع عن أنفسهم في الأماكن التي لا تزال تحت سيطرة النظام، وبنادق فال (صناعة حلف الناتو) أضف بنادق معدّلة من كل شكل ولون وبنادق روسية من الحرب العالمية الأولى وما قبلها، حيث لن تعدم أن تجد بنادق روسية صناعة ١٩٠٧ بسبطانتها الطويلة، وقد باتت تستخدم كقناصة.

إلى هذه المنظومة من البنادق حصل الثوار حصلوا على بنادق قناصة من نوع M24 المعتمدة أميركياً ولكن لم يضعوها في الاستخدام الفعلي، بل أهملوها كونها ميكانيكية وليست نصف أوتوماتيكية، ومخازنها لا تتسع إلا لخمس طلقات، كما أنها مجهزة بمناظير نهارية فقط وتعتمد الياردات بدل الأمتار، أضف إلى ذلك أنها تستخدم ذخيرة من صناعة الناتو (طلقات بنادق الفال نفسها)، فتحولت أفضل بنادق القناصة الداعمة للمجموعات في الولايات المتحدة إلى مخازن الثوار الذين فضّلوا عليها بنادق الدريغانوف الروسية نصف الأوتوماتيكية، والتي يستخدمها الجيش السوري.

غير أن العديد من بنادق الدريغانوف القناصة المنتشرة لا تصلح للخدمة الفعلية تماماً كما بنادق الكلاشنكوف المتوافرة، ورغم ذلك يشتريها الثوار بمبالغ تصل إلى ٢٤٠ الف ليرة سورية للبندقية الواحدة (أكثر من ٣٠٠٠ دولار أميركي). ويحوّلونها للصيانة التي بالكاد تجعلها بندقية عاملة.

في إحدى قرى الريف الحلبي لا يتوقف رمضان عن العمل، وما إن تدخل القرية حتى تسمع صوت طلقتين ناريتين، حيناً من بندقية حربية، وحيناً آخر من رشاش متوسط، وحين تسأل عما يحصل يجيبك مرافقوك بأنه رمضان يختبر إحدى البنادق أو الرشاشات.

ورشة رمضان انتقلت مؤخراً مع اشتداد القصف من أول القرية إلى مكان أكثر انعزالاً ومحميّ من مجموعة مبان محيطة به، ونقل رمضان معدّات الحدادة البسيطة التي كانت في ورشته ليتابع عمله في صيانة بنادق الثوار، وهو يعتبر نفسه جزءاً من الثورة، ويصرّف معيشته تماماً كباقي المقاتلين، القليل من الطعام والشراب وتأمينات النقل والحديد من أموال الثورة في القرية. ويخرج كل حين مع الثوار لاختبار البنادق بعد أن يتأكد من عملها، فيذهب إلى موقع اختباري قريب من القرية ليشاهد الثوار يختبرون صلاحية بنادقهم. وليست نادرة الحالات التي يكتشف فيها رمضان أن عطلاً جديداً طرأ على البندقية، فيعود من حقل الاختبار مع البندقية لإعادة إصلاحها.

ويشارك رمضان شاب آخر خدم كقناص في الجيش السوري سابقاً وأصبح اليوم يساعد رمضان في اختبار البنادق في الورشة وأحياناً خارجها، وشريكه في إصلاح الأعطال، وفي اختراع مناصب لرشاشات الدوشكا ١٢,٧ ملم، وفي إصلاح قاذفات الصواريخ وابتكار آلية إطلاق يدوية لرشاشات بي كا تي (المعادل لرشاشات البي كا سي أو البي كا أم) الكهربائية الإطلاق المنزوعة عن دبابات وناقلات الجند المضروبة والمعطوبة والتابعة للجيش السوري.

إلا أن رمضان لا يهدأ ويقفل ورشته في الليل ليعود في الصباح ويبدأ العمل من جديد، وحين تدخل ورشته ستجد عشرات من البنادق التي لم تعد تصلح لأي شيء إلّا استخدام حديدها في دعم بنادق أخرى متهالكة، وككل البنادق المنتشرة بين أيدي الثوار، من النادر أن تجد قطع بندقية متطابقة، فالرقم على غطاء البدن يختلف عن رقم البدن الذي يختلف أيضاً عن الرقم المدموغ على أسطوانة الغاز، كل قطعة من واد، وكأن مشغل صيانة قام بتجميع قطع الخردة المتوافرة لديه وسلمها إلى المقاتلين على أنها بنادق هجومية.

ورمضان لا يلقي بالاً إلى هذه النوافل، بل هو يحاول مع كل أنواع الأسلحة المتوافرة إلى أن يتمكن من جعلها ترمي بضع طلقات قبل أن يسلمها إلى أصحابها، عنده ستكتشف غلبة البنادق الصينية على ما عداها، ووجود بعض البنادق الروسية من صناعة العام ١٩٥٢ وبنادق من مختلف دول العالم الاشتراكي التي زالت عن الخارطة، كما ستجد بنادق كلاشنكوف معدلة ومصنّعة في العراق لتصبح أصغر حجماً بعد تقصير السبطانة وأسطوانة الغاز معاً، وطبعاً أدّى هذا التعديل إلى تدنّي كفاءتها وكثرة أعطالها. ولدى رمضان ستكتشف رشاشات إسناد فصيلي (بي كا سي) من دون لوحة مسافات أو أجهزة تسديد، أو من دون مناصب أو دون كل ذلك، وهو يجاهد مع شريكه لاختراع مناصب حديدية غير قابلة للطي، واجهزة تسديد.

وفي الليل يتشارك رمضان مع عدد من الشبان في «طهي» كميات من المتفجرات المحلية الصنع، التي كانوا يستخدمونها في ما مضى لتفجير

الصخور خلافاً للقوانين وبعد رشوة الأجهزة الأمنية، وأصبحوا اليوم يصبّونها في أسطوانات حديدية قصيرة ويحوّلونها إلى قنابل يدوية لمهاجمة الأجهزة الأمنية التي كانوا يرشونها منهم في السابق، كما لمهاجمة قوات الجيش السوري التي تحاول السيطرة على مناطق مدينة حلب.

ثم نعود إلى النهار، فيتدفق المزيد من الشبان ليسلموا رمضان مخازن صدئة لا تعمل، وبنادق انكسرت إبر إطلاقها خلال المعارك، وأخرى انفجرت فيها الطلقات وعلقت داخلها دون حراك، ومسدسات ماتت نوابضها فما عادت تلقم نفسها ذاتياً.

هل تعرف مسدسات الغلوك؟ تسأل رمضان، فيترك آلة اللحام وينظر اليك مستغرباً، فتضطر إلى إجابته حتى لا تشغله أكثر عن آلة اللحام الكهربائية «لا عليك إنها مسدسات لم أرها في سورية بعد»، ثم ترى إلى المسدسات المتوافرة وكلها إما أميركية أو بلجيكية من عيار ٩ ملم صنعت خلال الأربعينيات والخمسينيات أو روسية وشرقية مغاروف وتوغاريف، دون أن تجد جواباً لسؤال حول نوعية المسدسات في هذه البلاد، فما دامت لا تغيّر في المعادلات، وما دامت متوافرة بكثرة في الدول المحيطة، فلماذا لا تباع في هذه الأسواق.

أحد المقاتلين يجيب بحرقة: نحن مكب نفاياتهم، وكل ما هو غير صالح للاستخدام تجدهم يرسلونه ونشتريه نحن بأغلى الأسعار.

وفي مشغل رمضان تجد عشرات البنادق المنتظرة لدورها، ويأتي أحد الشبان من قرية بعيدة ليسأل الحداد عن مصير بندقيته التي سلمها لشاب آخر على

أن يصلحها رمضان، فيبحث رمضان والشاب عن البندقية المقصودة بين عشرات البنادق، وحين يعثران عليها يبدأ العمل على تأهيلها فوراً، وككل الصناعيين اليدويين، يضطر رمضان إلى المماطلة، «نصف ساعة وتجهز» ثم تمتد النصف ساعة، إذ أن رمضان يضطر إلى فك بندقية «شغْلتها بسيطة وثوان وتنتهي» ثم مجدداً يترك البندقية «لا عليك فقط لأغير لهذه البندقية الأخمص الخشبية». ويأتي الليل والبندقية لا تزال تحت الصيانة «لا تهتم لن نغادر قبل أن أصلح بندقيتك».

إلا أنك حين تزور معاقل جبهة النصرة تكتشف أسلحة صالحة للاستخدام، وقنابل يدوية مصنّعة في الغرب والشرق، وعبوات تي أن تي، لم تفك متفجراتها من قذائف مدفعية النظام التي لم تنفجر، ولا طبخت يدويا، وتجد صنوفاً من الأسلحة والذخائر الجديدة، دون أن يحتاج مقاتلو جبهة النصرة إلى التكالب على الغنائم أو خدمات رمضان أو من يشبهه في القرى الأخرى. ولا يختلف الوضع في إدلب كثيراً، حيث باتت الصناعات العسكرية تسير على قدم وساق، فمن مربض مدفعية لأحرار الشام تشاهد سرية من مدافع المورتر (ستة مدافع) من عيار ١١٥ ملم، وهو عيار غير موجود لدى الشرق ولا الغرب، ولكنه من تصنيع محلي، يقوم على تفكيك مدافع دبابات مدمرة، وقص سبطاناتها، وتحويل كل سبطانة إلى مدفعَي هاون، إضافة إلى استخدام سبطانات من عيارات أخرى، بعضها يتطابق مع عيارات مدافع الهاون الكلاسيكية (٨٢ – ١٢٠ ملم) والبعض الآخر لا.

وتصنّع القذائف محلياً، عبر ٣ ورشات، الأولى ورشة الصلب التي تصهر معادن مجمّعة من سكك الحديد وأغطية المجاري، وكل ما يتشكل مما يدعونه

في سورية «حديد فونت»، وتصب المعدن المصهور في قوالب بحسب عيار المدفع، ثم ترسل إلى معامل الحشوات، حيث تحشى القذائف بمواد محلية الصنع، وبعض الـ تي إن تي لتفعيل التفجير، وتركب الصواعق محلية الصنع هي الأخرى، وترسل بعدها إلى ورشة تجهيز القذائف بالفراشات السفلية، حيث تضاف إليها الفراشة السفلى والحشوات الدافعة الأولية داخل الفراش، وهي عبارة عن طلقات صيد.

وصف العملية نفسه، وتوزع الورشات، وانعدام تدابير الأمان في الورشات، يكاد يحيل ما نقوله إلى أكذوبة، ولو لم يسجل المرء بالكاميرا مراحل التصنيع، وعمليات التطوير، ويتحدث شاب من مدينة سراقب عن ورش التصنيع وتطويرها، حيث باتت تُستخدم أنابيب ضخمة تستورد من الخارج، وهي في الأساس أعمدة لرافعات عملاقة، تُقصّ في سورية وتعدّل لتصبح سبطانات مدفعية لقذائف الهاون، ومع الوقت والخبرة، وتوحد عدد من الفصائل في تمويل هذه الأعمال، من أحرار الشام إلى آخر فصيل في منطقة إدلب، بات بإمكان المنطقة أن تصدّر هذه القذائف، التي ربما معدل انفجارها منخفض (واحد لخمسة من القذائف لا ينفجر عند الارتطام)، إلا أنها باتت تغطي نقصاً حاداً في الإسناد المدفعي.

وأيضاً مع تراكم الخبرة، بات يمكن للشاب السراقبي المختص في الكيمياء من جامعات سورية، أن يتحدث عن خفض كلفة إنتاج القذيفة الواحدة، باستخدام مواد متوفرة في الأسواق المحلية بكثرة، خصوصاً ما يتعلق بالحشوات الدافعة الإضافية، والحديد الصلب، ومن ناحية أخرى تحسين دقة إصاباتها للأهداف عبر التجربة واستخدام المقاييس العسكرية والزوايا

عليها من قبل ضباط اختصاصيين أتوا مع المجاهدين العرب، وضباط منشقّين من الجيش السوري النظامي.

وبموازاة تلك المدافع غير المباشر، تم تعديل عدد من سبطانات مدافع الدبابات، واستحداث قذائف لها، لاستخدامها كمدافع مباشرة يصل مداها إلى ٣ كيلومرات، إلا أنها لم تحقق إصابات دقيقة لأهدافها. وكل هذه المدفعية المباشرة كانت تحال إلى الهامش بمجرد وصول دفعات من صواريخ السهم الأحمر الشرقية الصنع، ثم يعود الثوار إلى استخدام المدافع محلية الصنع ما إن ينفد مخزونهم القليل من الصواريخ الموجهة عن بعد.

كذلك تم ابتكار اختراع جديد في حلب اسمه مدفع جهنم، عبارة عن مدفع قاذف، يركّب على فوهته اسطوانة غاز مليئة بالمتفجرات محلية الصنع، وفي بداية استخدامه كان يصيب بشكل شبه عشوائي، ومع الخبرة والتحسينات اللاحقة بات مدفع جهنم يحقق إصابات أدق، وبات مداه يتجاوز الكيلومتر الواحد، وصار يحشى بكمية أكبر من الـ تي أن تي عما كان يوضع فيه بداية، ويسبب دماراً أكبر.

ومع تقدم الاستخدام، بات بإمكان مدفع جهنم إصابة مبنى أو أجزاء محددة من مبنى، وصار يستخدم في التغطية النارية، وفي إسناد الهجمات، وحتى في تدمير تحصينات قبيل الاقتحامات.

العاصمة الاقتصادية تنهار

«كل هذا القصف، كل هذا الدمار سيؤدي فقط إلى نهايتنا» يقول رجل عجوز في أحد أحياء مساكن الفردوس في حلب، المنطقة يسيطر عليها الجيش الحر، والرجل لا يعلم إلى من يتحدث تحديداً، فيسأل «هذا التسجيل للقناة السورية؟». «لا»، يأتيه الجواب انها لقناة خارجية، فيصرخ «اذاً سجلوا مجدداً رئيسنا غبي» ثوانٍ قليلة ويبدأ الحشد الصغير بالصراخ بشعارات مؤيدة للجيش الحر، وللثورة ومعادية للرئيس السوري بشار الأسد.

كنا قد دخلنا إلى المنطقة عابرين شوارع مكشوفة للقناصة، ولم يكن بعد أمر المنطقة نفسها محسوماً، أهي تحت سيطرة الجيش النظامي، أم أنها خاضعة لسيطرة الثوار، وطوال الوقت كان سائقنا، وهو نفسه مرافقنا ودليلنا، يستعجلنا، «علينا أن نغادر قبل انتصاف النهار، اليوم جمعة، وسيبدأ الجيش بالتحرك والطيران بالقصف مباشرة عند موعد الصلاة».

أحد الرجال الواقفين يشير إلى أن الرجل كان سيتابع بكلام مغطى بالرموز لو لم يعلم أن التسجيل سيذهب لقناة خارجية، وأننا لسنا من المؤيدين للنظام «هذا شعبنا! لم يخرج تماماً من خوفه ومن العادات التي زرعت فيه منذ ٤٠ عاماً» بحسب ما يقول المرافق.

لكن حيرة الرجل تفسر أمر جبهة حلب المتقلبة، إنها أرض متحركة، فما هو اليوم مع النظام سيخترقه الثوار خلال ساعات، وما هو مع الثوار قد يدخله النظام أو يتسلل إليه شبيحته خلال أيام مقبلة وينفذون عمليات لهم فيه.

لا أحد في سورية يتحدث عن حكومة، النظام هو التعبير المستخدم، وهو تعبير دقيق بكل الأحوال، ليس للحكومة الحالية، كما لم يكن للحكومات التي قبلها، أي حول أو قوة، أنها هيئات فوقية شكلية، تقف بين الناس وبين النظام بتركيبته السورية المعقّدة، إنها مجرد واجهة نظيفة ولامعة لهيكل مليء بالركام والمشكلات والعشوائية.

الحكومة لن تتمكن من فعل أي شيء لأحياء مدمرة في المدينة الثانية في سورية: حلب. أما النظام فقد يتمكن من فعل الكثير، على سبيل المثال متابعة خياره بدخولها وتنظيفها من المسلحين المعارضين مهما كلف الأمر، وبالتالي متابعة التدمير الذي بدأ في جزء من أحياء منطقة صلاح الدين.

ولن ينفع هنا الشعار الذي يتندر الثوار بنقله عن أبناء مدينة حلب الأصليين في دفع الجيش إلى التمهل أو الثوار إلى الانسحاب، وستبقى صرخة أهالي حلب بحسب الثوار :«دعونا نشوي بسلام» تصدح في الفراغ، بينما المعركة

الطاحنة ستتابع مسارها آكلة كل المناطق الفقيرة، وبنسبة أقل بكثير المناطق المتوسطة والغنية.

في منطقة الفردوس السكان يهجرون بيوتهم، والحدائق والمدارس مليئة بالمهجرين من مناطق أخرى، ينامون أحياناً في العراء، وتحت القصف، وتبكي امرأة أربعينية بوجهها المجعد باكراً وهي تتحدث عن قصف مدرسة حصل أمامها يوم ٢٣ آب، وقريباً من مسكنها، المرأة غادرت المنزل مع زوجها، برفقة شابين من أبنائها، وزوجتيهما، أما ابنها الثالث فقد انخرط في وقت مبكر مع مقاتلي الجيش الحر في إحدى القرى وترك المدينة، وعاد إليها لاحقاً بصفته عنصراً مقاتلاً وليس شاباً عاملاً يقطن مع أهله في أحد دهاليز أحياء منطقة الفردوس.

الوالد خدم ٣٢ عاماً في الجيش السوري، كان يعمل ضمن القوات الجوية، واليوم يملك دكاناً هو جزء من منزله، ويتحدث عن «قذارة الجيش» مضيفاً أنه خلال ٣٢ عاماً لم يكن لديه أصدقاء في الجيش، وأن الجيش الحر هو من يخلّصهم اليوم، وأنه سيعود برفقة عائلته حين ترتفع راية الجيش الحر في المنطقة.

لكن راية الجيش الحر مرتفعة فعلاً في المنطقة، غير أن القصف لم يدع مجالاً لهذه العائلة ولا لغيرها للبقاء.

يمكن أن تسمع اليوم من الكثير من السكان المدنيين لوماً قاسياً لأخوتهم وأبناء أعمامهم القادمين من القرى وبيدهم بنادق الكلاشنكوف: كنا أفضل حالاً قبل أن يصل مقاتلو الجيش الحر، يقول أحدهم، وهو نفسه

استقبل ثوار الجيش الحر الآتين من القرى بالهتافات والتكبير والمظاهرات في الشوارع، ولوّح بالعلم السوري الأخضر والأبيض والأسود، وآوى المقاتلين في منزله، وقدّم لهم الطعام، لكن منزله تهدم في منطقة صلاح الدين، ولم يعد يعلم أين سينام هو وزوجته، والهروب إلى تركيا يتطلب القليل من المال الذي ربما لا يملكه، والعودة إلى القرية لا تعفيه من ليالي القصف هناك، ولم يعد من خيارات متاحة إلا البقاء في المدارس التي، شأنها شأن المساجد والمستشفيات، مستهدفة من قوات الجيش العربي السوري.

لكن ما الذي كنتم تفكرون به حين أتيتم إلى المدينة؟ تسأل قادة المجموعات والمسؤولين المحليين، وبالكاد تحصل على إجابات واضحة.

حين تسأل عما كان الشبان في القرى يفكرون به عند بداية الثورة، تحصل على تأكيد بأنهم كانوا من السذاجة بحيث اعتبروا أن الجيش النظامي لن يتدخل، وأن الحراك سيلقى مواجهة من بعض البعثيين ومن أجهزة الأمن لا غير، أما الجيش فهو بحسب من يحدثونك «جيشنا الوطني الذي دفعنا كل شيء من أجله، وأغلبه من المجندين أبناء القرى والمدن السورية، وكنا نعتقد بأنه من المستحيل أن يتدخل».

الرؤية الساذجة هذه كانت تعتمد أيضاً على ما حصل في تونس ومصر، وفي ليبيا حتى، حيث وحدها كتائب القذافي من دافعت عن النظام الليبي، بينما انضم الجيش النظامي الضعيف هناك إلى الثوار مباشرة. ولم يكن يتخيل الثوار في سورية أن مطالبتهم بالإصلاحات في البداية ستوصلهم إلى حمل السلاح واحتراف القتال، واليوم يقدمون إجابات مشابهة حول النزول إلى مدينة حلب.

حين بدأت عمليات النزول إلى مدينة حلب كان المقاتلون المفعمون بالحماسة يعتقدون أن عدم رد النظام عليهم يعني تخليه عن المدينة، فكانوا يجمعون مئات قليلة من المقاتلين وينتشرون في صلاح الدين أولاً، ثم يجمعون عشرات لدعم المجموعات الأولى ويقضمون منطقة أخرى، ويحاولون تجميع المزيد من المقاتلين، بينما ينتشر مسؤولو المالية للبحث عن تجار السلاح هنا وهناك لشراء آلاف الطلقات.

وحين بدأت المعركة اكتشف الثوار مرة أخرى سذاجتهم، وقفوا يصدّون هجمات الجيش متكلفين عشرات القتلى ومئات من الجرحى، وعشرات آلاف الطلقات ومئات قذائف الأر بي جي، الآن أصبح السؤال جدياً مرة أخرى، هل من ضرورة لخطوط التماس في بلاد كلها خط تماس؟ هل من داع لجبهة مشتعلة فيما كل القرى ملتهبة؟ ثم ما الجدوى من إقامة خط دفاع أول في منطقة صلاح الدين يستهلك يومياً ٥٠٠٠ طلقة في حين كل الاشتباكات الرئيسية التي أدت إلى إبادة مجموعات كاملة من الجيش السوري لم تستهلك أكثر من ألفي طلقة في كل منها؟

وان بقيت حلب مدينة متنازعاً عليها فهل من المفيد الاحتفاظ بالجزء الخاص بالثوار؟ رغم أن طرق الإمداد هشة ومتحركة، ويمكن للنظام أن يقطع بعضها مؤقتاً بنشر قواته (لمدة محدودة) والبعض الآخر عبر الطيران المروحي والحربي والقصف المدفعي.

لكنّ رمزية المدينة سبقت الطرفين، ودفعتهما إلى فتح معركة دون أفق، فقد ماتت المدينة فعلاً، وانشلّت حركتها منذ أشهر، وبدأت الثورة تتغلغل فيها، وأصبحت نقطة استنزاف للنظام منذ أن اضطر إلى نشر عناصر الأمن

وقطع الطرق وإقامة نقاط الحراسة السرية والعلنية، وتوقفت العجلة الاقتصادية فيها. بينما ومنذ نهاية الهجوم الكبير الذي شنه الجيش في الثامن والعشرين من شهر تموز وتمكن الثوار من الصمود واستنزاف القوات النظامية، والتراجع المحدود إلى الأحياء الداخلية، فقدت المدينة أهميتها بصفتها مدينة يمكن قضمها حياً حياً وإعلانها مدينة محررة.

مع معركة مثل معركة حلب، يخجل أحد الشبان من أبناء وسط المدينة من موقف أهله، ويتحدث عن مجيء مقاتلين عرب من عدد من الدول للمساعدة على تحرير بلده بينما أهل المدينة غافلون «سمّهم متطرفين سمّهم متشددين، ولكنهم يساعدوننا على الأقل بينما أهل المدينة لا يريدون التحرك». لكن التحرك نحو ماذا؟ وبأي اتجاه يعتقد المعركة ستنتهي؟ ولماذا البقاء في حلب بدل الانسحاب منها والعمل من القرى؟ يرفض الشاب هذا المنطق، وهو مَن ترك أهله في أحد معسكرات اللجوء في تركيا، وترك عمله في شركة كبرى وراتبه الجيد بحسب وصفه، رغم نقله إلى تركيا للعمل، وبقي في المدينة إلى أن تتحرر.

خالد النسر

نعود إلى القرى نمضي فيها أياماً، نعيش بين أهلها، ونسهر كل ليلة على وقع انفجارات القذائف، وفي ظل انقطاع كامل للكهرباء، وللاتصالات الهاتفية.

حين اخترقت الطائرة الحربية سماء القرية في الريف الغربي تابعناها بعيونِنا، كانت تدور في سماء القرية منذ لحظات، ونحن نبحث عنها، صبحي نَهَرَ الخارجين إلى الشرفة، طلب منهم العودة، عادوا من خوفهم من هدير الطائرة المرتفع، لا من نهي صبحي لهم، وبعد لحظات كان صبحي هو من يشاهد الطائرة تنطلق من ناحية النافذة المجاورة حيث يجلس أرضاً، الكل يجلسون أرضاً على مساند عربية، وصبحي يحذّر الكل بأن الطائرة تنخفض أكثر.

شتيمة واحدة خرجت، كنت أتجه إلى النافذة التي يجلس صبحي أسفلها، وأنظر نحو الخارج، صبحي قال انبطحوا يا شباب، شتيمة واحدة خرجت، ربما مني، أو من أحد الموجودين، صبحي قال قصفت، انفصل عن الطائرة المغيرة على

علو منخفض جسم صغير، قال صبحي لاحقاً إنهما كانا جسمين يشبهان البراميل مزودين بمظلتين، اختفى الجسم عن أنظارنا، «هل شاهدته؟» يسأل صبحي «لا» أجيبه، ولكني شاهدته في اللحظة الأخيرة، إلا أنها المرة الأولى التي أشاهد جسماً مشابهاً يسقط من طائرة حربية، لم أتمكن من معرفة ماهيته، كان صبحي لا يزال منبطحاً على الأرض حين اختفى الجسم، لم نسمع انفجار.

ثم دارت فوقنا الطائرة نفسها، وانقضّت مجدداً من فوقنا نحو النقطة نفسها التي سبق أن رمت عليها، ودوّى انفجار كبير، وارتفعت المزيد من السحب الغبراء نحو السماء.

قنبلة لم تنفجر، قال أحد الحاضرين من الذين تأخروا في الذهاب إلى المسجد لأداء فريضة صلاة الجمعة، لحظات وارتفعت سحب الدخان من مكان سقوط الجسم، نظر صبحي إلى الخارج وقال «فراغية».

قُدمت إمكانيتان: إما أننا لم نسمع انفجارها لأن هدير الطائرة كان فوقنا تماماً ويصم آذاننا لحظة الانفجار، وإما أنها فراغية. دقائق وبدأ بعض الشبان يصلون طالبين توفير الوقود للسيارات لنقل الجرحى إلى مستشفيات ميدانية خارج القرية. ثم أتى من يقول إن هناك قتلى، قتيل أولاً، ثم عاد بعد حوالي الساعة شاب من الحدود مع تركيا ليخبرنا بوفاة أحد العجائز أيضاً من المصابين، ويصف لنا كيفية الإصابة. كان صبحي محقاً، إنها قنبلة فراغية.

كل الإصابات هناك كانت ناتجة من انهيار المباني، أربعة من المنازل الصغيرة التي دُمرت. على مبعدة ٣٠ متراً كان مستوصف القرية قد تعرض لإغارة أخرى من الطائرة، أصابته بصاروخين، أحدهما لم ينفجر بل اخترق السقف

وارتمى على الأرض كما هو، والآخر انفجر على مدخل المستوصف البلدي تماماً، وعلى مبعدة ٤٠ متراً أخرى تقريباً من المستوصف البلدي كان المسجد المليء بكل ذكور القرية المصلّين، لم يبق خارجه لحظة الغارات إلا المصابون وبعض المكلفين بمهام عسكرية وبعض المتأخرين عن الوصول إلى الصلاة، ومن المسجد كان يمكن رؤية الزجاج الذي تحطم وتشظّي إلى الخارج وليس إلى الداخل.

«لم نسمع انفجاراً» يقول أبو مصطفى الخارج من المسجد إثر الغارات، فقط رأينا الزجاج يتكسر وقرقعة هائلة في الخارج.

تحت المنازل المتداعية قضى خالد مباشرة، ووجدت جثته تحت الأنقاض، كانت تلك المرة الثانية التي يُقتل فيها خالد.

قبل الغارة بحاولي الشهرين ونصف شهر كان الجيش السوري قد بدأ بتطبيق سياسته الجديدة في ريف حلب الثائر: القصف العشوائي. كل ليلة تحصل القرى الثائرة على وجبة من القصف تراوح بين بعض قذائف مدفعية ١٢٢ ملم أو ١٣٠ ملم وبين عشرات من هذه القذائف مترافقة مع إطلاقات مباشرة لمدفعية مضادة للطائرات من عيار ٥٧ ملم موجهة نحو المنازل والحقول من مواقع عسكرية قريبة تابعة للجيش السوري.

المقاتلون القرويون لم يعتادوا المدفعية، كانت تلك تشبه نهاية الدنيا بالنسبة إليهم، بعض القذائف على أحياء متفرقة تشكل حالة من الهلع الشديد، ومع مضي الأسبوع الأول من هذه السياسة باتت القذائف مدعاة لنقاش بنوعها ومكان سقوطها مع بعض الجزع والخوف.

كانت القذائف تسقط هنا وهناك، ومع توالي الأيام صار الشبان يضحكون من إصابات القذائف، بعضها سقط في منازل المؤيدين للنظام الذين لا يزالون يسكنون في القرية، «لم يصب أحد، ولكن صار بإمكان أي مارّ في الشارع استخدام حمام أبو (فلان) الموالي»، يقول أبو أحمد وهو يصف آثار القذيفة التي ذهب لاستطلاعها وعاد.

إلا أن القصف طال مزرعة يملكها والد خالد، وكان خالد العشريني وأحد رفاقه في المزرعة، وبعد حوالي الشهر وهو يسهر في منزل استأجره شقيقه في قرية آمنة، وحوّله إلى مقر للنقاهة لبعض الجرحى، سيصف خالد كيف أصيب، كيف كان جالساً إلى كرسي على غير عادة الجلوس إلى الأرض في القرى، وكيف شاهد لحظات البرق الخاطفة للقذيفة المنفجرة، وهو يعتبرها صاروخاً، وكيف أحسّ بنفسه مصاباً، وكيف لم يجد حوله أحداً، وصار يصرخ طالباً الغوث، ثم زحف، وكان قد بدأ يعي أنه أصيب في رجله، وشاهد نفسه، ثم يسأل «هل صورتني حينها؟» لا، لقد صورك (....) الإعلامي في الثورة، يضيف «نعم شاهدت الصور».

ثم تمكن أقرباؤه من انتشاله وسحبه من مكان الانفجار ونقلوه إلى مستوصف القرية أولاً، ثم إلى مستشفى ميداني في مكان بعيد وآمن، لكن خالد كان قد فقد ساقه اليسرى من أعلى الفخذ.

حتى تلك اللحظة، كان خالد، مثل كل أترابه في بداية عشرينياتهم، والذين يبحثون عن وسيلة للزواج، يدّخرون المال، يحرمون أنفسهم، يحاولون اختيار زوجة، وتحضير مستوجبات الزواج. قبل أن ينام خالد تلك الليلة وهو ينهي قصته عن يوم إصابته، كان يسأل شقيقه «هل تعتقد أن (فلانة)

تقبل بي؟»، ثم وهو يحاول أن يغفو يضيف خالد «سأشرح لها وضعي، وإن لم تقبل بي فسأخطب (فلانة)».

ثم يصحو مجدداً ليقول «سمعت أن الأطراف الذكية متوافرة في ألمانيا للسوريين المصابين بأسعار زهيدة» يخاطب شقيقه قائلاً «لقد وفّرت مبلغاً كنت أريد الزواج به، ما رأيك أن أذهب إلى ألمانيا؟». يصمت ويغفو تلك الليلة، قبل أن ينهض صباحاً ليستعيد حديثه من بدايته، وينتقل من فكرة إلى أخرى مجدداً، ثم ينتبه «لقد أخفيت مبلغاً من المال في الحوش» ينظر إلى شقيقه، الذي يطمئنه إلى أن المال موجود.

بعد أيام قليلة انسحق جسد خالد تحت الركام، لكن ليس قبل أن يقف في ليلة وهو في المنزل الآمن بعيداً عن الحرب الدائرة ليرفع صوته قائلاً «لقد فقدت قدمي ولكني لم أكن أعصي الله، انظروا إلي الآن واقفاً» يرفع خالد عكازتيه ويستقيم على قدمه الوحيدة «أنا نسر، أنا نسر بساق واحدة، ألا يقف النسر هكذا على ساق واحدة ليرتاح؟» ثم ارتاح خالد. وأنزله أبناء قريته في مثواه قرب المئات من شبان هذه المنطقة، أو الغرباء عنها من مختلف أصقاع سورية الذين قُدّر لهم أن يموتوا هنا في الحرب.

تعتمد القنبلة الفراغية على تفاعل عالي السرعة لموادها الكيميائية يولد درجة عالية من الحرارة تصل إلى ٣٠٠٠ درجة أو أعلى، وتفرغ المكان من الهواء وتُحدث خللاً في الضغط الجوي، ومباشرة مع انقضاء تفاعل الانفجار يعود الضغط الجوي ليضغط بسرعة على مكان الخلل فيه ويعيد الأمور إلى ما كانت عليه. صوت انفجار القنبلة الفراغية منخفض جداً، ويكاد يختفي تماماً مع صوت انهيار المبنى، إذ لم يسجل أي من الشهود الذين كانوا قريبين

من مواقع انفجار القنابل الفراغية سماعهم لانفجارات بل فقط أصوات انهيار البناء.

فاعلية القنابل الفراغية عالية ضد الأبنية وضد المستودعات أو الملاجئ تحت الأرض، وحين تنفجر فوق بناء فإن عودة الضغط الجوي والهواء إلى احتلال مكانه الخالي بعد الانفجار تُحدث ضغطاً هائلاً على المبنى المستهدف، ما سيؤدي إلى تهدم فوري للبناء، هذا التهدم سيكون إلى داخل البناء، حيث ستغلق الأسقف على الأرضيات وتنهار الجدران إلى الداخل، ويصبح البناء اذا كان متعدد الطبقات أشبه بطابق واحد مغلق على نفسه بالأحجار والأسقف الإسمنتية، ولن ينخفض البناء تحت الأرض إذا لم يكن هناك طوابق سفلية، ولن يتشظى البناء نتيجة الانفجار كما يحدث في العبوات أو القذائف أو صواريخ الطائرات التقليدية. وإذا ما كان للبناء المستهدف طوابق تحت الأرض فإن الضغط العائد لاحتلال موقع الانفجار سيؤدي إلى انهيار البناء إلى الداخل ونحو الطوابق السفلى، كما حصل عدة مرات في الضاحية الجنوبية لبيروت خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان العام ٢٠٠٦. وقد يترك القصف الفراغي الجزء الأعلى من البناء سالماً لكنْ غائصاً تحت الأرض في الطوابق السفلى. لكنه حتماً سيؤدي إلى تدمير مداخل التحت أرضية، كما سيدمر أو يؤثر بنحو كبير على الطوابق السفلى.

يمكن التعرف إلى انفجار القنبلة الفراغية من عدم العثور على نقطة انفجار مركزية، كما حال القذائف والصواريخ التقليدية، كما عبر عدم تطاير أجزاء من البناء إلى مواقع قريبة من الانفجار، وكذلك من عدم وجود شظايا في

الجدران أو المنازل أو الشوارع والمساحات المحيطة بمكان الانفجار، وأهم مظاهر الانفجار والتعرف إليه يكون عبر إغلاق البناء على نفسه.

في العام ١٩٨٢، وخلال حصار جيش الغزو الإسرائيلي للعاصمة بيروت حاولتْ قوات الطيران المعادية اغتيال قائد المقاومة في المدينة المحاصرة حينها ياسر عرفات، فضربت بناءً كانت مخابرات العدو تعتقد أن عرفات موجود فيه، بينما كان الرجل قد غادر البناء المليء باللاجئين والمهجرين الفلسطينيين واللبنانيين، الذين فقدوا مساكنهم. ضرب طيران العدو المبنى في منطقة الصنائع بقنبلة فراغية، وكانت حينها تستخدم لأول مرة في العالم، وأدّى ذلك إلى انهيار البناء بالكامل مودياً بأكثر من مئة قتيل (بعض المعلومات حينها قالت إن عدد القتلى وصل إلى ٣٠٠). المحيطون بالمكان أكدوا عدم سماعهم لدوي انفجار، بل فقط تحليق منخفض للطيران قبل أن ترتفع سحب الدخان والغبار جراء انهيار المبنى المستهدف.

في حرب تموز العام ٢٠٠٦ ضرب طيران العدو الإسرائيلي مناطق عدة من لبنان بالقنابل الفراغية، سواء في الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت حيث كان مقر قيادة المقاومة أو في الجنوب حيث دمر أجزاء واسعة من الضاحية الجنوبية ومن مبانيها، كما دمر قطاعات كاملة من القرى في الجنوب بهذه القنابل، وهو استخدمها لإحداث أكبر قدر من الدمار وللتخلص من المواقع التحت أرضية في المباني بحال وجدت، أو الخنادق تحت البيوت القروية في الجنوب، ولعدم المجازفة باستخدام قنابل طيران تقليدية وبالتالي عدم الإضرار بالمواقع المحصنة تحت المباني بحال وجدت، أو بنجاة من يكونون في المنازل لحظة ضربها إن كان فيها أي كائن بشري.

أدّى هذا الاستخدام المكثف إلى دمار واسع في كل المناطق التي استخدم فيها القصف بالقنابل العنقودية، وإلى تحويل كل ما ضرب بها إلى مجرد ركام، من العبث إخراج أي من محتوياته المسحوقة من داخله. كذلك أدّى إلى ضرب كل الملاجئ تحت المباني أو الإنشاءات التحت أرضية.

وفي ٢٤ آب من العام ٢٠١٢ قصف سلاح الطيران السوري قرية قبتان الجبل في الريف الغربي لحلب بقنبلة فراغية أدّت إلى تدمير أربعة بيوت مدنية ومقتل وجرح كل من كان فيها، وقُتل فيها خالد، الشاب الذي لم يتح له الزواج أو العلاج بعد إصابته الأولى.

وفي اليوم نفسه تركتُ سورية بعد الظهر، واتجهت إلى تركيا عبر معبر باب السلامة الحدودي.

الى الزنزانة

لم أعد صحافياً فقط، الدم السوري المراق يضغط على ضميري، الأصدقاء الذين قتلوا كثر، صار لا بد من العودة لفعل شيء آخر، لن أقاتل، فلا العمر يسمح ولا الحرب حربي. أنتقل للنشاط بين المقاتلين والقيادات المحلية، وتقديم العون والمساعدة في عدة مجالات تحتاج إليها الثورة، واضعاً نفسي تحت إمرة القيادات السورية حتى لا تضيع الأمور بين رغباتنا وآرائنا وتتعارض مع المصالح والتقاليد المحلية.

إلا أن التنظيم بين تشعبات أبناء القرى والامتدادات العائلية مسألة بالغة الصعوبة، فأعود إلى بيروت وأمضي بضعة أيام، أزور عدداً من المسؤولين السياسيين أتابع ملف المخطوفين، أساهم في تجنيب بعض الصحافيين اللبنانيين المصير المشؤوم في سورية ولكن من خلف الستار وبعيداً عن الأعين، أجمع بعض التبرعات، أهتم بالجانب الإنساني الآن، وأتبادل الرسائل الهاتفية مع قائد فرع المعلومات وسام الحسن فنتفق على اللقاء،

يتأجل اللقاء بسبب سفره أولاً، ثم بسبب مغادرتي للبنان، وأمضي إلى سورية مجدداً في الرحلة الثامنة، وحين أصل إلى الحدود ما بين سورية وتركيا، وعلى معبر باب السلامة، يأتي خبر انفجار العبوة الناسفة التي أودت بحياة وسام الحسن.

قبيل مغادرتي كان الحسن قد بعث لي رسالة شفهية مع أحد الصحافيين الذين أثق بهم بأنه «يعرف ماذا أفعل في سورية تماماً»، ولم يبد من مضمون الرسالة أية سلبية، على الرغم من الاختلاف الكامل بالآراء والمواقف، ويتابع الحسن، بحسب الرسالة التي نقلها الزميل، بأن هناك استهدافاً مضمراً من حزب الله لمجموعة من الصحافيين، وأعطاه بضعة أسماء، وعلى هذه المجموعة أن تتدبر أمورها لحماية نفسها، والانتباه: «نحن غير قادرين على حمايتكم» يقول الحسن منبهاً زميلي. وفي التاسع عشر من تشرين الأول من العام ٢٠١٢ قضت عبوة ناسفة على حياة وسام الحسن في منطقة الأشرفية في بيروت.

كان يفترض أن أمضي بضعة أيام في سورية لأكتب عن الرواتب التي حصل عليها كل مقاتلي الجيش الحر للمرة الأولى منذ تأسيس هذا الجيش بشكل نظامي، وسأكتب أيضاً عن لواء التوحيد، ما له وما عليه، وعدداً من المقالات الأخرى، إضافة إلى أن مشروع كتاب حول سورية كان قد بدأ يغريني بالعمل أكثر وتجميع معلومات أعمق عن البلاد وخصوصاً شمالها. أمضي يوماً كاملاً في أحد الجبال برفقة مجموعة استطلاع محلية تعمل على تصوير موقع للجيش السوري، ثم أعود، وأمضي بضعة أيام مع الأصدقاء في القرية وأجمع الكثير من المعلومات كالعادة، ثم أقرر العودة إلى لبنان وفي نفسي يأس من تنظيم أوضاع المنطقة ومن تطوير قدراتها.

قبل المغادرة أزور إحدى العائلات الصديقة في منطقة خان العسل وسط مناطق الشبيحة، يوصلني أحد المؤيدين للثورة، من الذين لا يزالون يعملون داخل أقنية النظام وتشعباته، أصل إلى المنزل لأجد العائلة المكوّنة من ثلاثة أشخاص وقد انعزلت عن العالم، وتكومت النفايات قرب مدخل المنزل الفسيح، وبات طعامهم لا يتضمن الخبز أو الخضرة أو أية مواد طازجة، كانت العائلة تفضل البقاء حيث هي على أن تترك المنزل نهباً لقوات النظام. كما أن الطائرات الحربية في رمايتها الليلة العشوائية كانت قد استهدفت المنزل بالعديد من طلقاتها من دون مبرر.

تسللاً أدخل وعبثاً أحاول إقناعهم بأن القرار الوحيد الحكيم هو إخلاء المنزل والتوجه إلى أية منطقة يرغبون فيها، حيث يمكن تأمين سكن بديل في العديد من المناطق، ومع إصرارهم على المعاندة أخبرهم بأن المنطقة ستتعرض لعملية عسكرية كبيرة خلال أيام إن لم يكن ساعات، فقد اتخذ الثوار قرارهم بإسقاط منطقة خان العسل لتحسين خط الإمداد إلى حلب، وأيضاً يرفضون الإصغاء، فأخرج مجدداً تسللاً، وأعود إلى قريتي. وبعد أيام قليلة سيضطر أهل هذا المنزل إلى ترك كل شيء خلفهم والهروب في الشارع المكشوف تحت الرصاص المتبادل، ويصلون بأعجوبة إلى حلب، ويتمركز الجيش النظامي في المنزل ويحاصر فيه عدد من جنود الجيش ثم يحترق المنزل خلف الجيش خلال محاولته الفاشلة للانسحاب.

تعلن نوايا متبادلة لإقامة هدنة يوم عيد الأضحى الواقع في ٢٦ تشرين الأول، كان يفترض أن أغادر تركيا فجراً وأصل إلى بيروت لأبقى قرب والدتي المريضة، كي يتمكن شقيقي من البقاء إلى جانب عائلته.

في تلك الأيام، تشتد المعارك في حلب ومحيطها، القصف المدفعي يتواصل، الطيران لا يتوقف عن إلقاء البراميل، ولا شيء في الأفق يوحي بأن الهدنة ستكون أمراً واقعاً يوم العيد، يوم ٢٥ تشرين الأول أغادر قريتي برفقة وليد شهاب الدين وشاب آخر متجهاً إلى الحدود السورية -التركية من معبر باب السلامة، أتوقف أمام مقر الإعلام في لواء عاصفة الشمال في المعبر الحدودي، وآلاف النازحين قد نصبوا الخيم في المنطقة نفسها.

يصر محمد نور على دخولي إلى مكتبه، أخبره بأنني على عجلة للوصول إلى غازي عنتاب قبل غياب الشمس، «سأوصلك بسيارتي» يقول محمد نور ويحمل حقيبتي ويدخل إلى مكتبه، أنظر نحو الساعة، إنها الرابعة وعشر دقائق، أعلم أن شيئاً مريباً يحصل، فهذا الشاب يتصف بالغرور، وأن يحمل حقيبتي ويصر على دخولي مكتبه فهو حتماً أمر ليس من شيَمه. وألقي بنظرة نحو وليد والشاب الآخر، علمت أنهما سيُقتلان لو بقيا معي، خصوصاً أن وليد أدخل مسدسه معه إلى داخل المنطقة الحدودية، وبانفعاله المعهود لن يمتنع عن استخدام المسدس بحال قررت عدم دخول مكتب الإعلام، وستكون مجزرة صغيرة نقتل فيها جميعاً أو على الأقل سيقتل وليد والشاب المرافق، عندها ستتعقد الأمور، في المقابل، ستسهل عودتهما تقفّي أثري، فطلبت منهما العودة إلى القرية قبل الغروب، ودخلت أنتظر ما سيحصل.

بعد دقائق أطل الشيخ منير، أحد قياديي أبو إبراهيم وسأل عني، اصطحبني في سيارته وطلب مني وضع عصابة على عيني، وبدأ أسئلة تمهيدية عن عمري وحالتي الاجتماعية وأعمالي، سألته هل هذا تحقيق؟ فقال لا، هذا

فقط للتعارف. يتابع أسئلته ويسألني عن مدى معرفتي بالنائب اللبناني عقاب صقر، فأشير إلى أنني لم أتعرف إليه إطلاقاً. قادني منير إلى الموقع الجبلي الحدودي لقوات أبو إبراهيم، أي موقع الجبل الأحمر، حيث السجن المركزي على مبعدة أقل من مئة متر عن الشريط الحدودي مع تركيا، وعلى مبعدة عدة كيلومترات عن الموقع الذي قصفه سلاح الطيران السوري في أعزاز الخامس عشر من آب.

أُنزلت من السيارة مغمضَ العينين، وما إن داست قدماي الأرض حتى وضع شخص يده تحت إبطي ليقودني، وسمعت صوته المميز، إنه محمد شوقي يخاطبني بالقول «تعال يا حبيبي» ساخراً، وقادوني عبر درجات نزولاً، فعلمت أنني في الغرفة نفسها التي سبق أن التقيت فيها الداديخي، وفي الحجرة مكثت لدقائق، ثم أخرجوني منها وجعلوني أخلع ملابسي السميكة، وفتشوا كل شيء وأنا لا زلت مغمض العينين، إلى أن وصلوا إلى حقيبة ثيابي، واضطروا لإزالة العصبة عن عيني لثوان حتى أفتح قفلها المرقم، إذ ادعيت أنني نسيت الرقم ولكني سأتذكره ما أن اضع يدي على القفل وأحرك دوائر العدادات، وما إن أزالوا العصبة عن عيني حتى تأكدت من أنني في المكان نفسه الذي سبق أن التقيت فيه الداديخي.

بقيت أكثر من ساعة في العتمة المطلقة للعصبة الموضوعة حول عيني، ويقف قربي حارس سمح لي بالتدخين ولكن مغمض العينين بالعصبة نفسها، ثم اقتادوني، بعد أن جردوني من كل أغراضي وفتشوني مرتين، إلى حجرة أخرى، حيث رفعوا العصبة عن عيني، وتُركت لساعة أخرى، وبين الفينة والفينة يدخل محمد شوقي، ويرافقه عدد من المقاتلين، صارخين

بتكبيرات العيد، ويمارس شوقي هوايته المعتادة بالتصوير، فيلتقط الصور لي جالساً فيما هم يكبّرون، ويدور بكاميرا الهاتف بكل الزوايا، ثم ينهون صلاتهم المسائية، ويأتون بالعشاء، فأرفض تناول الطعام مع خاطفيّ من صحن واحد «الإضراب عن الطعام هنا لن يجديك» أصمت وأشرب الشاي وأدخن دون كلام.

بعد انتهائه من تناول الطعام، نظر محمد شوقي إليّ وقال: سبق أن وعدتك بفيديو أهم من المخطوفين، هل تريد مشاهدته أم سماعه؟ فقلت «سماعه» محاولاً عدم تعميق ورطتي، مع أنني كنت قد بدأت أستنتج من أسلوب تصرفهم بأنهم سيقتلونني، قال ساخراً «أفضل، المرة المقبلة تشاهده، واضح أنك ستزورنا كثيراً في سورية»، أدار شاشة الكومبيوتر حتى لا أراها، وشغل ملف الفيديو، ومنه سمعت أصواتاً للكنة لبنانية وأصواتاً لبعض ضباط أبو إبراهيم، خلال جلسة طعام، ثم هتافاتهم محيية الجيش الحر. سمعت الصوت المميز لعقاب صقر، وكان أيضاً هناك صوت بدا وكأنه لأحد الناطقين باسم الجيش الحر، وسألني أبو الشوق، هل عرفت من هم؟ فأجبته: هذا تسجيل إفطارنا يوم زرتكم في الموقع الجبلي. فابتسم وقال: أنت لا تعرف شيئاً.

ثم كرّة أخرى يقتادوني إلى غرفة جديدة حيث ينام الحرس والمقاتلون، وفيها جلس شاب روسي ينتظر بعد أن وصل إلى سورية متطوعاً للقتال، ثم نقلوني إلى سيارة كل نوافذها داكنة ووضعوا هذه المرة نظارات مطاطية سوداء غطت نصف وجهي، وداروا بي لمدة أكثر من ثلث ساعة، لينزلوني مجدداً إلى منزل منعزل، كل أبوابه فولاذية، وكلما تحركنا في المنزل، وأنا أجرّ

قدمي جراً، كانت أصوات الأبواب الفولاذية تفتح وتغلق مصدرة صوت الأزيز المميز لأبواب الحديد السميكة ومثيرة القشعريرة في الجسم، وحين وُضعت في غرفة نزعوا العصبة عن عيني، فكنت في غرفة خالية مما عدا فراشاً وأغطية متسخة ملقاة أرضا، وعلى النوافذ المغطاة بصفائح الفولاذ كانت ثياب منشورة منذ وقت طويل. طلبت أدويتي ودخاني فأحضروهما بعد حوالى الساعة، ثم فتح الباب ليلاً وأعطوني كوباً من الشاي، وقالوا لي أنت ضيفنا، فقلت كما اللبنانيين الآخرين؟ سيمضي أشهر إذاً قبل أن تتخلوا عن ضيافتي. مشيت في الغرفة لساعة أو يزيد وأنا أتساءل عما حدا بأبو إبراهيم لاعتقالي، بعد أن كنت مفاوضاً، كنت متفلتاً من كل الضوابط التي تحكم المجموعات الثورية، كنت أعمل منفرداً، ولم يكن بإمكان أحد متابعة حركتي. وما سر التساؤل حول علاقتي بعقاب صقر؟ تذكرت أحد الأصدقاء الذي اعتقل لدى حزب الله في الثمانينيات من القرن الماضي، حين وقف ونظر في المرآة في الحمام وقال مخاطباً نفسه «يا عكروت شو كان بدك بالسياسة؟» ووقفت في الحمام وأنا أنظر إلى النوافذ الضيقة التي تسمح بمرور الهواء، ثم جلت في الغرفة الكبيرة، قلت في نفسي إن لم يقتلوني في الغد فسأكون بخير، وقد تمر أشهر قبل أن أعود إلى حريتي. حاولت أن أقول لنفسي «يا عكروت شو كان بدك بالسياسة» إلا أنني شعرت أنني أكذب على ذاتي، فتخطيت الأمر وبدأت أتسلى بالتفكير، والبحث، ومن خلال ثقوب قليلة في صفائح الحديد علمت أنني قريب من الحدود التركية، وأنني في مبنى فيلا بطابقين، وأن الجميع يسهرون في الطابق الأعلى، واستنتجت أن هذا هو مكان احتجاز اللبنانيين الأحد عشر، أو التسعة الباقين منهم في سورية، وأن حركة السيارة التي نقلتني إلى هناك

ودورانها كانت تهدف ربما إلى تضليلي حتى لا أعرف أين أنا بالضبط، ببساطة نحن محتجزون على مبعدة أمتار من الشريط الشائك الفاصل عن الأراضي التركية، وبضع مئات من الأمتار عن مقر لواء عاصفة الشمال الذي التقيت فيه بعلي زغيب.

قررت أن أكون في موقع الوسط، فلا أتعامل بسلبية مع الخاطفين ولا أظهر خوفاً مصطنعاً، القليل من الخوف وبعض التعاون ولنر إلى أين نصل. وتأملت في الجدران التي فيها بعض آثار الطلقات، ولكن لم يحصل إعدام هنا، ربما إطلاق نار لإخافة المعتقلين في الغرفة، فمستوى إطلاق النار مرتفع لأكثر من مترين، ثم في أماكن متفرقة آثار دماء، إلا أنها ليست كثيفة، ربما شخص جرح نفسه، أو عاد من حفلة تعذيب ببعض الجروح لا أكثر. نمت على الفراش المتسخ.

استجواب لحفظ ماء الوجه

الصباح التالي في السادس والعشرين من تشرين الأول تصل شاحنة، يخرجونني مغمض العينين مجدداً، يضعونني في خلفية الشاحنة، وقربي شابان، أحدهما يصرخ بي «يا عميل حزب اللات، يا عميل المخابرات»، أصل خلال دقيقتين إلى الموقع نفسه، وأقاد إلى الغرفة نفسها التي سبق أن التقيت فيها بعلي زغيب، يسألني المحقق أتعرف أين أنت؟ فأقول لا.

يسألني عن الصور التي بحوزتي وكميتها وتصويري للطرق، ويقول إن عشر تنسيقيات اشتكت عليّ وادّعت أنني أصوّر مواقع حساسة، وكلها شكاوى من الداخل، ومن حلب.

في الغرفة كان أبو إبراهيم يتمدد على سرير عسكري ويتابع التحقيق، سمعت صوته هامساً، وتخيلته في جلسته الخاصة على السرير نفسه، أطلب القهوة، فيسخر مني المحقق، قلت في نفسي إن كان أبو إبراهيم هنا فسيحضرون لي

القهوة، وبعد دقائق وضعوا الفنجان في يدي وسُمح لي بالتدخين. سألني المحقق عن شروط أبو إبراهيم ورسالته التفاوضية، فأخبرته عن الجانب السياسي، وسألني عن الفدية، فقلت: نسيت، وأصررت على الإنكار. سألني عن مبلغ الخمسين مليون يورو، فكررت، لقد نسيت. «نسيت ما كان محطة تحوّل في حياتك المهنية؟» قلت نعم ذاكرتي ضعيفة.

يطلب المحقق من أحد الحراس إطلاق النار على سجين: أطلق عليه في قدمه لا في رأسه. يقول، المحقق ليس محققاً بالفعل، إنه إعلامي طلب منه إجراء تحقيق شكلي معي. يصدر صوت الطلقة، أجفل، ويقول المحقق: في سبيل الله، القدم يمكن إخاطتها، أليس كذلك؟ لا أجيبه. يسألني عن النائب اللبناني نفسه الذي سبق أن سئلت عنه عدة مرات، فأكرر بأنني لا أعرفه.

يسأل عن دوري في حلب، وفي قبتان الجبل، وعن علاقتي بحزب الله، وعن الأماكن التي عملت فيها، والدول التي سافرت إليها، وأين تدربت عسكرياً، يسأل عن سبب تصويري كل هذا الكم من الصور، وأنا في نفسي أسأل «أي كمّ من الصور؟» وأقول له أن أصغر مراسل سيصور أضعاف ما صورته أنا، ببساطة أنا هنا لأنفذ مهمة وانتهيت منها، والآن أنا إلى جانب الثورة فقط لا غير.

يصرّ على اتهاماته، فأصر على كلامي، يقول «اعتقدتَ بأن أبو إبراهيم شخص ساذج وجاهل وحاولت التلاعب به». ويعاود التركيز على موضوع الفدية التي طالب بها أبو إبراهيم، فأقول له اسأل أبو إبراهيم «أنا هنا أبو إبراهيم» يصرخ، فأقول له اسأل نفسك إذاً. يقترب وأشعر بأنفاسه

فوق رأسي، ثم يضرب ساقه بقبضته على ما أعتقد، لا شك بأن أبو إبراهيم منعه من ضربي، وأستنتج بأنهم لن يقتلوني، إذاً لن أبقى بعهدة محمد شوقي بعد الآن ولا الشيخ منير، سأكون من حصة أبو إبراهيم مباشرة طالما لم أتلق صفعة واحدة.

يسألني عن عقاب صقر مجدداً، لماذا أسيء له؟ ولكن ما شأني بعقاب؟ يسألني عن الرشى التي طالب بها محمد نور، عن الفساد الذي شهدته في لواء عاصفة الشمال، كان الشاب يبذل جهده ليلعب دور المحقق الصلب دون نتيجة، وكنت أفكر أنهم في سورية ينسون جزءاً أساسياً من التحقيق، وهو المحقق الطيب الذي يترك لك فسحة لتهرب منها وتبدأ بتسريب اعترافات صغيرة تقودك إلى الاعتراف بكل شيء.

لماذا لم تواصل الاتصالات للتفاوض؟ أجيب بأن عمليات التفاوض المشابهة تحصل عبر أقنية متعددة، ربما شكلت واحدة منها إلى حين، ولكنها ليست مهمتي، ثم إن أبو إبراهيم قال إنه لن يفرج عنهم ولا بمليار يورو، وقد أصبحوا قطعاً بحجم الكف، وعاد وأفرج عن اثنين وأخرجني من صورة العمل. يصمت المحقق لثوان طويلة، فأشرب المزيد من القهوة وأشعل سيجارة أخرى، كان الوضع لا بأس به بالنسبة لي، والآن وقد تيقنت من سلامتي يمكنني أن ألفّ ساقاً على ساق واستمتع بقهوتي مغمض العينين.

يسألني عن مجموعة من الصور الموجودة على جهاز الكومبيوتر، وعلى هاتفي وعن أسماء وأرقام «هؤلاء شيعة؟»، «هناك أكثر من ٨٠٠ اسم على هاتفي لن تتوقع أن أعرف مذاهبهم كلهم، ثم نحن في لبنان نعيش معاً».

أكثر من ساعة بقليل، المحقق يملّ، لا جديد في الإجابات، كل شيء واضح، أسماء الذين عملت بينهم في سورية موجودة، أرقامهم موجودة، كلما طرح المزيد من الاتهامات بأنني أتعامل مع النظام أحيله إلى أحد أركان الثورة في إحدى المناطق، كلما قال إنني أتعامل مع حزب الله أشير إلى أحد الذين تعاونت معهم من الثورة بتقديمات لا يمكن لمن يتعامل مع جهة أخرى أن يقدمها، يقول أنت تتجسس وتحاول معرفة الطرق، فأجيبه بأن أصغر قروي لا يبلغ الخامسة عشرة من العمر يمكنه معرفة كل الطرق والمناطق والناس أفضل مني ودون أن يثير شبهات كأجنبي دخيل. ليس لديه ما يضيفه إلى اتهاماته السطحية، أرقام الأموال التي جمعتها على دفعات وقدمتها لتحسين الخدمات الطبية واضحة، ليس لدى المحقق ما يدعيه خلاف «تنسيقيات عدة اتهمتك» ومن هي هذه التنسيقيات؟ عشر تنسيقيات، وكلها من الداخل. عشر تنسيقيات اتفقت على أمر واحد؟ عجيب. لا يجيب. كانت ورطته واضحة، وحاولت عدم تعميقها لحين أتبين ما الذي يدور من حولي.

ثم ينتهي التحقيق، وأسمع خطوات أبو إبراهيم الثقيلة العرجاء وصدى عصاه التي لا يزال يستند إليها وهو يغادر الغرفة ماراً بقربي، بعد دقائق ينقلونني إلى خارج غرفة التحقيق، وخلال نقلي إلى غرفة أخرى سألتهم: اليوم إعدامي؟ فأزالوا العصبة عن عيني وابتسم في وجهي المقاتل وقال لا. دخلت إلى مكتب في فناء الموقع حيث ينتظرني أبو إبراهيم ولا أحد آخر.

«اعتقدتهم أتوا لي بجورج بوش، فإذا بك أنت» قال أبو إبراهيم ما إن رآني، «ما الذي غيّرك هكذا يا أبو إبراهيم؟» سألته بالمقابل.

جلست أمام الرجل، قال لي إنه سمع أن هناك صحافياً لبنانياً يصور المواقع، فطلب المجيء به، ولم يكن يعلم أنه أنا، ثم تحدث مطولاً «أنت تمر دون أن تسأل عني، أنت أضحيت مشهوراً ولم تعد تهتم بنا، صرت تتسلل، والتنسيقيات تشكو من حراكك، تلحق الشيخ المجنون توفيق». أجبته بهدوء، «أنت تعلم أن ما تقوله غير صحيح، كل مرة أسأل ضباطك عنك وأبلغهم أنني في البلاد إذا أردت متابعة ملف المخطوفين، ثم أنت أطلقت اثنين منهم دون أي سؤال أو أخبار، ماذا تريدني أن أفعل؟».

حين أصبحنا وحدنا راح يسألني عن عقاب صقر، وبعدما أكدت له أنني لا أعرف الشاب قال: إبق هنا بضعة أيام، أنا أفعل هذا لمصلحتك، أنا أحميك، أنت لا تعلم ما الذي يجري، عشرة أيام عندي ثم أرسلك إلى بلدك، وبعدها أنت ممنوع من دخول سورية. سألته بغباء مصطنع: وماذا عن مرحلة ما بعد الثورة؟؟ سألته مرة أخرى عن المعتقلين اللبنانيين الذين قضيت ليلتي الأولى في المنزل حيث يقيمون، فلم يجب، طلب من الشاب المحقق نادر أن يصوّرني، وأن يكتب البيان ثم يُطلعه عليه، وقال لي ستدخل إلى السجن الآن، أنت جديد في أعمال الأمن، ستتعلم الكثير. فأجبته: ها أنت تخطئ مرة أخرى، تحسبني على رجال الأمن. نظرت إلى نادر المحقق وخاطبت عمار الداديخي: أبو إبراهيم لن تدعه يتهمني بأنني رجل أمن، ستورطني في ألف مصيبة عندها. فردّ نادر بغضب: سيسر منك أصحابك في المخابرات وحزب الله.

قرر أبو إبراهيم: أدخلوه إلى السجن، هو في الإقامة الجبرية، الطعام يأتيه على طلبه ويمكنه التدخين وشرب القهوة والشاي، وسننظر في أمره.

صورة عن النظام

دخلتُ إلى زنزانة لأتعرف فيها إلى أبو بدري وطارق دربالة وشقيق الشيخ منير الذي سجن لصفعه شخصاً بسيطاً، كانت الزنزانة تلك مكان ما يسمى بالإقامة الجبرية، طولها ثلاثة أمتار ونصف وعرضها ثلاثة، وفيها المرحاض، وهي الوحيدة من الزنازين التي لا يوجد فيها كاميرا مراقبة، جلست مسنداً ظهري إلى الجدار لأتأمل المكان وألتقط أنفاسي، كان أبو بدري وشقيق الشيخ منير يتبادلان أطراف الحديث، وقربهما إبريق الشاي، صبّا لي كأساً منه، وأشعل أبو بدري سيجارة، شاب في العشرينيات، أطلق النار خطأ على شخص فأرداه، وهو منذ ذاك يعيش في المقر في الجبل الأحمر وينقل بحسب مزاج أبو إبراهيم إلى الزنزانة حيناً وخارجها حيناً آخر، وحين التقيته كان قد أمضى شهره الأول داخل الزنزانة دون خروج، أما شقيق الشيخ منير فقد أخلي سبيله في ذلك اليوم، وأدخل الينا بدلاً عنه طارق دربالة، شاب في بداية العشرينيات من عمره أطلق هو الآخر النار بالخطأ على الأرض فارتدّت الطلقة وقتلت رفيقه، ولا يزال مسجوناً

بانتظار قرار أهل القتيل، هل سيكتفون بالبدل المالي أم يريدون أكثر من ذلك؟

مع ساعات بعد الظهر فتح باب الزنزانة وأُدخل إلينا شابان، علاء من الإعلام، أخبرنا بأنه متهم بالتقصير، وآخر اسمه بحري، لا يكاد يبلغ السابعة عشرة من عمره، مقاتل مع أبو إبراهيم يتقاضى حوالي مئة دولار في الشهر، ولكنه خفى إحدى البنادق، فوضع في زنزانة انفرادية، وحين خرج كان يرتجف وفور دخوله إلى زنزانتنا قبّلنا وعانقنا، ورجانا ألّا نتركهم يعيدونه إلى الإنفرادية مجدداً.

مع غروب الشمس شُغِّلت المراوح الشفاطة لتسحب الرطوبة من الزنازين، فحل الصقيع فجأة ولم يعد من الممكن البقاء في الغرف دون ارتداء سترات والتلفح بالبطانيات المتوافرة. تأخر الشاي علينا، وبقينا نجالد ونحن نخاطب السجان مطالبين بالشاي، بينما الزنازين الأخرى لا تحصل على هذه الميزة.

ليلاً نقلنا إلى زنزانة فيها كاميرا مراقبة، أخرجنا من الزنزانة، ومعنا بطانياتنا وأغراضنا القليلة المسموح بها، وفرشتان للنوم لا غير، ووضعنا في نهاية رواق السجن بين الزنازين، ووجوهنا إلى الجدار، ليخرج من الزنزانة الأخرى عدد كبير من المعتقلين، ويبادلونا بزنزانتهم، حين دخلناها وجدناها نظيفة، وخالية من كل شيء، ما عدا دواء للجرَب، والكثير من الرطوبة على الجدران، وكاميرا صغيرة مخبأة في علبة كهرباء قريباً من سقف الغرفة التي ترتفع إلى ٢٢٥ سنتم، والكاميرا تطل على كل الغرفة تقريباً، لقد تم نقلنا إلى هنا ليتمكنوا من مراقبتنا، وليلاً غادَرنا الشاب من المكتب الإعلامي، لينام خارج الزنزانة ويخبر محمد شوقي عما قلناه في النهار أمامه.

ليلتها طلب أبو بدري من طارق دربالة الغناء، فراح يغني بصوته الرخيم أغاني حزينة، ووصلتنا من الزنازين الأخرى مطالب بأغاني محددة، فتحولت الليلة إلى «ما يطلبه المعتقلون»، ولم يرُق الأمر كثيراً لطارق دربالة، الذي كان هو وأبو بدري يعرفان عدداً من المعتقلين المتهمين بالتعاون مع النظام والانتماء إلى اللجان الشعبية وقمع الشبان في الثورة بمن فيهم دربالة وأبو بدري، فبدأ طارق يركز على أغاني الثورة السورية، ثم أبيات هجاء للشبيحة، ثم طالت السهرة فصار يقلد الشيخ منير حين كان يقود المظاهرات وغيره من الشخصيات الطريفة.

وصل السجان ومعه الهاتف، كان هناك على الخط نادر، يطالبني بكلمات السر لدخول أجزاء من جهازي لم يتمكن من دخولها، فأخبرته بأن لا كلمات سر في جهازي، لم يقتنع، ولكن لم يكن بيده حيلة. اليوم غادرت طائرتي من دوني منذ الصباح، وتمنيت لو ينتبه أحد إلى أنني فوّت موعد الطائرة من دون أن أظهر.

يوم ٢٧ تشرين الثاني: صباحاً وصل الطعام، طرق السجان على باب الزنزانة الأولى، الأبواب من الصلب المزدوج، وفيها فتحتان صغيرتان، واحدة في الأعلى للرؤية، وأخرى في الأسفل لتمرير أواني الطعام، في الزنزانة الأولى كان هناك ٢١ معتقلاً، والثانية ٢٦، والثالثة ٢٤، وفي زنزانتنا كنا فقط أربعة أشخاص، في الزنازين الأخرى كان الكل ما بين شبيح وضابط في الجيش، إضافة إلى عدد بسيط من المتهمين بمخالفات وارتكابات مدنية، وكلهم يقبعون في مساحة مشابهة لزنزانتي.

وعندما يقول السجناء عدد الموجودين يعطَون الطعام بحسب العدد، ثم نعطى نحن طعاماً يكفينا ويزيد عن حاجتنا، ولكنه بالإجمال طعام بارد، والخبز جاف

أو يكاد، إلا أن الحق يقال فلا شيء يمكن الشكوى منه إلا قلة الدخان بين أيدينا ونقص في الشاي، لكن السجان يهرّب لنا ركوة من القهوة في الصباح.

ظهراً يجر مقاتلان الشاب قيس إلى زنزانة مجاورة لزنزانتنا، يوضع في الزنزانة المقابلة لنا، يصفرّ وجه أبو بدري وهو يشاهد قيس مجروراً على الأرض من آثار التعذيب، ويلاحظ أن أظافره اقتلعت من مكانها، ووجهه مشوه، ويبدأ بالحديث عن قيس، الشاب الذي رافق بدايات الثورة في أعزاز مدنياً وفي المظاهرات أولاً، ثم كان من ألمع من امتشق السلاح وقاتل قوات النظام، ثم تخلى عن علاقته بأبو إبراهيم والتحق بمقاتلين آخرين في مجموعات مختلفة، وها هو اليوم يدخل إلى زنزانة مليئة بالمخبرين والضباط السابقين والمتعاونين مع النظام والمرتكبين.

بعد رحيل السجان يسأل أبو بدري المساجين في الزنزانة المجاورة عن أحوال قيس، رفيقه منذ أعوام طويلة، ولكن لا شيء مطمئن، قيس بحالة يرثى لها ولا ينهض من مكانه من آثار التعذيب. «لكن ما الذي يريده أبو إبراهيم من قيس؟».

يُفتح باب الزنزانة، ويدخل أبو محمود ناصيف، شاب في نهاية العشرينيات من عمره، خائف حد الارتجاف، يبدأ بالكلام عن قضائه بضعة أيام في الزنزانة الانفرادية، ومع الوقت يتبين أنه لم يقض فيها أكثر من بضع ساعات. كان يعتقد بأننا أصبحنا في شهر تشرين الثاني.

يسود وجهه الهلع، ويبدأ بالترداد «يجب أن أقابل أبو إبراهيم، لم أقتل أحداً، ولم أسرق معمل السكر، والذخائر التي بعتها بعتها بمعرفة اللواء، وأنا

نائب قائد لواء، حين يعرفني أبو إبراهيم سيفرج عني مباشرة»، ثم يصمت لبعض الوقت، قبل أن يقف إلى فتحة باب الزنزانة وينادي السجان منها، ولكن عبثاً، «أريد أن أقابل أبو إبراهيم» يصرخ، ودون جدوى.

يصرخ بعد ساعات من زنزانة مجاورة شخص «يا حرس لدينا مريض، إنه ينزف من دبره وهو يتقيأ طوال الوقت»، بعد طول صراخ وضرب على الباب يأتي السجان، ويقول ساخراً «حسناً سنأخذه إلى المستشفى ما أن تصل سيارة الطبية (الإسعاف)». ثم يختفي مجدداً.

أقوم برياضة المشي لمدة ساعة أو أكثر، ثم ننام بعد أن تقلص مخزوننا من الدخان، فقد هرّب أبو بدري جزءاً من دخاننا إلى الزنازين المجاورة الممنوعة من التدخين، ومن فتحة الباب الحديدي أمكننا مشاهدة السجناء وهم يمجّون السيجارة مداورة، بينما ينام جزء منهم ويجلس جزء آخر ويقف الجزء الثالث في الزنزانة الضيقة. وحين أستيقظ أجد أبو محمود، نائب قائد اللواء المزعوم، يبكي جاثياً قرب الباب، بينما الكل في الزنزانة نيام، أبقى بالوضع نفسه حتى لا أحرج الشاب، وحين نستيقظ جميعاً يروح أبو محمود يتحدث عن خيبة أمله بالثورة، ويقول بأنه سيطلب من والدته تزويجه[١] ما إن يخرج من السجن ويفتح دكانة سمانة ويعيش قرب والدته.

(١) العادة السورية متبعة بأن يسمّي الرجل بِكرَه باسم والده، كأن يدعى ابن محمد بأبو محمد منذ طفولته، فحين يرزق بطفل ذكر سيسميه محمد على اسم والده، وهكذا فإن أبو محمود ناصيف هو ابن محمود، وسلفاً يكنّى باسم أبو فلان، كما أن من لم يرزق بابن، سواء رزق بابنة أم لم ينجب يكنى عادة اما باسم والده (أبو فلان) أو ببساطة أبو عبدو (يعني ابو عبدالله كون كل الناس هم عبيد الله).

في المساء يستدعيني الحرس للخروج، كل ما يهمني هو توافر الدخان والشاي، ولا يهمني الخروج ما دامت المسألة مسألة وقت، أرفض قائلاً له «أنا مشغول» يرجوني «لا تخرب بيتي أبو إبراهيم ينتظرك». أخرج دون عصبة على العينين لأول مرة، وأدخل إلى غرفة التحقيق حيث كان أبو إبراهيم ينام على السرير كعادته، وفي الغرفة، يطلب مني جمعة الإعلامي ونادر، وعدد آخر من الشبان، تسجيل شريط فيديو لطمأنة الأهل، فأجيبهم بأنه لم يبق من أهلي أحد تقريباً، سوى شقيقي، فلا داعي للتسجيل، وأشاهد على التلفزيون خلفي تقريراً للـ «ال بي سي» يفتتح نشرة الأخبار ويظهر حسام عيتاني فيه.

مع إصرارهم على التصوير تبدأ ورطتهم بأسري بالانكشاف، فأرفض مجدداً «لن تُظهروني كسجين من معتلقي الجيش النظامي، أنا لست مثلهم، الخلفية سيئة والإضاءة توحي بالسجون، لن أصوّر أي شريط إلا في النهار وخارج الغرف المغلقة، وإلا يمكنكم تكميمي وتصويري بالقوة». يهز أبو إبراهيم رأسه موافقاً، يتحدث نادر عن كمية الرسائل على الإنترنت حول توقيفي، ثم يقرأ رسالة تطالب بإعدامي، أعود إلى الزنزانة فرحاً، وقد حملت معي بعض علب الدخان إلى أبو بدري، سرقت كل ما أمكن من علب الدخان، طلبت من المقاتلين علبهم وأخذتها منهم، وسحبت كل ما كان على الطاولة من علب دخان، الآن لن ينقصنا الدخان، وقام أبو بدري من فوره بإرسال جزء من الدخان إلى الزنازين المجاورة، وخصوصاً إلى قيس. ليلتها يغني طارق «دوارة يا دنيا»، و«يلا إرحل يا بشار» لإبراهيم قاشوش.

رسائل ورسائل مضادة

صباح اليوم التالي يوقظونني لتصوير الفيديو، اليوم ٢٨ تشرين الأول، أخرج من الزنزانة دون عصبة، أشاهد الشمس لأول مرة منذ يوم الخامس والعشرين من تشرين الأول، أبتسم، أضحك، يبعد الحرس سلاحهم من متناولي، أضحك أكثر، وأشرب الكثير من القهوة، أطلب من الشبان تأمين المزيد من القهوة، أو على الأقل الشاي، أفكر كيف سأوصل رسالتي عبر الفيديو، أجلس بانتظار أن ينهي أبو إبراهيم تلقين نادر ما يريده من الشريط، أعتقد بأن همّ أبو إبراهيم الآن القول بأنني بصحة جيدة وأعامل بشكل جيد، بينما كنت مهتماً بطمأنة حسام عيتاني (بعد تقرير الأمس على التلفزيون، والذي بدا فيه بغاية القلق والاهتمام) إلى أنني بخير وأن لا خطر يتهددني، أسير لوقت في الشمس، أستدرج المقاتلين لإخباري عن الأحوال، سمعوا بأن شباناً من الريف الغربي أتوا بالأمس إلى أعزاز ولم يستقبلهم أبو إبراهيم، ثم يتحدثون عن الاشتباكات مع الأكراد، كنا قد عبرنا منطقة عفرين يوم الخامس والعشرين من تشرين الأول، وكانت العلاقات مع

الاكراد جيدة كما هي العادة، فما الذي حصل؟ يبدو أن الداديخي أرسل مقاتليه مرة أخرى ليشتبكوا مع حزب العمال الكردستاني في الجبال، فوقعوا في كمين، وقتل منهم بضعة شبان.

يصل نادر، ويحاول تصويري، «لا لا توقف، شعري غير مناسب، لا لا توقف، الخلفية سيئة» أقول مرة بعد أخرى، نادر الذي كان حتى أمس مقتنعاً بأنني عميل لحزب الله بدا اليوم بمظهر أكثر تودداً، ولكن مع ذلك لم يحتمل تسويفي «أرجوك، توقف، ولنبدأ التصوير، أنت لا تعرف بأية حالة وضعتَنا ولدي ألف ألف قضية تتعلق بك، لقد اتصل شقيقك هذا الصباح بي، وهو يطمئنك إلى أن كل شيء بخير».

«هو يطمئنني؟ كان عليك أنت أن تطمئنه» أقول غاضباً، «لقد طمأنته صدقني، والآن دعنا ننهي تصوير دقيقة واحدة لأنطلق إلى أعمالي». أقف وأضحك وأنظر خلفي إلى اسم لواء عاصفة الشمال، وأقطع الكلام وأقول «أنا منيح» فقط لأشير إلى حسام عيتاني بأن الأمر مجرد لعبة، ثم أقف مع أحد الحرس، ونادر يصورنا لأظهر بصحة جيدة، وأخبر الحرس بأنني سأدخله معي إلى السجن «لقد قال لكم الداديخي إن الطعام والشراب حسب طلبي، وها أنتم تركتمونا بالأمس من دون شاي أو قهوة، شربنا مرة واحدة فقط صباحاً»، يبتسم الحرس ويقول «سامحني كنا مشغولين بالاشتباكات مع الأكراد»، «طيب طيب إذاً ادخل إلى أبو بدري والشباب إبريق شاي كبيراً»، واشير بيدي إلى الحجم المطلوب، «وسنرى ماذا سنقرر بشأنك». تنتهي اللقطة، ويضطر نادر إلى محو الصوت ووضع صوت عصافير مكانه قبل نشره على الإنترنت.

في الزنزانة أعود إلى السير ثلاث خطوات ثم أستدير وأسير ثلاث خطوات أخرى، لمدة لا تقل عن نصف ساعة كل مرة، لم يعد الحديث حول التنسيقيات يحمل أي معنى، ولا الحديث عن طلب المخابرات التركية توقيفي، أبو إبراهيم من ناحيته له مصلحة بأن يحرك ملف المخطوفين اللبنانيين بعد فشله في التفاوض حولهم وتحقيقه أية مكاسب، وفي المقابل فإن المخابرات التركية لن تمانع في توقيف شخص يتحرك دون ضوابط مثلي، ويدعم المناطق المستضعفة في الريف الحلبي، لكن هذه مصالح بسيطة نسبياً، ثمة من أراد بشدة توقيفي وقتلي ولو أدى الأمر إلى فضيحة إعلامية وسياسية، أبو إبراهيم لا تنقصه المشاكل، وأشك بأنه كان يحسب أية ورطة سيقع فيها بتوقيف صحافي مؤيد للثورة، كل افتراضاته كانت أنني مرسل من قبل حزب الله، وخلال جولة سريعة في ما أحمل من ملفات وما لديّ من إثباتات برهنت أنني ببساطة وحين لا أكون خلف مهمة صحافية، فأنا متطوع وناشط إلى جانب الثورة.

٢٩ تشرين الأول، اليوم هادئ في الزنازين، عدا البرد والرطوبة لا شيء يقلق راحتنا، أبو بدري يمارس قدرته الأسطورية على النوم، يوفر الدخان ليتمكن من توزيع جزء منه سراً على الزنازين، وطارق دربالة يتحادث طوال الوقت مع أبو محمود، الذي يكرر الجمل ذاتها حول مظلوميته، يأتينا مساجين جدد ثم يخرجون، ونبقى نحن في زنزانتنا تحت مراقبة الكاميرا، عدا سحب بعض المساجين ليلة أمس والمجيء بغيرهم لم يطرأ أي جديد، ليلة أمس دخل الشيخ منير، وسحب بعض المساجين، منهم ضابط كبير في القوات النظامية، اعتقل مع سقوط أعزاز، قال له منير «استغفر ربك على كل أعمالك» لم يصدر أي صوت عن الضابط، وأخذ الرجل إلى الإعدام،

أخبرني عدد من المعتقلين الذين كانوا ضمن قوات لواء عاصفة الشمال أن الإعدام يحصل على طرف حفرة، يقف المعتقل على طرف الحفرة، وتطلق عليه رصاصة في الرأس، ويقع مباشرة في الحفرة التي تتحول إلى قبره، ضمن منطقة بعيدة نسبياً عن الأعين، وهناك مقبرة كاملة تم فيها إعدام من قرر الداديخي وجوب إعدامه، ومن لم يتمكن من مبادلته مقابل الأموال.

وفي يوم ٢٩ تشرين الأول أيضاً يقف محمد شوقي أمام الزنزانة التي نقل إليها الفتى بحري، ويصرخ في الهاتف مخاطباً والد الفتى: اسمع، لديك حتى الغد لتأتينا ببندقيتين، وإلا فإن ابنك سيكون في الحفرة، سيذهب إلى الإعدام، وأعطى الهاتف لثوان لبحري الذي تحدث بصوت منخفض ومرتجف إلى والده، ثم كرر محمد شوقي كلامه مجدداً: حتى الغد فقط، وبعدها إلى الإعدام.

عدا ذلك، كل شيء كان هادئاً، وفي المساء تصلنا إلى الزنزانة أكياس مليئة بالطعام والمشروبات الغازية والعصير والشوكولا، «يا ابو بدري لماذا هذه المحبة المفاجئة؟» ينظر أبو بدري إلى الزنازين الأخرى، كل شيء يسير كالمعتاد هناك لا أحد تلقى مثل هذه الهدايا، «اعتبرها رسالة عمي أبو فرح». يقول لي أبو بدري مبتسماً، ثم ينشد طارق دربالة «**سوف نبقى هنا كي يزول الأمل**» محرّفاً في كلمات الأغنية الليبية. ويضحك أبو بدري: «لنبق هنا، وماذا سنفعل في الخارج؟».

٣٠ تشرين الأول، أبو إبراهيم يستدعيني صباحاً، كنا نحتسي الشاي بعد الإفطار، يقول الحارس: «يا أستاذ أبو إبراهيم ينتظرك»، أجيبه «نحن في اجتماع عمل مع طارق وأبو بدري» نتابع شرب الشاي قبل أن أخرج مرافقاً السجان.

في غرفة ظَهرَ جزء منها في تصويري وأنا أبعث برسالة التطمين، كان أبو إبراهيم ينتظرني: لقد التقيت بمئات من رجال الأمن وأنت أصغرهم. أجيبه: لو كنت رجل أمن لكنت ميتاً الآن.

ويتابع الداديخي الكلام بينما كنت صامتاً أستمتع بمذاق القهوة والدخان، رحت أستلّ من علبة دخان على الطاولة سيجارة إثر أخرى، تاركاً الكلام له، وغير عابئ في الحقيقة بما يقوله، كنت أعتقد أنني سأعود بعد دقائق إلى غرفة التحقيق أو إلى زنزانتي.

«أنت أصغر رجل أمن تعرفت اليه، أنت شخص عاطفي، وهذه نقطة مقتلك، ولكنك تلقيت درساً عندنا، والآن أصبحت تعرف في فقه الأشياء، لقد كنت تلميذاً في معهد الأمن»، أقاطعه «أخبرتك أنني مجرد صحافي»، فيستأنف كلامه: «حسناً يا سيدي، كنت تلميذاً في معهد الصحافة والآن قمنا بإعطائك درجة دراسات عليا».

ثم يخبرني قصة الملك الذي أراد تزويج ابنته بشرط أن يتمكن العريس من ابتلاع كيس ملح كامل، فعجز الجميع، ومر شاب وذاق الملح بطرف إصبعه ثم تابع طريقه، فأرسل بطلبه، وسأله لماذا لم تحاول أكثر، فقال له لأن كله ملح، سألته إن كان يعني أن علي الاكتفاء من الملح السوري؟ ثم راح يقص علي قصة وزير أحد الأمراء، ويحكى أن هذا الوزير من أدهى دهاة العرب، ولا يؤمن شره ولو فصل رأسه عن جسده(...) ثم دخل طارق، الشاب المسؤول عن المعبر الحدودي لدى أبو إبراهيم، فانتحيا جانباً، وحين عاد الداديخي سألته متابعة قصته فقال: «نتابعها لاحقاً، الآن لنتكلم عن الحلقة الأخيرة، وبعدها ربما نعود إلى الحلقات السابقة، أنا فعلاً لم أكن أعلم من

هو الصحافي اللبناني الذي اشتكت عليه التنسيقيات، وطالبونا بالتدقيق بأمره كونه يعبر من باب السلامة، وحين رأيتك أمامي فوجئت فأرسلنا لنتأكد من كل الشكاوى». قال مضللاً كعادته.

وصمت قليلاً فيما كنت أشاهد قناة التلفزة الإخبارية عبر الشاشة الكبيرة في الغرفة، ثم تابع: «هناك أذكياء يذهب كل ذكاؤهم لخدمة غيرهم، والآن ربما بعد قليل نسمع أن فداء عيتاني في قبتان الجبل، أو في أعزاز، أو ربما في لبنان، من يدري؟ كل شيء معقول». لحظتها فقط أثار انتباهي، واستدعى طارق وقال له: فليحلق ذقنه وليستحمّ ويرتب أموره. سألته لمرة إضافية عن المعتقلين اللبنانيين لديه، فلم ينبس ببنت شفة. ثم انطلقنا في السيارة. وبعد مئات الأمتار شاهدت الفيلا الموصدة كلها بصفائح الصلب، وفيها يعيش المعتقلون اللبنانيون، وابتعدت السيارة عنها وعن الحدود لتتجه نحو المعبر من الطريق الدولية، هناك أنزلت في غرفة طارق، وراح الأخير ينظف غرفته من الأسلحة والذخائر، ناسياً بين رفوف إحدى الخزائن مسدساً، فرفعته أمامه وأعطيته إياه، وقلت له إنني أريد مقابل المسدس ساعة من السير في الشمس، فرفض. «تخاف أن أفرّ؟ لا أريد الفرار، أريد فقط السير وممارسة الرياضة، لا تخَفْ من تحمل المسؤولية» فأجاب «بصراحة لا أريد تحمّل هذه المسؤولية، ثم إن وجهك معروف جداً، لن أغامر بأن أتركك تسير خارجاً».

قبل الافراج عني بساعات، سألت أبو إبراهيم عن المخطوفين ولم يجب. ثم بقيت أقرأ، وحينها فقط بدأت بمشاهدة التلفزيون، وصرت أقضِ الوقت بالسير داخل الغرفة، أستحم وأغير ثيابي بعد أن يسلموني حقيبتي

ثم يستعيدونها مني بعد أن أبدل ملابسي، وفي الغرفة على الحدود أجد كل أنواع البضائع، كل شيء مر من هنا حصل طارق على عينة منه، ولا شك بأن هناك عينات أكبر من هذه في مكان ما من مباني المعبر العديدة، إضافة إلى الضريبة التي فرضها أبو إبراهيم على كل شخص وسيارة تعبر من المكان، عدا عن شاحنات النقل.

يطل نادر بعد الظهر ويقول لي «لقد انتهينا، خلال ساعة قد يطلق سراحك»، فأطلب منه السماح لي بالسير في الخارج لأحرك جسمي ويرفض، فأطالب بكتبي.

الساعة الخامسة، تظهر على شاشة التلفزيون في الغرفة صورة اجتماع نقابة الصحافة، لأول مرة أعلم أن أمري مدار متابعة وتضامن، أشاهد حسام عيتاني وثائر غندور، والكثير من الأصدقاء، أنظر خارج النافذة، أحاول الهرب من شاشة التلفزيون، ثم أستسلم وأتابع المشاهدة إلى آخر الحفل التضامني.

٣١ تشرين الأول ٢٠١٢، أسمع على شاشة التلفزيون تصريحاً لوزير الداخلية مروان شربل يقول فيه بأنني أصبحت في تركيا، ألتفت فأجد حولي طارق والشيخ منير ومحمد شوقي، أسألهم هل أنتم معي في تركيا أيضاً؟

الثامنة ليلاً، يطل نادر ويستعجلني للخروج، أرفض اللحاق به قبل إنهائي رياضتي، يسلمني أغراضي في مبنى آخر، أفتش فيها وأحصيها وأخبره بما ينقص، يأتي عنصران من المخابرات التركية، يقابلان أبو إبراهيم، ثم تطول

الجلسة قبل أن يستدعيني أبو إبراهيم ويبلغني بأنني حر، وأن المخابرات التركية تماطل بتسلمي منذ الساعة السادسة مساء. أتسلم هواتفي، وبعد سلسلة اتصالات مع قناة «ال بي سي» ووليد جنبلاط والقائم بالأعمال في السفارة اللبنانية في تركيا ربيع نرش وحسام عيتاني وثائر غندور، نصل إلى حل، وأقنع به أبو إبراهيم: أوصلني إلى الحدود التركية وحين أعبر خط الحدود سأكون ورطة الأتراك لا ورطتك أنت، وعندها الحل الوحيد بتسليمي إلى سفارتي.

يعمل وليد جنبلاط بكل طاقته، ويصر على أن أخبره بالتفاصيل ما دمت أستطيع، وأن أفيده بحال تعقدت الأمور أو انحلّت، ويوصي ربيع نرش بتقديم كل ما يلزم للمساعدة، يشنّف أبو إبراهيم آذانه «من هذا الذي كلمته؟ وليد بك؟ أخبره حين تصل إلى بيروت أن عندي طبيباً درزياً أحتجزه بانتظار أن يسلم شقيقه نفسه». يحاول الداديخي توريط وليد جنبلاط بصفقة مبادلة، إلا أنني ببساطة أجيبه «إن لم يكن لبنانياً فأنا غير معني بالتعامل معك حوله، أولاً المخطوفون اللبنانيون ثم نتحدث عن الباقين». يمتعض الداديخي «أنتم صحافيون لا تحترمون وزراءكم، فكيف سنجبركم على الكلام معنا؟ أنتم مشهورون ومتعلمون» يقول مشيراً إلى حديث جرى بين وزير الخارجية وبيني عبر شاشة «ال بي سي» قبيل مكالمة جنبلاط بدقائق.

نادر، وخلال حديث جانبي يخفي الكثير من المعلومات، ويحاول التملص من الأجوبة، لكنه يقول في لحظة حقيقة إنه وبعد أيام طلب إعفاءه من عمله في ملفي، وإنه اكتفى بنشر البيانات، وأضاف: قلت لهم إنني لست طفلاً لتلعبوا بي بهذه الطريقة. وتحول موقفه تجاهي من العداء إلى الود.

يقتنع أبو إبراهيم بإيصالي إلى الحدود وتركي أعبرها بمفردي، يوصلني نادر إلى الحدود، تتوقف سيارات المخابرات التركية أمامي، يستقبلني عنصران من المخابرات التركية، بريبة شديدة أطلب بطاقاتهما، عدا الشعار العسكري لا أفقه أي شيء من الكتابة التركية.

أجري اتصالا بـ «ال بي سي»، وأتحدث على الهواء، بعدها يسوقني عنصرا المخابرات نحو الفندق في غازي عنتاب وهما يسألانني معلومات بسيطة حول ظروف التوقيف في استجواب سريع ولطيف. من كان مسؤولاً عن توقيفك، هل كان محمد شوقي هناك؟ الشيخ منير؟ الأستاذ سمير؟ هل تعرضت للضرب؟ هل هددوك؟ ما الذي أرادوه منك؟ هل تعرف عقاب صقر؟ كان عنصر يسأل بالتركية، والآخر يترجم إلى العربية ويعيد ترجمة جوابي إلى التركية لزميله، سألته «ماذا عن عقاب صقر؟ لماذا تسألان عنه؟». إنه نائب لبناني، أجابني، «لكن مجلس النواب مكوّن من ١٢٨ نائباً وأنتما لم تسألا إلا عن عقاب؟ لا، لا أعرف هذا الشخص». قلت.

وفي نهاية الطريق نصل إلى فندق في غازي عنتاب، يطلب مني العنصران عدم الإدلاء بتصاريح صحافية طالما هما برفقتي، أتحدث إلى عدد من الأصدقاء، وفي الفندق يحجزان ٣ أجنحة، يسكنانني في الأوسط بينما يشغلان جناحين على يمين جناحي ويساره، لم أنم تلك الليلة، دخلت إلى صفحتي على الفايسبوك، واكتشفت كماً من التضامن لم أكن أتخيله، دهشت، ودهشت أكثر من تضامن أشخاص وصحافيين لم أكن قد التقيتهم شخصياً، ومن جهد هائل بُذل على الشبكة للمطالبة بي سالماً، ومن رسالة أحد السينمائيين

السوريين الثوريين، ومن عمل قامت به مذيعة لبنانية في إحدى القنوات العربية، شعرت بأنني لا أستحق اهتمام هؤلاء، ليس كل هذا الاهتمام، وأنني مدين لهم بالكثير، ولن أتمكن في يوم من الأيام من إيفائهم دَينهم، وكذلك شعرت تجاه «علي» الذي واكبني هاتفياً واتصل بي في الفندق حيث كنت، والذي حجز لي مقعداً على الطائرة إلى بيروت قبل أن يعرف مكاني تماماً، هل سأعود من غازي عنتاب أم من اسطنبول أم من أنقرة، ولكن بشكل خاص شعرت بالدين لحسام عيتاني، الذي كان قد كتب مرة تعليقاً تحت صورتي «فداء نحنا مش مناح» رداً على رسالتي له عبر شريط الفيديو «أنا منيح».

في الخامسة صباحاً نتجه نحو مطار غازي عنتاب يرافقني دائماً أحد العنصرين الأمنيين، ويبقي معه سلاحه الرشاش الموضب في حقيبة، ومن الطائرة إلى المطار في أنقرة، نقف أمام مدخل المطار حيث كان بانتظارنا شابان ببذتين رسميتين داكنتين، وبنظارات شمسية، أنتظر خطوتهم التالية، وهم ينظرون نحوي، أشرب المزيد من القهوة وأنتظر، وهم لا زالوا صامتين، أسألهم «ما الذي ننتظره؟» «نحن ننتظرك» يقولون، إذاً لننطلق، فنركب سيارة قديمة بعض الشيء يوحي هيكلها الخارجي بالتهالك، ويقودنا أحد عناصر مخابرات أنقرة نحو فندق آخر بسرعة ٢٠٠ كلم بالساعة، أنظر نحو عداد السرعة، وإلى السيارات التي نمر حذاءها لأتأكد مما أرى، نعم نحن نسير بسرعة ٢٠٠ كليومتر في الساعة.

ننتظر قليلاً في الفندق وعناصر الأمن السرية التركية تزداد عدداً حولي، ثم إلى السفارة اللبنانية في أنقرة، حيث يفرد لي القائم بالأعمال ربيع نرش

مكتباً، لأعمل منه، ويحاول جهده إراحتي معتبراً أنني قد قاسيت خلال الأسبوع الفائت.

منذ وصلت إلى السفارة أخبرت ربيع بعدم نيتي مصافحة أي ممثل لرئيس الحكومة في لبنان، وأنني سأدخل إلى السوق الحرة وأختم جوازي لدى الأمن العام كأي مواطن، وإذا كان من استقبال ضروري بصفتي عائداً من الأسر فيمكن أن يكون لوزير على صلة بالملف، كالخارجية أو الإعلام فقط. تلقيت اتصالاً من وزير الخارجية وشكرته على ليلة التوتر الماضية عبر الشاشة.

حين وصلت إلى بيروت، استقبلني ثائر غندور على باب الطائرة ليقنعني بالدخول إلى صالون الشرف، حاولت المعاندة فقال «ابنتك فرح تنتظرك هناك». وفي بيروت كان هناك الكثير لأكتشفه مما حصل في غيابي.

الصورة من بيروت

يوم ٢٧ تشرين، بعد يومين من اعتقالي يصل الخبر إلى حسام عيتاني وكل الأصدقاء عبر بيان أول للواء عاصفة الشمال، يشير إلى توقيفي بإطار الإقامة الجبرية. منذ اللحظة الأولى سعى الأصدقاء للتأكّد من أبناء قريتي، قبتان الجبل، حقيقة ما جرى. أبلغ صبحي بأن وليد أوصلني إلى المعبر قبل يومين. بدأ تجميع المعلومات. التحليل الأول أن أبو إبراهيم يريد استعادة الأضواء الإعلامية. بعد ساعات من إعلان «أل بي سي» عن عملية الخطف، بدأت حملة تشويه السمعة. هنا، قرر حسام عيتاني وبعض الأصدقاء، أن الهدف الأول هو حماية سمعتي بعد تأكّدهم أني على قيد الحياة. هكذا بدأ التواصل مع جميع التنسيقيات في الثورة السورية. ردة الفعل السورية كانت إيجابية. سلسلة بيانات ترفض الخطف. بات أبو إبراهيم وحيداً. فَقَد جزءاً كبيراً من غطائه الثوري، كرجل أمن يدافع عن الثورة، أو على الأقل كما يرغب بأن يكون ويبدو.

من دون تنسيق مسبق ولدت شبكة من الأصدقاء تتواصل مع حسام عيتاني، لوضع خطة عمل. تقرر عدم التصعيد الإعلامي بدايةً. بدأ التحليل: من المستفيد؟ إسم عقاب صقر برز مراراً. الدور الرسمي كان في مستواه الأدنى. وحده المدير العام للأمن العام عباس إبراهيم تعهّد بخروجي قريباً وبأمان، مؤكداً أنه يعمل بكل جهده، وعيّن ضابط ارتباط مع الأصدقاء.

في الثامن والعشرين بدأ الضغط على حسام والأصدقاء. تسريب معلومات إلى عدد من وسائل الإعلام تفيد بأنني اعترفت بالعمل لصالح حزب الله والمخابرات السورية. بدأ الخاطفون وبعض الجهات المرتبطة بهم بتسريب معلومات متناقضة عني للأصدقاء. وصل الأمر إلى تمرير معلومة أن أبو إبراهيم سيكسر رأسي.. هنا هدد حسام آل الحريري عبر هاني حمود مستشار رئيس الحكومة السابق سعد الحريري وعبر أحد الأصدقاء، قائلاً: إذا عاد فداء جثة فلن يكون الجثة الوحيدة. وأنا لست مقطوعاً من شجرة، سأدعو الإعلام إلى مؤتمر صحافي وأقول أن الحريري مسؤول عن الخطف. رد الحريري جاء سريعاً لينفي مسؤوليته بعد أن كان قد تنصل سابقاً من لعب أي دور. لكن أمنيي المستقبل نأوا بأنفسهم عن الموضوع وماطلوا في استقبال من اتصل بهم.

لعب تلفزيون «أل بي سي» دوراً جيداً. فَهم الرسالة التي أرسلتها في الفيديو القصير. ركزت تقارير المؤسسة اللبنانية للإرسال على دوري في دعم الثورة. بيار الضاهر اعتبر أن وجود صورة «أل بي سي» خلفي في الصورة الأولى التي نشرها أبو إبراهيم، كانت رسالة من الخاطفين لقناته، دفعته إلى تبنّي قضيتي.

قرر حسام والأصدقاء إقامة لقاء تضامني. جمع اللقاء مختلف أطياف الصحافة اللبنانية. أبرز المشاركين كان عدداً لا بأس به من اليساريين الذين تجاوزوا خلافاتهم السابقة.

تبلّغ الجميع قرار إطلاق سراحي مساء ٣١ تشرين الأول. مروان شربل، وزير الداخلية اللبناني، يؤكّد وصولي إلى تركيا قبل الساعة السادسة مساءً وهو أمر لم يكن صحيحاً. هذا الأمر جعل الجميع يرتاح. بعد ساعتين تبين أن الأمر غير صحيح. ثم خرجت عبر «أل بي سي» قائلاً إن تركيا ترفض تسلمي وأن أبو إبراهيم يريد ممثلاً للدولة اللبنانية.

في البداية يتفاعل نجيب ميقاتي، رئيس الحكومة حينها، مع الملف ويعد بأنه سيتحرك سريعاً، ولكن شيئاً لا يحصل. ثم يغيب عن السمع، ليقول مستشاره الإعلامي لثائر غندور عند الحادية عشرة ليلاً: الرئيس نائم، شو ما عنده غير هذه القضية؟.

وزير الخارجية لم يكن يعرف أين أنا. الحكومة قررت عدم السماح لدبلوماسييها بدخول الأراضي السورية من جهة مناطق الثوار. وليد جنبلاط سعى جدياً إلى تحريك الملف خصوصاً عبر تواصله مع القائم بالأعمال اللبناني في أنقرة، الذي تولى إيجاد الحلّ مع الجهات التركية.

كل شيء كان يدل على اسم واحد، إنه النائب اللبناني عقاب صقر، الذي يعمل على الملف السوري بتكليف من رئيس الحكومة السابق سعد الحريري، بشبكة من الأمنيين والقوى السورية، مدعوماً بأموال ومصادر وبتسهيلات تركية وخليجية، وشارداً بالثورة ذات اليمين وذات الشمال،

منفّذاً ما لا طاقة للثوار على احتماله، وما لا يرغب به إلا بعض ضعاف النفوس، حتى باتت شهادات بعض أعضاء المجلس الوطني السوري والائتلاف تتحدث عن دخول واعتراضات في الاجتماعات الرسمية، وتقديم الأموال علناً خلال الجلسات، وبعض قياديي القوات المقاتلة يخبرونك عن حصار كامل يتعرضون له بالذخائر والأموال والإعلام نتيجة اعتراضهم على بعض تصرفات هذا الشاب.

لم أكذب على الشيخ منير في اليوم الأول لاعتقالي في ٢٥ تشرين، فحين سألني عن عقاب صقر قلت أنني لا أعرفه، وحين أسمعني أبو شوقي صوت اللبنانيين على مائدة العشاء مسجلاً على جهازه تعرفت إلى صوت عقاب، وفي اليوم التالي مرّ اسم عقاب صقر في التحقيق، وبعدها سألني عنه أبو إبراهيم، وهي المرة الثانية التي يسألني فيها عنه أبو إبراهيم، أول مرة كنا في مارع وأراني صوره مع عقاب، وسألني عنه، بينما سيمر جزء مما قلته لأبو إبراهيم ويجد طريقه إلى النشر في الصحف اللبنانية عبر صحافيين مقربين من عقاب صقر. كل ما سئلت عنه كان قبل أن يعرف أي كان بأمر اختطافي، وحتى قبل أن يعلم شباب التنسيقية والمجموعات العسكرية الذين أقضي وقتي بينهم، بأنني أوقفت على الحدود، وقبل أن يتمكن أي أحد من التدخل أو الاتصال.

حين تسلمني عناصر المخابرات التركية في تركيا سألوني أيضاً أن كنت أعرف عقاب صقر.

يوم ٣٠ تشرين الأول تنقل جريدة «الجمهورية» عن «مسؤول في حلب» قوله «نحن لا ننسى دعم عقاب صقر لنا، ولا نسمح لأحد بالإساءة

إليه، وإلى أشخاص آخرين لأجل حسابات داخلية لبنانية». وفي اليوم نفسه تصدر صحيفة «البلد» أيضاً مقالاً مطولاً يردُ فيه : «ما هو أخطر أن «عيتاني» اتهم صراحة بعض الجهات اللبنانية بالوقوف وراء (خطفه) من خلال التحريض وبثّ الإشاعات الكاذبة». لكن المصادر تنفي صحّة ما قاله الصحافي والإثبات على ذلك أن «هذه الجهات نفسها التي يتهمها عيتاني هي من اتصلت بالخاطفين راجيةً إطلاقه ولا تزال تعمل على تحريره بسرعة». قراءةٌ منطقية بسيطة تثبت أن عقاب صقر هو المقصود الأول، كل هذه التصريحات بينما كنت لا أزال قيد الأسر لدى الداديخي.

مباشرة بعد إعلان الخطف يتصل صحافي وصديق لعقاب صقر بالناشطين لإطلاق سراحي ويخبرهم باستعداده الاتصال بعقاب للعمل على إطلاقي، ويرفض الأصدقاء الأمر.

ثم بدأت تصدر بيانات إدانة الخطف من التنسيقيات. وبعدها في السابع والعشرين من تشرين الأول ليلاً، يتصل وسيط بين عقاب والأصدقاء، ويبلغهم بأن أبو إبراهيم أبلغ عقاب صقر بأنني اعترفت بأنني عميل لحزب الله وللمخابرات السورية وأسعى إلى جمع المعلومات، ومع ذلك فإنه سيطلق سراحي.

في اليوم نفسه يعرض النائب السابق التابع لتيار المستقبل محمد الأمين عيتاني الاتصال بسعد الحريري وطلب مساندته، وبعد الموافقة يعاود العيتاني الاتصال لاحقاً للقول بأن الحريري قال «من كان يعمل لديّ بهذه الملفات قد رحل» في إشارة إلى وسام الحسن. لكن النائب العيتاني يعد بالمشاركة بالتحرك التضامني، ثم يختفي تماماً.

وفي يوم ٢٨ تشرين، وفي إطار حملة الصحافة، تناقلت عدة مواقع على الإنترنت مقالاً واحداً يتناول «مجموعة من الأصدقاء» كلهم خارجون من جريدة الأخبار التي كنا نعمل فيها، وبخلفية يسارية، ويشير المقال إلى نقل معلومات ووشاية بالمجموعة إلى ثوار سورية.

ولدى زيارة أحد الأصدقاء لأحد القادة الأمنيين العاملين جدياً على ملفات الخطف يوم ٢٩ تشرين الأول، بادره المسؤول الرسمي سائلاً «هل اتصلتم بعقاب صقر؟ الأفضل ألا تتواصلوا معه».

ثم كان اتصال من أحد السلفيين المعروفين بانتمائهم إلى قوى ١٤ آذار بصديق ليخبره بأن خروجي الفوري من الأسر يقتضي إصدار الصديق لبيان يشكر فيه عقاب صقر على عمله لإطلاقي، وكرر أمامه أنني اعترفت بتعاملي مع المخابرات السورية وحزب الله، وأنني كنت أكيل الشتائم لعقاب ولأبو محمد شومان، السوري الذي لا تظهر صورته والذي يحمل جواز سفر بلجيكياً.

السلفي نفسه الذي طالب ببيان شكر، قال أمام العديد من زواره إن الثوار «لن يفرجوا عن فداء عيتاني قبل تكسير رأسه». بينما يرد هاني حمود المستشار الإعلامي لسعد الحريري على رسالة هاتفية تسأله عن حقيقة اعترافاتي لدى الثوار بالكتابة بالإنكليزية «كل ذلك أكاذيب».

في تلك الأثناء امتنع الأمنيون المقربون من تيار المستقبل عن استقبال أي من الأصدقاء المتابعين لملف خطفي، وكذلك امتنع عقاب صقر عن الإجابة على اتصالات الأصدقاء على أي من خطوطه الدولية.

ليل ٣٠ تشرين الأول ومع نقل موقع قريب من عقاب صقر لموضوع سبق نشره على الإنترنت يتحدث عن وشايات، نقلت إحدى الأقنية غير الرسمية إلى الأصدقاء أن «عقاب صقر يبحث عن مخرج في موضوع اعتقال فداء عيتاني»، ويضيف المتصل بأن فداء ذهب إلى سورية بحماية عقاب صقر وبعد تأكيدات الأخير أنه سيحميه.

تكتب صحيفة «صدى البلد» التي كان يعمل فيها صقر قبل تحوله إلى أحد نواب تيار المستقبل: «إذاً، عيتاني سيعود قريباً حاملاً معه قصّة غريبة وربما بعض الوثائق والصور... هذا الأمر ليس أكيداً... فالرجل الذي غادر بلده وصحيفته وآثر متابعة تحرك الثوار عن كثب، يدفع اليوم ثمن «تذاكيه» أو «حشريته» أو رسوبه في امتحان «الوفا»».

كلمة (تذاكي) ترد أيضاً في كلمة أبو محمد شومان، الرجل الذي لا يملك أحد صورة له، إلى قناة الجديد، حيث يصف اعتقالي بأنه نتيجة «تذاكي»، دون أن يوضح أحد ما المقصود بـ(التذاكي).

حين علم أحد الأقطاب السياسيين باعتقالي في أعزاز مع أبو إبراهيم قال لزائره «إذاً لقد علقنا بين أيدي الشيخ سعد (الحريري) وعقاب صقر».

في تلك الأيام يتصل عدد من الناشطين السوريين بالخارج بأصدقاء في الداخل، ويعملون على التفاهم مع عمار الداديخي، الذي يفاجئهم بطلباته «إما تسليمي معبر باب الهوى، وإما تسليمي رأس الأستاذ أحمد» (وهو شخص كان يشارك أبو إبراهيم القيادة في أعزاز قبل أن ينشق عنه ويعمل ضمن مجموعات إسلامية سلفية ومهاجرين من الجهاديين في المناطق المجاورة لنشاط أبو إبراهيم).

اعتقد الناشطون بأن أبو إبراهيم يمزح أو يبالغ أو أنه ببساطة صفّاني جسدياً ويسعى إلى المماطلة، لكن ظهوري في شريط فيديو، ومواصلة نشر بيانات من لواء عاصفة الشمال حول أمر اختطافي ومواصلتهم الاتصال بأبو إبراهيم أكدت لهم أن الرجل يعتقد بأن ثمني قد يوازي معبراً حدودياً، وأن هناك من يهتم لأمري إلى هذا الحد.

وبعد الإفراج عني، يصلني العديد من التأكيدات لي وللأصدقاء بأن عقاب صقر تدخل تدخلاً حاسماً لإطلاق سراحي، بينما خرج عقاب صقر على عجل في مقابلة تلفزيونية على قناة المستقبل التابعة لتياره السياسي ليقول بأنه لم يقم باية مساع لإطلاقي نظرا لأن آخرين تكفلوا بالموضوع[١].

(١) انظر الملحق رقم ٣

الى اللقاء أيتها الثورة

في مطار أنقرة أتواصل مع حسام عيتاني، يطلب مني ألّا أدلي بأية تصريحات، وأن أخفف من ناريتي، أخبره بأنني بغاية النعس، وكل ما أرجوه أن ننتهي من كل هذه القصة حتى أتمكن من النوم، ومن المطار أيضاً أتواصل مع علي، الصديق الذي اشترى بطاقة عودتي من تركيا إلى بيروت، ويطالبني بالهدوء أمام الإعلام، فقلت إنني لن أتحدث إلى الإعلام إطلاقاً. على الأقل هذا ما كان في نيتي.

في الأول من تشرين الثاني العاشرة ليلاً دخلت إلى قاعة المطار في بيروت وكان أمامي حشد من الإعلاميين انشغلت عنهم لدقائق بابنتي وأخي حسام وعدد من الأصدقاء، وحين وقفت أمام الزملاء اعتذرت لأنني تركتهم يسهرون ولأنني أقف أمامهم وأنا لم أقض في الأسر إلا أسبوعاً، بينما غيري قضّى أشهراً، وخصوصاً المخطوفين اللبنانيين، وطالبت بالعمل على إطلاقهم. والأهم من كل ذلك كان الاستنتاج الذي بدأت أبنيه منذ

معركة حلب في نهاية شهر تموز من العام ٢٠١٢: الثورة السورية في خطر ومنذ ثلاثة أشهر.

منذ تلك الليلة ولعدّة أيام لن يتوقف الهاتف عن الرنين، وسيتصل أحد الشخصيات التي تعمل على التنسيق الأمني في حزب الله ويدعى وفيق صفا، ويطلب لقاءً معي، «لا بأس أهلا وسهلاً بك» أقول، فيجيب «سأرسل لك سيارة لاصطحابك»، فقلت له، «لا شكراً، إن أردت أن تزورني فاهلاً وسهلاً بك مثلك مثل غيرك». «ولكن لدي وضع أمني، أنت تعلم»، يتحجج. «نعم أعلم، وأنت تعلم أنني أيضاً لديّ وضع أمني»، أكرر جملته، «كنت أود مكالمتك بموضوع يهمنا ويهمك ولكن لا بأس»، يقول مودعاً، «يا هلا بك يا حاج، ربما في مناسبة أخرى» نختم الحديث.

بعد أيام يزورني في منزلي ضابط الأمن التابع لحزب الله، كان الحديث غاية في التوتر، يعرض عليّ لقاء مسؤول التنسيق الأمني وفيق صفا الذي سبق أن اتصل بي، أرفض، «أنتم حاولتم قتل المعتقلين اللبنانيين» أتهمه، يرفض الاتهام، ويقول «نحن لا نملك طائرات». بعد الكثير من الكلام أقول له «اسمع يا صاحبي، نحن نعرف بعضنا منذ أعوام، اذهب وأخبر الشرطة الإلكترونية عندكم أنني لم أجب على أية إساءة تعرضتُ لها على مواقع التواصل والصحف الإلكترونية التي تمولونها منذ شهر آب، وقل لهم أن خطة إعدامي معنوياً بالنسبة إلى جمهوركم قد نجحت، ولكن ليرتاحوا قليلاً، فما هكذا يكون الإعلام، أنتم تضعون أنفسكم في وسط العاصفة، وستقضون على أنفسكم بمجموعة من الأغبياء الذين يحرّضون دون

طائل، وقل لقيادتك أن أسهل شيء هو اختراقكم، وأنت تعلم أن نقطة المقتل عندكم هي انعدام ثقة جمهوركم بقيادتكم له». يصمت الرجل، ثم ومن خلف نظاراته وبعيون حزينة يقول «اعتبرها كما تريد، ولكن من قتل وسام الحسن يمكنه قتلك». أعيد له مسدساً سبق أن قدم لي هدية: هذا المسدس أخذته حينما كنتم تقاتلون إسرائيل، اليوم لا أريد أن أراه. تدمع عيناه: لن أسلمه لقيادتي، سيبقى في درج مكتبي، وأنا بانتظار أن تستعيده. أبقى بعيداً عن سورية لأشهر، من تشرين الثاني إلى منتصف شهر شباط من العام ٢٠١٣، حيث أزور سراقب والأرياف في إدلب، برفقة الكاتبة السورية سمر يزبك، كانت الحالة الإسلامية المكوّنة من جبهة النصرة وإلى حد ما أحرار الشام ومجموعات المجاهدين القادمين من خارج البلاد قد بدأت بالتفشي المرضي في كل المناطق المحررة، تاركة الجبهات خلفها ومستوطنة المناطق الآمنة.

في مطار إسطنبول الداخلي يمكنك تكهن هوية الذين تراهم بسهولة، المطار الكبير الذي يتحرك فيه البشر طوال الوقت، ليلاً أو نهاراً، والذي لا ينام، مشكّلاً نقطة وصل بين داخل البلاد ومطاراتها الداخلية وبين المطارات الدولية، وهناك في هذا المطار، وفي المبنى المخصص للطيران الداخلي، يمكنك أن ترى بعض السلفيين، سواء أوقفت أمام بوابات الطائرات الذاهبة إلى غازي عنتاب، أم تلك المتوجهة إلى مطار هاتاي.

شبان سلفيون، البعض بمفرده، وآخرون بصحبة أحدهم، ينتظرون دورهم للصعود إلى الطائرات المتوجهة إلى المدن التركية الحدودية، ثمّة من يرتدي نظارة ويسير بنفاد صبر، يتجول في قاعة الانتظار الأخيرة قبل

الصعود على متن طائرته، وآخران يجلسان يتحدثان بصوت منخفض، ولحاهم الطويلة وشواربهم المحلوقة تشير إلى انتماءاتهم الدينية، بينما سحناتهم الداكنة تحدد هويتهم الخليجية، وفي الجدية التي تجمعهم، وربما بعض القلق، ما يشير إلى هوياتهم الحقيقية وأسباب توجههم إلى المدن الحدودية مع سورية.

في هاتاي يختفي هؤلاء الشبان، يخرجون من المطار إلى حيث لا أحد يعلم. ثم ستراهم لاحقاً حين يتحركون نحو الحدود.

الريحانية المدينة الصغيرة، أو البلدة الكبيرة، على مقربة من الحدود السورية، هذه البلدة فقدت هدوءها نهائياً كما يبدو، الصيف الماضي كانت بلدة صامتة، قد قطعت عليها المعارك الدائرة في سورية باب الرزق الصغير الذي شكلته السياحة، اعتاد اللبنانيون والسوريون العبور نحو تركيا من الريحانية، أو الريحانلي بحسب اللفظ التركي، البلدة عاشت أياماً زاهرة على العبور، كثر فيها سائقو سيارات الأجرة، والتجارة الحدودية، والاستراحات البسيطة، حيث يمر السائح ليرتاح قليلاً قبل متابعة مسيره نحو مقصده في داخل تركيا. اليوم أصبحت تتلقى بعض القذائف في محيطها.

انطلاقاً من شتاء ٢٠١٣ ولغاية الانتهاء من كتابة هذا النص، باتت الريحانية تعيش اكتظاظاً يصعب على سكان البلدة الكبيرة احتماله، هم يتحدثون عن كثرة الوجود السوري، وهذا الوجود ليس اللجوء الرسمي الذي أعلنت تركيا في أحد إحصاءاتها في بداية العام ٢٠١٣ أنه بلغ ١٨٥ ألفاً داخل مخيمات ترعاها الحكومة التركية وتشرف عليها، بل اللجوء الموجود في الريحانية هو مزيج بين نازحين فقراء أو تجار صغار يحاولون متابعة أعمالهم

البسيطة من مكان آمن وقريب من بلادهم، وبعض الأثرياء، والكثير من المؤيدين للنظام السوري، وبعض اللاجئين الذين تسمح لهم ظروفهم المالية باستئجار الشقق في الجانب التركي، وتجار التهريب وباعة متجولون وغيرهم من المواطنين السوريين الذين اختاروا التواجد على الحدود.

لم تعد الريحانية هادئة على الإطلاق، يتأفف أبناء البلدة من كثافة السكان وكثرة السيارات التي تقف على جانبي الطريق، بينما كانت قبلها الطرق خالية إلا من بعض المارة وعدد قليل من السيارات، لتفقد اليوم البلدة الهدوء الجبلي الذي امتازت به ولتتحول إلى خلية نحل تعمل كل الوقت فوق الطاولة وتحت الطاولة، سراً وعلناً، على إيقاع الثورة السورية وفي خضمّ الصراع السوري، إلا أن النصيب الحقيقي الأكبر لهذه الأعمال للأتراك، هؤلاء المنتمين في أغلبهم إلى أصول سورية، وتم ضم أراضيهم وبقوا فيها، ويدينون بالولاء للنظام السوري، يعتبرون من أكبر المستفيدين من حالة الاكتظاظ، رغم أنهم في بعض المناسبات قاموا بردات فعل عنيفة تجاه مواطنيهم السابقين تحركهم عصبيتان، **الأولى** مذهبية كونهم ينتمون إلى الأقلية السورية العلوية، **والثانية** محلية تركية، تجاه الغريب الذي تكاثر على أرضهم وبرزت خصوصاً بعد تفجيرين استهدفا الريحانية[1] حيث عمد الكثيرون من السكان المحليين إلى مطاردة السوريين في الشوارع والاعتداء عليهم وتحطيم متاجرهم وممتلكاتهم.

---

(١) استهدفت عدة تفجيرات معبر الريحانية الحدودي من الناحية التركية، إلا أن أعنف التفجيرات هو ذاك الذي استهدف بسيارتين مفخختين قلب الريحانية السكني والتجاري يوم ١١ أيار ٢٠١٣.

وتأفف أبناء البلدة التركية هو مجرد قشرة، في العمق ثمة استفادة ضخمة يحققها الأتراك من زوارهم السوريين، فلم يبق متجر لم يعمل، ولم يعمد إلى تكديس البضائع لبيعها للاجئين، ولا سيارة اجرة لم تشتغل في نقل الفارين من سورية وتهريبهم شرعاً وبطرق غير مشروعة، ولا دكانة خالية لم تؤجر لنازح يحاول كسب رزقه، ولا أرض بور لم يبدأ صاحبها بأعمال البناء فيها لتأجير السكن للاجئين. وارتفعت إيجارات الشقق السكنية، كل التجارات ازدهرت في الريحانية، المبيعات تضاعفت عدة مرات، وصار محل «حلويات إدلب» يحقق نجاحات مثله مثل محلات بيع البطانيات المتسربة من المساعدات الإنسانية إلى متاجر الريحانية، و«ملحمة سراقب» تصطف إلى جانب محلات مبيع الثياب العسكرية والجعب التي يبيعها تجار الريحانية إلى مقاتلي الجيش الحر الذين يصلون في زيارة إلى أهاليهم ويعودون إلى داخل سورية، أو الذين يتداوون من إصاباتهم في المعارك الدائرة خلف الحدود.

ومن لا يعرف العربية من سكان الريحانية طلب مساعدة في طباعة لافتات ورقية كتب عليها «صراف» وشرع يبدل الأموال للوافدين السوريين، أو كتب «خدمة تاكسي ونقل» أو وظّف في محلات بيع الخطوط الهاتفية من يتحدث العربية من الأتراك العلويين، الذين كانت مناطقهم ذات زمن تابعة إلى الأراضي السورية قبل أن يقرّ حافظ الأسد بالتخلي النهائي عنها. على الجبال والأراضي الزراعية الفاصلة بين حدود الدولتين يتحرك المئات من السوريين في عصر يوم، نعبر خلاله إلى سورية. ثم يتطور الأمر إلى تشكيل خط كبير يتكون من مئات الأشخاص السائرين

في الأوحال وسط الجبال وبين الوديان، تثور الفوضى هناك، فتتدخل الجندرمة التركية، تتردد أصوات طلقات نارية، تسرع الحشود في محاولة محمومة للعبور، يقع العشرات في قبضة سيارات الجندرمة التي تعيدهم من حيث أتوا.

في تلك الفترة من العام ٢٠١٣ كانت الجندرمة التركية قليلاً ما تتصرف بخشونة، إلا بعد أن يتعرض أحد عناصرها أو عناصر حرس الحدود إلى إطلاق نار من الجانب السوري، وهي أحداث وقعت عدة مرات وأدت إلى قتل البعض من الجنود، وأصيب آخرون، وسجلت حالة طعن بخنجر لعنصر من حرس الحدود.

ولكن في أغلب الأحيان تحاول الجندرمة وحرس الحدود عدم ترك الأمور تخرج عن السيطرة، مع السماح بتهريب البشر بهدوء ودون ضجيج.

دارت سيارات الجندرمة في القرى الحدودية عصر ذاك اليوم من شهر شباط العام ٢٠١٣ ونحن نحاول العبور، أطلقت صفارات الإنذار لتجبر المهربين البدو على لم زبائنهم من الشوارع وإخفائهم عن الأنظار، ووقف الفوضى، وعلى مدى نصف ساعة كان صوت إطلاق الرصاص يتردد في القرية البدوية وبين الوديان والجبال التركية، طلقتان، أو رشق قصير من الرصاص، كل هذه الطلقات في الهواء، يعلم الأتراك المهربون كما يعلم أي لاجئ سوري أن الجندرمة لن تطلق عليه النار، وأن أسوأ ما قد يحصل هو تعرّضه لضرب من جندي ناقم.

نصف ساعة ويختفي وهج الشمس ويحل الغروب، فنرحل مع مهرّبنا إلى

ناحية أخرى من الجبال، حيث «بوابة الغنم»، وهي المنطقة التي تعبر منها الأغنام، وحيث كان يتم تهريب الثروة الحيوانية من سورية إلى تركيا خلال فترة حكم النظام السوري للحدود. ينضمّ إلينا المجاهدون الذين سبق أن التقيناهم في مطار إسطنبول، ومعهم مهربهم الخاص من البدو، يظهر من العدم جندي تركي أمام البوابة، فيتّجه نحوه المهربان، ونصبح مجموعة من حوالي عشرين شخصاً نحاول أن نعبر الحدود إلى سورية بشكل غير قانوني.

مفاوضات طويلة تجري بين المهربين والجندي التركي، ويرحل الضوء الباقي تاركاً إيانا في ظلال من الرؤية، يحوّلنا الجندي التركي من الممر الذي سلكناه والمليء بالوحل وروث الأبقار، إلى ممر جبلي، نعبر المزروعات نحو الجبال، وبعد تسلقنا مئات الأمتار من المرتفعات الحادة، وجدنا أمامنا جندياً تركياً كان ينتظرنا ليستكمل المفاوضات التي بدأها زميله مع مهربينا، ثم سمح هذا الجندي بالمرور بعدما تظاهر بتفتيش حقائبنا في عتمة الغروب. تركنا نتخطى الشريط الشائك المنتصب أعلى الأفق الجبلي، وخلفنا يمر المجاهدون محمّلين بحقائبهم الثقيلة ومتاعهم الذي يفترض أن يكفيهم حتى ينالوا شهادتهم.

في الجانب السوري قبل أن يمر الداخل على بلدة سرمدا التي تقابل المعبر الحدودي، باب الهوى سيكتشف سوقاً مستحدثة للسيارات المستعملة المستوردة من الدول الأوروبية.

تبدأ أسعار السيارات المستوردة من أربعة آلاف دولار أميركي وما فوق، أغلبها صناعات قديمة تعود إلى ما قبل عشرة أعوام أو أكثر، بعضها يعمل على المازوت أو الغاز، في ظل أزمة المحروقات المستشرية حالياً في سورية

وهي الأكثر طلباً في سورية، وكلما خف مصروف السيارة من المحروقات ازدادت الرغبة باقتنائها، علماً أن الآليات المفضلة في الريف الشمالي دائماً هي تلك التي يمكن استخدامها تجارياً كالشاحنات الصغيرة.

في القرى الحدودية تحولت الثورة إلى مورد مالي رئيسي للعديد ممن كانوا يعتاشون من التهريب سابقاً ويعانون من قمع أجهزة الأمن السورية ومشاركتها لهم في أعمالهم الحرة. اليوم بعض هؤلاء أصبح يقود مجموعات مسلحة، تحمي التهريب، أو تمنعه بحال لم يمر عبر المافيا الجديدة المستحدثة، ولا فرق إن كان مصدر البضائع من التجار المدنيين أو من المخابرات المركزية الأميركية، فحقوق أبناء الحدود مقدسة.

قررت المخابرات المركزية الأميركية تقديم المساعدة غير القتالية للثورة السورية، فأرسلت منذ نهاية شهر كانون الثاني من العام ٢٠١٣ آلافاً عدة من الأطقم العسكرية، وتكوّن كل طقم من حذاء وكلسات وبنطال وقميص داخلي وآخر خارجي وسترة وقبعة عسكريتين، إلا أن مرورها من إحدى القرى الحدودية أدى إلى تقلص دفعة المساعدات بشكل كبير، فوصل إلى الكثير من البلدات السورية ٢٠ أو ٥٠ طقماً فقط لا غير، بينما تم عرض باقي الدفعة في المحال في سرمدا والدانا وأطمة وغيرها للبيع، علّ وعسى أن يجد فيها المجاهدون السلفيون ما يجذبهم للشراء وارتدائها خلال قتالهم في المدن والقرى السورية.

الفصل الثالث

٢٠١٣

سراقب وجوارها: سلمية ومدنية

- «يا ابني انتو اللي بيسموكم الثوار؟»

- «لا يا خالة، نحن الأمن»

- «أخريين»

(عجوز من سراقب تعبر حاجزاً سورياً يؤدي إلى مدينة إدلب)

حتى بداية العام ٢٠١٣ كان لا يزال في مدينة سراقب من يتحدث عن سلمية الثورة، وكارثة تحوّلها إلى ثورة مسلحة، يتحدثون بواقعية وبعقل بارد في ظل صراع دموي، هؤلاء الشبان في هذه المدينة هم من الجيل الذي خرج في المظاهرات غصباً عن إرادة أهلهم، وهم، شأن أترابهم في المناطق السورية الأخرى اضطروا إلى حمل السلاح، ومواجهة قوات النظام بالعنف، إلا أنهم يمتازون عن آخرين أنهم ورثوا مساراً طويلاً من

العمل السياسي، يبدون أكثر خبرة وحنكة، وإن كانوا هم أيضاً يغرقون في صراعات جانبية لا تني تتوالد من رحم بعضها في بيئة عمل غير صحية.

بعضهم وخصوصاً أكبرهم سناً كانوا إلى زمن قريب من مناصري «إعلان دمشق» وتربوا على أيدي من سبقهم في الأحزاب الشيوعية في سورية، وتاقوا كما غيرهم إلى لحظة التحرر، فاتت بمعجزة إلا أنها كانت أيضاً كارثة دموية لا تنتهي.

لا يمانع هؤلاء الشبان التصريح بآرائهم السياسية على الرغم من الجو الإسلامي الغالب على الثورة، وكما الكثير من أترابهم السوريين فإنهم يعيشون حياتهم كما يرغبون، وفي حين يبتعد الشبان السوريون عن قراهم في الكثير من المناطق عند رغبتهم بتناول المشروبات الروحية، فيقصدون مناطق كردية أكثر تسامحاً، أو مناطق في الشرق الشمالي حيث يتصيدون السمك ويقيمون ولائم الطعام والشراب، إلا أن شبان سراقب ومحيطها الإدلبي يبدون أقل تحفظاً، وقبل أن تغزوهم جبهة النصرة والمجموعات الإسلامية وبعدها المجموعات الجهادية المتنوعة قبل أن تتحد بتنظيم «داعش» كان يمكن شراء المشروبات الروحية من العديد من المتاجر في المدينة الصغيرة، ثم بات شراؤها يتطلب معرفة مسبقة بين البائع والمشتري. ورغم أن سراقب تعتبر من المدن المئة ألفية، إلا أن سكانها لا يزالون يتحدثون عن «القرية»، في لقاءاتهم واجتماعاتهم وتنظيماتهم، يعتبرون أنهم يعيشون في قرية، ويتعاملون مع مدينتهم بصفتها قرية كبيرة. وفي الأماكن القريبة من هذه القرية الكبيرة أو المدينة الصغيرة وفي مراعي غنم أو مزارع، يمكن أن تجد مجموعة من الرجال يجلسون ليلاً، ساهرين وغارقين في أحاديث الثورة

والحياة قبلها، وهم يتناولون مشروبهم الكحولي المفضل من العرق المحلي «الريان» أو المستورد من تركيا بعد تعذر الحصول على الإنتاج المحلي، ويتذكّرون كل حين ممارسات جبهة النصرة إزاء شاربي الخمر، يسخرون من الأجواء التي تحاول النصرة فرضها، ثم باتوا يسخرون من مجموعات داعش، بعدها مرت أشهر صعبة من صيف العام ٢٠١٣ وحتى بداية العام ٢٠١٤، إلى أن انقشعت الغيمة السوداء وعاد كل شخص يعيش حياته كما يريد، ولو بشكل جزئي في ظل الحرب والقصف والموت اليومي.

كانت الحياة في سراقب قد عادت شبه طبيعية بعد تخلصها من قوات النظام، وباتت من ضمن المناطق المحررة الآمنة، وبقيت مواقع النظام المتروكة حولها على حالها بعد سقوطها، أخليت وبقيت خالية، ومع الوقت سيطرت جبهة النصرة على مبنى تقوية الإذاعة فيها، وبدأت بالسيطرة على المدارس وتحويلها إلى مصانع للأسلحة والمتفجرات، وتحاول احتكار القتال والتحرير، شأنها في سراقب كما في باقي الاراضي التي انتشرت عليها، لكن مقبرة سراقب كانت تشهد على عدد الشبان الذين قتلوا أثناء النزاع، من المظاهرات السلمية إلى آخر المواجهات مع النظام على تخوم مدينة إدلب، مروراً بإسقاط مطار تفتناز الذي سيطرت عليه بعد سقوطه جبهة النصرة وعدد من الفصائل الإسلامية المتشددة.

أغلب أبناء المدينة لم يلتحقوا بالموجة الإسلامية الجهادية، كما أغلب أبناء سورية، قلة فقط هم أولئك الذين التحقوا بالموجة القاتلة لداعش وقبلها النصرة، وأن كانت الموجة قد شكلت أملاً لدى كثيرين بأنها قد تخلصهم من النظام ومن فوضى المجموعات القروية المسماة «جيش حر»، لكن هذه

الموجة باتت تهدد أسلوب حياة السكان، وأمنهم، وتستبيح أرواحهم كل حين، بدأ الأمر مع الناشطين والمتعلمين والصحافيين الأجانب ثم الإعلاميين المحليين، وبعدها بات الكل بحال من الخطر.

ومع سيطرة الفصائل الإسلامية على أطراف المنطقة وتسللها وغزوها لاحقاً للمدينة الصغيرة وجّهت تهديدات إلى الناشطين في المدينة من أبنائها، ونُفّذت عدة عمليات قتل لناشطين مدنيين ومقاتلين من الجيش الحر بعبوات لاصقة أسفل سياراتهم، وأخرى خلال مشكلات مفتعلة أو ببساطة عمليات خطف وتصفية، وصولاً إلى اقتحام مركز سراقب الإعلامي والتعرض بالضرب لكل الموجودين، وسرقة محتوياته قبل خطف صحافي بولندي منه في ٢٥ تموز من العام ٢٠١٣، وطلب فدية من القيمين على المركز الإعلامي.

وجوه لا تمسّها النصرة

للحياة في سراقب أوجه لم تمسّها ممارسات النصرة وداعش، فمن يزور سراقب ولا يجالس «عمتي افتعال»[1]، كأنه لا زار سراقب ولا داس بقدمه داخل محافظة إدلب.

عمتي افتعال راوية من الدرجة الأولى، تعيش في منزلها بعد أن هجرها زوجها، وقد عاشا أعواماً قليلة من «الحياة الزوجية السعيدة جدا» بحسب وصفها، إلا أن هذه الحياة السعيدة أدّت بالرجل إلى الفرار وترك المنزل وأطفاله الخمسة والعيش في دولة المغرب، والزواج من مغربية. وعمتي افتعال لم تطلب الطلاق، فلا بأس بأن يكون للرجل زوجة هنا وزوجة هناك، وحين كبر بكرها أرسلته لإعادة والده، فقرر الشاب متابعة حياته في المغرب أيضاً إلى جانب والده، والاستقرار هناك وإن كان لم يتزوج بعد، ثم رحل آخر نحو العمل في لبنان، وآخر إلى حيث لا ندري بعد. وبقيت

(١) اسمها على الوزن نفسه.

عمتي افتعال في المنزل مع ابنتها تتذكر جيداً حياة السعادة التي عاشتها مع زوجها، وترصد حياة الآخرين بدقة.

عمتي هذه مستديرة الجسم، لا تعرف طولها من عرضها، وعلى يديها بعض الأساور التي لا يمكن تحديد معدنها أذهب أم حديد مطليّ، وتضع وشاحاً يغطي نصف شعرها بينما النصف الآخر يزهو بلون حنته الفاتحة، وخصوصاً الغرة، وتلبس دائماً ناعم القماش ولامعه، وهو بكل الأحوال يجب أن يكون معرّقاً بالزهور والألوان الزاهية، أما ابنتها فيغطي الوشاح شعرها جرياً على التقاليد الإسلامية، إلا أن ما غطاه الوشاح من فتنة استبدل بفستانها القماشي الضيق، وبلحظ العيون وغمزها وابتساماتها الموزعة لهذا وذاك من الزوار، وبالتفاتاتها الخاصة لمن يهمل محادثتها. كل المعلومات عما يحصل في سراقب والقرى المحيطة موجودة لدى عمتي افتعال، بينما الابنة تتابع تفاصيل العمليات الحربية والإنقاذية بعد قصف الطيران عبر الهاتف الأرضي: ها؟ أخرجوا المرأة المحتجزة تحت الركام؟ مضى عليها أربع ساعات إلى الآن، هل يسمعون أية أصوات من بين الأنقاض؟ لا بد أنها ماتت. سأعاود الاتصال بكم لاحقاً.

كان الطيران الحربي قد بدأ بقصف سراقب في شهر شباط من العام ٢٠١٣، وأدّت أول موجة من القصف إلى إصابة مجموعة من المباني ببراميل متفجرة، ربما كان هدفها مبنى تقوية إرسال الإذاعة السورية الذي يبعد حوالي ٥٠٠ متر، والذي تشغله قوات تابعة لجبهة النصرة. وهي موجات من القصف استمرت حتى شهر أيلول من العام نفسه. واستهدفت المدنيين على الأغلب، وأدّت إلى تدمير كبير في الأحياء السكنية. وفي هذه الأثناء

يعيش منزل عمتي على وقع الثورة والقصف، مليئاً بالمعلومات بما فيها أكثر المعلومات سرية عن سير أعمال الثورة والإغاثة، فلا تتحضر مجموعة عسكرية لتنفيذ إغارة على قوات النظام في أية منطقة بمحيط سراقب أو إدلب إلا وتعلم عمتي افتعال أولاً بسير التحضيرات، ولا تصل شاحنات إغاثة إلى المدينة الصغيرة إلا ويكون لدى عمتي افتعال ما يشبه مانيفستو لمكونات الشحنة والفئة المستهدفة بالمساعدة، وواتى الحظ عمتي بشق الدولة السورية طرقاً عامة تصل بالأوتوستراد الدولي تمر من أمام منزلها، ما أتاح للعمة الخمسينية أن تلتقي بكل المارين من وإلى المدينة الصغيرة وتحادثهم وتسمع كل جديد.

«عمتي افتعال» كما يناديها أحد الأصدقاء لقربى بعيدة تصله بها، تجلس أمام منزلها مطلة على الطريق الواصل بالأوتوستراد الدولي، وقربها تجلس ابنتها، فيما ترسل ابنها الشاب اليافع إلى الدكان ليقوم مقام شقيقته في العمل، يذهب الشاب إلى المتجر الذي يدر على العائلة مردوداً متوسطاً بالنسبة إلى المداخيل في المنطقة. وتبقى عمتي افتعال وابنتها لمتابعة آخر التطورات، عدد الجرحى في العملية الأخيرة لجبهة النصرة على أحد حواجز النظام، الاشتباه بإحدى النساء واتهامها بإلقاء شرائح الكترونية ترشد الطائرات إلى مواقع الثوار لقصفها، وغيرها من الأمور الحربية والأمنية.

تروي عمتي افتعال عن تلك المرأة البالغة من العمر ٦٥ عاماً، والتي اعتقل ولدها لدى الأمن، عمتي افتعال تكرم وفادة ضيوفها، تقدم القهوة والحلويات الخفيفة، وتسأل عمن لم يتناول عشاءه منهم، ثم تتابع روايتها، المرأة العجوز لم تعرف أين الولد، ثم عرفت أخيراً، أنه لدى أحد فروع

الأمن، ولكنها خشيت أن تذهب، قالت لعمتي إنها تخاف أن يعتدي عليها رجال الأمن، أو يغتصبوها، إلا أن عمتي افتعال اعتبرت أن موقف هذه المرأة لا يمثل الأمومة الحقيقية «فعلى الأم أن تضحي من أجل أولادها. انظروا أنا كم ضحيت من أجل اطفالي، اليس كذلك يا ابن أخي؟».

كفرنبل العاصمة

وكما شأن سراقب كذلك كفرنبل، القرية التي اشتهرت برسوماتها الساخرة، ومظاهراتها الصغيرة ولكن المعبرة، والتي انتقلت من توقيع رسوماتها بكلمات «كفرنبل المحتلة» إلى «كفرنبل المحررة» بعد إخراج قوات النظام منها، وبقيت تحافظ على حياتها المدنية، على الرغم من محاولات القوى الإسلامية السيطرة عليها، إلى أن تم للمتشددين ما أرادوه مع دخول «داعش» إلى المشهد وفرضها السلطة على المناطق بقوة السلاح والمهاجرين الأجانب.

وفي كفرنبل كان طموح رائد، أحد الإعلاميين والناشطين الحيويين في القرية، إنشاء اذاعة محلية، وهو ما سيتم له بمساعدة عدد من الأصدقاء في خارج سورية، ولا سيما في فرنسا، إلى أن تقوم مجموعة من داعش باقتحام مقر الإذاعة المحلية الصغيرة وتحطيم موجوداتها مساء ٢٨ كانون الأول العام ٢٠١٣، قبل أيام من انطلاق حملة القضاء على داعش في أرياف حلب وإدلب.

والمحطة هي جزء من مشروعات عدة قامت بها الخلايا المدنية الناشطة في كفرنبل بدعم قليل لا يكاد يذكر، من باص الكرامة، وعدد من النشاطات الترفيهية والتعليمية للأطفال، والتي تدور في منطقة إدلب المحررة، دون الاقتصار على منطقة كفرنبل فقط.

وفي المنزل حيث يقيم رائد، والذي تحوّل إلى مركز إعلامي وملتقى للناشطين، يمكن أن تجد بسهولة شباناً وشابات سوريين من مختلف المناطق، أتوا من خارج سورية وداخلها، من أولئك الذين فروا من دمشق وأوصلتهم رياح الثورة إلى إدلب، إلى الذين يقيمون ويتعلمون في دول أوروبية ويتطوعون لصالح الثورة والعمل المدني والتعليمي، وتختلف اللكنات المحلية في الغرف وحول المدفأة (الصوبيا أو الصوبا)، ويمكن أن تجد متطوعين من درعا أتوا لتسجيل أفلام وثائقية في هذه البقعة، أو شباناً من دمشق وصلوا من تركيا لتصوير مناطق مختلفة في شمال سورية، وقرروا أن أفضل الأماكن للعمل هي في كفرنبل.

كان يمكن لكفرنبل لو قدّر لها موقع جغرافي مختلف، أن تلعب دور العاصمة الثقافية للثورة، وإن كانت بموقعها العملي لعبت دوراً يكاد يكون أكبر من ذلك، عبر انتشار رسومها الكاريكاتورية في كل وسائل الإعلام بالعالم. غير أن صغر القرية وبعدها الجغرافي والصراعات التي لا تنتهي مع الإسلاميين، أدّت كلها إلى تراجع دورها مع الوقت، خصوصاً حين بات تركيز الإعلام الغربي على «الإرهاب في سورية» والتخلي عن القضية السورية.

هذه القرية التي تميل إلى السلمية في حراكها، أو على الأقل التي طبعتها الرسومات والمظاهرات بطابع سلمي وفني ثوري، أكثر من كونها قرية

مقاتلة كما أغلب القرى في المحيط، يمكن أن تجد فيها إسلاميين ملتحقين بجبهة النصرة، لكن الغلبة الطاغية كانت لأبناء القرية المعتدلين، ومنهم قائد في إحدى القوى المحلية، وهو المقدم أبو المجد الذي يحدثك بصراحة كبيرة قائلاً :

«أجلس مع كل الناس، أنا سوري، وأريد سورية، ولا أمانع أن أتعاون مع أي كان، مشكلتنا كانت ولا زالت النظام السوري، والإسلاميين أحد أعراض الثورة، لكنهم لن يستمروا، رغم أننا لا ننوي قتالهم».

هذا القائد، الذي، وككل أبناء سورية، يبدو في الأربعين بينما هو في الحقيقة في منتصف الثلاثينيات من عمره، سبق أن قام بعمل جنوني حين شارك بمحاولة الاستيلاء على المطار العسكري في دير الزور وسجن لمدة عام قبل أن يتمكن من الانشقاق واللجوء إلى قرية كفرنبل لكن ليس من دون أن يكسبه السجن عاهة جسدية دائمة، بينما فر أحد زملائه بطائرته إلى الأردن.

يقول أبو المجد إنه لا يؤيد ولا يكنّ وداً لحركة الإخوان المسلمين، ولا يؤيد ولا يكن الود للولايات المتحدة، «ولكن لا أمانع من الجلوس مع الاثنين، وحتى بذتي العسكرية هي من التقديمات الأميركية للثورة، ولكن للولايات المتحدة شأنها، ولنا شأننا، أنا أجلس مع المخابرات الأميركية في العلن كما أجلس مع الإخوان المسلمين، والأميركيون كانوا واضحين من البداية بأنهم لن يقدموا لنا اسلحة، بل فقط معدات اتصال وسيارات، وفي الحقيقة هم لم يقدموا أي سلاح، وما وصلنا من جهات أخرى هو عدد قليل من قذائف B29 مضادة للمدرعات، وصواريخ قليلة أرض جو محمولة على الكتف، وبعض صواريخ الميتس، واستهلكناها كلها».

هذه النزعة المصلحية السياسية، والوضوح في السياق، لم يكن موجوداً قبل، وهو لا يزال حتى الوقت الحالي ضبابياً لدى العديد من القوى المحلية السورية، كما لدى أولئك المعارضين من الخارج، أو الذين أخرجهم النظام بقواه الدافعة المتعددة إلى خارج الحدود، فأغلب من تلتقيهم في سورية من القادة المحليين كما من الثوار، ومن تلتقيهم في الخارج من المعارضين تسمعهم يتحدثون في عالم آخر، غير العالم الواقعي، فهم بعد أن كانوا ينتظرون وعوداً بدعمهم وتسليحهم، باتوا يلومون الدنيا لانها لم تدعمهم رغم أنهم ضحايا وعلى جانب كبير من «الحق».

وهؤلاء أشد المستغربين للتحول الإعلامي الغربي، وبعضهم لا يدرك هذا التحول في الإعلام الغربي، وللتحول في الرأي العام العالمي حول قضيتهم، فهم بالاحرى ينتظرون أيضاً من الإعلام أن يقوم بمهامهم الوطنية وأن يشرح قضيتهم أمام الملأ، بينما يتقاعسون هم عن فهم العالم، ويعجزون عن متابعة آليات العمل السياسي المحلية والدولية، ولا يدركون في أغلب الأحيان خطورة ما تقوم به دعاية النظام السوري وحلفائه.

في كفرنبل يمكن سماع أنواع مختلفة من الأحاديث. أكثر واقعية وأكثر سخطاً على المعارضة، إلا أن البلدة وأشخاصها عرضة للعوامل نفسها التي تلف الثورة السورية بأزماتها، وتجعلها تعيش في حالة حرب أهلية مرشحة للاستطالة ولتولي أمراء الحرب والأكثر تطرفاً والأقل تعليماً لمقاليد الأمور في المناطق المحررة.

ها هو رائد خلال جلسة مسائية يتحدث وهو يشرب المتة عن سوء الأوضاع «كنت أسأل نفسي كل مرة لماذا تسوء الأوضاع حين تخرج قوات

النظام؟ لطالما كنا نعمل بكل طاقتنا، ونشعر بتضامن شديد ونحيط أعمالنا بالعناية، ونحرص على بعضنا ونعمل بفاعلية، ما دامت قوات النظام موجودة بيننا، ثم حين تخرج هذه القوات تصبح تصرفاتنا على نقيض كل ما سبق. ببساطة، الجواب أنه ومع خروج الجيش من مناطقنا يظهر الجبناء ويشكلون كتائب مسلحة».

إذا كانت بعض الكتائب المسلحة من الجبناء، فماذا عن جبهة النصرة؟ يجيب المقدم أبو المجد «جبهة النصرة ليست سيئة، مشكلتنا مع النظام وجبهة النصرة تقاتل اليوم ضد النظام»، يتدخل رائد «الجبهة مشكّلة على عدة مستويات، قوّتهم تكمن في تنظيمهم، ومالهم، وقدرتهم العسكرية، والمساعدات التي تصلهم، وقدرتهم على استيعاب المقاتلين الراغبين في العمل، أما الحل فيكون عبر الفكر».

على الأقل هذا ما يراه رائد، الذي عمل ويعمل طوال الوقت على مشاريع محلية كالإعلام والتربية والمنشورات. ثم يضيف «في بداية الثورة كنا قلة، وكنا مشغولين طوال الوقت، وكان الإسلاميون يتسللون بهدوء ولكن بأعداد كبيرة نسبياً». وهذا ما أدى في النهاية إلى استيلاء الإسلاميين على كل مقاليد الحياة في سورية.

سكان الكهوف وسكان القبور

المقابر تواصل تمددها، في مناطق من الأرياف السورية تمنع الأرض الصخرية تمدد المقابر التي لا تني تمتلئ بسكان جدد، وفي مناطق أخرى يمنع البناء تمدد هذه المقابر، في قبتان الجبل استُحدثت مقبرة جديدة للشهداء، حيث لا أنصاب ولا رخام، فقط كثبان رملية صغيرة يعلوها من ناحية الشرق صخرة صغيرة، أو لوحة حجرية، على ما يذهب السلفيون في الدفن، ومع ذلك يمكن مشاهدة دفن على التقاليد الإسلامية من رخام أو بضعة أحجار مرتفعة عن الأرض محيطة بالقبر، إلا أن هذه المقابر تبعد قليلاً عن مدافن شهداء الحرب والثورة.

في سراقب اقتطع الثوار من بداية الموت مدفناً جديداً مقابل المدافن القديمة، وبات الدفن يحصل على التقاليد الإسلامية المعتادة في المنطقة، ولكن بتواضع أكثر، نظراً لضيق ذات الحال وربما لكثرة القتلى، وتمددت المقبرة الجديدة، حتى حاذت جدار المسجد، فبدأ النقاش في شتاء العام ٢٠١٣ عن إمكانية هدم جدار المسجد لتوسعة المقبرة.

في هذه المقبرة تصطفّ القبور خلف بعضها ضمن جدران منخفضة، أشبه ما يكون الأمر بمبانٍ صغيرة قصيرة، تضم بين جنباتها رفات القتلى من أيام الثورة الأولى، حينما كانت الأمور سلمية، ودون تعقيدات القوى والفصائل والسلاح والسلطة، إلى مرحلة سيطرة النصرة وداعش على المدينة الصغيرة، وحدهم الجهاديون العرب والمنتمين إلى تنظيم القاعدة من أهل المدينة لم يدفنوا إلى جنب إخوتهم أبناء سراقب.

ومن مدخل المقبرة يتحدث أحد المتطوعين في اعمال حفر القبور عن المنظر الجميل، كان الغروب يدفع بظلال القبور القديمة في المقبرة المقابلة لتغطي القبور الحديثة لشهداء الثورة، ويرشدك المتطوع حفار القبور إلى زاوية للتصوير، «صور من هناك ستبدو لك المقبرة أجمل».

وينشغل منهل باريش الناشط في المدينة بالنظر هنا وهناك، لقد دفن الكثير من أصدقائه هنا، وينظر نحو القبور، يتجول بينها بصمت، ثم ينظر نحو جدار المسجد، ويؤكد أن لا بد من توسعة المدافن باتجاه باحة المسجد، بعد أشهر سيفقد منهل أحد إخوته، كما سيفقد الكثير من الأصدقاء، البعض خلال أعمال القصف، وآخرين خلال المعارك، والبعض اغتيالاً. منهل الذي يقف بين أبناء بلده ويستمع إليهم وإلى متطلباتهم يبدو موزع القوى ما بين السياسة، وما بين الحاجات المطلبية للناس، ويحاول لعب أكثر من دور في الوقت نفسه، وحين تقول له إنك تبدو يائسا ينتفض «أنا يائس؟ كيف يمكنك أن تثور وتسعى للتغيير وأنت يائس؟ لم أيأس يوماً، على العكس، كلي تفاؤل بأننا في النهاية سنصل إلى حيث يجب أن نصل».

أما محمد خالد، الشاب المكنى بأبو الشوك، والذي لا يزال في مقتبل العمر، فيبدو عليه التأثر كلما اقترب من المقبرة، رغم نضجه المبكر، وتصرفاته الذكورية الحادة، إلا أن أبو الشوك يسير ببطء حين يصل إلى المدافن، هنا أيضاً يرقد أكثر الشبان الذين اثروا في حياته، وفي مسيره، والذين فقدهم واحداً تلو الآخر، وباتوا يمثلون ذكرى أمام عينيه كل الوقت. وحين تسأله عن سبب اشتعال الثورة، ينظر قليلاً بصمت أمامه، وهو خلف مقود السيارة، ثم يقول: نحن مزارعون أساساً، والعمل الزراعي توقف عن الإنتاج المالي منذ العام ٢٠٠٧، وقضى النظام على الزراعة، ثم هناك الشبان، هم من اشعل الثورة، والكثير منهم لم يتمكن من الدخول إلى الجامعات ومواصلة التعليم، الدولة لم تسمح لنا بمتابعة حياتنا كما كنا نحلم.

محمد خالد البالغ من العمر ٢٢ عاماً يقول «لا أريد شيئاً، فقط أريد العودة إلى الحياة المدنية، ولكن طبعاً من دون بشار الأسد، قمنا على بشار نطالبه بالإصلاحات، وبعد ممارسته للقمع ضدنا صرنا نطالب برحيل النظام لوقف القمع، اليوم تحررت مناطقنا من بشار ولكننا لا زلنا تحت القمع» مشيراً إلى ممارسات القوى الإسلامية في إدلب.

يقاطعه قائد إحدى الفصائل «أبو وحيد»: اذا توقفت المعارك فلن أترك في منزلي قطعة سلاح واحدة، ولكن انظر حولك أليس جريمة أن يحصل أحد الألوية على دبابات وتدعمه دولة خليجية بكل ما لديه من رجال ويشكل جيشاً صغيراً يسجنه في قرى خلفية ويكني نفسه بالجيش الحر، وهو لم يضرب حاجزاً واحداً؟ ثم يتوقف أبو وحيد لحظة، بعد استفسارنا عن دقة كلامه «ألم يضرب أي نقطة أو يشارك بأية معركة ضد النظام؟» يجيب: «بلى

ضرب حاجزاً واحداً وقتل ١٩ من خيرة متطوعيه، وخسر وانسحب من أرض المعركة».

طابع المأساة لا يشغل محمد خالد كثيراً، هو لا يزال في مرحلة الشباب الأولى، حتما يشعر بمآسي الناس المحيطة به، ويتعلم مع منهل باريش، عضو المجلس الوطني والناشط في الميدان، حاجات السوريين، ولكن لا يزال خالد في مرحلته العمرية أكثر اندفاعاً، على الرغم من الوعي المتراكم عبر الخبرة والتجربة الكثيفة في الثورة.

أمازحه بالقول «ثوار سراقب متوترون، غارقون في مشاكلهم البينية، جزء منهم ترك العمل واعتزل في منزله، متشائمون، بينما ثوار كفرنبل مرحون وساخرون»، يلتفت محمد شوقي ويقول «كان أهل ثورة سراقب مرحين قبلاً، وانتظر لفترة سيصل أهل كفرنبل إلى ما وصلنا إليه ويصبحون مثلنا».

ينشغل محمد خالد أحياناً بتفحص أسفل السيارة التي يقودها قبل ركوبها، مخافة أن تزرع إحدى الفصائل الإسلامية المتشددة عبوة لاصقة، وتستهدفه هو ومنهل، ولكن في أغلب الأحيان ينسى محمد هذا الاجراء، ويذكّره بالمخاطر هذه التهديدات المباشرة التي يتلقّاها هو وأصدقاؤه من السلفيين، لكن كل ذلك يختفي من أمام ناظري خالد حين يصل إلى موقع أثري في حلب سكَنه نازحون من المناطق التي دمرها القصف أو التي لا تزال تحت نيران الجيش النظامي.

يعود محمد خالد إلى واقع الناس، يطلب منا النازحون عدم استخدام الكاميرا في الخارج، مخافة أن تعرف قوات النظام موقع نزوحهم وتستهدفهم

بالطائرات: «منذ أيام قصف الطيران موقعاً قريباً من هنا» يقول رجل مسنّ، وينحاز محمد خالد مباشرة إلى مطلب الرجل، لكننا نصوّر العائلات وهي تعيش في الكهوف تحت الأرض.

تحت هذه الآثار امتدت أنفاق كانت في ما مضى قبوراً، وخزانات مائية، بعضها يقع على عمق عشرة أمتار وبعضها أكثر، وفي عتمة مطلقة تجلس امهات واطفالهن بصمت، أحياناً يشعلون زيتاً موضوعاً في زجاجة دواء صغيرة، وحين دخلنا لم يقطع السكون إلا همسات الأطفال، الذين ملّوا من الضيوف ومن أحاديث الكبار، فغادروا إلى الخارج للعب في المرج الاخضر مستغلين شمس شباط، متسابقين على درجات صخرية غاطسة في وحل خلّفته أمطار الأمس.

وتحت الأرض كانت الأمهات والرجال يخبروننا عن أوضاعهم الحياتية، مثل مئات آلاف السوريين الذين غادروا أماكن سكنهم نزوحاً من قصف لا يرحم، تركوا خلفهم كل ما جنوه في حياتهم الماضية، وبدأوا بتأسيس حياة من كيس نايلون يغطي سقف الخندق ويحجب بعض الأوحال والأمطار، ومن فراش مُدّ على الأرض، وبضعة حرامات طبع عليها «مساعدة من» هذه الدولة أو تلك. وطبخوا ما تيسر لهم من حبوب، واقتاتوا من أفران شغلها الثوار والهيئات المدنية في الثورة.

وفي الخارج وتحت شمس شهر شباط، كان بضعة مصابين ومصابات قد أعياهم النزول والصعود إلى كهوفهم، فبقوا خارجها يمضون نهاراتهم وهم يتعافون ببطء من إصابات تعرضوا لها من أثر القصف، ومنهم كانت فتاة لم تبلغ السادسة عشرة، تجلس وحيدة، وتتحدث بهدوء عما اصابها وعن حاجة عائلتها إلى العمل.

تعمل بعض النسوة على الطبخ خارجاً، مع حيطة ساذجة من الرجال بألا تظهر آثار لوجودهم في هذا المكان حتى لا يستهدفهم النظام بقذائفه، الحيطة أقرب إلى الهوس ونوبات الرعب المرضية، وهم خير من يعلم أن هذه المناطق تضم مؤيدين للنظام ربما بقدر ما تضم من المؤيدين للثورة، إلا أن الرعب يتملكهم من رؤية الأجنبي، بينما لا يعني لهم أي شيء تسكعُ فضوليين من أبناء سورية حول مقر إقامتهم الآمن.

مآسي معرة النعمان

إن هللت أفواهكم، فقلوبكم ونفوسكم، دون الحقوق، مهلله
آليت، ما توراتكم بمنيرة، إن ألفيت فيها الكميت محلله
لا تأمنوا برق الغمام، فإنما تلك السيوف، من القضاء، مسلله
قال افتكار، في الحوادث، صادق جعل الصعاب من الحذار مذلله
هفت الحنيفة، والنصارى ما اهتدت، ويهود حارت، والمجوس مضلله
اثنان أهل الأرض، ذو عقل بلا دين، وآخر دين لا عقل له

أبو العلاء المعري (٩٧٣- ١٠٥٧ ميلادية)

في شتاء العام ٢٠١٣ كانت مدينة معرة النعمان تعيش مأساتها، كيفما اتجهت بنظرك تجد المباني المتضررة والمحطمة جراء القصف والأعمال الحربية، لقد عاشت هذه المدينة أسابيع قاتلة، أدّت إلى تضرر أغلب مبانيها، والبعض دُمّر تماماً، ومع تحرر المنطقة عاد بعض أبنائها إليها، وكتبوا على اسقف المنازل المهدمة وجدرانها شعاراتهم الخاصة عن ضرورة محاسبة لصوص

الثورة، رشّوا الطلاء (البخاخ كما يسمونه في سورية) على المنازل المدمرة، وبعض المحال المنهوبة، عمن سرق الثورة والعمل من أجل محاربته إلى جانب مقاتلة النظام، هذا النَفَس الإدلبي قد لا تجده في الكثير من المناطق الأخرى، حيث في ذاك الحين، كانت الفصائل، سواء التي ترفع أعلام الجيش الحر أو تلك الإسلامية تملك هيبتها على السكان وتثير الاحترام الممزوج بخوف تقليدي لدى المواطن السوري من الأجهزة العسكرية.

كيفما جلتَ في مدينة المعرة التاريخية تجد الدمار يحيط بك، لقد تعرضت المدينة إلى قصف مكثف، ربما هي من المرات النادرات في شمال سورية التي تستهدف فيها المدفعية بشكل منهجي مدينة برمتها، إضافة إلى مدينة حمص طبعاً، وحلب. لم يحل خراب مشابه في مدينة سورية بين إدلب وحلب، كما حل في المعرّة ، لاحقاً سيتكرر المشهد. وسيجتاح مدناً أصغر تشكل خواصر ضعيفة للنظام.

ولم يعد إلى المعرة من سكانها أكثر من بضعة آلاف حتى نهاية آذار ٢٠١٣، ويقدرهم ناشطون ما بين السبعة والعشرة آلاف، بينما كانت تضم المدينة ١٢٠ ألف مواطن، الروائح المنتشرة في المدينة هي نتيجة طبيعية لتراكم النفايات، قبل المعارك وخلالها وبعدها، وعلى الرغم من تسلّم اللجان المدنية للخدمات إلا أنها لم تتمكن من تشغيل طاقات توازي الحاجات الفعلية للمدينة، لا من ناحية المياه وإدراتها، ولا من ناحية النظافة، وأحصت هذه اللجان في بداية شباط ٢٠١٣ أكثر من ٢٠٠٠ وحدة سكنية مدمرة كلياً، وحين تسألهم عن الوحدات السكنية المتضررة يجيبون جيمعاً ودون تردد «كل المدينة».

فعلاً، دمار المعرة لا تستوعبه كاميرا فوتوغرافية، لم تُدمر مبانٍ متفرقة، بل شمل الدمار كل المباني والأحياء، كيفما نظرت وكيفما دخلت في الشوارع الفرعية، ستجد المشهد المرعب إياه، مباني خالية ومدمرة، وبضعة مواطنين يحاولون العودة إلى منازلهم، بينما لا زالت المنطقة عرضة للقصف، والعمليات الحربية تدور على مبعدة ١٥٠٠ متر من المدينة في أطراف وادي الضيف.

الدمار الجزئي ولكن المعمم في المدينة لا يشمل المساجد، فقد استُهدفت هذه الأخيرة مباشرة بالقذائف من أعيرة ١٢٢ و١٣٠ ملم، واحترق بعضها ودمر بعضها الآخر جزئياً، بينما دمر مسجد بلال بشكل كامل عقب غارة طيران عليه بصواريخ جو أرض، القبّة الإسمنتية وحدها صمدت فوق الأرض، بينما تساوى الركام مع مستوى الأرض تماماً، وفي المسجد الكبير تستخلص من استهداف المئذنة بالقذائف أن قناصاً كان هناك يواجه قوات النظام، إلا أن التدقيق أكثر يكشف أن الاستهداف لا يشمل أهدافاً عسكرية: «إنها سياسة متبعة» تقول الكاتبة السورية سمر يزبك، وهي تقف وسط باحة المسجد وغطاء الرأس الأسود يتهدل على كتفيها «لطالما استهدف النظام المساجد ودُور العبادة والمراكز الإسلامية السنية، من بداية الثورة شهدت على العديد منها، هذه سياسة واضحة للنظام». ثم تستخلص «يبدو أنها أسرع الطُرق التي يمكن للنظام فيها استثارة رد فعل مذهبي من السكان».

ولا يبدو ما تقوله يزبك مجافياً للمنطق، في تلك المرحلة وما تلاها سيستهدف النظام المساجد وهي ملأى بالمصلين يوم الجمعة، ثم يستهدف الأفران

خلال توزيع الخبز، العمليات التي ينفذها جيش النظام ضد المدنيين تهدف إلى إثارة ردود فعل غريزية لدى السكان ومعاقبتهم جماعياً، وسيكون رد الفعل كما سنسمع في معرة النعمان نفسها «جبهة النصرة قادمون» يقول أحد الناشطين المدنيين العاملين في شؤون الإسعاف والطبابة، ويضيف «هذا خبر جيّد، فهؤلاء مقاتلون جيدون وإن كانوا متشددين».

ردات الفعل لا تقف فقط على تدمير المساجد، فها هي قرية «هش» الصغيرة، دمرها النظام وسوّاها بالأرض تماماً، ثم أعلن في وسائل إعلامه أن القرية ضربها زلزال، وهكذا بوقاحة متعمدة وصف ما حصل بالزلزال الذي لم يطاول أية أرض مجاورة، إنما فقط منازل قرية واحدة، وصغيرة.

ويتحدث ناشطون مدنيون عن ردات فعل السكان تجاه القوى المسلحة، حيث سيطر على سراقب بعد تحريرها كتيبتان، كتيبة شهداء المعرة، التي سيطرت على المتحف بعد أن كان الجيش النظامي قد حوّله إلى ثكنة عسكرية، وكتيبة عباد الرحمن التابعة للإخوان المسلمين «الذين لا يسرقون، ولكنهم يميلون إلى السيطرة على كل مرافق الحياة في المدينة» بحسب تعبير أحد الناشطين المدنيين.

جريمة في المتحف

مأساة من نوع آخر هي تلك التي ضربت أبو العلاء المعري في مدينته الأم معرة النعمان في محافظة إدلب شمال سورية، هي مأساة لن يلتفت إليها أحد الآن، فمن حيث أرخى أبو العلاء نفسه على الأرض إلى جانب النصب الرخامي حيث كان ينتصب، كان محتملاً أن يشاهد عشرات من المقاتلين الثوار التابعين للجيش الحر يتجولون يساراً ويميناً، ويمكنه مشاهدتهم لو احتفظ برأسه على كتفيه.

إلا أن رأس أبو العلاء قد اجتث من جسد تمثاله وأسقط التمثال عن نصبه، وارتمى نصف الجسد في الشارع بينما اختفى الرأس، ولم يبق من الجسد إلا تلك العباءة الملفوفة حول الجسد الذي صممه النحات ليكون من دون أكتاف أو أذرع، فمن الجلي أن قيمة المعري في الرأس، وفي العباءة العربية الأصيلة لابن المدينة التي لم يمر مرة التاريخ رفيقاً عليها وبها، ولا اكتفت بنصيب عادي مما يصيب بلادها.

الأطفال في المعرة حزنوا ربما، أو سخروا من المعري مقطوع الرأس، فوضعوا مكان رأسه رأساً من الجص، ليحل مؤقتاً على كتفي الرجل الأشهر في تاريخ الإلحاد والنقد الديني والشعري، ولكن لم يحل الرأس المستعار دون الإحساس بالخسارة من قطع رأس الرجل.

أمام المعري ينخفض شارع السوق في المعرة، وإلى يمينه يقع الخان الذي تحول إلى جزء من متحف المعرة، وإلى يسار أبو العلاء يقع المبنى التاريخي الذي تحول هو الآخر إلى متحف، أما الشوارع المحيطة بتمثال أبو العلاء المعري، كما كل شوارع المعرة، فقد شهدت قتالاً هائلاً كما تشهد آثار الركام، ولا يزال القتال يدور على مقربة من المدينة، ويمكن سماع أصوات القذائف تتردد في أجوائها بين حين وآخر.

التمثال الموضوع أرضاً قُص رأسه من أسفل الذقن بما يعرف بـ«الصاروخ» هناك من عمل على قطع الرأس، ولا يمكن الجدال في أن الرأس قد سقط عن الجسد بعد تعرضه لشظية من قذيفة أطلقها النظام، والجسد تعرض لطلقتين، وترك بعدها الرجل لحاله، وربما تعرض الجسد لإطلاق النار خلال الاشتباكات العنيفة التي تشهد عليها المنطقة، إلا أن الرأس حتماً قد قطع بعد تحرير المنطقة من قوات الجيش النظامية واستيلاء الجيش الحر عليها.

أحد قادة المجموعات في الجيش الحر الذي يتخذ من المتحف إلى يسار التمثال مقراً له يتحدث عن غموض في قطع الرأس، ويبدي جهله التام بما حصل للتمثال، وإن كانت المسافة الفاصلة بين مقره في المتحف وبين التمثال لا تتجاوز العشرين متراً، يقف على مدخل المتحف حرس بشكل

دائم، وهو من مكانه يرى ويسمع كل ما ومن يدب قرب قاعدة التمثال، سواء في النهار أم في عتمة الليل.

وفي المقابل فإن بعض المجموعات الثورية المدنية تتحدث عن تعمد لقطع الرأس من المجموعة التي تسيطر على المنطقة حيث التمثال، ويضيف هؤلاء أن أي حديث عن قذائف أو مجموعات أخرى قامت بالعمل لا معنى له، فجبهة النصرة لا يمكنها الوصول إلى تلك النقطة دون موافقة الكتيبة الموجودة، ومن يتحمل المسؤولية هو من يسيطر على المكان.

غير أن قطع رأس التمثال واختفاءه سيمثلان بداية حقبة مشينة ومرعبة في التاريخ السوري وفي تاريخ الثورة على الأخص، إنها مرحلة حز الرؤوس، التي ستحدث تحولاً في الرأي العام العالمي، وتحرج أبناء الثورة في الداخل والخارج ولن تنتهي إلا بمأساة كبرى.

لكن واقعة قطع رأس أبو العلاء المعري في آذار من العام ٢٠١٣ لن تكون أكثر من جزء بسيط من المأساة الثقافية والحضارية لمدينة معرة النعمان، ولسورية عموماً، فالدخول إلى متحف المعرة الواقع إلى يسار التمثال يظهر حجم الخسارة التي لا يمكن تعويضها، هناك الكثير من القطع الأثرية المفقودة، بل أغلبية القطع التي يمكن حملها قد اختفت، الثوار يتهمون ضباط النظام بسرقتها، بينما بعض ثوار المعرة يقولون بأن الطرفين متهمان بالسرقة، فلا يمكن تكذيب السرقة عن ضباط الجيش السوري وجنوده، ولا يمكن إغماض الأعين عن ممارسات الثوار، الذين تورطوا على الأرجح بالسرقة والنهب في المتحف وغيره من المواقع الأثرية.

داخل المتحف، ما لم ينهب من قطع صغيرة سهلة الحمل تعرض للتخريب، سواء المتعمد أو على سبيل اللهو، أو حتى الإهمال، ثمة براميل من النفط والمازوت قد تركت أمام الفسيفساء المرممة على الجدران سابقاً، والمعروضة أمام الزوار السابقين، وفي الأرض كل أنواع النفايات، وداخل الخزائن الخشبية التي كانت تضم قطعاً أثرية لا يمكن رؤية غير الفراغ القاتل.

وأمام لوحات ضخمة من الفسيفساء نصب المقاتلون (أو ربما سبقهم جنود الجيش النظامي بهذا العمل) طاولة خشبية متهالكة وكراسي مجمعة عشوائياً من المتحف ليتناولوا الطعام هناك، محولين المتحف الجميل ذا البناء الأثري الذي كان في عهد ماض قلعة، إلى استراحة وقاعة طعام، بينما ركنوا الآلية التي تحمل رشاش ١٤,٥ داخل أحد أبواب قاعات المتحف ليخفوها عن أنظار الطيران الحربي السوري.

العديد من الآثار كبيرة الحجم، كالتماثيل، قد تحطمت جزئياً أو تعرضت للأضرار نتيجة القصف أو سوء التعامل معها، وفي أحد الأقبية تم تخريب دهليز عبر محاولة فتحه ليجد من فعل هذه الفعلة أن الدهليز يؤدي إلى مدفن أثري فقط لا غير حيث لا ذهب ولا كنوز.

وفي قاعة التكية، حيث تحفظ الكتب، خلت العديد من الخزائن من المخطوطات والكتب المطبوعة وموجوداتها، واحتفظت خزانة واحدة بكتبها التي تعود إلى أكثر من مئة عام، مرافقنا من الجيش الحر يقول إنهم لا يستطيعون الاهتمام بهذه المخطوطات مع معرفتهم بأهميتها، لكنهم منعوا الدخول إلى التكية، ويحاولون العثور على من يهتمّ بالمكان ويؤتمن عليه.

مئات الأعوام مرّت على بعض المنحوتات ولوحات الفسيفساء، وبعضها مرّ عليه الآلاف من السنين قبل أن تتعرض هذه المكوّنات لتاريخ وحضارة سورية إلى الدمار، وإلى إشراكها رغماً عنها في ثورة ودفاع عن نظام متهالك، وفي الجزء الآخر من المبنى حيث كان المكان في الماضي يشكل خاناً، ترك الجيش النظامي خلفه وعلى مدخل الخان آلية ضخمة تسد البوابة التاريخية، إنها شاحنة ثقيلة تم تحويلها إلى ناقلة جند عبر تصفيحها بالواح الحديد وإغلاق سطحها وإخفاء الدواليب خلف تدريع حديدي، ونصب مقاعد للجنود داخلها وتركيب برج متحرك بسيط على سطحها لتتحول إلى آلة قتل، ثم تموت الآلية على مدخل الخان وتترك وتسد الطريق أمام الداخلين والخارجين.

وفي الخان معارك وقصف وفرار جنود تاركين احذية خلفهم، وفي الخان دمار وحرائق، وأيضاً المزيد من السرقات، ثمة من انتزع من قناطر الخان التي لا يتعدى ارتفاعها المترين التماثيل القديمة التي كانت تقف تحت القناطر، وبدت القناطر فارغة أيضاً، مثلها مثل الخزائن الخشبية وواجهاتها الزجاجية في المتحف.

وعلى الأرض في كل مكان في الخان والمتحف، ثمة بقايا من نفايات الجنود، علب طعام فارغة وأكياس بلاستيكية وعلب دخان وآلاف القاذورات التي غطت على آلاف الأعوام من التاريخ وآثاره الرائعة.

ليست خسارة البشر وحدها ما لن يُعوَّض، إذ إن آثار سورية حتماً لا يمكن تعويض خسارتها، ومن اليوم يمكن التنبؤ لكل متاحف سورية بمصير مشابه لمتحف المعرة، حيث لا يزال تمثال المعري مقطوع الرأس يشهد على التهافت والضلال وتراكم الغباء.

قصف كيميائي وعنقودي

١٩ اذار ٢٠١٣، أقف مع شبان من سرية المهمات الخاصة التابعة للريف الغربي في حلب، يفصل بيننا وبين المساكن الفاخرة في بلدة خان العسل حوالي ٣ كيلومترات، القصف ينهمر على خان العسل، والاشتباكات تجددت وسط محاولة الثوار التقدمَ والاستيلاء على البلدة، أنتظر سيارة تقلّني إلى قرية قبتان الجبل، ومنها إلى إحدى القرى الكردية القريبة من مدينة عفرين، حيث العديد من الأصدقاء نزحوا وباتوا يعيشون هناك.

لساعات طويلة أبقى مع الشبان المقاتلين، الذين بتُّ وجهاً معروفاً بينهم، وعلى أجهزة الاتصال التي يحملونها نسمع نداءات لفتح الطرقات ومنع السيارات المدنية من السير على إحدى الطرق لتسهيل إيصال الجرحى

(١)

https//:zamanalwsl.net/news.47286/html

https//:now.mmedia.me/lb/ar/orient/

إلى المستشفيات والنقاط الطبية، ثم تنهب الأرضَ السيارات العسكرية المحملة بالذخائر وأحياناً سيارات إسعاف تحمل مصابين. اليوم ١٩ اذار ٢٠١٣ استخدم جيش النظام السلاح الكيميائي للمرة الأولى في خان العسل وسط محاولة تقدم للمعارضة واستشراس قوات النظام في الدفاع عن مناطق تواجدها.

أيام قليلة وينشق عدد من الجنود من المنطقة تحت وطأة القتال، ويضع أحد الجنود الذين انفصلوا عن جسم الجيش السوري نفسه تحت تصرف الثوار، معلناً استعداده للإدلاء بكل ما رآه خلال المعارك حول استخدام الأسلحة الكيميائية. إحدى الممرضات في مستشفى حكومي تعلن أيضاً، ورغم بقائها في موقعها تحت سلطة النظام، عن استعدادها لمغادرة مكان عملها والالتحاق بالمناطق المحررة حين يحتاج الثوار إلى شهادتها حول استخدام الأسلحة الكيميائية.

يعمل أحد ضباط الشرطة المنشقين على جمع التفاصيل وإجراء التحقيقات حول استخدام السلاح الكيميائي، يطلب أية مساعدة ممكنة، ويضع بين يدي عدداً من الإفادات ومن الوثائق والدلائل التي تمكّن من جمعها، كان يحاول استخلاص نتيجة أولى حول نوع السلاح المستخدم، واخرى حول الجهة التي استخدمته، ووصل إلى استنتاجات حاسمة مدعومة بشهادات عدة، من مقاتلين شاركوا في المعارك ومن سكان في المناطق المتاخمة لمركز العمليات، ومن المنشقين من الجيش النظامي عقب العمليات العسكرية في ذلك اليوم، ومن الممرضة ومن عدد آخر من الناس لم يطلعني على مواقعهم لسرية تحقيقاته.كذلك تمكن الضابط المحقق من جمع عدد من

الأدلة من الثياب التي كان يرتديها مقاتلون قضوا في الهجوم، على الرغم من أن وسائل الإعلام أفادت بأن أحداً لم يصب من ناحية الثوار بالهجوم الكيميائي، وأن إعلام النظام أعلن أن عدداً من جنوده هم من مات متأثراً بهجوم كيميائي شنه مقاتلو المعارضة.

وعجز الضابط عن فهم لماذا لم تتفاعل معه أي من الهيئات الدولية حينها، أو حتى السفارات الغربية وممثلوها، كان مهتماً بتقديم ما لديه من أدلة بسرعة إلى هيئات اختصاصية، بعد أن جمعها ووضبها للحفاظ عليها ضمن ما هو متوافر من إمكانات في سورية وما تمكّن من الحصول عليه في تركيا من المتاجر العادية، إلا أن أحداً لم يُلق بالاً إلى ما لديه، وصولاً إلى بيروت، حيث انتقلت إحدى السفارات الغربية في دمشق لتؤسس مكتب رعاية مصالحها في سورية من العاصمة اللبنانية، حينها لم يبد المسؤول عن الملف السوري في بيروت كبير اهتمام بالتدقيق بما قدم له من معلومات، ولا حتى بالاستماع للنهاية لما لدى الضابط أو حتى الاتصال به مباشرة، «المعارضة قدمت في الماضي العديد من الدلائل المفبركة» قال الديبلوماسي الغربي مشككاً، وأضاف: «اليوم يتحدثون عن استخدام النظام السوري للأسلحة الكيميائية، وأمس تحدثوا عن أشياء أخرى، وسبق أن أعلنوا عن استخدام النظام أيضاً للأسلحة الكيميائية إلا أنه تبيّن أن كل ما سبق كان مجرد ادعاءات إعلامية». ثم يختم الديبلوماسي كلامه «بكل الأحوال يمكنه (الضابط المحقق) الاتصال بي، إذا أراد، ببيروت».

أسقط في يد ضابط التحقيق، تخلى بعد أسابيع عن عمله في محاولة الاتصال

بالجهات الدولية لتقديم الأدلة التي يملكها، في تلك الأسابيع قام النظام مرة أخرى بضرب مدينة سراقب بالأسلحة الكيميائية، وبدأ بإلقاء القنابل العنقودية من الطائرات.

في شهر نيسان كان الكثير من القرى السورية قد اختبر الأسلحة العنقودية، حيث تحلّق الطائرات وتلقي الحاويات التي تنفجر في الجو وينطلق منها المئات من القنابل العنقودية، وتنفجر في دوائر أو خطوط طولية.

العديد من الغارات ضربت القرية نفسها على دفعتين، راسمة خط اكس (X)، أو خطين متقاطعين، مرة تلقي قنابل عنقودية متفجرة، ومرة ثانية تلقي قنابل عنقودية فسفورية، فتلتهب المنازل والأراضي الإسفلتية لدقائق قبل أن يعي السكان ما الذي حصل لهم.

الضابط المحقق هو الآخر ترك سورية وهاجر إلى إحدى الدول الأوروبية طالبا اللجوء السياسي مع عائلته، مفضلاً التخلي عما يملكه من معطيات بدل إثارتها في الإعلام، سيما أن الإعلام الوحيد المؤثر هو الإعلام الغربي الذي لم يبد كبير حماسة أيضاً للحديث عن استخدام السلاح الكيميائي من قبل النظام. بينما لم تُثر قضية خان العسل واستخدام الأسلحة الكيميائية حتى ضرب النظام الغوطة بغاز السارين في ٢١ آب من العام نفسه، حينها وحينها فقط وعلى وقع مقتل عشرات الاطفال من الغوطة، تحرّك الرأي العام الغربي والعالمي، وبدأت الدول الغربية والأمم المتحدة تحقيقاتها التي أدّت في النهاية إلى تسوية تُسلّم سورية على أساسها المخزون الكيميائي لديها وكفى الله المؤمنين شر القتال. ولم يأت التحرك بسبب المقتلة بين أطفال سورية، بل

لنية النظام الاستخدام الواسع للأسلحة الكيميائية وبشكل علني، وهو ما أثار الحفيظة الغربية ودفع دول العالم إلى التحرك، ولو بقي استخدام الأسلحة الكيميائية كما سبق في خان العسل وسراقب لاستمر النظام السوري بالاحتفاظ بمخزوناته منها، إلى اليوم.

بحثاً عن المطرانين

«هل تتبع ملّتهما؟ هل تدافع عنهما؟ هل تؤمن بما يؤمنان به؟ هل تريد شراءهما؟»

اسئلة وجهها أحد قادة الفصائل الأجنبية الإسلامية في سورية لباحث عن المطرانين المخطوفين اليازجي وإبراهيم

٢٢ نيسان العام ٢٠١٣. مر أحدَ عشرَ شهراً على ازمة المخطوفين اللبنانيين لدى لواء عاصفة الشمال. عمار الداديخي اختفى من سورية. البعض يقول إنه مات، وآخرون يشيرون إلى أنه في تركيا قيد العلاج من إصابة جديدة تعرّض لها، وعلى الرغم من إقامة خيمة عزاء له في أعزاز شارك فيها سراً قادة الفصائل المقاتلة في الريف الحلبي وبعض النواحي الأخرى، إلا أن أحداً لم ير جثته، ولا نشرت صورته بعد وفاته عبر إعلام عاصفة الشمال، جرياً على العادة السورية المستحدثة بنشر صور الشهداء بعد مقتلهم.

٢٢ نيسان يختفي متروبوليت حلب والإسكندرون وتوابعهما للروم الأرثوذكس المطران بولس اليازجي ومتروبوليت حلب لطائفة السريان الأرثوذكسي المطران يوحنا إبرهيم. وعلى الفور بدأت عمليات بحث لمعرفة مصيرهما، القوات العسكرية كما الهيئات المدنية كانت معنيّة بشكل أساساً وتحديداً لحساسية الأمر، إضافة إلى المكانة الخاصة التي يخص بها الكثير من قادة العمل المسلح والمدني في حلب وإدلب المطران يوحنا إبراهيم.

كانت داعش قد بدأت بالانتشار في هذا الوقت، وجبهة النصرة أعلنت مبايعتها لتنظيم القاعدة، وفي الأرياف والمناطق الخلفية انتشرت عشرات المجموعات التابعة للقوى الجهادية الأجنبية.

أبو عمر الكويتي أسس ما يشبه جماعة مستقلة، جال على الفصائل الإسلامية السورية المعتدلة، وبرفقته حقيبة مليئة بالنقود لا تفارقه، وعرض على الكثير من الفصائل الانضمام إليه ومبايعته قائلاً إن الخلافة «تحتاج إلى أمير مهاجر قرشي» (أي أبو بكر البغدادي أمير الدولة الإسلامية في العراق والشام).

أبو عمر الشيشاني أيضاً شكل مجموعته الخاصة، وقريباً من مناطق انتشار أبو عمر الكويتي. في ريف ترمانين احتل أبو البنات الروسي على رأس مجموعته قرية مشهد التي تضم دزينتين من البيوت، وأغلق الطرق المؤدية إليها بالحواجز، وأعلنها إمارة إسلامية رافعاً علَم تنظيم القاعدة على كل مداخلها.

عمليات الخطف أصبحت خبزاً يومياً، كانت إلى زمن قريب من تاريخ خطف المطرانين تجري لأي سبب: فدية مالية، شبهات أمنية تطال المخطوف، سرقة، والخطف بغية المبادلة مع النظام أو مع أطراف محلية أخرى، وحتى الخطف

على سبيل الاحتفاظ بعناصر من قرى أخرى يمكن أن تشتعل المعارك معها لاحقاً، ويحتاج الأمر إلى تبادل رهائن، وصولاً إلى الابتزاز الجنسي.

ومن بين المخطوفين كان ثمة شماسان يحاول المطران يوحنا إبراهيم إطلاق سراحهما مقابل فدية مالية، ولهذه الغاية تردد مرات عدة على قرى قرب الحدود التركية، حيث تتواجد كل الأطراف المسلحة، من مجموعة موالية لقيادة أركان الجيش الحر إلى المجموعات الإسلامية ومجموعات البحث عن الذخيرة والمساعدات الإنسانية. وبالتالي لم يكن من السهل تحديد هوية الخاطفين الذين كان المطران يقابلهم أو يقابل وسطاءهم.

في نهاية شهر نيسان يطلب بيار الضاهر مجدداً العمل على ملف المطرانين، هذه المرة كانت سورية قد اختلفت عما كانته منذ ١١ شهراً، أصبح وجود الصحافيين محفوفاً بالمخاطر، المجموعات المقاتلة بأغلبها تقبض من الصحافيين ثمن عملهم على أرضها على شكل هدايا وعطاءات وأموال أحياناً، السماسرة أصبحوا كثراً، والمهربون الأتراك تملّكهم الطمع، والمجموعات الخاطفة تعيش الرعب من تجربة عمار الداديخي من ناحية، ومن عنف الإسلاميين المهاجرين إلى سورية من جهة أخرى.

اقتضى الاتفاق مع بيار الضاهر العمل على الملف. بحثت عن المطرانين لمدة ثلاثة أشهر، تعقبت مسارهما، وأماكن اعتقالهما، وبيعهما من جهة إلى أخرى، والكثير من الشائعات حولهما[١].

---

(١) لا يزال المطرانين المختطفين مجهولي المصير حتى لحظة الانتهاء من تدوين هذه المخطوطة، ولهذا السبب، وحفاظاً على أمن المطرانين المخطوفين اللذين نتمناهما حيين، كما بسبب ملكية قناة LBC للمعلومات لن ترد في النص أية تفاصيل ناتجة من التحقيقات التي أجريت لمصلحة القناة اللبنانية.

أيام قليلة وأصل في شهر أيار إلى الأراضي السورية عابراً الحدود التركية تهريباً مرة أخرى، باحثاً عن المطرانين المختطفين، اليازجي وإبراهيم. بعد عمل طويل تقاطعت المعلومات حول عملية الخطف، وبات بالإمكان رسم صورة للعملية خارج سياق ما أتى به الإعلام في اللحظات والأيام القليلة التالية على الخطف.

قبل يومين من عملية الخطف مر المطران إبراهيم على أحد أصدقائه، شربا القهوة في الحديقة الواسعة، كان صديقه من الناشطين السياسيين والطامحين إلى إنشاء اتحاد سياسي يضم كافة الأطراف في المناطق الشمالية المحررة كما في باقي المناطق في سورية، وكان المطران إبراهيم قد حضر أحد اللقاءات التمهيدية وشارك في الحوارات، وتمنى للحاضرين النجاح واضعاً نفسه بتصرفهم. وفي الجلسة الصباحية حين زار المطران صديقه في منزله المؤقت بعد نزوح الصديق من حلب، طلب الصديق من المطران عدم متابعة الاتصال بالجهات الخاطفة للشماسين من دون مرافقة عسكرية. رفض المطران، ثم وافق على مضض على مرافقته من قبل أحد أقرباء صديقه، وهو ضابط منشقّ يعمل ضمن أحد ألوية الثورة إضافة إلى ضابط آخر منشقّ أيضاً.

قام المطران بزيارة لإحدى المناطق الحدودية، وبشهادة الضابط المنشق والصديق الذي أصر على المرافقة العسكرية، فإن المطران حجب عن مرافقيه هوية الجهات التي يتصل بها أو بمن التقى، إلا أن مرافقيه حرصوا على البقاء قريباً منه وفي الأماكن التي تركهم فيها ليدخل ويلتقي بعض معارفه من المفاوضين أو الخاطفين. في الأيام القليلة التالية تخلى المطران

عن مرافقيه، واتجه، بمفرده ودون إبلاغ المرافقين، للاتصال بالخاطفين، ثم لاصطحاب المطران اليازجي من معبر باب الهوى مع تركيا ليوصله إلى مدينة حلب، وقطع معبر الراشدين الفاصل بين المنطقتين المحررة والتابعة للنظام السوري، قاطعين ٣٥ كليومتراً من الطرقات بحواجزها المختلفة، من الجيش الحر وجبهة النصرة والفصائل السورية الإسلامية المختلفة وداعش طبعاً، حيث لا بد أن يمر المطرانان على حاجزين تابعين للدولة الإسلامية في العراق والشام في تلك الفترة، أولهما مباشرة بعد باب الهوى على مقربة من مفترق رئيسي للطرق، والآخر هو حاجز دارة عزة.

كانت السيارة تضم أربعة أشخاص، المطرانان، السائق، وأحد مرافقي المطرانين. وفي نهاية طريق المنصورة، وقبل الوصول إلى حلب الجديدة آتية من الراشدين، كان عليها المرور على ثلاثة حواجز، **الأول** للواء «المهاجرون» (أهل البيت سابقاً) ويتبع لعبده زمزم، القائد الميداني من عنجارة، المعروف بقربه من الممولين السعوديين ووسطائهم اللبنانيين، وابن عمه أحمد هو المسؤول عن الحاجز.

ويستضيف عبده زمزم مجموعة من المقاتلين الأجانب، الشيشان على الأغلب. والحاجز **الثاني** هو لكتائب نور الدين الزنكي، وهي مجموعات مختلطة من الريف الغربي لمدينة حلب، ومن مدينة حلب، إلا أن قيادتها مركزية بالكامل وعلى رأسها الشيخ توفيق شهاب الدين، وعناصر الحاجز بأغلبهم من أبناء المنطقة المنضوين في الكتائب، بالإضافة إلى مقاتلين من مناطق أخرى، كما أن الحاجز بإشراف أحد القادة في الزنكي من منطقة حور، والذي يتبع القيادة المركزية في الكتائب.

والحاجز الثالث هو لعصبة الأنصار، التي بايعت الدولة الإسلامية في تلك الفترة، والتي تضم هي أيضاً مقاتلين أجانب، شيشان وغيرهم، وتنحو المنحى الإسلامي المتشدد أحياناً، ولكنها انسحبت من مبايعتها للدولة الإسلامية خلال المعارك بين السكان المحليين والدولة والتي أدّت إلى طرد داعش من حلب، وعصبة الأنصار أيضاً يقودها شخص يدعى أبو سعيد لولي، سبق أن قاتل في لبنان في صفوف حركة أمل اللبنانية خلال الحرب الأهلية، وبايع داعش ثم انضم إلى قواتها وترك في العام ٢٠١٤ منطقة الريف الحلبي ليلحق بمجموعات داعش الفارة من المنطقة، وهو مقل في الظهور، ويبرز دائماً مكانه شاب يدعى صالح حنونو، الذي قتل في العام ٢٠١٤ اغتيالاً بعد أن انضم مع مجموعته إلى جيش المجاهدين من ناحية وحافظ على بيعته لتنظيم داعش من جهة ثانية.

السيارة اختفت بعد آخر حاجز، حيث تعرضت لمكمن ما بين الحاجز الاخير وقوات النظام السوري، أو أوقفت ببساطة على الحاجز الأخير التابع لعصبة الأنصار، وتسلّمتها مجموعة من المقاتلين الأجانب التابعين للعصبة، وعادت بعد دقائق مع سيارة أخرى محملة بالمقاتلين الأجانب، خلال عملية الخطف تمكن السائق من الفرار سيراً على قدميه، وتعرض لإطلاق نار من قناصة النظام، وتم سحب جثته في اليوم نفسه.

أوقف الحاجز التابع لأحمد زمزم السيارة خلال عودتها باتجاه الريف، واستغاث أحد المطرانين بالعناصر، وفتح باب السيارة وفر منها، وترجلت المجموعة الخاطفة على الفور، وسحب أحد عناصرها قنبلة يدوية مهدداً بتفجير الحاجز، بينما لحق بعض أفراد المجموعة بالمطران وأعادوه إلى

السيارة، وتابعوا سيرهم باتجاه الريف، مرّوا على الحواجز الباقية دون التوقف، واختفوا منذ ذلك الحين.

تمكن الشخص الثالث من الفرار من أول مبنى وضع فيه المخطوفين، والتجأ إلى أحد السكان في الريف، وبقي بعدها أياماً طويلة برفقة مقاتلين سوريين من الريف الغربي، يبحث عن المطرانين دون طائل.

وفي الساعات والأيام الأولى التالية على عملية الخطف تسرب، كمّ من المعلومات، أشارت بوضوح إلى هوية الخاطفين، ثم بدأت المعلومات تجفّ بسرعة، واختفت الآثار لاحقاً، أحد المشاركين والمتواطئين زار لاحقاً قائداً من الريف الحلبي، وطالبه بوقف عمليات التعقب، مقدماً له سيارة المطرانين المخطوفين هدية. رفض القائد العرض، وطرد الذي قدمه، مطالباً إياه بتسليم المطرانين، إلا أن شيئاً من هذا لم يحصل.

سجل الأمر برسم تنظيم الدولة الإسلامية، وتبادل الجميع الاتهامات، وأشير بالإصبع إلى أبو البنات في مشهد -ترمانين، بصفته الخاطف، لكن أبو البنات قال لمرافقي المترجم المتطوع الذي يجيد الروسية[١] أن «أميرنا أبو بكر البغدادي أمرنا بعدم التعرض لأهل الكتاب».

بدأت حملة المزايدات المالية على المطرانين، كانت المبالغ المطروحة في البداية والتي تدور مع مفاوضين وهميين بالأغلب، لا تتجاوز المئة ألف دولار، ثم

(١) هو مهندس اتصالات سوري، عمل معي تطوعاً وكان يعمل في ترمانين في مشاريع تنموية في المنطقة، خصوصاً في قطاع الاتصالات، أعدمته داعش -مجموعة أبو البنات- في وقت لاحق من العام ٢٠١٣ مع رفيقين له كانا من نفس الاختصاص والتوجه.

دخل ممثلو دول خليجية، وبدأت المزايدة بإعلان أحد اللبنانيين استعداد دولة خليجية دفع مليون دولار فدية للمطرانين، ثم وصل الرقم إلى المليونين، وبعدها علت الأرقام، وصار الكلام أجوف، لا سيما أن أحداً لم يقدم برهاناً على اتصاله بالخاطفين الفعليين، وأرسل الائتلاف الوطني السوري موفدين للبحث عن المطرانين فوراً، كما أرسل موفدون من المهاجرين الأقل التصاقاً بالدولة الإسلامية في العراق والشام للتوسط مع أمراء الدولة المساعدة في البحث عن المطرانين، إلا أن أمراء الدولة رفضوا التجاوب، وأعلنوا جميعاً أن المطرانين ليسا بحوزتهم.

ثلاثة أشهر ما بين مناطق حلب وريف إدلب، كانت آثار المطرانين هنا، محيطة بنا، لكن الحساسيات المحلية من ناحية، وسطوة الإسلاميين من جبهة النصرة وداعش من ناحية أخرى، والأعمال الحربية الجارية تمنع التوصل إلى حل مفيد، وكل مرة كانت تعدني إحدى الفصائل بالتدخل المباشر لإطلاق سراحهما كانت العملية تتعثر لهذا السبب أو ذاك، وكانت أحياناً تتوفر معلومات حول موقع المطرانين، وقبل أن تتدخل الفصائل لحل الموضوع بالقوة، تتغير المعلومات، ثمة من يسرب معلومات الفصائل إلى الخاطفين، أو يدسّ معلومات مغلوطة لدى قادة الفصائل العسكرية.

الموت المتنوع

في الثاني من حزيران الساعة التاسعة والنصف صباحاً، مئات من اللاجئين من قرية معارة الأرتيق يصلون إلى قبتان الجبل، منذ الفجر بدأ جيش النظام وميليشات أجنبية مساندة باحتلال تلال محيطة بقرية المعارة، جبل الشويحنة وعدد من النقاط القريبة، ويتابع تقدمه وقصفه باتجاه قرية معارة والقرى المحيطة بها بعد أن فر عدد من مقاتلي الفصائل تاركين الأرض لقوات النظام.

بدأت مكبرات الصوت تنطلق من المساجد طالبة من السكان مساعدة النازحين، تمركز النازحون في المدرسة الكبرى في القرية، وأخذت الحياة تدبّ بسرعة من خلال مسعى السكان لتقديم المساعدة للقادمين الجدد، وتوفير المساكن لهم وتأمين الحاجيات الأساسية ومعالجة بعض الإصابات الطفيفة.

الساعة العاشرة صباحاً، تنفجر أولى الصواريخ، ٤٠ صاروخاً من عيار ١٠٧ ملم تسقط على قرية قبتان الجبل خلال أقل من نصف دقيقة،

تطال كل أحياء القرية، بعد انجلاء الدخان وتلاشي صدى الصوت الآتي من الانفجارات المتتالية، يخرج السكان بحذر أولاً، ثم يتكاثر الخارجون يدفعهم الفضول والبحث عن مصابين، وتخرج امرأة واحدة حاملة طفلها بين ذراعيها، الولد لا يتحرك، وتدور الأم الثكلى بين المتجمهرين صارخة «انتم رجال؟ اذهبوا وقاتلوا بشار، تفو على شرفكم.... طز فيك وبصواريخك يا بشار....» وتبقى على هذه الحال وتمانع من يحاول أخذ طفلها من بين يديها إلى أن يُسحب بالقوة منها ويوضع في سيارة تنقله بعيداً، فتنهار الأم أرضاً وتبكي بمفردها وسط محاولات جيرانها مواساتها.

تشتعل النيران في منزل أو أكثر، ويتدخل أهل المنطقة لإطفائها، في كل مكان في القرية كان هناك دخان ونيران بسيطة، وبضع إصابات طفيفة، وقتيل واحد هو الطفل ولا أحد آخر.

تشكل قرية قتبان الجبل نموذجاً للقرى التي تعرّضت للقصف على نحو متوسط الشدّة، ورغم ذلك فقد دمر الطيران، وعلى مراحل عدّة أحياء من القرية، بينها حي بكامله فقد حوالي عشرة منازل من منازله بصواريخ جو -أرض مباشرة، وعدة منازل أخرى دُمرت بغارات، بينها غارة واحدة بالقنابل الفراغية، وقصفت القرية على عدة دفعات أيضاً بالحاويات العنقودية، وبقي المئات من القذائف العنقودية غير منفجرة بين أحياء القرية، كما قصفت بالبراميل المتفجرة عدة مرات، وفي كل مرة، وعقب التعرض للدمار، يعاود السكان إصلاح ما يمكن إصلاحه أو يتخلّون عن المباني المدمرة كلياً وينتقلون إلى مبانٍ أخرى.

منزل صبحي لطوف تعرض للأضرار مرتين متتاليتين، وفي إحداهما فقد عدداً من الجدران فأضحت غرف النوم مطلّة على الشوارع القريبة. ومثله العديد من المنازل.

كذلك تعرضت القرية لمئات القذائف المدفعية الثقيلة الآتية من مربضين على الأقل، وتعرضت لآلاف طلقات الرشاشات من عيار ٥٧ ملم المخصصة أساساً للدفاع الجوي، وإلى ما لا يحصى من طلقات رشاشات ٢٣ ملم المتفجرة.

دُمّر خلال عمليات القصف ما يفوق خمسين منزلاً بشكل كامل، علماً أن مجمل القاطنين في القرية لا يتجاوز عددهم الخمسة آلاف إنسان، ودُمّرت مئات المنازل جزئياً، دُمرت شبكة الكهرباء عدة مرات في قبتان، وقضّت القرية أشهراً طويلة دون كهرباء من الشبكة الرسمية، وكانت الشبكة تصلح في كل مرة بأسلوب مختلف، إلا أن الفضل الأكبر في الصيانة يعود إلى متطوعين وناشطين محليين من أهل القرية والقرى المجاورة.

فقدت القرية الاتصالات الهاتفية عدة مرات، وفي كل مرة لعدة أسابيع أو أشهر، وانعزلت عن العالم هاتفياً، كما أغلب مناطق حلب، ثم عادت الاتصالات، فقدت الارتباط بشبكة الإنترنت عبر الهاتف المحمول ككل المناطق، وعاد بعدها الاتصال، ولا تزال حتى اليوم تعاني من ضعف الاتصال الهاتفي وتعثره في أغلب الأحيان.

خَلَت القرية من سكانها ما عدا قلة من العائلات التي فضّلت البقاء فيها حتى خلال موجات القصف الشاملة، ونزحت أغلب العائلات على عدة دفعات، البعض توجه إلى مخيمات اللجوء في تركيا، وآخرون إلى مدينة

حلب قبل أن تشتعل فيها المعارك، والبعض توجه إلى القرى القريبة الآمنة، وفي صيف العام ٢٠١٢ خلَتْ القرية وحتى شتاء العام نفسه، من أغلب سكانها ولم يبق فيها إلا القلة وأغلبهم من الشبان المشاركين بالقتال، وجاعت القطط في القرية حتى باتت تهجم على الخضرة وتسرق البندورة من أمام المقاتلين الجائعين.

انقسم أهل القرية ما بين مؤيد ومعارض للنظام، وبقي حتى اللحظة الاخيرة من القتال، ما نسبته ٣٠ بالمئة من المؤيدين، بينما شكلت نسبة ٣٠ بالمئة أخرى فئة رمادية، وايدت الثورة ما نسبته ٤٠ بالمئة من أهل القرية الصغيرة، وعاش الكل في الظروف المأساوية نفسها، واستهدف القصف المدفعي بشكل خاص الحارات المؤيدة للنظام أكثر مما استهدف الحارات المعارضة والثائرة.

كثر الموت قصفاً في القرية، ففي ليلة واحدة حصدت المدفعية التابعة للنظام أكثر من سبعة قتلى، وعشرات الجرحى بعد سقوط قذيفتين وسط تجمع للأهالي الساهرين على الطريق، وتم نقل الجرحى بالشاحنات نحو المستوصفات الطبية في قرية أطمة، ولم تكن تلك حالة نادرة، إذ طالما سقط قتلى وجرحى نتيجة القصف، عدا الشهداء الذين سقطوا خلال المعارك، وكان الدفن يتم بعد ساعة أو ساعتين من الموت، دون الكثير من المراسم، وهرب المشيعون عدة مرات خلال عمليات الدفن نتيجة تحليق الطيران الحربي فوق المنطقة. بقيت القرية على علاقة طيبة بالجوار الكردي، إلى أن قرر أبو حسن التركي، أحد أمراء داعش في دارة عزة، مهاجمة القريتين الشيعيتين نبل والزهراء انطلاقاً من قريتين كرديتين، مفتعلاً أزمة جدية مع

أكراد الجوار، وبقي سكان القرية وكتائب الزنكي التي تسيطر على المنطقة بشكل رئيسي على صلة ودّ مع القرى الكردية، وحافظوا على العلاقة رغم مشاركتهم داعش في فرض الحصار على القرى الكردية، التي استعاضت عن الطرق المؤدية إلى المناطق المحررة بفتح الطرق مع قريتي نبل والزهراء. وبعد تطهير المنطقة من وجود عناصر داعش، زارها عدد من أبناء المناطق الكردية الباحثين عن رفات أبنائهم وبناتهم بين الجثث في المقابر الجماعية المكتشفة في عدة مناطق.

عانت القرية من تفلت الوضع الأمني نتيجة تشكيل عصابات سرقة وخطف وابتزاز من بعض أبنائها، شأنها شأن أغلب القرى المحررة، تدخلت القوات الإسلامية للمساعدة في ضبط الوضع الأمني، وتشكيل قوة ضاربة محايدة لا تتأثر بحساسية أبناء المنطقة والعائلات فيها. لاحقاً تحوّلت هذه القوى الإسلامية إلى كابوس مع انضمام أغلبها، وخصوصاً المهاجرة من الدول العربية والأعجمية إلى الدولة الإسلامية في العراق والشام، وسيطرت على كل مفاصل الحياة في الجوار.

انسحبت القوات التابعة للدولة الإسلامية في العراق والشام من محاور القتال في بداية صيف العام ٢٠١٣، واتجهت للتجمع في مقر الفوج ١١١ قرب دارة عزة، وعلى تخوم قريتي قبتان الجبل والشيخ سليمان، وهما من مقرات كتائب الزنكي الأساسية، وأقامت عدة نقاط عسكرية قريبة من القريتين، وحاولت الدخول إلى قبتان الجبل واحتلال منزل طيار حربي لا يزال يقاتل مع النظام، واعترضها أهل القرية، ومنهم أحد الشبان الذين كانوا يقاتلون إلى الأمس القريب مع الدولة الإسلامية ويدعى

حسن راشد[1]، والشيخ علي سعيدو، أو علي الخياط وهو سلفي من قبتان الجبل، ونائب القائد العام لكتائب الزنكي، فواجههم أبو أسامة التونسي، وسألهم «ألا تريدون الدولة الإسلامية؟» فأجاب المحتشدون من المدنيين «لا، لا نريدكم ولا نريد الدولة الإسلامية».

توعد أبو أسامة التونسي حسن راشد بالعقاب متهما إياه بإثارة الفتنة، استدعاه للتوجه إلى المحكمة الشرعية في دارة عزة لمعرفة حكم الشرع فيه، بينما قال للشيخ علي سعيدو «أنت مرتدّ»، فاندهش علي سعيدو، وأجابه «إن كنت أنا مرتداً، فهؤلاء كفار أصليون» مشيرا إلى أهل القرية المحتشدين خلفه، وطالب أبو أسامة التونسي بالرحيل فوراً من القرية.

بداية العام ٢٠١٤ ومع محاولة الدولة الإسلامية إرسال تعزيزاتها من مقر الفوج ١١١ إلى قرية عندان لإخضاعها بعد تمرد أهالي عندان على عناصر الدولة هناك، اعترض الرتل مقاتلو كتائب الزنكي المدعومون من السكان، ودارت معركة لعدة أيام شارك فيها كل أبناء المنطقة، وخصوصاً أبناء قرية قبتان الجبل، لطرد قوات داعش، وتمكنوا من إخضاع كل المراكز القريبة خلال ساعات، واستمرت المعركة حتى إسقاط كل مراكز الدولة في الريف الغربي. ولاحقاً وبعد عشرة أيام من القتال كانت الدولة الإسلامية في العراق والشام قد أصبحت مجرد ذكرى في أغلب مناطق حلب وإدلب.

---

(١) حسن راشد انتقل من القتال إلى جانب جبهة النصرة ليشارك مع داعش بعد أن رفض أبناء قريته إشراكه في العمل العسكري لصغر سنه، وتحول لاحقاً عن داعش وعاد ليساهم في تدريب المتطوعين ضمن قوات الزنكي، قتل خلال تحرير أحد المواقع العسكرية من قوات الجيش السوري العام ٢٠١٤.

رفض قادة الألوية المحلية بأغلبهم عودة مقاتلين أجانب لإشغال مراكز كانت سابقاً للدولة الإسلامية، وطردوا العديد من المجموعات الأجنبية التابعة لجبهة النصرة، الزنكي كانت الأكثر وضوحاً في قرارها «إن الأرض التي تقف عليها قوات الزنكي لا تتسع لغير قوات الزنكي، وخاصة ليس للمقاتلين الأجانب». وفي بعض الأحيان وصل الأمر إلى الاشتباكات المحدودة بهدف طرد قوات من مناطق أخرى تحاول السيطرة على مقرات لهذا السبب أو ذاك.

بعد هذه المعارك عادت القوات المحلية إلى القتال ولكن على جبهتين، تصفية بقايا داعش، واستعادة مناطق سقطت بيد النظام، أو استكمال تحرير نقاط لا يزال النظام يتحكم بها. ومن أهم المناطق التي استعادتها بمشاركة قوات الزنكي وأبناء قبتان الجبل جبل الشويحنة، وبدأت معركة السيطرة على مقر المخابرات الجوية ومحاولة التوغل في حلب الجديدة.

الشيخ علي التكفيري

حين وقف الشاب العشريني خطيباً في مسجد حسن البصري في مدينة حلب كان أمامه بأفضل الأحوال مئتان من المصلين، ثلثهم من المقاتلين في القوات المنتفضة على النظام، والباقي من شجعان أبناء منطقة صلاح الدين، المجاورين للمسجد، الذين لم يكترثوا للطائرات المروحية وهي ترمي بطلقاتها على أحياء صلاح الدين منذ فجر يوم الجمعة ذاك في السابع والعشرين من تموز العام ٢٠١٢.

الشيخ علي سعيدو الشاب العشريني خدم في كتائب الدبابات في الجولان حتى الأشهر الأولى من الثورة، حيث انشقّ وتسلل هارباً إلى قريته في الريف الغربي لحلب، حينها كان الجيش السوري يسمح بالإجازات لأسباب مختلفة، واستفاد الشيخ علي من هذا السماح ليلتحق بالجيش الحر.

يختلف أبناء قريته حول سنه، ٢٣ سنة، «لا، هو من سن فلان، أي ٢٥ سنة»، ولكن مظهر الشاب يوحي بأنه في العقد الثالث من العمر. يلتزم المسجد

أغلب الوقت، قليل الكلام، دائم الابتسام، على حياء كبير، مثاليته تدفع المقاتلين والفوضويين إلى الخجل، وصغر سنه يكسبه المزيد من الاحترام بين أترابه، بعد أن أثبت قدراته في كافة الميادين.

من خطب الشيخ علي، خصوصاً في أيام الجمعة يمكن التكهن أن الشاب الحيي معجب بالتيارات السلفية، وإن لم يبدُ عليه أي اتجاه واضح في الالتزام بالسلفية الجهادية، بل على العكس، فهذا الشاب قاتل تحت الراية السورية التي رفعها الثوار، العلَم الأخضر والأسود والأبيض، وفي تعريف السلفية الجهادية فإن هذه الراية من رايات الكفر، ومن كان من أتباع السلفية الجهادية لا يقاتل إلا تحت راية «لا إله إلا الله» السوداء التي يرفعها تنظيم القاعدة وكافة القوى السلفية رايةً وحيدة.

كان للشاب الذي يرتدي قميصاً بسيطاً ولكن دائماً نظيفاً وفوقه جعبته العسكرية، فضْل كبير في نجاح كمين «حور»، حين أرسل الجيش السوري ٥ دبابات تي ٥٥ مدعمة بسبعة سيارات رباعية الدفع مع حوالي ١٠٠ من المقاتلين النظاميين و«اللجان» أو الشبيحة إلى منطقة حور لتدعيم موقع قتالي للجيش في مكان يقع بين دارة عزة وقرية حور.

ذاك الصباح كان الثوار قد استولوا على الطريق، وبعد الظهر تقدمت آليات الجيش النظامي، النقطة الأولى لم تتمكن من رمي الدبابات إذ لم تخرج قذائف الـ«بي ٧» من القاذف، ووصلت الدبابات إلى مسجد حور، حينها كان مصير القافلة محسوماً في لحظات مع توزع كل قواتها على الطريق حيث ينتشر الثوار.

في لحظة الاشتباك الأولى كان الشيخ علي هو من يقف على رأس مجموعته قرب مسجد حور على الطريق العام، وهو من أعطى رامي الـ«بي ٧» أمر إطلاق النار، وغطى حركته، حتى إذا ما أصابت القذيفة الدبابة في خلفيتها قفز الشيخ علي رافعاً سلاحه في الهواء، واشتعلت الآلية الثقيلة بعد أن تسرب منها المازوت جراء انفجار القذيفة قرب الخزانات، ودار اشتباك مع الجنود في الشاحنات رباعية الدفع لم يستغرق أكثر من دقائق، انتهى بعدها لتبقى الانفجارات تصدر عن الدبابة وذخيرتها الملتهبة، والتي لا يزال هيكلها إلى اليوم على الطريق العام قرب مسجد حور.

بعد نهاية المعركة قام أحد الشبان من قرى الجوار بقتل جريح من الجيش النظامي، استشاط الشيخ علي غيظاً، ثم بكى، بعد دقائق اختفى من أرض المعركة، وسحب مجموعته القتالية معه، تاركاً الذين وصلوا بعد نهاية المعركة ليختلفوا على الغنائم والبنادق والذخائر، قبل ضبط الوضع وإعادة أغلب المسروقات لاحقاً.

ومن الريف إلى المدينة، دخل الشيخ علي على رأس مجموعته كما العديد من المجموعات الريفية إلى مدينة حلب، استقر في منطقة صلاح الدين، وخلال الانتقال من الريف في الباصات التي اطفئت أضواؤها، كان الشيخ يخاطب الشبان، يرشدهم كيف يتعاملون مع سكان المناطق المدنيين، مع نساء المناطق، يبدو من خلال كثرة تشديده على ضرورة مراعاة الأخلاق الحميدة أنه يشك بالتزام بعض مقاتليه، أو بأن حجم إغراءات المدينة وأحيائها المتداخلة، مضافاً تعب المقاتلين القادمين من الأرياف ومن معارك واستنفارات لم تتوقف طوال أشهر طويلة، يستدعيان التشديد،

وبعد أسابيع قليلة من وجود المقاتلين في الأحياء المهجورة في حلب تبين عدم الالتزام بتلك الإرشادات.

ما إن دخلت المجموعات إلى موقعها للنوم، قام بتقسيمها، وإعاد مخاطبة العناصر، قائلا: هنا لسنا في القرية، لن يكون هناك رحمة، إذا اخطأ أحدكم فليأت وليقل إنني أخطأت، أما غير ذلك فلن يكون هناك رحمة، وكل امرأة ترونها في الشارع هي أمكم وأختكم.

بات الشبان يخشون من إعلان إفطارهم أمام بعضهم، يخجلون من الشيخ ومن رفاقهم، يهربون هنا وهناك ليدخّنوا سيجارة في حر تموز، وفي غبار منطقة صلاح الدين، وكل يوم يفطر أحدهم ليعود من أفطر بالأمس ويصوم اليوم، إلا أنهم بأجمعهم يواظبون على الصلاة، وفي مجموعات أخرى «لم يأت رمضان بعد» بحسب تعابير أهل المنطقة، أي أن أحداً لم يصم، ولكن مع هذه المجموعة، فإن المسألة تختلف تماماً.

هناك وَقفَ يوم الجمعة يخطب في الناس، الشاب العشريني يقول أن السنّة والشيعة، الشافعية والمالكية والوهابية، إن هي إلا تسميات، الإسلام هو الإسلام، وهو إسلام النبي وإسلام الصحابة. قبل أن يدخل في صلب موضوعه «كيف تكونون مسلمين وتصلّون وتصومون ولا تنصرون أنفسكم ضد الظالم».

يوم الجمعة مساءً دخلت مجموعة من المقاتلين تجرّ شاباً نحيلاً، على وجهه أثار كدمات حديثة، قدّموه إلى الشيخ علي «كان في سيارة للمخابرات الجوية، وهو كما يبدو ضابط في المخابرات» قال أحد الشبان، احتجّ

المعتقل «لقد ضربوني وشتموني، واعتدوا علي ولا علاقة لي بما ينسبونه إلي». نهض الشيخ الشاب وسأله «أخي أنت صائم؟» نعم أجاب المعتقل، «إذاً اجلس قربي وافطر معي، وبعدها لكل حادث حديث». وجلس علي لتناول الإفطار، وجلس الشاب المعتقل قربه وسط استنكار العناصر التي أوقفته.

يوم السبت صباحاً كان علي يقف مجدداً على الخط الأول، يقاتل، هذه المرة كان يقول للمقاتلين من حوله إن العودة من حلب إلى القرية ستكون يوم تتحرر كل حلب من النظام، وحين تترك علي وهو يحضر قنابل المولوتوف لتعويض نقص الذخائر تعلم أن شباناً مثله أصبحوا فجأة كوادر في الحرب سيموتون قبل أن يشهدوا نهايتها، وسيأتي من بعدهم انتهازيون يضعون دماء علي ومن شابهه في مصارف الحياة السياسية.

لم يتردد علي في تصدر أبناء قريته حين دهمها أمير داعش أبو اسامة التونسي، وصدّه وطرده، ولم يتردد في القتال أمام أبناء قريته ضد داعش، بل حاول تجنيبهم القتال بأن يسبقهم ومجموعاته إلى الأرض، إلا أن كثافة المدنيين المشاركين بالقتال لم تسمح له هذه المرة بأن يكون الأول، سبق أن كان من أوائل المصابين في الهجوم المضاد الذي شنه الجيش النظامي على صلاح الدين في تموز العام ٢٠١٢، لكن في معارك داعش في كانون الثاني ٢٠١٤ لم يصب بخدش، رغم أنه وكعادته يكون في طليعة المقاتلين.

شهداء نحاس وشهداء المراحل

شوّل شوّل (أسرق أسرق) .... بشار مطول

(اهزوجة محلية حلبية)

«كنا ننتظر شهداء نحاس ليلاً، نحاول رؤيتهم من خلال لمعة أسنانهم، ونقنصهم وهم يسحبون النحاس من المستودعات، سمعنا أنكم تسمونهم شهداء نحاس وصرنا نطلق عليهم التسمية نفسها»

من شهادة عنصر منشقّ عن الجيش النظامي

«هي المرحلة الثالثة من الثورة» يقول أحد القياديين المحليين في الريف الحلبي نهاية صيف العام ٢٠١٣، وبعد أن مرت المرحلة السلمية الأولى المطالبة بالإصلاحات، وتلتها مرحلة العسكرة، اليوم تمر المرحلة الثالثة

من الترهل والتشتت والتي سيتبعها توحيد وتنظيف للمناطق وللقوى المشاركة من اللصوص والمجرمين وعملاء الأجهزة الأمنية الحليفة للنظام السوري، والألوية التي تشير ممارساتها إلى ارتباطها بالنظام نفسه.

ربما هذه النظرة حملت حينها الكثير من التفاؤل، وحتى فرز القوى الثورية، فإن الشمال السوري بمحافظتيه الحلبية والإدلبية عاش مرحلة صعبة، إن لم نقل إنها مرحلة خانقة، تجعل السكان المدنيين والكثير من الثوار يتحولون إلى التذمر والانكفاء وفقدان الثقة بثورتهم، دون أن يتمكنوا للحظة من مجرد التفكير بقلب الموقف لمصلحة النظام السوري.

قبل ليلة واحدة من مغادرتنا الأراضي السورية، وفي حر الصيف الحلبي، وقريباً من منطقة النزاع في خان العسل، ظهر فجأة لهب من نار، استمر يشتعل رافعاً أعمدة من الدخان الأسود التي أظهرها ضوء لهيب النار، ظهرت سيارة لأحد الشبان من الجيش الحر، صرخ في الساهرين على الشرفة: «احملوا أسلحتكم ولنشكل دورية مطاردة». خرج حوالي خمسة من الشبان من مجموعة قرية عويجل، اتجهوا إلى مكان النار، بعد قليل ومن مسافة نصف كيلومتر، سمع دوي الطلقات، ثم صراخ أوصله الليل إلى حيث نسهر، ثم ظهرت سيارة تحمل أحد المقبوض عليهم.

كان لصوص النهار يحرقون الكابلات النحاسية ليزيلوا عنها الكاوتشوك قبل بيعها، ما خفي نهاراً ظَهَرَ ليلاً، واعترف الشاب المقبوض عليه على رفاقه، اتصل الشبان بباقي المجموعة وجاء الدعم، كما تمت مداهمة منازل اللصوص، فرّ من فرّ، وبقي النحاس بتصرف المحكمة المحلية، كما معدات اللصوص. لكنّ هؤلاء ليسوا ظاهرة منعزلة، إنهم الحالة العامة التي شملت

البلاد حينها، حيث سادت المناطق المحررة حالة من التفلت وانعدام الأمن، والنهب والسلب والخطف، بينما انشغل بضعة آلاف من المقاتلين في معارك في كل جهة من مطار منغ في الشمال إلى مدينة حلب في الجنوب.

حتى شهر آب من العام ٢٠١٢ كانت القوى الثورية في المحافظات الشمالية لا تزال تتمتع نسبياً بانضباطية مقبولة، السرقات نادرة، القتل ليس عشوائياً، وفي تلك المرحلة كان التدين الإسلامي طاغياً، الإسلاميون الآتون من خارج البلاد قلة، بضع مئات على أحسن الأحوال في هذه المناطق، إلا أنهم كانوا لا يزالون يتدفقون، أسعار السلع كانت لا تزال في حدود مقبولة وقريبة من الأسعار التي اعتادها المواطنون، على الرغم من فقدان الكثير منها من الأسواق.

في ذلك الحين كان الطيران السوري يقصف مواقع الثوار بطائرات تدريبية، واستُدرج الثوار إلى معركة حلب، التي حوّلها النظام إلى فخ استنزفهم من خلاله عسكرياً، وأخلاقياً ومعيشياً، حيث فقد الثوار الكثير من كوادرهم، كما خسروا الكثير من التأييد. وزاد الطين بلّة حين انضمّ إليهم آلاف المقاتلين العرب، فتحت دول العالم الحدود على تدفق القاعديين، كما فتح النظام سابقاً أبواب سجونه لإخراج السلفيين الجهاديين، من أبو محمد الجولاني (أمير جبهة النصرة) إلى زهران علوش (أمير جيش الإسلام) والكثيرين غيرهما ممن سبق أن أوقفوا على دفعات ولأعوام طويلة في أقبية أجهزة المخابرات السورية.

الدخول إلى مدينة حلب سبّب حرباً طويلة، قاسية أدّت إلى إفراغ أحياء ومناطق كاملة من سكانها، كان الثوار يدخلون إلى نقاط تجمع للجيش

فيجدون العناصر النظامية الفارة قد تركت خلفها مسروقاتها، ثم تحول العديد من المقاتلين إلى لصوص في أحياء المدينة المقفرة والمتروكة بما حوت نهباً للمتقاتلين.

خلت البيوت من المسروقات الغالية والخفيفة، وبدأت، شأن كل الحروب، عملية تنظيف المنازل والمستودعات التجارية من الموجودات، انشقّ الكثير من الكتائب عن ألويتها لممارسة السرقة بحرية، جبهة النصرة تمكنت ببطشها من قمع عناصرها من السرقة، واستخدمت سمعتها الحسنة هذه في تقريب السكان منها وجعلهم يفضلونها على ألوية الجيش الحر، بعض الألوية، استطاعت بجهد جهيد أن تحافظ على سمعتها، ليس دون ترك العديد من عناصرها ومجموعاتها تخرج من جسمها وتتشكل في مجموعات تحترف السرقة والخطف مقابل فدية. أعادت هذه الكتائب فرز عناصرها، وتخلّت في مناطق عن المئات من المقاتلين طاردة إياهم من جسمها العسكري، وفي إحدى المناطق تقلص عدد مقاتلي أحد الفصائل من ٢٥٠ مقاتلاً إلى ٧٥ عنصراً فقط لا غير.

بدأت عمليات تنظيف المعامل على خطوط التماس، وظهر لواء «شهداء نحاس» الذي قدم ٨٠ شهيداً تقريباً، حيث يروي أحد الجنود المنشقين أن قناصة النظام في منطقة صلاح الدين في مدينة حلب صاروا يردّون «المغيرين» على أحد مستودعات النحاس، ولكن ذلك لم يمنع اللصوص من محاولة الدخول إلى المخزن وسرقة ملء شاحنة صغيرة (سوزوكي) منه.

٨٠ عنصراً مسلحاً دخلوا إلى مستودع النحاس، جرح كثيرون، وتمكن الباقون من تعبئة الشاحنات بالنحاس. الطريق المؤدية إلى المستودع عبرت

لاحقاً حاجزاً لإحدى المجموعات التي فرضت نفوذها، كان يفترض تسديد مبلغ ٢٥ ألف ليرة سورية عن حمولة كل شاحنة قبل الدخول، دون أن تحمّل المجموعة المسيطرة مسؤولية رفع القتلى والجرحى إذا ما ساءت الأمور. وبعدها ارتفع الثمن، وارتفع سعر النحاس، ونما لواء «شهداء نحاس» بقتلاه.

انتشر الفساد، مترافقاً مع انتشار الفقر، ومع انتشار النزوح، وسادت النزعة الطموحة للإثراء السريع بين عدد من المقاتلين. انعدم الأمن على الطرقات، بات أي لص يمكنه نصب حاجز مع ثلة من رفاقه، والاعتداء على أي عابر سبيل، خطفه واتهامه بانه شبيح، وسرقة سيارته، وتركه لاحقاً مقابل فدية مالية، أو ببساطة قتله، وترك جثته على قارعة الطريق خارج القرى.

كبار اللصوص معروفون، كما أن قراهم وعائلاتهم معروفة، العديد من هؤلاء كانوا سابقاً مع النظام في إطار اللجان الشعبية، ثم انقلبت الأمور، فالتحقوا بالجيش الحر في مجموعات القرى المتفرقة، حيث لا بنية تنظيمية ولا آلية محاسبة، خصوصاً أن الأغلبية المطلقة من المقاتلين يخدمون وفق نظام التطوع، ويحصلون على ما لا يكفي لسد الرمق (البعض يحصل على خمسة آلاف ليرة سورية أي حوالي ٣٥ دولاراً أميركياً شهرياً والبعض الآخر على ٢٠٠٠ ليرة أي ١٣ دولاراً أميركياً).

مع امتداد الصراع لفترة زمنية طويلة، واشتداد الضائقة المالية وارتفاع الأسعار وانخفاض سعر العملة وعمليات التهجير والقصف وما يخلفه كل ذلك من فوضى، انسحبت المجموعات من بعضها، وخرج العديد من الشبيحة السابقين ليقودوا كتائب ومجموعات من الجيش الحر، وحصل

هؤلاء على البطاقات الرسمية الصادرة عن قيادة أركان أو هيئات الجيش الحر في الخارج، والتي تسعى إلى مراكمة مؤيدين دون أن تعلم يقيناً من هم هؤلاء المقاتلون.

وخرج مهربو البضائع وتجار المخدرات، ليتابعوا أعمالاً جديدة تدر عليهم أكثر مما كانوا يجنون في السابق، اتفقوا مع الكثيرين من أمراء الحرب، وصاروا شركاء بل أحياناً صاروا هم أنفسهم أمراء حرب وأمراء مافيات، امتهنوا سرقة الفيلات من الريف ومباني حلب، بَيْع موجوداتها، سرقة مختلف أنواع السلع، من أوراق المحارم إلى السيارات والمواد الأولية، سرقة المصانع، بيع المعدات التي تحويها المصانع إلى تجار اتراك، وضع اليد على مستودعات استراتيجية من مصانع السكر إلى إهراءات الحبوب، التجارة بالمساعدات، وطبعاً وقبل كل شيء التجارة بالسلاح والحصول على الدعم من دماء الشهداء.

مع كل يوم يمر تشتد المواجهات في سورية بين الثوار، وبين النظام، ومع محاولات النظام تحسين مواقعه في أغلب البلاد ولا سيما في الوسط والساحل الغربي، فإن مواقع الثوار في القرى وبين السكان تتراجع، وإن لم يكن مادياً فمعنوياً، إذ يعلم السكان أن البديل عن هؤلاء المقاتلين الشبان هو الموت ذبحاً على أيدي جنود النظام ولجانه الشعبية، لكن سمعة الجيش الحر باتت علكة في أفواه المدنيين بسبب انعدام الانضباط والسرقات، ومظاهر الثراء لدى بعض المسؤولين، وفرض الخوات على أثرياء لا علاقة مباشرة لهم بدعم النظام، أضف إلى فرض عقوبات استنسابية على كل من يمكن اتهامه بمعاونة النظام أو تأييده

سابقاً قبل تحرير المناطق، عدا تدخل الكثير من المحاكم بأدق الأمور الشخصية والعائلية.

عدد من قادة مجموعات اليوم كانوا على شفير الإعدام على يد الثوار في السابق، لولا أن عائلاتهم افتدتهم بالقليل من المال، ليعودوا ويُثروا اليوم من السرقات ومختلف عمليات السطو وقطع الطرقات. بدأ الفساد يوماً بذريعة الحاجة إلى التمويل لشراء الذخائر وإطعام المقاتلين، فتم إطلاق سراح الشبيحة وأعوان النظام من الأسر مقابل القليل من المال، واليوم يحمل من يسرق من الناس الشعار نفسه «لدي جيش من المقاتلين أريد إطعامه وتأمين الذخيرة له»، كأن الثورة يمكنها أن تنتصر وهي ملوثة بنهب من تدافع عنهم. وأتت جبهة النصرة بجبروتها لتمحي اللصوص وتحكم وفق رؤيتها، ثم انشقت عنها داعش وأسست لمسار أكثر دموية في حاكمية الله والولاء للإسلام والبراء من الكفار، قبل أن تزال داعش وتعود جبهة النصرة إلى موضع الشك والريبة وفي الكثير من المناطق إلى مصاف الضيف غير المرحب به.

القاعدة هنا منذ زمن طويل

في الخامس من تموز العام ٢٠١٣ تظاهر أهالي بلدة الدانا في ريف إدلب الشمال ضد وجود تنظيم القاعدة بنسخته العراقية في بلدتهم، كان فرع القاعدة «الدولة الإسلامية في العراق والشام» قد تمكن من وضع قدمه في البلدة وإنشاء معاهد تعليمية ومواقع عسكرية بسيطة يمكنه رفدها بالمقاتلين في حال الحاجة، إلا أن ممارسات التنظيم ومحاولته فرض فهمه للشريعة الإسلامية وترتيب أولوياته الخاصة على السكان المحليين وتكفيره لمقاتلي «الجيش السوري الحر»، كما ارتكابات بعض عناصره الأخلاقية أدّت إلى انطلاق تظاهرة بعد صلاة الجمعة في الخامس من تموز نحو مقر الدولة الإسلامية، تطالب برحيل قائدها المدعو أبو أسامة التونسي.

التظاهرة كانت بحماية مجموعة من مقاتلي الجيش الحر، وبحسب المشاركين فيها والصور التي نشرت لاحقاً، كانت تضم عدداً كبيراً من رجال المنطقة وبعض الأطفال، وأطلق مقاتلو الدولة الإسلامية النار على المتظاهرين، مجزرة صغيرة حصلت تلك الظهيرة، قبل أن ينقضّ المقاتلون الأجانب

من الدولة الإسلامية على قوات الجيش الحر في المنطقة ويتمكنوا من أسر قائدهم فادي القش قائد كتيبة حمزة أسد الله وقطع رأسه، كما أسر عدد كبير من المقاتلين والسكان المحليين.

الصراع بدأ عملياً عند اكتشاف الأهالي المحليين أن عدداً من مقاتلي الدولة الإسلامية اغتصبوا طفلاً، وأن الدولة اعتقلت الطفل وقيل إن الذي اغتصبه هو مقاتل سعودي (ثم تأكد أن المقاتل تونسي من رجال أبو اسامة) وتم إعدام المقاتل (سراً بحسب قول مسؤولي التنظيم الذين لم يظهروا أية دلائل على تنفيذ القصاص على عكس عادة التنظيم)، وبعدها رفضت الدولة تسليم الطفل إلى أهله، وتضاعفت أعداد المعتقلين من المراهقين ومن أهالي الأطفال، ممارسة تشبه بنظر الأهالي ما سمعوه عن أعمال النظام في محافظة درعا حيث كان اعتقال الأطفال وتعذيبهم هو شرارة الثورة الأولى في آذار من العام ٢٠١١.

في الثامن من شهر تموز نفسه تمكنت من مقابلة والي حلب في الدولة الإسلامية في العراق والشام أبو إثراء (يعرف أيضاً باسم أبو الأثير) وأمير الدانا أبو أسامة التونسي، اللذين اعتبرا أن ما حصل هو محاولة من فادي القش لتحريض الأهالي على «الدولة» ومهاجمة «الدولة» في مراكزها، دون إيراد أية إشارة إلى أسباب غضبة الشارع في البلدة على أبو أسامة وهتافاتهم ضده[١].

كان الموعد أقرب إلى الاعتقال، إذ كنا فريقاً نعمل لمصلحة إحدى الأقنية الناطقة بالإنكليزية، وطلبنا موعداً من أبو الأثير، ورفض طلبنا، ثم أوقفنا

---

(١) انظر الملحق رقم ٤.

حاجز على مدخل قرية دارة عزة لوجود أجانب بين فريقنا، وقادنا إلى محكمة دارة عزة، وشرحنا طلبنا، ومن هناك تم اقتيادنا برفقة رجال مسلحين من تنظيم داعش نحو الدانا، ومنعنا من التوقف على حواجز الجيش الحر أو أية فصائل أخرى على طول الطريق الفاصل ما بين دارة عزة والدانا، ووصلنا بسياراتنا إلى الدانا، إلا أننا فعلياً كنا أسرى لدى تنظيم داعش، إلى أن وافق أبو الاثير على لقائنا ولكن من دون تصوير أو تسجيل، وشارك في اللقاء إضافة إلى أبو الأثير وأبو أسامة ثمانية عشر مقاتلاً من القاعدة ملثمين أغلبهم من خارج البلاد، جميعهم يحملون أسلحتهم الكاملة، وأحدهم يضع حزاماً ناسفاً حول صدره، وكلنا في داخل غرفة واحدة في مبنى قرب محكمة الدانا المستحدثة للدولة الإسلامية في العراق والشام.

ورفض يومها المسؤولون في التنظيم الجهادي أي اتهامات سقتها بأن هدف التنظيم هو الإمساك بالخط الحدودي خلف المعابر مباشرة، من الدانا في إدلب إلى أعزاز في محافظة حلب إلى محافظة القامشلي، والامساك بكل خطوط امداد الجيش الحر والسيطرة على حركة البضائع والبشر، قبل التمكن من السيطرة على كافة المناطق المحررة.

أسبوع تماماً مضى قبل قتل كمال حمامي المعروف باسم أبوبصير الجبلاوى قائد كتيبة العز بن عبدالسلام فى منطقة اللاذقية فى غرب سورية في الثاني عشر من شهر تموز العام ٢٠١٣، كان التنظيم نفسه مسؤولاً عن تصفية أبو بصير في اشكال مفتعل، وقع خلاله القائد في الجيش الحر، وهو أحد قياديي هيئة الأركان التي كان يرأسها سليم إدريس في كمين استهدفه هو دون أن يقتل أي من المجموعة المرافقة له. وفي مدينة أنطاكيا الحدودية التركية

تمكنت من مقابلة أحد الضباط المرافقين لابو بصير خلال الحادث واوضح أن الكمين استهدف قتل أبو بصير وحده، ثم سلّم مقاتلو تنظيم الدولة الإسلامية جثته إلى أفراد المجموعة الناجين.

في معبر باب الهوى الحدودي بين سورية وتركيا كان مجموعة من ضباط هيئة الاركان يتشاورون في حضوري حول ما جرى، وبعد عدد من الاسئلة طرحتها عليهم اجمعوا على اعتبار أن ما جرى في الدانا من قطع رأس فادي القش، وفي اللاذقية من تصفية أبو بصير سيكون مصيرهم جميعا اذا لم يتحركوا، وأن المستهدف هو قيادة هيئة الاركان (التي ترتبط تمويلا بالمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأميركية).

امتدت بعدها المعارك وصارت خبراً يومياً، لم تشارك الدولة الإسلامية في معارك ضد النظام، بل ركزت كثافة عملها في الداخل وتمركزها المتفرع في المناطق الحدودية، لم تشارك إلا في المراحل الأخيرة في معارك كبرى، وفي بعض الأماكن التي ضمنت لها اكتساب كميات هائلة من الذخائر كمثل معركة مطار منغ التي اشتركت في أيامها الأخيرة وضمنت حصة كبيرة من الذخائر المتروكة من الجنود القتلى والفارين، مُبعدة الفصائل التي شاركت في المعركة من بدايتها عن الذخائر والأعتدة والدبابات المتروكة من قبل القوات المنسحبة من المطار أو التي قضت في مبانيه في الاشتباك الأخير.

إلا أن ما كان يعتبره بعض قادة الكتائب هبة من الله في إيفاد مقاتلين إسلاميين لمؤازرة الثوار راحوا يعتبرونه بلاء عظيماً لم يكن وليد الأمس، ولا وليد الثورة وبداياتها، بل بالأحرى له جذور بعيدة في الجسم السوري المليء بالأمراض.

العودة إلى البدايات

القاعدة برعاية رسمية

نهاية العام ١٩٩٩ وبداية العام ٢٠٠٠ شهد لبنان الذي كان ينعم بحالة أمن نسبية ويعاني من وجود أكثر من ٣٠ ألف جندي سوري، معركة بين الجيش اللبناني وخلية تابعة لتنظيم القاعدة في جرود الضنية الشمالية، وانتهت المعركة بتصفية الخلية وقتل أغلب عناصرها، ترافق ذلك مع تصفية ما يعرف بـ«جند الشام» في سورية، واعتقال عدد من عناصر التنظيم الجهادي، المرتبط بالقاعدة. بعدها كرت سبحة محاربة الإرهاب في الغرب على خلفية عمليات ٩/ ١١، وبدأت عمليات انتشار تنظيم القاعدة في المنطقة العربية والإسلامية.

في دمشق وطهران تم التعامل مع التنظيم بصفته قد يشكل فرصة، إضافة إلى كونه وباء يجب الحرص منه، فهو يشبه الغاز السام الذي من جهة قد يقتل صاحبه ومن جهة أخرى يمكن توجيهه للفتك بالأعداء.

ومع مجيء بشار الأسد إلى الحكم في خلافة والده حافظ الأسد، وإطلاقه إصلاحات اقتصادية وسياسية، تم السماح لعدد من المنابر بالعمل، ومنها اليسارية والإسلامية الوهابية (باستثناء حركة الإخوان المسلمين التي ينص القانون السوري على إعدام المنتسبين أو المتصلين بها)، وتم إطلاق العجلة الاقتصادية في لبرلة مافياوية غير منضبطة ركزت معظم الدورة الاقتصادية السورية في يد ١٠٠ شخص من المقربين للنظام الأمني والسياسي في سورية، ولاحقاً تم اعتقال اليساريين وترك الإسلاميين شريطة وقف نشاطاتهم في الأطر السياسية.

أنشئت مئات المعاهد السلفية في سورية بدعم وتمويل من عدد من الجمعيات الدينية الخليجية وبرعاية غير رسمية من النظام، وانتشر الفكر السلفي، وضمناً الجهادي، وصار الفكر الوهابي لدى السنة في سورية ينافس انتشار التشيع والاستثمارات الإيرانية في الريف السوري، وخلقت المخابرات السورية في تلك الفترة حالات من الفكر السلفي المتشدد بغية إبقاء العين على الإسلاميين الأكثر حدة، وكانت إحدى أبرز هذه الظواهر أبو القعقاع (محمود غول أغاسي قتل بالرصاص لدى خروجه من المسجد العام ٢٠٠٧).

أعوام قليلة بعد عمليات ٩/ ١١ وكان القلق قد بلغ أقصاه في طهران ودمشق، الدولتان كانتا تخشيان من تطبيق نظرية «أحجار الدومينو» التي أعلن عنها اليمين الأميركي في الكثير من دراساته ومقالات مفكّريه ومنظّريه، ومع بدايات غزو العراق في العام ٢٠٠٣ باتت القوى الجهادية حليفة سرية لنظامي إيران وسورية، أو على الأقل كانت العدو الأخف

ضرراً، وبدأت عمليات تعبئة آلاف المقاتلين الإسلاميين والعرب من كل المدن والقرى إلى العراق، للمشاركة في التصدي للقوات الأميركية الغازية أولاً ثم لقتالها بعد أن استقرت في العراق في نيسان العام ٢٠٠٣.

من بيروت كان يمكن مشاهدة باصات تقف أمام مقر حزب البعث العربي الاشتراكي اللبناني (التابع لسورية) بانتظار أن تمتلىء بالشبان المتطوعين للذهاب إلى العراق والقتال إلى جانب الجيش العراقي، ولم يكن هناك أي تمييز بين المتطوعين، سواء أكانوا علمانيين أم إسلاميين متشددين، لاحقاً أصبحت أقنية نقل المقاتلين أشد تعقيداً.

مع استتباب الأمر للولايات المتحدة وحلفائها في العراق، فتحت مناطق حدودية إيرانية لتسهيل انتقال المقاتلين الإسلاميين من أفغانستان إلى العراق، كما فتحت أرض لبنان ومعابر الأردن لتسهيل مرور المقاتلين الإسلاميين أيضاً نحو العراق، مروراً بالأراضي السورية، وفي تلك المرحلة كان تنظيم القاعدة في العراق بقيادة أبو مصعب الزرقاوي يتنازع مع التنظيم الدولي، وينشئ خلايا أشد دموية من تلك التي أقامها الشيخ أسامة بن لادن في أفغانستان أو السودان أو اليمن، كانت تجربة القاعدة تتحول من تنظيم مقاتل إلى خلايا أمنية مقاتلة شديدة الفتك، بعد تلقي التنظيم الدولي ضربة قاسية في أفغانستان أدت إلى انهيار مركزيته واعتماده أسلوب الخلايا الأمنية في العمل. دخل الكثير من أجهزة المخابرات الدولية على خط التنظيم، خصوصاً في العراق. وتبسيطاً للأمور، يمكن تصويرها وكأن المملكة العربية السعودية تملك في تلك المرحلة جناحاً من التنظيم، وإيران تملك جناحاً آخر، يقاتل المملكة كلما تعقدت العلاقات بين طهران

والرياض، ويعمل في العراق ضد القوات الأميركية، كما ضد الكوادر السنية التي كانت جزءاً من النظام العراقي اغتيالاً وتشريداً، وتمدّه طهران بالعبوات الناسفة المضادة للدروع الحديثة، والمصنعة في معاملها الحربية، وكان لسورية أيضاً نفوذ على الكثير من المقاتلين والمجموعات التابعة لتنظيم القاعدة، كما لقوات أخرى تقاتل في العراق، إلا أن هذا النفوذ سيكون له ثمن كبير لاحق.

في سورية وخلال الأعوام الممتدة ما بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٧ كانت الخلايا الأمنية التابعة لتنظيم القاعدة تنشط داخل البلاد، وكانت قوات الأمن في النظام السوري تطاردها حتى لا يشتد نفوذها، وتسمح لها باستخدام الأراضي السورية كمعبر نحو العراق، وخصوصاً في مناطق مثل دير الزور، حيث تشكل مناطق دير الزور امتداداً طبيعياً للأنبار العراقية، وترتبط العشائر على جانبي الحدود بالقرابة، وبعضها عشائر واحدة مقسومة على البلدين، العراق وسورية.

سمحت سورية بإقامة مستشفيات سرية لتنظيم القاعدة على أراضيها، وهي أقرب إلى شقق سكنية تقدم خدمات طبية، وغضّت السلطات السورية النظر عن الحراك القاعدي، وتركت شخصيات مثل أبو القعقاع يحض الشبان على الجهاد في العراق، والتحق آلاف السوريين في القتال هناك إلى جانب تنظيم القاعدة، ومن محافظات مختلفة، من إدلب وحلب ودير الزور والرقة وغيرها، وتحول أبو القعقاع وغيره من الدعاة إلى مدربين للشبان على استخدام السلاح بشكل أولي، واستقطب أبو القعقاع مئات من المقاتلين العرب الذين وصلوا عبر الكثير من المعابر إلى مدينة حلب حيث

يتمركز الداعية الجهادي، وحوّلهم بدوره إلى العراق حيث كان في استقبالهم تنظيم القاعدة بقيادة أبو مصعب الزرقاوي.

في العام ٢٠٠٦ تحول التنظيم الدولي للقاعدة وخلاياه المنتشرة في العراق وقيادته من نقطة تقاطع بين أكثر من عاصمة (طهران، دمشق، الرياض وغيرها) إلى عدو العواصم، فقد أحبطت طهران من تحول التنظيم إلى قتال الشيعة والنفوذ الشيعي بشكل عنيف في ما يعرف في العراق بالحرب الطائفية (٢٠٠٣ -٢٠٠٨) وبعد أن كان يختص بقتال الجنود العراقيين في الشرطة والحرس الوطني (لاحقاً الجيش العراقي) وتنفيذ بعض العمليات ضد الأميركيين وبشكل أساسي تصفية الكوادر السنية، تحول التنظيم إلى قيادة العمليات ضد الشيعة في العراق والقوى التي تدعمها إيران.

الرياض أيضاً تعرضت لضربات قاسية من التنظيم، وقد راهنت على تجفيف مصادر التمويل، الخطة الأميركية التي بدأ تنفيذها لوقف إيرادات التنظيم الدولي، كما راهنت على المشروع الأميركي في العراق الذي يعنى بفك تحالف العشائر مع القاعدة أي «الصحوات» ووجهت رسائل قاسية إلى دول اتهمتها بمساعدة تنظيم القاعدة، ومنها مثلاً قطر، حيث نفذت عملية باهتة ويتيمة في الدوحة ضد مسرح أعلن على إثرها أحد المسؤولين الرسميين في الدوحة أن هذه العملية هي «مزاح خليجي خليجي». دمشق خاضت الكثير من الاشتباكات الداخلية لوقف امتداد التنظيم وخلاياه قرب العاصمة وفي مناطق حساسة، ودهمت القوى الأمنية فيها مراكز سرية للتنظيم في مناطق مثل جبل قاسيون المشرف على العاصمة، وقتلت العديد من أعضاء التنظيم الذين شرعوا في تكريس وجودهم في سورية،

ولكن كان النقاش الجدي ضمن خلايا تنظيم القاعدة في سورية بحسب ما قال لي العديد من العناصر الذين عاصروا تلك الفترة وسجنوا لاحقاً، وبعدها عادوا مع الثورة إلى منازلهم أو إلى المشاركة مع الدولة الإسلامية في العراق والشام، بأن النقاش الداخلي بين الأمراء كان حول ضرورة قتال السلطة الباغية في سورية قبل الانتقال لقتال الأميركيين في العراق، وكانت وجهات النظر متباعدة بين من يطيع قيادة التنظيم ويوليها المبايعة (بالمفهوم الشرعي) وبين من يعتقد بأولوية القتال محلياً في ابتعاد نسبي عن فقه القاعدة (حيث كل الأراضي هي أرض الإسلام ولا فرق بين القتال في أفغانستان أو سورية أو العراق، إلا بقدر تحديد أرض الجهاد وتمييزها عن أرض النصرة).

غير أن أكثر ما عانت منه دمشق كان ضغط الولايات المتحدة عليها للحد من انتقال مسلحي وأسلحة وأموال تنظيم القاعدة عبر أراضيها. كانت دمشق قد تعرضت لضربة كبيرة في لبنان بعد اغتيال رفيق الحريري أدّت إلى انسحابها من البلاد التي دخلتها بقواتها المسلحة العام ١٩٧٦، وتم رفع يدها عن إدارة البلاد بعد أن كانت تشرف عليها بموجب تفاهم ضمني مع الولايات المتحدة الأميركية والمملكة العربية السعودية في العام ١٩٩٠ أدى إلى مشاركة دمشق في التحالف بالحرب ضد العراق بعد احتلاله الكويت مقابل الاحتفاظ بنفوذها في لبنان وإنهاء الحرب فيه لمصلحتها ووفق طريقتها.

إلا أن الأزمنة تغيرت، وتم الضغط بشدة على سورية لوقف مساعدة الخلايا الإسلامية ووقف انتشارها في العراق وتجفيف مصادرها المالية ومنع استقدامها للأسلحة، فتغيرت كل تكتيكات القيادة السورية بعد

العام ٢٠٠٦، وفي العام ٢٠٠٧ عقد اجتماع بين وزيرة الخارجية الأميركية كونداليزا رايس ووزير الخارجية السوري وليد المعلم(١) تم خلاله تقديم سلسلة من الدلائل حول مساهمة القيادة السورية واجهزتها الأمنية في مكافحة تنظيم القاعدة، ولا سيما صور لعدد من قادة التنظيم الذين تم قتلهم على الحدود ما بين سورية والعراق.

اعتقلت الأجهزة الأمنية السورية في تلك الفترة أبو القعقاع، وبعد خروجه من السجن نبذ الرجل العنف وبات يحث الشبان على الجهاد في بلاده سلمياً وعدم الذهاب إلى العراق، نافياً أية صلة له بتنظيم القاعدة أو القوى الجهادية. كما بدأت الأجهزة الأمنية السورية بتجميع المقاتلين العرب وإرسالهم إلى لبنان تحت ما سيعرف بحركة «فتح الإسلام» والتي تم تصفيتها في مخيم نهر البارد، وتدمير المخيم على رؤوس مقاتليها من قبل الجيش اللبناني صيف العام ٢٠٠٧.

وابتداءً من العام ٢٠٠٧ شنت الأجهزة الأمنية السورية حملة تصفية لما يعرف بالقوى الإسلامية، مستثنية المعاهد الدينية السلفية في البلاد، التي انتشرت كالفطر في منافسة محمومة بينها وبين الاستثمارات الإيرانية في تشييع قرى من الريف السوري وإنشاء المجمعات السكنية على أطراف المدن وتكريس نفوذ سياسي وديني بين السكان ذوي الأصول السنية كما بين بعض الفرق الشيعية السورية.

---

(١) التقت وزيرة الخارجية الأميركية كونداليزا رايس نظيرها السوري في النصف الأول من شهر ايار العام ٢٠٠٧ على هامش المؤتمر الدولي لدول جوار العراق في شرم الشيخ في مصر.

طالت حملات البحث عن السلاح ومطاردة الجهاديين في سورية أغلب المناطق، مترافقة مع مفاعيل اللبرلة الاقتصادية العرجاء، ومع شعور أبناء الريف الذين عززهم نظام حافظ الأسد في الماضي، وأعطاهم الفرص للانخراط في وظائف الدولة بأنهم اليوم في ظل حكم خليفة حافظ، أي بشار الأسد، فقراء مجدداً وقطاعاتهم الإنتاجية وخصوصاً المتعلقة بالزراعة مهملة، لا وبل مطاردون ومهانون ولا آمال ليعقدوها على نظامهم أو الحياة في ظله، وتسارعت وتيرة التدين في الريف السوري، وانتقلت حالة التدين إلى العشوائيات المحيطة بالمدن الرئيسية في البلاد بسرعة هائلة، وهي العشوائيات التي تضاعفت بصورة خيالية في الأعوام الأخيرة قبل اشتعال الثورة السورية.

اعتقل أغلب الأمراء في تنظيم القاعدة والمتصلين بهم والناشطين، وزجوا في سجون النظام السوري، وتحوّلت السجون إلى مدارس لتعليم قواعد الإسلام السلفي بنسخته الجهادية، وعادت السجون لتعج بالإسلاميين من علماء الدين والمقاتلين السابقين في العراق والذين كانوا يتأهبون للذهاب والمشاركة في الجهاد هناك أو في مناطق أخرى حول العالم، بعدما كانت السجون متنازعة ما بين اليساريين والإسلاميين من حركة الإخوان في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي.

انتهى العام ٢٠١٠ وكانت حملات الاعتقال لا تزال جارية على قدم وساق، وكانت الأرياف نهباً للقوى الأمنية السورية، التي تبحث عن الجهاديين، وبقايا القوى السلفية الناشطة، وعن أسلحتهم، وذخائرهم، وكانت العائلات التي تملك أية قطع أسلحة تحاول التخلص منها بأي شكل، ولم

تعد الأسلحة متوافرة على عكس بداية الحرب في العراق (٢٠٠٣ وما تلاها من أعوام) حيث بلغ سعر بندقية AK47 أقل من خمسين دولاراً أميركياً، بعد توافرها بكثافة وتحولها إلى سلعة سهلة التسويق خصوصاً في المناطق الحدودية مع العراق.

غير أن القوى الأمنية في سورية مبنية على أساس عاملين، **الأول** هو المنافسة في ما بينها كأجهزة مخابرات تراقب بعضها وتنافس بعضها في شدة الولاء للنظام، والقاعدة **الثانية** هي الاعتياش من الخوات وابتزاز المواطنين، وتفاقمت حالتها هذه مع مجيء الرئيس السوري بشار الأسد، ولا سيما مع موجة لبرلة البلاد، ففي الماضي وخلال عهد الرئيس حافظ الأسد، كان راتب ضابط الأمن أو العنصر لا يكاد يكفيه لأيام في الشهر، وعادة ما يكون مئة دولار أو أقل أو أكثر بقليل، مما يضطره إلى إيجاد مصادر مالية أخرى ليست سوى ابتزاز المواطنين وتلفيق التهم لهم يميناً ويساراً بغية دفعهم للمساهمة في رفع مستوى حياته أو تأمين متطلباته الاساسية، ومع مجيء بشار الأسد تفاقم هذا الوضع، وأصبح اتهام الشبان بالانتماء إلى تنظيم القاعدة أو مداهمة المنازل بحثاً عن السلاح أسرع الطرق وأسهلها للحصول على الأموال.

هذا الوضع خلق ردة فعل من شقين، طبعاً إضافة إلى الخوف الذي عاشه المواطن السوري لمدة أربعين عاماً، فقد أصبح بنظرهم أن تنظيم القاعدة ليس بالضرورة إرهابيا كما يدّعي النظام، والعامل الثاني هو السخط في بنية القوى الأمنية في سورية لأن الذل والخوف الحاليين لا يقابلهما ما كان يقدمه الأسد الأب ونظامه من خدمات ورشى لمواطنيه، فقد بدأت محاولات ضبط

البناء العشوائي الذي يبلغ ٤٥ بالمئة من المنازل في سورية، وتم التهديد بهدم المخالفات، وتراجعت قدرات أبناء الريف على العمل في أجهزة الدولة، وأصبحت أولوية الطائفة العلوية في التوظيف تشكل هاجساً لدى أبناء الطائفة السنية ومتعلميها، لم يعد من السهل ارتداء بدلة عسكرية والتنعم بالموارد المالية كما من قبل، وبات التشيع والاستثمارات الايرانية مزاحمة لتقديمات الدولة السورية ومخصصة لفئات طائفية أو لمن تخلّوا عن انتمائهم السني لمصلحة التشيع، باتت السلع الرئيسية وخصوصاً المازوت غالية الثمن بعد رفع الدعم عنها، مرّت أعوام الجفاف في المرحلة عينها (٢٠٠٧ -٢٠٠٩)، حيث ضرب الجفاف سورية البلد الزراعي، وأدّى إلى تراجع هائل في المداخيل الريفية، مع تخصيص الكثير من القطاعات وتحويلها إلى ملكية لشركتين قابضتين فقط لا غير (مع متفرعات الشركتين). ارتفعت البطالة في الأعوام الأربعة الأخيرة في سورية بأرقام قياسية، وزاد الاتجاه إلى المساجد والتدين عموماً. كل تلك العوامل وغيرها أسست للثورة كما أسست لنظرة إيجابية لتنظيم القاعدة في العراق وفي سورية[١].

(١) محمد جمال باروت، «العقد الأخير في تاريخ سورية»، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت ٢٠١٢.

القتال لوجه الله

على الرغم من بداياتها الأقرب إلى العلمانية والتحررية المحضة إلا أنها ومرة جديدة، خرجت الثورة من المساجد، المرات السابقة كانت في دول عربية أخرى. العام ٢٠١١ أشعل الشبان من الفئات العمرية المتوسطة (٢٠ -٣٠ سنة) الثورة، وكان الممر الأكثر يسراً لخروج المظاهرات هو استخدام المساجد يوم الجمعة، ففي التقليد السوري إقامة الصلاة في المسجد يوم الجمعة وسماع الخطبة الدينية أمر يعد أكثر من واجب، إنه تشارك مجتمعي برعاية الإسلام وفرصة للقاء أسبوعي بين ابناء المنطقة الواحدة (كما أن الإسلام فرض صلاة الجمعة وأعطاها زخمها لتكون الاجتماع السياسي والديني الأسبوعي حيث يتلو فيها الشيخ أو الإمام أو الأمير خطبتين، واحدة في الشأن العام الاجتماعي أو السياسي وأخرى في الشأن الديني الفقهي).

بداية الثورة السورية وقفت الفئات العمرية الأكبر ضد حراك الشبان، كل من تناهى إلى سمعه أو كان شاهداً على أحداث الإخوان المسلمين والعنف

الذي تصدى به النظام لهم (١٩٧٩ -١٩٨٢) حض أبناءه وأقاربه على عدم المشاركة بالمظاهرات، إلا أن الوضع العام، كما انكسار حاجز الخوف لدى الشبان نتيجة الثورات في المنطقة العربية أدّيا إلى انطلاقة الشرارة وبداية حراك ثوري لن يتوقف خلال العامين التاليين.

منذ الأيام الأولى بدأ النظام وحلفاؤه باستخدام العنف في محاولة إخماد الثورة، ولم يكرس النظام الكثير من الوقت لاتخاذ تدابير إصلاحية، ويؤكد لي مسؤولين في حركة حماس الفلسطينية التي كانت متحالفة مع النظامين السوري والإيراني والتي كانت على تنسيق مباشر مع حزب الله، أن الأطراف الثلاثة هذه كانت حاسمة منذ الأيام الأولى للثورة على ضرورة إخمادها بالقوة وأنها لم تبذل أي جهد للتفاهم مع القوى الاجتماعية فيها.

أطلق النظام السوري على دفعات جيشاً من المعتقلين، قال إنهم كانوا من ضمن المتظاهرين والمخططين للتظاهرات، إلا أنه أفرغ سجونه من السجناء الإسلاميين الموقوفين منذ ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، وبعض سجناء الأعمال الإجرامية، ضم الأخيرين لمجموعات الشبيحة أو ما يسمى باللجان الشعبية، بينما ترك الحرية للمفرج عنهم من المعتقلين الإسلاميين ليتحركوا في البلاد، وعرض على الكثير من القيادات القاعدية في سجونه إطلاق سراح مشروطاً على ما يروي لي مقاتل قاعدي سابق لا يزال شقيقه الأمير قابعاً في أحد معتقلات النظام، لكن عدداً من القياديين القاعديين رفض إبرام صفقة مع النظام لإخراجه من السجن، ورغم ذلك سهل النظام السوري أو تغاضى عن حصول هؤلاء على تسهيلات لم تكن متوافرة

لهم من قبل كمثل وصولهم إلى اجهزة هاتف خليوية يمكنهم استخدامها للتواصل مع العالم الخارجي.

السجناء الإسلاميون الجهاديون تضاعفوا داخل السجون من خلال تنظيم أنفسهم وممارسة الإقناع على رفاقهم في السجن، وحين خروجهم كانت وجهتهم واضحة، وباغلبيتهم السورية اتجهوا إلى أماكن اشتداد الثورة أو حتى إلى دمشق ونحو المناطق الحدودية (التي كانت لا تزال في قبضة النظام) ما يسهل عليهم مهمة الاتصال برفاق الأمس من مقاتلي تنظيم القاعدة في العراق، كما يسهل عليهم الحصول على السلاح والعتاد، وهم الذين لا يعترفون بثورة ولا بتحرك سلمي، وإنما لهم منطقهم الأيديولوجي الخاص وأساليبهم الموحدة في تحقيق أهدافهم الاستراتيجية، وهي حكماً لا تشمل التظاهرات السلمية أو إضرابات مطلبية.

فبالنسبة إلى أي جهادي من المذهب السلفي عليه تقديم البيعة لأمير يقاتل تحت لوائه، وهذا الأمير يتبع في النهاية إلى تنظيم القاعدة، الممثل الأكبر للقوى السلفية الجهادية في زمننا الحالي، وبالتالي فإن أي خارج من سجون النظام السوري عليه إعادة الاتصال بمن قدم له البيعة سابقاً للعودة والعمل تحت إمرته، أو البحث عن أمير جديد وتقديم البيعة له، أو البقاء في منزله والكف عن الجهاد، وهو بالتالي سيكون من القاعدين المتقاعسين.

في هذه المرحلة وجّه الدكتور أيمن الظواهري رسالة بدت شكلاً محبطة للجهاديين في سورية، جاء فيها أنه كان يتمنى الوجود معهم (مع أهل

بلاد الشام) ولكن المسافات تفصله عنهم[1]، وبدا أن القاعدة تبتعد عن المشاركة في الجهاد السوري، ولكن الأمور في العراق لم تكن مشابهة، حيث لم يمض وقت طويل حتى بدأت مجموعات قليلة العدد تصل من العراق وتركيا لتشارك في الجهاد في سورية، وتنوعت الجنسيات من أفريقيا وآسيا وأوروبا، وكذلك الأعراق واللغات واللهجات، وإن كانت الأولوية بداية لأبناء الدول العربية، الذين خضعوا لتدريبات أولية في سورية في بعض المناطق المحررة قبل أن يشاركوا في أية أعمال قتالية، على عكس مقاتلي ما سيعرف بالجيش الحر، وهم مجموعات ريفية مسلحة أتت كرد فعل على عنف النظام ولا تشبه الجيوش بشيء وقلما تلقى عناصرها أي تدريب على الإطلاق، ما عدا قلة منهم سبق أن خدموا في صفوف الجيش السوري النظامي وتدربوا تدريبات بسيطة على استخدام السلاح دون كفاءة تذكر.

في البداية لم يكن موقف السكان المحليين والمقاتلين المنضوين تحت جناح ما يعرف بالجيش الحر إيجابياً من وجود مقاتلين أجانب يشاركونهم السكن في قراهم، كانت عادات وممارسات هؤلاء الأجانب السلفيين الجهاديين غير محبذة من قبل السكان، وتَشَدّدهم غير مبرر بالنسبة إلى أهل القرى

---

(١) بعد أقل من ثلاثة أشهر على بدء الثورة السورية، أصدر الدكتور ايمن الظواهري كلمة مصوّرة في حزيران ٢٠١١ يدعو فيها للجهاد في سورية، وجاء فيها:

- السلام لأهل الشام الذين يقاومون الظلم والعدوان، يحيّي فيه ثباتهم وصمودهم، وشكّل هذا معظم الكلمة (أربع دقائق ونصف من أصل سبع)، تحذير أهل الشام من قوى الاستكبار العالمي وعلى رأسهم أميركا، والذين تعاونوا مع بشار طوال فترة حكمه، وألحق بذلك شعراً في نقد الغرب: قولوا لأمريكا وأوباما إننا نخوض معركة التحرر والتحرير، التحرر من الطواغيت والتحرير لديار المسلمين؛ قولوا لهم أن ثورتنا لن تهدأ حتى نرفع رايات الجهاد فوق جبل المكبّر في القدس. وقال إنه لولا المعركة مع الصليبية التي يخوضها، ولولا حدود سايكس بيكو التي قدّسها حكامنا، لكان بين السوريين اليوم هو وإخوانه ليدافعوا عنهم؛ واستدرك قائلا: لكن هناك في الشام ما يكفي من المجاهدين والمرابطين.

والريف، وبينما عاش السلفيون السوريون في حالة من الرفض الناعم لممارسات السكان المحليين، من تدخلهم في أمورهم الحياتية، وممارسة الشعائر الدينية على الطريقة الصوفية، أو التقرب من المقامات المقدسة وزيارة قبور الأولياء الصالحين، فإن موقف الجهاديين المهاجرين كان عنيفاً في رفض هذه الممارسات الدينية والاجتماعية، وهو ما أدّى بالسكان إلى رفض وجود هؤلاء الوافدين بينهم في الفترة الأولى الممتدة بشكل خاص إلى معركة حلب (نهاية شهر تموز ٢٠١٢) وإسكانهم في المناطق الوعرة أو المعزولة خارج القرى، والتحفظ على وجودهم والتستر عليهم، خشية جلب عداوة العالم الخارجي لهم.

ووقعت أكثر من مشكلة مع القادمين الجدد، الذين ما انفكوا يرددون للسكان أنهم قادمون للقتال لوجه الله، أي من دون أجر أو مقابل أو طموحات سياسية، وبينما تجلّت خشية القادة المحليين بالعواقب القريبة المدى من وجود هؤلاء بينهم، وموقف الدول الغربية، خصوصاً أن الكل كان حينها يراهن على تدخل أجنبي أو منطقة حظر طيران أو بالحد الأدنى على تسليح الجيش الحر، فإن السكان المحليين باتوا يخشون من مغبة مغالاة هؤلاء المهاجرين في التطرف والتدخل في شؤونهم الخاصة.

إلا أن عوامل عدة جعلت من وجود المهاجرين السلفيين الجهاديين أمراً مقبولاً:

أولاً، وقبل كل شيء، ترديد النظام لمقولة انه يواجه تنظيم القاعدة والتكفيريين، مما اعطى السكان المحليين والمشاركين بالثورة صورة إيجابية عن هؤلاء، فإن كان النظام يعتبرهم عدوه الأول فإنهم ولا شك جديرون بالاحترام والتعاطف.

ثانياً، العامل الطائفي الذي كان النظام، كما القوى الثائرة يغذيانه بشكل متواصل، فالنظام كان يطمح لتحويل الثورة إلى حرب أهلية بخلفية طائفية، مما يحول التفاوض إلى مجرد محاولة لإيجاد تسوية بين طوائف مختلفة ومتنازعة، وليس ما بين ثورة ونظام عاجز عن التجدد، بينما كان الثوار في محاولة تكتيكية لحشد القوى وشحذ همم المقاتلين وجلب المزيد من المتطوعين دائماً يحاولون تظهير الجانب الديني المذهبي للصراع. وهو ما شكّل مدخلاً عريضاً لتنظيم القاعدة لأخذ تمثيل جمهور الطائفة السنية من أوسع الأبواب بدل قوى محلية مشكوك في ممارساتها الدينية، وتعتمد على بعض السرقات وتحصيل الخوات كلما ضاقت بها السبل.

ثالثاً، توافر التمويل الكبير لدى القوى الجهادية والموارد المادية والبشرية والقتالية، وهذه القوى حصلت على تسهيلات لم تتوافر لأي من فصائل الجيش الحر، كما وضعت يدها على المرافق الأكثر حيوية وتصرفت بأموالها، مثل آبار النفط وأهراءات القمح والحبوب، إضافة إلى توافر السلاح وحسن استخدامه، ودورات تدريب المقاتلين، وحرصت القوى الجهادية في البداية على المشاركة المحدودة إلى جانب السكان المحليين، على أن تنفذ أعمالها الخاصة في شكل عمليات استشهادية أو خاطفة في مناطق محددة بعيداً عن أعين الجيش الحر، مما أعطى عنها صورة أسطورية منذ انطلاق عملها في سورية.

رابعاً، الانضباط الأخلاقي الكبير الذي قدمت نفسها من خلاله، خصوصاً في حقبة جبهة النصرة، وقبل ظهور الدولة الإسلامية في العراق والشام، حيث حرصت على عدم وقوع مشكلات مع السكان المحليين، وغلّفت أي

خلاف بالغلاف الديني الشرعي، واحتكمت إلى أحكام الدين الإسلامي، وألّفت محاكمها الشرعية الخاصة.

خامساً، وفي مرحلة متقدمة شكل صمودها في المعارك سمة كرّست احترام المقاتلين من الجيش الحر للقوى الجهادية، وأصبح اسم المقاتلين الأجانب مرادفاً للصمود وللقدرة العسكرية المتفوقة بالنسبة إلى المقاتلين القرويين.

لم يكن ذلك من دون دعم مباشر وواضح من عدد من الدول، سواء بالتسهيلات التي أعطتها تركيا للمقاتلين الأجانب، حيث شهدت أكثر من مرة عبور مقاتلين للحدود التركية بواسطة مهربين محليين دون أي اعتراض يذكر من حرس الحدود التركي، الذي كان يدقق في الداخلين إلى تركيا من المدنيين أكثر مما يدقق بالعابرين إلى سورية، وعبرتُ أكثر من مرة الحدود التركية السورية تهريباً برفقة مقاتلين أجانب إسلاميين، كما عبرت مرة من ممر حدودي مخصص لتهريب السلاح للمقاتلين الأجانب من جبهة النصرة حيث تم قطع كل الأسلاك الشائكة في إحدى النقاط للسماح بعبور شاحنات صغيرة تنقل السلاح والذخائر، وحضرتُ عملية استقبال مقاتلين أجانب من قبل بعض المجموعات السلفية الجهادية على الحدود السورية التركية، وكذلك عبور شحنات من الذخائر، كل ذلك كان بمحض الصدفة، التي يمكنها أن توضح حجم العبور بين تركيا وسورية، في العام ٢٠١٢. كل ما شهدته كان مصادفة، وللقارئ والباحث تقدير حجم الحراك على الحدود التركية السورية في ما يتعلق بالقوى السلفية الجهادية. إلا أن ذلك ليس أكثر من جزء من المشهد،

فعلى الحدود مع العراق كانت المجموعات الجهادية أيضاً تتحرك على قدم وساق، وقد تحركت في الاتجاهين، وخصوصاً في مرحلة الانفصال ما بين التنظيمين الرئيسيين القاعديين، السوري والعراقي، حيث سبق الانفصال بين التنظيمين تنسيق عال جداً بين الدولة الإسلامية في العراق وبين جبهة النصرة في بلاد الشام.

من أجل الدولة لا من أجل الله

في **١٢ شباط ٢٠١٢**، يطلق أيمن الظواهري كلمة ثانية بعد حوالي تسعة أشهر من الأولى، يحذّر فيها من الغرب وتركيا والعرب وتآمرهم على أهل بلاد الشام. وتتزامن الكلمة مع بعثة المراقبين العرب ومبادرات الجامعة العربية، وبعد وضع جبهة النصرة على قائمة الإرهاب الأميركية بيوم واحد.

هذه الكلمة أتت في الواقع لاحقة على ما حصل ميدانياً، وإن بدت بمثابة إعلان للجهاد، حيث إنها كانت بعد شهر من تفجير الميدان الأول في ٦ كانون الثاني ٢٠١٢، التفجير الذي كان بعد يوم واحد من قدوم بعثة المراقبين العرب، وباسم «غزوة الثأر لحرائر الشام» تبنّت جبهة النصرة هذا التفجير رسمياً عبر جناحها الإعلامي: مؤسسة المنارة البيضاء.

---

* يقدم عبدالله سيف في مقالة له على موقع الجمهورية تلخيصاً تاريخياً لقصة القاعدة مع الثورة السورية تحت عنوان «بين الدولة الإسلامية في العراق والشام وجبهة النصرة..القصة الكاملة» ونشر على الموقع في ٢٣ تموز ٢٠١٣.

مؤسسة المنارة البيضاء الإعلامية التي كانت تنطق باسم جبهة النصرة، أسستها دولة العراق الإسلامية، أي تنظيم القاعدة في العراق، وارسل حينها أبو بكر البغدادي أبو محمد الجولاني إلى سورية لينظم عمل القاعدة في بلاد الشام تحت اسم جبهة النصرة، والتي ستكون أغلب عملياتها في تلك المرحلة وفق أسلوب تنظيم القاعدة في مرحلته اللامركزية، أي عمليات تفجير.

وأطلقت جبهة النصرة على موقعها اسم «القصف بالنسف» على تكتيكها المتبع في حينه، لتشير إلى أنها ستردّ على قصف النظام السوري للمناطق بالعبوات الناسفة، وحظيت أعمالها بتغطية إعلامية «احتفالية» واسعة من قبل إعلام النظام السوري وأنصاره في الخارج، بصفتها تؤكد نظرية أطلقها الرئيس السوري من اليوم الأول للثورة تفيد بأن ما يواجهه هو «عصابات إرهابية مسلحة» لا جمهور ساخط من ممارسات النظام وأسلوب إدارته للبلاد.

في تلك المرحلة قدّم تنظيم القاعدة في العراق كل ما أمكنه لدعم الجهاد في سورية، من مال وأسلحة جرى تهريبها من العراق، وقد التقيت بعدد من المهربين من الحدود العراقية إلى سورية في نهاية خريف العام ٢٠١٢، وبعضهم كان معي في سجن لواء عاصفة الشمال في منطقة الجبل الأحمر، وبدا هؤلاء المهربون مرتاحين في التحدث عن عمليات التهريب من هناك، على عكس من كان يعتمد التهريب من تركيا إلى سورية، إذ يتحفظ الأخيرون في الكلام ويؤكدون أن عملياتهم تخضع عادة لمراقبة شديدة من السلطات التركية ولمنعٍ وقمعٍ في الكثير من الأحيان.

في تلك المرحلة أي النصف الأول من العام ٢٠١٢، كان أبناء الثورة في الداخل والمعارضون في الخارج يستنكرون التفجيرات في المناطق السكنية والمدنية التابعة للنظام، وتلقائياً كانوا يتهمون النظام بتدبير التفجيرات أو تزويرها. وحتى بعد صدور بيان تبنّي الجبهة لتفجير السادس من كانون الثاني العام ٢٠١٢، ظل بعض المعارضين يعتبرها (الجبهة) من صنيعة النظام.

عاشت الأرض السورية كما المعارضة الخارجية انقساماً في الرأي حول الموقف من جبهة النصرة، الأرض السورية وفصائل الثورة رأت فيها وفي مئات المقاتلين الأجانب الذين يفدون إلى سورية مساعداً للثورة في تحقيق هدفها بإطاحة النظام، ورغم أن الشارع السوري لم يكن على توافق تام مع تشدد الممارسة الدينية للجبهة ومقاتليها الوافدين، إلا أن عبارة واحدة كانت تنتشر بين السوريين حين يقيّمون سلبيات الجبهة ومقاتليها الأجانب «هؤلاء سيغادرون حين يسقط النظام ليتابعوا جهادهم في بلاد أخرى».

عاش الشارع السوري هذا الوهم طويلاً، إلى حين إعلان «الدولة الإسلامية في العراق وسورية»، عندها اكتشف السوريون كم كانوا مخدوعين، أو على الأقل أن انتشار المقاتلين الأجانب الذين انضم أغلبهم إلى الدولة وتخلوا عن جبهة النصرة، لن ينتهي مع سقوط النظام، بل يهدف إلى تأسيس دولة إسلامية موحدة بين العراق وبلادهم. علماً أن قبل انشقاق جبهة النصرة عن أبو بكر البغدادي وعصيان أبو محمد الجولاني له، كان النقاش يدور حول المبادئ الدينية وممارسات النصرة، خصوصاً أن الفرق الصوفية في سورية لا تزال حاضرة، وأن أحزاباً إسلامية كحركة الإخوان وحزب التحرير،

لها حضور بين المقاتلين، إن لم يكن مباشرة، فعبر الدعم والتمويل وهي ليست على خير ما يرام مع تنظيم القاعدة، كما أن أغلبية الشارع السوري تدين بالإسلام البسيط، أو الإسلام الأقرب إلى المذاهب الأربعة منها إلى الإسلام الوهابي أو السلفي المتفرع من أحد المذاهب الأربعة، والذي بات بنسخته الجهادية يعتبر نفسه ديناً وحيداً لا يقبل المذاهب الأخرى، وقد يصل إلى تضليلها وتكفير أبنائها.

غير أن انتشار عمليات جبهة النصرة عبر الأراضي السورية وإثباتها قدرة قتالية عالية واستخدام فائق التنظيم للموارد المالية والبشرية المتوفرة، كما وجود آلية حقيقية للتحكم والسيطرة، وإذا أضفنا افتقاد المجموعات القروية المقاتلة تحت اسم الجيش الحر لكل تلك المزايا، كل ذلك ساعد على تثبيت وجود الجبهة، وتحولها إلى لاعب رئيسي، وأكسبها حجماً واسماً أكبر من الواقع الفعلي. وأتى تركيز النظام على اسم الجبهة وإلصاق كل شيء بها دعماً لروايته بأثر رجعي حول ثورة الإرهاب والمتطرفين والقاعدة[1].

ارتفعت وتيرة النقاش السوري حول جبهة النصرة حين أدرجتها الولايات المتحدة في ١١ كانون الأول ٢٠١٢ على قائمة الإرهاب الأميركية، واعتبرتها امتداداً لدولة العراق الإسلامية، كما وضعت قائدها في العراق والشام (أبو دعاء بحسب التعريف الأميركي) على لائحة الإرهاب واعتبرت أنه يوجّه الجولاني استراتيجياً[2]. وجذر

(١) يمكن الإشارة إلى معركة القصير (أيار ٢٠١٣) الاستراتيجية بالنسبة للنظام، حيث لم يكن في المدينة وريف القصير مجموعات معروفة تابعة لجبهة النصرة، وهي بكل الاحوال لم تكن وازنة هناك، إلا أن النظام وحزب الله أعلنا أنهما يواجهان مقاتلين إسلاميين تكفيريين تابعين لجبهة النصرة.

(٢) غير معلوم إن كان أبو دعاء هو البغدادي نفسه.

النقاش السوري هو السؤال: مواجهة الغرب والتحالف مع الإسلاميين والتخلي النهائي عن الأمل بدعم غربي ينهي الحرب لمصلحة الثوار والجيش الحر والقوى الأخرى، أم التخلي عن المقاتلين المسلمين وهم من خيرة المقاتلين، ومنع الأجانب من المساعدة وانتظار ما ستقوم به المعارضة الخارجية وما سيقدمه الغرب لتحقيق وعود بتسليح لم يحصل على أرض الواقع؟

هذا النقاش كان يتطور مترافقاً مع تحول في المزاج العام للثورة، ومن المعلوم أن الثورة ذات الطبيعية الريفية بدأت تتجه أكثر فأكثر نحو الحرب الطائفية ونحو معارك استنزاف واسعة، خصوصاً من شهر تموز ٢٠١٢، مما يعني حاجتها إلى المزيد من المقاتلين، واقترابها أكثر فاكثر من منطق الاستعانة بالمسلمين على سبيل النصرة[١].

القرار الأميركي لم يمرّ بهدوء، ولكلٍّ أسبابُه. استمرّ المدافعون عن جبهة النصرة بأنها ليست تابعة للقاعدة بحجتهم، بينما اعتبرت قوى المعارضة السياسية أن وضع فئة تقاتل النظام على لائحة الإرهاب هو إساءة للثورة السورية. دفعت هذه القوى لتسمية الجمعة اللاحقة بـ«لا إرهاب في سورية إلا إرهاب الأسد»، وقد تزامن كل ذلك مع بدايات تشكّل الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية، ومع مؤتمر أصدقاء سورية في المغرب[٢].

(١) مفهوم انتصار المسلم لأخيه المسلم المحتاج والمظلوم في أي مكان في العالم.

(٢) من كلمة رئيس الائتلاف معاذ الخطيب في المؤتمر: القرار باعتبار إحدى الجهات التي تقاتل النظام جهة إرهابية تلزم إعادة النظر فيه. نختلف مع بعض الجهات، نؤكد أن كل بنادق الثوار هدفها إسقاط نظام طاغوتي مجرم. لا يعيب أحداً أن يكون دافعه لتحرير بلاده هو الدين.

هذا المزاج الديني والمدافع عن جبهة النصرة كان له في الواقع مع يبرره، فمن ناحية امتنعت جبهة النصرة عن استخدام أساليب تنظيم القاعدة في العراق تجاه المدنيين، وبدت وكأن القيمين على إدارتها قد تعلموا الدرس العراقي جيداً، فباتوا يتعاملون بالحسنى مع السكان المحليين، ويحافظون على التقديمات الاجتماعية العالية، وإن كانوا قد وضعوا أيديهم على موارد استراتيجية في البلاد كحقول النفط وأهراءات الحبوب ولا سيما القمح، فهم باعوها بالسعر الرسمي وسمحوا بالاستفادة منها معلمين الناس بأنهم يسهّلون أمورهم حين يضيّق النظام على السكان ويمنع القمح أو المحروقات عن المناطق المحررة، وأنشئت المحاكم الشرعية سواء التابعة بالكامل لجبهة النصرة أو تلك التي تشارك فيها الجبهة، ووافقت الجبهة على التعاون مع مجموعات إسلامية أو أخرى من الجيش الحر، وإن كانت في العمق ووفق عقيدتها تعتبر أن الجيش الحر كافر وأن الانضواء تحت اية راية عدا راية لا إله إلا الله هو انضواء تحت راية الكفر، وأن المقاتلين الذين يموتون مع الجيش الحر يموتون كفاراً ومرتدّين عن الدين لا شهداء.

التصرف الميداني لجبهة النصرة أدّى إلى تقبّلها من السكان المحليين وإلى تعاطف وأحياناً إعجاب المقاتلين السوريين بالجبهة وأسلوبها في العمل والقتال، مترافقاً مع تراجع مساحة الثوار السلميين، وأولئك العلمانيين والليبراليين واليساريين الذين امتنعوا عن تعريف أنفسهم بهذه الصفات لما لها من صدى سلبي بين السكان القرويين. وكالعادة فإن كل تراجع للقوى العلمانية يقابله تقدم للقوى المذهبية، وهذا التقدم يعطي قوة دفع إضافية

لهذه القوى لتحصد المزيد من والمكاسب وقد حصل ذلك حتى دَفَعَ حجمُ النجاح الذي حققته الجبهة قائدَ الدولة الإسلامية في العراق إلى الشك بولاء من أرسله يوماً كجندي لتنظيم العمل في سورية ومطالبته بالطاعة.

في التاسع من نيسان العام ٢٠١٣ ينشر قائد دولة العراق الإسلامية أبو بكر البغدادي في مقطعاً، يعلن فيه اتحاد دولة العراق الإسلامية وجبهة النصرة في بلاد الشام تحت مسمى دولة العراق والشام الإسلامية[١]، قائلاً إن الأوان قد آن لنعلن أن الجبهة ما هي إلا امتداد لدولة العراق، ومن ثم يلغي البغدادي الدولة والجبهة ويوحدهما تحت اسم «دولة العراق والشام الإسلامية» ويوحد رايتهما بـ«راية الخلافة»، ويخاطب أبو محمد الجولاني بصفته جندياً من جنوده.

الرد كان سريعاً، ففي اليوم التالي صباحاً، نشرت مؤسسة المنارة البيضاء خطابا للجولاني بدأه بمخاطبة جميع المسلمين والفصائل المقاتلة والمجاهدين وأهل الشام وأبناء جبهة النصرة منكراً علمه بإعلان توحد الفصيلين (أي الدولة والجبهة) مشيراً إلى أنه لم يعلم إلا من خلال وسائل الإعلام، وفتح باب التراجع أمام البغدادي بأن قال إن الخطاب «منسوب» للبغدادي دون تأكيده أو نفيه، فإن كان حقيقياً فهو قد حدث دون استشارة، مما يشير إلى

(١) وكان اهم ما جاء في كلمته: - السرد التاريخي والتبرير الشرعي لتغيير المسمّيات والرايات وتوحيدها، وكان ذلك لأكثر من نصف مدة الكلمة، أن للقاعدة خلايا سابقة كانت فقط في حالة كمون وإعداد، وأن الجولاني («وهو أحد جنودنا» كما خاطبه) مرسل من قبله مع عدد من الرجال المهاجرين والأنصار (المهاجرين اسم رمزي يطلق على غير السوريين أو غير أهل البلاد ممن جاءوا للجهاد، والأنصار يعني أهل البلاد من المجاهدين) ومع مناصفة «بيت المال» شهرياً، ليلتحق بتلك الخلايا، لم نعلن عن الدولة حتى يعرف الناس حقيقتها بعيداً عن تشويه الإعلام، وقد نفتح أيدينا لفصائل المجاهدين وللعشائر في بلاد الشام لنجتمع على تحكيم شرع الله، وأننا لا نترك السلاح حتى يحكم الشرع، يتولى أبناء الشام من مجاهدينا الإشراف على إقليم الشام، تحذير أبناء الشام من ظلم الديكتاتورية ليقعوا في ظلم الديمقراطية.

انقطاع الاتصال المباشر بين الطرفين، كما يشكل محاولة لتخفيف الاحتقان بين الطرفين[١].

أعلن الخطاب للملأ أمرين، **الأول** أن الجبهة كانت جزءاً من تنظيم القاعدة في العراق أو أنها أنشئت بتمويل وتخطيط من التنظيم، و**الثاني** كان الانشقاق عن البغدادي رغم كل الكلمات المهذبة التي كالها له الجولاني. بدا واضحاً أن الخطابين إعلان لخلاف سابق بينهما، وأن الخطاب كان ذكياً بالنسبة لما اعتيد عليه من خطابات الجهاديين، فهو كان ذا لغة مهذبة وهادئة.

وقد مدّ الجولاني يده لجميع الفصائل والمقاتلين مستفيداً من تجربة الجهاد في العراق، معتبراً من كل أخطاء التنظيم في العراق. ومن هذه الاستفادة الخروج عن أدبيات خطابات تنظيم القاعدة لناحية إشارته الواضحة إلى العمل ضمن الأرض السورية إلى جانب الفصائل الأخرى، وأن الدولة تبنى بسواعد الجميع وليس بفصيل واحد، وهو ربما خروج خطير سيؤسس لما سيليه من تحول تدريجي في موقف وموقع الجبهة من الدولة الإسلامية واقترابها من ألوية الجيش الحر والقوى الإسلامية في سورية.

---

(١) أهم ما جاء في خطاب الجولاني انه كان من المشاركين في جهاد العراق منذ بدئه حتى بدء الثورة السورية، إلا ما حدث له من انقطاع قدري (وهو السجن في سورية لدى اجهزة المخابرات) وأنه رغم هذا الإنقطاع فقد تابع أحداث العراق واستخلص منها العِبَر التي أفادت الجهاد في الشام. الإعتراف بالفضل لمجاهدي العراق وللشيخ البغدادي. أن البغدادي وافق على مشروع طرحه الجولاني لنصرة بلاد الشام. تصديق خطاب البغدادي بمشاركة نصف بيت المال والإمداد بالرجال. أننا أعلنّا منذ البدء أننا قمنا لتحكيم شرع الله، ورغم ذلك فإننا لم نرغب بالإستعجال بالإعلان للمصلحة، وما دمنا نقوم بمهام الدولة وهو الجوهر فالإعلان ليس مهماً. أن الدولة تُبنى بسواعد الجميع ممن شارك في الجهاد وليس بفصيل واحد، وأن عدم الإعلان لم يكن عن رقّة في الدين أو ضعف وإنها لحكمة وسياسة شرعية. أننا نستجيب لخطاب البغدادي - حفظه الله -بالارتقاء من الأدنى إلى الأعلى، ونجدّد البيعة للشيخ الظواهري. تبقى «الجبهة» على حالها وتبقى رايتها على حالها، وإعلان البيعة لن يغير سياسة الجبهة.

رغماً عن أنفوكم

مبايعة الجولاني للظواهري كانت رغبة في عدم الظهور بمظهر العاصي من ناحية، وللتخلص من سطوة البغدادي والانتقال إلى المستوى الأعلى في التنظيم الدولي مباشرةً، وأتى رد فعل الظواهري ليظهر رغبة في عدم خسارة أي من الطرفين[1].

---

(١) يلحظ عبدالله سيف في مقالته في الجمهورية المشار إليها في الفصل السابق أن موقف الظواهري وسبب الخلاف وتفاصيل نشوء «الجبهة» وكيف تطوّر ذلك لاحقاً، جاء في رسالة لجهادي مصري قديم، «مصري في قلب الجبهة» كما يسمي نفسه، وكانت متابعته ومحاولة مقاطعة الأخبار والروايات وسؤال آخرين تثبت أن كل ما قاله صحيح. كانت رسالته شديدة الأهمية، وبيّنت التالي: الجولاني كان سجيناً منذ ما بعد بداية الجهاد في العراق بشهور (من ٢٠٠٤ وحتى ٢٠١١! فمن أخرجه حينها، ولماذا؟)؛ قدّم الجولاني مشروعاً من أربعين صفحة لتنظيم الجهاد في الشام (المشروع الذي ذكره الجولاني في كلمته) وافق عليه البغدادي؛ «مجلس شورى الجبهة» كان يضمّ ١٢ عضواً، بينهم الجولاني والبغدادي؛ بدأت الخلافات مع الجولاني بعد رفضه لبعض الأفكار الحمقاء، كتفجير مقر الائتلاف؛ في اجتماع لـ«المجلس» خلا من الشاميّين، وبتأييد ثلاثة وحياد ثلاثة، تم إعلان «الدولة»؛ ردّ الظواهري على الخلاف كان ربط الجولاني بمسؤول آخر غير البغدادي ثم عودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الخطابين وإيقاف الكلمات الإعلامية. اللطيف، وما لم يفهمه أحد في حينه، أن الظواهري أصدر كلمة بتاريخ ٨ نيسان ٢٠١٣، قبل كلمة البغدادي بيوم واحد، يحذّر فيها من التآمر على الثورة ويدعو إلى إقامة الخلافة ويبشّر بقرب سقوط العدو، والأهم أنه يحثّ على=

ظاهرياً، انقسمت جبهة النصرة إلى دولة وإلى جبهة، وذهب الأجانب بأغلبهم للقتال إلى جانب الدولة بينما بقي السوريون في الجبهة. ولكن بقي لدى الجبهة أعداد كبيرة نسبياً من المقاتلين الأجانب، كما انضمت إلى الدولة أعداد مقبولة من المحليين الذين سيكونون حيويين في عملها على الأرض السورية. وسيكون جهازا الأمن والاستطلاع العاملان في كل من الجبهة والدولة ركيزتين رئيسيتين، ومن يوم انفصالهما بدأت الدولة بممارسة السياسة العراقية إلى نهاية صيف العام ٢٠١٣، حيث اكتشفت وهي تجتاح المناطق المحررة تدنّي شعبيتها إلى حدود لم يعد ينفع معها العنف والترهيب والترغيب التقليديان، فقامت بحملة على ألوية ومجموعات شهيرة بفسادها، ربما كانت الفاتحة لمواجهة مع لواء عاصفة الشمال، حيث اجتاحت أعزاز

= التوحّد ونبذ الفرقة والاختلاف، ويركّز على ذلك كثيراً. يبدو إذاً أن الأخبار كانت تصله وأنه حاول احتواءها قبل أن تصدر للإعلام، وفشل في ذلك.

و بعد حوالي الشهرين، في ٩ حزيران ٢٠١٣ تحديداً، أصدر الظواهري قراره المعلن (يتشابه مع ما ذكره الجهادي المصري في تفاصيله) بحلّ «دولة العراق والشام الإسلامية» مع بقاء «الجبهة» و«دولة العراق الإسلامية» على حالهما، ثم تكليف أبي خالد السوري لحلّ الخلاف، والتوقف عن أي «اعتداء» بينهما بالقول أو الفعل (تقرير من وكالة رويترز)، كما ذكر خطأ «الدولة» بإعلان الوحدة دون استشارة، وخطأ «الجبهة» بالرفض دونها.

وخلال كتابة هذا النص نشرت **قناة الجزيرة** تسجيلاً للدكتور أيمن الظواهري سبق أن سجله في ٢٣ أيار ٢٠١٣ وأعلن فيه إلغاء تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام واستمرار العمل بدولة العراق الإسلامية ضمن حدود العراق، وجبهة النصرة لأهل الشام في حدودها بسورية. وأوضح الظواهري أن جبهة النصرة فرع مستقل لتنظيم القاعدة وولايته المكانية سورية، وقرر اختيار أبو محمد الجولاني قائداً للجبهة لمدة عام على أن يرفع مجلس شورى الجبهة تقريراً إلى قيادة القاعدة لاتخاذ قراره بشأن استمراره أو اختيار قائد بديل. وسمى الظواهري أيضاً البغدادي أميراً لدولة العراق الإسلامية لمدة عام على أن تتخذ قيادة التنظيم قراراً باستمراره أو إعفائه بعد تلقي تقرير من مجلس شورى التنظيم العراقي.

ونقلت وكالات الأنباء رفض أبو بكر البغدادي «أمر زعيم تنظيم القاعدة أيمن الظواهري» بإلغاء «داعش»، قائلاً: «إن الدولة الإسلامية في العراق والشام باقية ما دام فينا عرق ينبض، ولن نساوم عليها أو نتنازل عنها».

وعملياً دمرت اللواء الشهير بسيطرته على معبر باب السلامة الحدودي مع تركيا وجبايته للضرائب أو الخوات مقابل إدخال وإخراج السيارات من المعبر، على عكس معبر باب الهوى الحدودي، وسيطرته على المساعدات التي تصل للنازحين إلى منطقة أعزاز. كما بدأت الدولة باستهداف فئات عمرية متدنية للحصول على تأييدها وتجنيد مقاتلين من الجيل الثاني.

إلا أن كل ذلك لم يكن يخفي أن السكان المحليين في سورية لا يرون في الدولة بديلاً فعلياً للنظام السوري، أو يوافقون على مد سلطتها على بلادهم بدل النظام، بل لا يترددون أحياناً في القول إن الدولة هي ابنة النظام، أو عميلة لإيران، وإن جادلتهم فهم ببساطة يشيرون إلى عدم مشاركة الدولة في أية معركة من المعارك ضد النظام، وأن أفلام الفيديو التي تنشرها الدولة هي عمليات محدودة أو مشاركات في لحظات سقوط المواقع، أو حتى أفلام مصورة لحساب مجموعات أخرى استولت عليها الدولة.

لم تتمكن الدولة من الحفاظ على الاحترام الذي أبداه السكان لجبهة النصرة، بل خسرت أي احترام أو ترحيب بها، وراح العامل المذهبي يضمحل أمام ممارسات الدولة الإسلامية ومحاولاتها السيطرة على المناطق، لم يكن المواطن السوري ليرفض كلياً المجموعات الفاسدة، هو بطبيعته يقبل حجماً محدداً من الفساد ما دام متروكاً لشأنه في الحياة وأمنه الشخصي والأسري مصوناً، فالزمن الطويل الذي مضى على حكم الدولة -الفاسدة (التي يعتاش موظفوها من فسادهم كأسلوب في إدارة البلاد وإخضاعها) جعل المواطن السوري يوافق على حد ما من الفساد اليومي مقابل حريته واستقلاله وامنه، وبالتالي فان مبالغات

الدولة وجبهة النصرة، وخصوصاً محاولة الدولة تصفية المجموعات الفاسدة (وفق استراتيجية موضوعة لديها مسبقاً كما يبدو بالانتشار في مناطق معينة) واحتلال مواقعهم في المناطق المحررة أصلاً، لا يلقى قبولاً لدى المواطنين المحليين بل يثير لديهم مخاوف كبيرة ويستنهض الحساسية العائلية والمناطقية.

لم يكن انتساب الجبهة والدولة إلى تنظيم القاعدة ليثير أية مواقف سلبية لدى السكان المحليين، عدا المجموعات المقاتلة، لكن البعض من المعارضة تبرّأ من القاعدة عموماً، والبعض اعتبر الخلاف معها ممكناً ورفض اعتبارها إرهابية، مع الإقرار بالعمل معها حتى إسقاط النظام. ومثّل هذا البعض معظم الحركات الجهادية، كأحرار الشام وجبهة التحرير الإسلامية ولواء التوحيد، الذين سيجدون أنفسهم لاحقاً في مواجهة مع الدولة الإسلامية في أكثر المناطق تأييداً لهم. وهناك جزء أيضاً اعتبر أن الجبهة حتى لو كانت تابعة للقاعدة فإنها إن تغيرت فهي مرحّب بها. البعض الآخر رأى أن القاعدة نفسها لا تشكل تهديداً لسورية، وهؤلاء متعاطفون مع القاعدة.

لكنّ مسار الأمور اتجه إلى الأسوأ: جبهة النصرة أصبحت تعد أقل من خمسة آلاف عنصر، أغلبهم من السوريين، وفقدت الكثير من إمكاناتها المالية والتقنية واللوجستية، ولكنها في المقابل حافظت على مسيرتها مستفيدة من أخطاء تنظيم القاعدة في العراق، وباتت تمثل وجهاً جماهيرياً لتنظيم القاعدة، أو بالحد الأدنى الوجه الذي يمكن أن يكون مقبولاً من السكان المحليين حيث يحل، والذي يلجأ إليه السكان لحل خلافاتهم والحصول على

الأمن[١]، بينما زاد عدد مقاتلي الدولة الإسلامية ليصل إلى ١٢ ألف مقاتل مدعومين بالمال والإمكانات اللوجستية العالية وحسن التسلح ومنظومة متطورة من التحكم والسيطرة العسكريين تتيح لهذا التنظيم التنقل بسرعة من منطقة إلى أخرى وتعديل وجهة نيرانه وخوض معارك واسعة، إلا أنه حتماً لم يحصل على ثقة المحليين به ولا أمكنه القيام بتحالفات مع المجموعات المقاتلة الأخرى، ولا يزال بامكانه الاستفادة من بضعة آلاف من المقاتلين الموجودين في العراق من جنسيات مختلفة، عراقية وإسلامية أخرى، كما أنه شرع في نقل الامكانات التي استولى عليها إلى داخل الحدود العراقية لتعزيز وضعه هناك، ونقل الفارين من السجون العراقية في الفترة الأخيرة إلى داخل سورية.

وفي حين تؤكد جبهة النصرة نيتها الخروج من سورية حين انتصار الفصائل الإسلامية التي باتت تعتبر نفسها جزءاً منهم، فان الدولة الإسلامية أصبحت عملياً صاحبة المشروع الوحيد والمعلن لإنشاء دولة إسلامية في مواجهة أطراف مقاتلة وفصائل متحاربة ومعارضة مشرذمة ودول أجنبية وعربية مختلفة في ما بينها حول مستقبل سورية، ونظام متحالف مع مقاتلين من العراق ومن حزب الله ومن الحرس الثوري الإيراني، ومدعوم من

(١) دون أن ننسى للحظة أن جبهة النصرة لأهل الشام قد شكلت في ممارساتها نموذجاً تقليدياً لتنظيم القاعدة، سواء لناحية الإعدامات الجماعية أو لناحية ممارسة قطع الرؤوس أو اعتماد السيارات المفخخة مع السائقين الانتحاريين وتحليل قتل الابرياء والمدنيين خلال هذه العمليات، أو لناحية العقوبات على السكان المدنيين من جلد وقطع يد، أو لناحية منع المرأة من قيادة السيارة والخروج متبرجة حتى لو كانت محجبة. أو حتى في ممارساتها تجاه الفصائل الأخرى والقوى الثورية السلمية من لجان وناشطين، فحين كانت في سطوتها عملت على تحطيم الآخرين من هذه القوى وأحياناً تصفيتهم خصوصاً في مناطق نفوذهم القوية في حلب وإدلب، لبسط سيطرتها بالكامل وفق أسلوب عملها السلفي الجهادي.

إيران وروسيا، ويحاول تأبيد وجوده، بينما يحاول حلفاؤه الحصول على السعر الأعلى في مفاوضات لا تنعقد.

وفي خريف العام ٢٠١٣ واصل تنظيم الدولة عمليات الاعتقال لمن شكّل قادة الثورة منذ انطلاقتها، وعمليات إعدام قادة في الجيش الحر، وتصفية مراكز نفوذهم، ووضع الفصائل الإسلامية في سورية إلى جانب الجيش الحر هدفاً له متخلياً عن الجبهات ضد النظام، مضعفاً كلاً من المعارضين المسلحين عبر إشغالهم في حرب إبادة داخلية، وقطع مسالك الذخيرة وخطوط الإمداد والموارد المالية عنهم، كما عن الثوار والناشطين الإعلاميين في الداخل عبر مهاجمتهم باستمرار وتصفيتهم أو اعتقالهم بتهم وخلفيات دينية ومسلكية أو بمجرد اتهامهم بأنهم من عملاء النظام. مما بات يشكل عبئاً على حركة تتحول من ثورة إلى حرب أهلية ويضعها في حالة حرب متشعبة، على أبواب مفاوضات دولية يفترض أن تحدد مصير سورية ومستقبل النظام.

إما العراق أو لبنان

لم يعد من الممكن التحدث عن نموذج واحد لتنظيم القاعدة في سورية، هناك وبمثابة أمر واقع تنظيمان، ووجهتان للقاعدة هناك، واحدة تقود سورية إلى ما يشبه عراقاً جديداً، وأخرى يمكنها أن تتحول إلى طرف سياسي عسكري متطرف دينياً، **الأولى** هي تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام **والثانية** هي جبهة النصرة لأهل الشام.

يمكن للطرفين الحياة لفترة طويلة. وتكتيكياً، أو في المدى المنظور، فإن كل مظاهر التفوق تتجه لمصلحة الدولة الإسلامية، حيث كانت تعمل على تأسيس مستقبل لها في سورية عبر تدمير قوى الجيش الحر أولا، وتصفية قيادات وكوادر رئيسية على اتصال ما بين القيادة والمعارضة من ناحية والجمهور والشارع من ناحية أخرى، وعزل القيادة عن القواعد، والاستيلاء على السلاح والمساعدات، وتهديد القياديين في المجموعات

المقاتلة سواء أكانت مجموعات إسلامية أو مجموعات تقاتل تحت اسم الجيش الحر.

وتمتلك الدولة الإسلامية الحجم التسليحي الأكبر بين فصائل المعارضة في شمال وشرق البلاد، وتتنافس مع جبهة النصرة على تجريد الجيش الحر وقيادة الأركان فيه من سلاحها، ومصادرة أملاكهم ومراكزهم بما فيها من مؤونة ومساعدات ومخازن أسلحة، بينما تعتمد جبهة النصرة على تحالف «ما» مع قوى سورية إسلامية فإن الدولة الإسلامية بدأت تتخلى كلياً عن أي تنسيق مع القوى السورية الأخرى، وتتكل على ما تملكه فعلا من امكانات وما يمكنها أن تحصل عليه، وعلى اختراق القوى السورية أمنياً وضربها عسكرياً.

على المستوى السياسي والمذهبي فإن النزاع الذي تمكّن حزب الله والنظام السوري من تحويله من حركة احتجاج سياسية وسلمية إلى حرب مذهبية وأهلية قد فرض على كل الأطراف في سورية الانحياز إلى شعار مذهبي للإجابة على التحدي المطروح أمامهم، خصوصاً أن لا وجهة أخرى أو مشروعاً سياسياً أو معارضة سياسية متماسكة يمكنها تقديم إجابات مختلفة على التحدي الذي تواجهه سورية. وبالتالي فإن هذه الأطراف، التي لم تكن المسألة المذهبية مطروحة على رأس اولوياتها قد باتت اليوم، وبعامل الفعل ورد الفعل الموازي والمساوي، تلعب في ملعب تنظيم القاعدة بجناحيه.

وكان من الممكن قبل عام ٢٠١٣ القول إن المشكلة الطائفية في سورية هي عارض جانبي، لكن اليوم لا بد من القول بأن عمق المشكلة المذهبية قد بات يهدد كل مسارات الأمور، ويساعد تنظيم القاعدة والقوى الأكثر

تشدداً على احتلال حيز أكبر في صورة الصراع ومساراته خاصة مع ازدياد الصراع العسكري وتشعبه.

وشكّلت دعاية النظام المعادية لجبهة النصرة أكبر مساعد على انتشار وبقاء الجبهة كما الدولة الإسلامية، وإعطائهما حصانة «ثورية» وشعبية. ومهاجمة حزب الله للتكفيريين في سورية هو استدعاء لهم ليس فقط إلى سورية بل إلى لبنان أيضاً الذي بات يشهد ولأول مرة في تاريخه انتحاريين لبنانيين يقودون سيارات مفخخة ويفجرونها في المناطق المأهولة بالسكان الشيعة.

وما دام الصراع بهذه الوتيرة فإن الدولة الإسلامية ستبقى بصفتها مجموعات أجنبية جهادية، مدعومة بمئات أو أكثر، من المقاتلين المحليين، وستكون أساليب عملها هي تلك التي سبق أن أتقنتها الدولة الإسلامية في العراق، ومشروعها معلن وواضح، كما أن أهدافها واضحة، فمناطق الاشتباك مع النظام السوري قليلة الجاذبية للدولة الإسلامية في العراق والشام، وأكثر المناطق جاذبية هي تلك الحدودية كما المناطق الغنية بالموارد في الشرق السوري، وهي ما ستكون عليه الأمور خلال الأشهر المقبلة إلى حين إيجاد حل سياسي، يمكن أن ينتج حالاً من الاستقرار ويدفع بتنظيم الدولة الإسلامية إلى العمل كخلايا أمنية بعد أن أصبح يعمل كقوة عسكرية في سورية.

لم تجد الدولة الإسلامية أية وسيلة لجذب جمهور حولها، حصدت كراهية أغلب الجمهور السوري المؤيد للتغيير وللثورة حتى لجبهة النصرة، وربما لم تسعَ إلى التحول لتنظيم جماهيري، وهو ما سيؤدي إلى اهترائها سريعاً بحال تمكن القوى السورية من تشكيل حالة اتحادية في ما بينها، أو بحال

قررت المملكة العربية السعودية ودولة قطر وبعض الدول الأخرى توحيد صفوف المقاتلين السوريين وفصائلهم المختلفة. وحينها سنرى انحساراً كبيراً للدولة الإسلامية وتحوّلها إلى أشكال العمل الأمني والسري التي اشتهر بها تنظيم القاعدة بعد مرحلة افغانستان.

غير أن ذلك لا ينطبق بالضرورة على جبهة النصرة، التي وبفعل كل ما تقدم يمكنها التحول إلى فصيل سياسي يمتلك ذراعاً عسكرياً قوياً، فعلى الرغم من ضربة الانشقاق بين الدولة والجبهة لا تزال الجبهة تملك قابلية للحياة والتطور، وهي لا تزال تسعى إلى أن تكون تنظيماً جماهيرياً مقبولاً ومرحّباً به بين السوريين، ولا تزال تظهر للسكان المحليين بصفتها قوة مقاتلة من أجل تغيير النظام في سورية، وتحرص على المشاركة والتواجد على نقاط التماس مع قوات النظام، وعلى التنسيق مع القوى الأخرى المشاركة في المعارك، ولا سيما مع القوى الإسلامية السورية، وعلى المشاركة في القضاء والمحاكم الشرعية التي حلت مكان المحاكم المدنية للنظام.

لكن لا ينبغي التوهم للحظة بأن جبهة النصرة أو الدولة الإسلامية يمكنهما الابتعاد عن الأصول الأيديولوجية التي قامتا عليها، والتي تشكل سند شرعيتهما في القتال وفي ادعاء الصوابية والأحقية في التواجد، فبالنسبة إلى الدولة الإسلامية إن الأيديولوجيا هي المدخل والمبرر لكل ما كان من ممارسة أمنية وسياسية مشكوكاً بها من قبل السوريين، الذين يعتبرون انها لا تفيد غير النظام وإيران وروسيا في معركتهم ضد تغيير النظام السوري، وبالنسبة إلى جبهة النصرة فإن المرونة الحالية لا تلغي قدر التشدد الذي ستواجه به أخصامها كما فعلت حين استتب لها الأمر ما بين صيف العام ٢٠١٢ وربيع العام ٢٠١٣.

لم تحصل أي من الجهتين على تأييد المواطنين السوريين في مناطق الثورة أو المناطق المحررة من قوات النظام. ببساطة، المناخ الاجتماعي السوري لا يسمح بحياة لتنظيم القاعدة، إلا بالترافق مع أزمة عاصفة مثل الحالية، وحالة تشرذم كما التي يعيشها اليوم، ولكن أي تحول إيجابي في الواقع السوري سيكون عملياً تحولاً سلبياً كبيراً بالنسبة إلى طرفي تنظيم القاعدة في سورية، وسيكون بداية نهاية العصر الذهبي لحياة التنظيم في بلاد الشام.

إزالة آثار الأيام الذهبية لتنظيم القاعدة وتصفية خلاياه نفسها قد تتطلب توافقات دولية حول الملف السوري، أي تتطلب فقدان مصلحة الأطراف المتدخلة في دعم وجود القاعدة في سورية، وستتطلب زمناً طويلاً يقاس بالأعوام، لكن الغطاء المحلي سيزال عن مقاتلي تنظيم القاعدة الاجانب والمحليين، وسيكفّون في نظر المواطن السوري والثائر السوري عن كونهم مقاتلين ساعدوا الثورة في أصعب أيامها وحرروا جزءاً من البلاد، وسيصبحون مجرد قتلة يفجّرون المباني بسكانها ويسرقون موارد البلاد ويقتلون نساءها وقادة ثورتها.

فإما يتحول تنظيم القاعدة في سورية بفرعيه إلى الحالة العراقية، أي يُستفاد من خدماته الأمنية والتفجيرية من قبل أطراف دوليين مع مطاردته محلياً، وإما يمكن لطرف من طرفيه، أي جبهة النصرة، أن تحصل على عفو وتدخل في الميليشيات السورية وتحصل على حصة من المكاسب كما أي ميليشيا أخرى، ووفقاً للنموذج اللبناني لحل الصراع الأهلي.

الفصل الرابع

٢٠١٤

الحسابات الخاطئة

في مكان ما تابع لإحدى القوى المقاتلة، أتيح لي مقابلة سجين عربي من القاعدة كان يقاتل في صفوف داعش حين أسر، وهو يشرب الشاي في سجنه ويتحدث عن كفر المجموعات التي تأسره، ويردد دون كلل واقعة أن «الحرب» قامت بعد أن داس شخص في عندان علم تنظيم القاعدة (اي الشهادتين الإسلاميتين)، ما استدعى إرسال داعش لمجموعات إسناد إلى عندان لضبط الوضع في السادس من كانون الثاني ٢٠١٤، ومنعت هذه المجموعات من سلوك الطريق الرابط بين مواقعها (خاصة الفوج ١١١ ما بين قريتي دارة عزة والشيخ سليمان)، وأن المعركة هي مؤامرة لضرب دولة الإسلام. ويتابع أن الجيش الحر كافر، والقوى المحلية الأخرى مرتدّة لرفضها الدولة الإسلامية.

هذا السجين لم يتراجع قيد أنملة عن قناعاته رغم كل ما حصل، ورغم

العثور على المئات من الجثث لنساء وأطفال سوريين في مقابر جماعية تمتد على طول مناطق سيطرة داعش، ومع ذلك يصف السجين المجموعة التي سجنته بأنها مجموعة مرتدة، ويعتبر الجيش الحر كافراً، ويوجب قتال المرتد قبل الكافر.

سكان الريف ومقاتلو الجيش الحر اليوم منقسمون حول جبهة النصرة، ولكن الأغلبية العظمى تعتبر أن النصرة هي داعش ولكن بنسبة ذكاء أعلى، والكل يعرف كيف تضم النصرة العناصر المتروكة من الأجانب والذين كانوا يقاتلون إلى جانب داعش وكيف تشغل المواقع التي كانت ترفع علم داعش، وتحميها من دخول القوى الإسلامية السورية أو قوات الجيش الحر إليها. ويصمتون لعلمهم بأن يوماً ما سيصلون إلى مواجهة مع النصرة إذا ما استمرت على سياستها، حتى لو كانت اليوم تشارك في بعض المعارك ضد داعش، وحتى لو كان تاريخها في القتال ضد النظام يشهد لها.

على وقع التحضيرات لجولة مفاوضات جنيف-٢ (الذي انعقد في ٢٢ كانون الثاني ٢٠١٤) بدأت الفصائل السورية عملية تصفية وجود داعش في محافظتي حلب وإدلب، وتركت دير الزور والرقة لتشابك أوضاعها، كان النظام السوري سيدخل المفاوضات ببند وحيد هو محاربة الإرهاب التكفيري، وهو ما يلغي مشروعية الثورة بالكامل، ويتقاطع مع الشعار الأميركي خصوصاً والغربي عموماً القائم منذ عقدين، إلا أن عمليات الجيش الحر والقوى السورية الأخرى بتصفية داعش أدّت إلى إفراغ هذا الشعار من أي معنى له، فإن كان هناك من

يحارب «الإرهاب» فهم أبناء الثورة وليس النظام الذي رعاه وشجعه وأمّن له بيئة مواتية للنمو.

السكان المحليون كانوا أكثر من مستعدين لقتال داعش، بالحقيقة فإنهم قد ضاقوا ذرعاً بممارساتها، وبالرعب الذي بثته بين صفوفهم، كانت الثورة قد كسرت حاجزاً لم يعد من السهل إعادة بناؤه: الحكم بالخوف أصبح من الماضي الآن في سورية، يمكن دائماً مغازلة المواطن السوري واسترضاؤه عبر القليل من الأمن، والقليل من الرعاية الاجتماعية، والقليل من العمل من أجل تحسين أوضاعه، إلا أن الخوف من العودة إلى زمن الصمت كان أكبر من الخوف من الموت عند الكلام، الموت أصبح حاضراً بكل الأحوال، وأصبح شعار «الموت ولا المذلة» متحققاً بشكل يومي، غصباً عن إرادة الناس، فالموت يحيط بهم كيفما اتجهوا وأين نزحوا، فأن تكون السماء تمطرهم ببراميل النظام القاتلة هو أمر لا مفر منه، أما أن تضيق بهم الأرض بعد سيطرة داعش على المناطق الخلفية التي يلجأون إليها فكان فوق التخيل والقدرة البشرية على الاحتمال.

السكان هم من حرّض القوى السورية للقضاء على داعش، كان الأمر ينتظر الظرف الإقليمي والدولي المناسبين، والسكان هم من خاض المعركة، وهم من انتصر، إلا أن ذلك لا يلغي بحال من الأحوال واقع الحقد الذي تراكم لدى قادة الفصائل ومقاتليها، فالقادة بأغلبهم إما تعرضوا لتهديدات من قبل أمراء داعش، أو تم تكفيرهم، أو تهديدهم بالتكفير، أو تعرضوا لمحاولات اغتيال «تحذيرية» لإبعادهم عن الأرض وتحويلهم هم أيضاً إلى لاجئين لدى تركيا، أما المقاتلون فتُركوا وحدهم

على الجبهات، وحين يعودون منها عليهم أن يتعرضوا لمعاملة مشينة على حواجز داعش، عدا كل الرعب الذي يعيشونه حين يزورون أهلهم أو يدخلون مناطقهم نفسها.

«لا تأت لا يمكننا حمايتك» هي الرسالة التي أبلغني بها كل الأصدقاء في سورية كلما حاولت الذهاب لمتابعة عملي، «لو كنت بيننا وقررت الدولة اعتقالك فلن نتمكن من الدفاع عنك ولن تعود حياً إلى أهلك» يقولون لي عبر وسائل الاتصال، طالبين ابتعادي عن سورية إلى أن تنتهي غيمة داعش السوداء.

وعلى حواجز السوريين نفسها لم تكن آليات داعش تتوقف، سواء الآليات المدنية من سيارات عادية أو تلك المجهزة برشاشات متوسطة وغيرها، كانت تعبر الحاجز دون أن تخفف من سرعتها، وإذا حاول أحد التأكد مما في داخل السيارة فسيسمع الشبان داخلها يقولون بلهجات أعجمية «دولة أخي دولة» فيما عرباتهم تمر مسرعة عن الحاجز. لا بل يتهكم المقاتلون من داعش على الواقفين على الحواجز في الكثير من الأحيان، فيقولون للشبان السوريين «تنانيركم جميلة من أين حصلتم عليها» إلى آخر ما هناك من إهانات كبيرة بالنسبة إلى الرجل السوري. أدّى كل ذلك وغيره من حصار مارسته داعش على الموارد المالية والحياتية والاغاثية واحتكار المساعدات عنفاً أو رضائياً واستباحة كل شيء من الأموال إلى الحياة نفسها للمواطنين والمقاتلين السوريين على حد سواء، إلى التأسيس للحظة الانقضاض عليها وتصفيتها، وحصرها في الرقة ودير الزور، ثم تطهير دير الزور من عناصرها.

لم تتمكن داعش من المقاومة إلا في القرى التي عانت الأمرّين من ممارسات فصائلها المحلية، فبقيت إلى حين في كفرحمرة القريبة من مدينة حلب وفي أعزاز الحدودية، وفي بعض نواحي عندان، إلا أن أغلب المناطق شهدت انتفاضة فعلية ضد داعش لم تشهد مثلها يوم تحريرها من قوات النظام. إذ يروي السكان الهبّة التي أطاحت داعش بالتأكيد أن أكثر المشاركين لم يملكوا أسلحة، بل هجموا على ما يمكن أن يكون له أية صلة بداعش بالرفوش والمعاول والعصي، وأن القرى توحدت ضد العناصر الأجنبية، ولم يكن من السهل التمييز بين أعضاء جبهة النصرة وداعش، فاختفى مقاتلو جبهة النصرة مفضّلين الاختباء بدل التعرض لغضب السكان، وطارد السكان والمقاتلون على حد سواء الأجانب والمقنّعين من أبناء سورية الذي يحملون السلاح إلى جانب داعش حتى طردهم من مناطقهم دون رحمة.

سقطت الطرق والحواجز، وحوصر مقاتلو داعش في مراكزهم وبعض النقاط، ومن رفض التسليم وحاول المقاومة تم القضاء عليه بأي طريقة، وعانى بعض السكان من مقاتلين محتمين هنا وهناك، وفي بعض الحالات استخدموا ببنادقهم البسيطة ليتخلصوا منهم، ولم يتمكنوا من القضاء عليهم، إلا بعد تفجير قوارير الغاز في مبانٍ يتحصن بها عناصر من داعش.

أقل من عشرة أيام انقضت فتطهرت المناطق من داعش، وانحسر وجودها وباتت غير مؤذية نسبياً، وعشرة أيام أخرى من الأعمال الحربية المتفرقة كانت كافية لاستتباب الأوضاع. الكلفة كانت هائلة، تقريباً توازي كلفة قصف مدينة حلب بالبراميل من طائرات النظام، إذ أدّى القصف إلى مقتل أكثر من ثلاثة آلاف مواطن سوري في حملة طالت من شهر تشرين الثاني ٢٠١٣

وحتى لحظة الانتهاء من كتابة هذا النص، بينما كانت كلفة القضاء على داعش مقتل حوالي ٣٣٠٠ إنسان ما بين مقاتل ومواطن.

بعدها لم تُبد الكثير من الفصائل مانعاً من مشاركة جبهة النصرة في القتال على المحاور والمشاركة في الهجمات ضد مواقع النظام وفي المعارك الكبرى، إلا أن الكثير من الفصائل رفض عودة تمدد جبهة النصرة إلى المواقع التي كانت تحتلها داعش سابقاً، أو حتى تواجدها داخل المناطق الخاضعة لنفوذ الفصائل السورية.

وعلى الرغم من قسوة التجربة الداعشية فإن العقل السوري ميّال إلى التسامح والنسيان وحفظ الجميل لمن يدعمه، ومع الوقت ستعود جبهة النصرة إلى التمدد بين المواطنين السوريين المدنيين وقرب منازلهم في غير مكان.

من الشمال إلى الحدود التركية

رصيف واحد لم يتسنّ تبليطه قبل الثورة ضم رفات قتلى عدة، كان الشبيحة قبل تحرير حلب من قوات النظام يعذبون ضحاياهم المتهمين بالتعاون مع الثوار، ويدفنونهم بعد مقتلهم تحت التعذيب على قارعة الطريق تحت الرصيف غير المعبد إلى جانب الشارع، ثم بعد تحرير المنطقة، أعدم الثوار عدداً من المتهمين بالتشبيح في حلب، ودُفنت جثثهم تحت أرض الرصيف نفسه، بعدها عاد تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) ليقتل بعض الثوار موجهين لهم تهماً شتى من ضمنها العمل لمصلحة النظام والكفر، وأيضاً دفنت الكثير من جثثهم تحت الرصيف نفسه، ثم وبعد التخلص من داعش تم دفن عدد من جثث مقاتليها متنوعي الجنسيات تحت الرصيف إياه، كانت الجثث تدفن فوق الأخرى، ولم يعد أحد يعلم من الذي يرقد ها هنا، وتمر السيارات الآن قرب هذا الرصيف دون أن يلتفت أحد إلى المكان الذي لا تعلوه شاهدة ولا أية إشارة لقتلى دفنوا هنا.

وفي أحد أكبر المواقع العسكرية التابعة للنظام سابقاً في الريف الحلبي، تم دفن عدد من المدنيين ممن ماتوا تحت التعذيب أو الذين أعدمهم الجنود مزاجياً بعد أن أوقفوهم على حواجزهم وجردوهم من حمولات سياراتهم ونكلوا بهم وهم يصورونهم بكاميرات هواتفهم ثم تخلصوا من جثثهم بين أشجار السرو، ثم دفن عدد آخر من الذين قتلهم عناصر الدولة الإسلامية في العراق والشام تحت أشجار السرو نفسها، قبل أن يدفن عناصر التنظيم نفسه رفاقهم تحت الأشجار عينها، ثم يدفن عناصر من الجيش الحر عناصر آخرين من تنظيم داعش تحت الأشجار أيضاً بعد إعدامهم، وبقي المقاتلون يتجولون في الموقع وعينهم تمر دون أن تطرف على أرض رملية يرقد تحتها طبقات من المقاتلين والمدنيين والمظلومين والنساء والأطفال الذين قتلوا غيلة أو تحت التعذيب أو لمزاجية جنود النظام السوري أو لأسباب عقائدية أو لأعتدائهم على كل من سبق.

لا يتعب كثيراً المواطنون السوريون في البحث عمن اختفوا من أقربائهم، بات الموت سهلاً وقريباً جداً إلى التصديق، بمجرد أن تعلم عائلة أن ابنها قتل أو اعتقل على أيدي النظام تكف عن تعقب آثاره، أو تكتفي بالبحث البسيط، علها توفق بالعثور على من كان معه في زنزانة واحدة، أو جندي منشقّ يعلم ما آلت إليه أحوال الابن المفقود.

العديد من العائلات تخضع للابتزاز المالي لمعرفة مصير أحد أفرادها، والكثير من العجائز ينتقلون من محافظة إلى أخرى في سورية بحثاً عن ابن لهم انقطعت أخباره خلال خدمته العسكرية، وتردد أنه وقع أسيراً بين أيدي الثوار في هذه المنطقة أو تلك. تصل الأم والأب العجوزان، يتوسلون

الرحمة من الذين قاتل ابنهم ضدهم، وقتل من افرادهم حتى وقع في الأسر، ويسألون عن الولد المفقود، ودائماً يرددون الحكاية نفسها، المفقود الأسير كان مجبراً على المشاركة في عمليات القتال، ثم يتلقون على الأغلب الأجوبة نفسها، لا نعرف عن مصير مفقودكم أي شيء، لم نأسره، راجعوا جبهة النصرة، راجعوا أحرار الشام، راجعوا لواء شهداء سورية، راجعوا درع الشهداء، راجعوا ....

وفي حالات قليلة يتم إعلام الأهل بأن «ابنكم وقع أسيراً بين أيدينا، واعترف بمشاركته بأعمال إجرامية، وتم الحكم عليه بالموت، وقتل ودفن»، دون أن يتم تحديد مكان الدفن. امتلأت الأراضي في سورية بالمقابر الجماعية، حتى بداية العام الرابع للثورة كانت الارقام الرسمية تفيد بمقتل ١٥٠ ألف إنسان، إلا أن الارقام الفعلية هي ضعف هذا الرقم، وحتى ضعفه مرة ونصف مرة، المساجين لدى النظام أكثر من أن يُحصَوا، يقول كل من تمكن من الخروج سالماً من السجون الرسمية أن الأسرى يقبعون في الاقبية والدهاليز بعدما عجزت الزنازين عن استيعاب المزيد من المعتقلين، فباتوا يلُقون بالأسرى والمعتقلين في الردهات مكبلين ومعصوبي الأعين، ويتركون لشأنهم ما بين احتفال تعذيب وآخر. أما المعتقلون لدى تنظيم الدولة الإسلامية فبالآلاف، الجزء الأكبر منهم مخصص لطلب فدية وتمويل التنظيم، وجزء آخر يقضي تحت التعذيب أو ببساطة يتم التخلص منه دون إبلاغ عائلته بأي خبر.

وبعد رحيل داعش عن حلب وإدلب لم يمض يوم إلا واكتُشف المزيد من المقابر الجماعية، هنا دفن اثنان، وهناك ثلاثة، وهنالك عشرة، وفي كل مكان

كنت تسمع من يعرف أجزاء من الرواية، ها هنا قتلوا شخصين قالوا انهما من الشيعة، يكفي بالنسبة لداعش أن يكون الشخص شيعياً ليُقتل مباشرة، وهناك دفنت ثلاث نسوة قتلن ويقال أنهن اغتصبن قبلها، والتهمة أنهن كافرات، وفي مكان آخر تم إيقاف باص كبير يحمل عائلات كردية[١] فقتل الرجال والنساء والأطفال ودفنوا قرب مدرسة خالية في إحدى القرى بينما بقي الباص في مكان إيقافه قرب أحد الحواجز السابقة لداعش ينتظر عودة من خطفوا من داخله.

وفي أحد المباني الكبيرة تم التخلص من عدد غير معلوم من الجثث بإلقائها في حفرة صحية كبيرة، لم يتمكن أحد من تحديد هوية البشر الذين ألقى العناصر الأمنية لداعش بجثثهم فيها، ولا معرفة سبب قتلهم، ولا اقترب أحد من المكان مرة أخرى لمحاولة سحب الجثث، بل أهيلت الرمال على الحفرة ونُسي الأمر نهائياً.

وخلال التجول في أحد المباني غير المكتملة ضمن مجمع سكني ممول من إيران في الريف الحلبي، كانت داعش قد حولت جزءاً منه إلى سجن سري، تعثر على عظام بشرية في أحد الطوابق، ولا تعلم أهي الحيوانات قد سحبت هذه العظام إلى الطوابق العليا ام أن هؤلاء البشر قد تعرضوا للقتل هنا وتولت الطيور والكواسر والكلاب المسعورة كشط اللحم عن العظم حتى باتت الجماجم جرداء ونظيفة.

(١) منذ لحظة دخول مجموعات موالية لدولة العراق الإسلامية إلى سورية، وقبل تشكيل تنظيم داعش وانشقاقه عن جبهة النصرة، تعاملت المجموعات التابعة لدولة العراق بقسوة مفرطة مع الأكراد، وصنفتهم جميعاً بمدنييهم وعسكرييهم ككفرة وجب قتلهم، على الرغم من أنهم يتبعون المذهب السني.

ويأتي من يخبرك بأنه نجا بأعجوبة من الأسر، حيث وقع بين أيدي عناصر حزب الله وقوات النظام، وخلال دقائق قليلة وهم لا يزالون في إطار تعذيبه الأولي، تمكن رفاقه من شن هجوم معاكس، وتحريره، وعلى الرغم من إطلاق النار عليه بغية تصفيته، إلا أن الإصابات لم تكن قاتلة. بينما يتحدث آخرون عن نجاتهم من الاعتقال لدى داعش بعد أن تنقلوا من منطقة إلى أخرى، وكان القرار الأخير بتصفيتهم مع تعرض موقع اسرهم للمهاجمة من قبل قوات الجيش الحر والفصائل الإسلامية السورية، غير أن عناصر داعش لاذوا بالفرار بعد إطلاق عدد من القنابل اليدوية على المعتقلين.

بات هناك أيضاً من يعتقد يقينا بأن قتل الأطفال يحمل تضحية وقربا إلى الله، فها هو الطفل جعفر، الشيعي من الزهراء يقع بين ايدي أحد الفصائل، بعد أن شهد على مقتل مرافقتيه من قبل فصيل آخر، وتحاول العديد من الفصائل وعناصرها اختطافه أو شراءه لقتله تقرباً إلى الله.

الطفل هذا لم يتجاوز العاشرة، كانت ترافقه امرأتان إيرانيتان تنقلانه من قريته الزهراء إلى أحد المشافي في حلب لمراجعة طبيب حينما سلكتا طريقاً خاطئاً برفقة سائقهما، ووقعوا جميعاً في حاجز مشترك لفصيلين، عناصر أحد الفصائل قتلوا الامرأتين، وتركوا السائق، واطلقوا النار على الطفل رغم اعتراض عناصر الفصيل الآخر، وبما يشبه المعجزة اصيب الطفل في كتفه وذراعه إلا أنه لم يمت، تم إسعافه، وحرص بركات، المقاتل البالغ من العمر ٢٣ عاما على الاهتمام بالطفل، وسط رعاية من قائد فصيله، وأصبح الطفل جعفر تحت وصايته، حاول العديد من قادة الفصائل عرض المال على

حماة الطفل جعفر، وآخرون عرضوا المال على بركات للتخلي عن الطفل، وبركات غيّر اسم الطفل إلى عمر حماية له وحرصاً على حياته، والطفل كان من الذكاء بحيث التصق ببركات وبات يدرك جيداً ما يجري حوله بعد أن شهد على مقتل مرافقتيه.

عاش الطفل أشهراً مع بركات، وخلالها كانت مدفعية الزهراء تدك المناطق التي يتجول فيها جعفر، وكان جعفر يتصل بأهله بانتظام بعدما عثر بركات على وسيلة للاتصال بهم هاتفياً في قرية الزهراء. وبعد أشهر وطول علاج عاد الطفل جعفر إلى أهله في عملية اين منها العمليات العسكرية الضخمة.

ربما الجيل الجديد في الثورة لا يعلم الكثير عن الطفل، أو عن الآخرين من أبناء سورية، فهو ببساطة نشأ في سورية مقسمة إلى مناطق محررة ومناطق تحت سيطرة النظام واخرى تحت حكم «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، ومع بداية العام الرابع للثورة السورية خرج الجيل الجديد من الشبان والمراهقين وهو لا يدرك تماماً ما جرى منذ اعوام قليلة، يعرف عن النظام انه يقصف القرى ويهجّر أهلها، وانهم ومنذ أن نضجوا وبدأوا يعون ما حولهم وهم ينزحون من منطقة إلى أخرى، والقصف يطاردهم، أو أنهم تركوا مدارسهم نتيجة الأعمال الحربية والقصف، ويعرفون اسماء العديد من اقربائهم الذين قضوا خلال القصف أو الاعتقال والتعذيب، هؤلاء هم الجيل الجديد الذي يحمل السلاح الآن. أعمارهم لا تتجاوز العشرين عاماً، وأغلبهم من مواليد ١٩٩٨، أي أنهم كانوا في الثالثة عشرة من العمر حين اندلعت الثورة، وبالكاد ذكر أحد أمامهم كلمات مثل «سلمية» أو «إصلاح»، يعرفون الحرية لانهم يعيشون أحد اشكالها المتطرفة، وبات

دافعهم للقتال والمشاركة في الثورة الان هو مزيج غريب من العوامل الثأرية والدينية والاقتصادية والمناطقية، وحتى الاثنية.

شرعوا في القتال بصفته واجباً لا مفر منه، تماماً كما كان التسرب المدرسي في الاعوام الماضيات واجب للدخول في العملية الإنتاجية لا خياراً ينمّ عن الكسل، وكما كان العيش بصمت هو واجباً لا خياراً. واليوم صار القتال من أجل المزيج الغامض من الاسباب هو الواجب لا الخيار، وهؤلاء الشبان يتدربون قليلاً قبل حمل السلاح، واغلبهم لا يتدرب، بل يذهب مباشرة إلى الجبهات برفقة من هم أكبر سناً من مقاتلين أيضاً لم يخضعوا لدورات تدريب فعلية، بل اكتسبوا الخبرة في القتال دون العلوم العسكرية، وتعرفوا إلى الاعمال الحربية بالطريقة الأصعب، ودفعوا الدماء مقابل التعلم والانتصارات البسيطة والكبيرة التي تحققت.

جاء الجيل الجديد إلى الثورة ليحمل القليل من التعب الذي تكبده الجيل الأول، يخاطب أحد القادة المحليين الميدانيين عناصر انضمت حديثاً إلى دورة تدريبية لحثهم على الالتزام والانضباط «أنتم الذين نراهن عليكم، ننتظر منكم أن تساعدوا جيلنا، لم يبق منا شاب لم ينزف صدره أو لم يقطع جزء من جسده في القتال، أهلكم قبلكم قاتلوا، بعضكم أبناء أو اشقاء لشهداء في الثورة، ونحن نحتاج إليكم لننام قليلاً في منازلنا بعد أن جرحتنا الحرب كلنا، المحظوظ بيننا أصيب مرة، والأقل حظاً فقد أجزاء من جسده». وبالفعل، إذ بين الشبان المتدربين عدد من أبناء شهداء، وعدد آخر من أبناء جرحى الثورة، وآخرون فقدوا أقرباءهم، بينما أغلب الجيل الأول تعرض لإصابات متفرقة، ومختلفة.

الأسئلة المعقدة والاجابات البسيطة

في النقاشات التي تجري دائماً حول الثورة في بيروت أو في أي مكان آخر تزوره تسمع الكثير من الكلام والاعتراضات والنقد حول ما يجري في سورية، الانحرافات، الأخطاء، أسلمة الثورة، عسكرتها، تشتت القوى العسكرية والثورية، ميوعة معارضة الخارج، انعدام الآفاق السياسية للمعارضة الداخلية، إلى آخر ما هناك مما يمكن تسجيله من الملاحظات.

ولكن من يعيش داخل الثورة السورية يمكنه أن يقدم الإجابة الأبسط حول كل الأسئلة بأن الشعب السوري بقواه الحية الثائرة عرفت ما لا تريده تماماً، وعاشت التحولات، من المطالبة بالإصلاحات، إلى التظاهرات السلمية، إلى المطالبة بإسقاط النظام، بعدها الدفاع عن النفس، ثم العسكرة الشاملة، والأسلمة للعديد من الفصائل المحلية، وبعدها جبهة النصرة ومن ثم داعش، ثم الجيل التالي من المقاتلين وطرد داعش، والشيء الوحيد الثابت

في كل هذه المراحل هو المطالبة برحيل النظام القائم، وسعي النظام الحالي إلى البقاء بالقتل والقتل فقط.

في أحد المراكز الكبرى للقوات العسكرية التابعة للثوار جرت في شهر شباط من العام ٢٠١٤ دورة تدريب عسكرية ضمت مجموعة من الشبان الجدد، أعمارهم لا تتجاوز العشرين، بينهم بعض الشبان الأكبر سنا، يشكّلون حالتين، **الأولى** هي حالة أولئك المتأخرين عن الانضمام إلى الثورة، والذين يتهمون بانهم كانوا مؤيدين للنظام، **والثانية** هي حالة أبناء المدينة والمتعلمين الذين حافظوا على ما يشبه الحياة الطبيعية إلى أن طالتهم الحرب بهذا الشكل أو ذاك فقرروا أن الوقت قد حان للمشاركة المباشرة بالقتال.

الشبان الجدد يصلون ويلتزمون بالسلوك الديني، إلا أن أغلبهم حليقي الذقون، أو يربون شواربهم جرياً على التقليد السوري، بينما أحد مدربيهم كان من مقاتلي الدولة الإسلامية سابقاً، وتخلى عنها قبل أن تطرد من منطقته بزمن طويل نسبياً[١].

يقول الشاب انه خرج مع داعش لأن الفصيل المحلي لم يسمح له بالمشاركة في القتال، كان صغير السن، يبلغ الخامسة عشرة من العمر حين بدأت الثورة،

(١) مساعد المدرب هو حسن راشد من قرية قبتان الجبل ويبلغ من العمر ١٩ عاماً، رفض فصيل محلي ضمّه إلى صفوفه في بداية العمل العسكري نظرا لصغر سنه، فانضم إلى جبهة النصرة، ثم إلى الدولة الإسلامية، وبعدها تخلى عن الدولة ومكث في منزله، ثم عاد للتدريب مع الفصيل المحلي الأول الذي رفضه في البداية، ليقتل خلال هجوم على مواقع للنظام السوري وهو يقود مجموعة من متدربيه في ربيع العام ٢٠١٤.

وكان الفصيل المحلي يتحجج بأنه لا يملك بندقية، وأن عليه توفير بندقيته، إلا أن صغر سنه هو ما كان يمنع الفصيل المحلي من ضمه إلى مقاتليه، فتعرف إلى المقاتلين الأجانب، وعمل لفترة طويلة مع جبهة النصرة، ثم مع الانشقاق تحول إلى داعش، وبقي على الجبهات إلى أن أصيب، عندها ونتيجة اصابته، كلف بمهام في المراكز وحراستها، فاكتشف ما لم يكن يخطر على باله من فساد وسوء معاملة داعش لمواطنيه، وسرقاتها لعابري الطرق، والخطف والقتل، فتنحى جانباً، إلى أن بدأت معركة تصفية داعش في المناطق، فحاول توفير الدم على الطرفين، ثم انضم إلى المقاتلين ضد داعش بعدما تعرض عدة مرات لإطلاق نار مباشر من رفاق الامس في الدولة الإسلامية.

«لم نكن نعلم ما الذي يجري في الداخل، كنا كسوريين دائماً في المواقع القتالية الأولى، وبعدها اكتشفت ورحلت» يقول الشاب، ولكنه ورغم كل شيء بقي محافظاً على أمر واحد: القتال ضد النظام، وبغض النظر عن الفئة التي يقاتل إلى جانبها. وأن كان بقناعته يعتقد بأن الدولة المقبلة يجب أن تكون إسلامية، إلا انه يعلم بأن الأمر قد لا يكون كما يتمنى ويرغب، بل ستكون هناك دولة متعددة ويعيش فيها الجميع وفق حكم القانون الوضعي. الأمر يسبب له الاحباط، لكنه لا يزال يقاتل، فالمهم أولاً الخلاص من النظام.

لاجئون ونازحون

إذا اعتمدنا التعريف الدولي عن النازحين بأنهم من يضطرون إلى ترك منازلهم نحو مناطق أكثر أمناً داخل وطنهم، وأن اللاجئين هم من يغادرون وطنهم بحثاً عن الامان، فان هناك فئة اضافية في سورية هي اللاجئون -النازحون، أولئك الذين لم تسمح لهم السلطات التركية بالعبور نحو اراضيها، وتعاونت مع بعض الفصائل المقاتلة الموجودة على الحدود لإقامة مخيمات تؤويهم ولكن على الاراضي السورية مباشرة مقابل الأسلاك الشائكة الفاصلة بين البلدين.

ولم يبدأ العام ٢٠١٤ دون أن يصاب اللاجئون -النازحون بحدثين إضافيين ليس فقط أن الطيران الحربي هاجم أحد مراكز الإيواء على الحدود الشمالية في إدلب، بل تقدمت القوات العسكرية التركية وأخلت مخيماً مُبعدةً سكانه مئات الأمتار إلى داخل الأراضي السورية مخافة تسلل المزيد من زارعي

العبوات ومنفذي العمليات ضد الجيش التركي والمناطق التركية السكنية والمعابر الحدودية بين سورية وتركيا.

لم يترك النظام السوري وجيشه أية فرصة لأية فئة لتجد القليل من أسباب الراحة والاستقرار، موجات النازحين باتت تصبّ على الحدود، وتعيش أوضاعاً مأساوية، والطائرات الحربية تطاردهم، كل بضعة أشهر تصل موجة جديدة من عدة الاف تضاف إلى من سبقها، وتتراكم في أحد المخيمات، وأشهرها مخيم أطمة الحدودي ومخيم باب السلامة، ومخيم في خراج قرية عقربات يضم نازحين من حماه.

يعرف قاطنو الخيم بأن منازلهم قد دمرت خلفهم، ولا يمنون النفس بالكثير، انسحقت أحلامهم بالحياة الطبيعية، ويستحيل عليهم تصور حياتهم تحت سلطة النظام، بدأت أعمال تطهير عرقية تجري في أكثر من محافظة، في العام ٢٠١٤ كان يمكن العثور على لاجئين من محافظة حمص، ومحافظة اللاذقية، ومحافظتي حلب وإدلب على طول خط الحدود الشمالية، كما في مخيمات أخرى داخل المناطق. هؤلاء تهجروا من منازلهم على دفعات، نزحوا من مكان إلى آخر، بحثاً عن الامان لهم ولاولادهم ولكبار السن من بينهم، ورويداً رويداً باتوا عالقين في مخيمات حدودية، تكاد تنعدم فيها التقديمات الحياتية، وحياتهم اليومية هي ببساطة لا شيء سوى انتظار المساعدات وقمع أطفالهم. القليل من أطفالهم ورجالهم يعملون على الحدود بأي شيء، من تهريب البشر إلى الأعمال التي لا تلزم أحداً، عشرات الأطفال يعرضون خدمة نقل الحقائب على الحدود الفاصلة بين سورية وتركيا، وبعضهم يبيع المياه، أو الحلويات أو أي شيء يخطر على بال قرب نقاط العبور. أي شيء

من أجل كسرة من الخبز إضافة إلى ما يحصلون عليه من القليل القليل من المساعدات الدولية التي تنهب على الطريق وعلى عدة مراحل رغم جهود كبيرة تقوم بها بعض الجهات السورية في الداخل لوقف النهب وتنظيم المساعدات.

العودة إلى منازلهم ليست حلماً فقط، انها استحالة، يعلمون أن عودتهم تعني موتهم، المناطق التي سيطر عليها النظام هي مناطق محرمة تماماً، وتعني الاعدام لكل من يحاول العودة، في ذاكرة اغلبهم صور تشير إلى صحة ما يقولون، والمناطق التي تقع على خطوط المواجهات المتحركة هي مناطق أكثر صعوبة وأشد خطراً مما يحتملون. عالقون في الوسط، لا تركيا تسمح لهم بالدخول إلى أراضيها ولا النظام يسمح لهم بحياة طبيعية. واما حياة المخيمات فهي تمضية الوقت بفعل اللاشيء وتدبير أسباب الحياة البسيطة، من طعام والمحاولات الفاشلة للحفاظ على الحد الأدنى من النظافة والابتعاد عن الأوبئة والأمراض التي تطارد سكان المخيمات، ومحاولة الحفاظ على ما تبقى من اخلاق إنسانية بعد أن جرد نظام الحكم سكان هذه الخيم من كل ما جمعوه وكسبوه خلال حياتهم وحياة أسلافهم.

وعلى طول خط الأسلاك الشائكة الحدودية الفاصلة ما بين تركيا وسورية يمكن رؤية آليات الحفر تعمل على خندق بعمق ثلاثة أمتار وعرض مترين ونصف متر تقريباً، ها قد انتبهت تركيا بعد ثلاثة أعوام من غض الطرف عن الحدود ومعابرها لمخاطر تسلل الإسلاميين المتشددين الذين يدينون بالفكر القاعدي، ولكن ورغم ضجة آليات الحفر يمكنك سماع اللهجات العربية المتنوعة في القرى والمدن الصغيرة التركية الحدودية، ها هم عناصر

الدولة الإسلامية في العراق والشام يتجولون في الشوارع ويشترون الطعام ويسيرون بين اللاجئين السوريين والمواطنين الأتراك.

طوال أكثر من عام من منتصف ٢٠١٢ وحتى نهاية ٢٠١٣ كان يمكن ملاحظة شبان عرب وأجانب في المطارات التركية، يتجهون من مطار إسطنبول إلى مطاري هاتاي وغازي عنتاب تحديداً، ليلتحقوا من هناك بالمنظمات القاعدية المتعددة في سورية، كانت آنذاك كتائب «المهاجرين»[١] أكثر من أن تعد وتحصى، أغلبهم انضموا إلى جبهة النصرة، الممولة والمدارة من تنظيم القاعدة العراقي المعروف باسم «دولة العراق الإسلامية» ومجموعات مهاجرة أخرى كانت تعمل بشكل مستقل، استوطنت في العديد من البقاع السورية، بعضها فضّل الجبهات وانصرف إلى القتال ضد النظام السوري، بينما كانت اهداف أغلب المجموعات الأخرى التمركز في المناطق الامنة والمحررة في الريف، سواء في حلب أو إدلب أو حماه واللاذقية ودير الزور والرقة.

المطارات التركية والمعابر الحدودية غير الشرعية هناك كانت تشهد توافد مئات من المقاتلين، ومن العراق قدم عدد أكبر، لكن حرس الحدود الأتراك نفذوا أوامر حكومتهم بالتساهل مع العابرين، لم يلق بالاً جنود الحدود إلى هويات المارين من أمامهم إلى الداخل السوري، كانوا يمنعون التهريب العلني، ولكن هناك معابر شهدت غض بصر تاماً.

(١) يطلق اسم المهاجر على كل المقاتلين الإسلاميين الأجانب في سورية الذين يعبرون الحدود ليشاركوا في «الجهاد»، ولاحقاً أصبح اسم «المهاجرون» يطلق على مجموعات أجنبية رفضت الانضمام إلى داعش أو إلى النصرة وباتت تقاتل مستقلة بالتحالف أحياناً مع مجموعات إسلامية محلية.

في أواخر صيف العام ٢٠١٢ التقيت لأول مرة بمجموعة مهاجرين تنتظر رفاقها على الحدود، الشبان الملتحون كانوا على متن سيارتين ودراجة نارية في الجهة السورية، ووصل نحوهم حوالي خمسة من الملتحين أيضاً من الجانب التركي، تعانقوا سريعاً وتركوا خط الحدود حيث كانت الأسلاك الشائكة مقطوعة ما بين عمودي الإسمنت بما يسمح بمرور شاحنة محملة.

الجميع في سورية ولا سيما في القرى القريبة من الحدود، يعرف قصص عبور المجاهدين العرب، والاجانب، وكل عناصر التنظيمات القاعدية، كما يعرف الكل المعابر العسكرية، حيث تمر شاحنات أحياناً محملة بالعتاد والذخائر، ويمكنك الوصول إلى أية قرية حدودية في الجانب السوري وسؤال أول طفل تصادفه عن «معبر» فيدلك إلى أقرب طريق للتهريب.

الأتراك من ناحيتهم كانوا يغضون الطرف ليس فقط على المعابر بل أيضاً داخل القرى التركية الحدودية وداخل المدن القريبة من الحدود.

لم تشكل داعش إرباكاً فعلياً لأية جهة دولية، ولم تكن قادرة على لعب دور أكثر من إسناد النظام السوري أو تنفيذ سياسات تركية صغيرة، أو مساندة هذه القوة في الثورة على حساب تلك، ولكنها حتماً لم تكن ولن تكون قادرة على لعب دور ابعد مدى من بضع قرى حدودية تركية، ومن يتحدث عن خطر تجمع مقاتلي القاعدة في سورية على الغرب يتجاهل أن هذه القاعدة هي غير تلك اللادنية، وأنها اليوم بحالة من التفكك والضعف وقصر النظر، تشبه إلى حد بعيد مجموعات من المرتزقة والمهووسين الذين يقودون آلافاً من الايديولوجيين المتعصبين، ولكن الحكمة والحنكة وطول الاناة والمشروع السياسي وما يفرضه من عمل

متواصل هي امور قد طواها الزمن بالنسبة إليهم، ولم يعد الأمير أكثر من مجرم عادي استتر بذقن وعصبة من المخلصين.

ويجهل من يتحدث عن مخاطر القاعدة خارجياً أن كل من عبر إلى تركيا رصدته كل اجهزة المخابرات، من تلك التركية إلى آخر من يتابع الشأن السوري، وأن عودته من سورية إلى أي مكان آخر في الدنيا ستكون تحت أبصار أجهزة الأمن ومتابعتها، وأن هؤلاء الشبان المقتنعين بالفكر القاعدي يصبحون دون فاعلية ما أن ينقطع اتصالهم مع قياداتهم في سورية والعراق. كما يتجاهل أن الأعوام العشرة الأخيرة كانت القاعدة خارج العمل في الدول الغربية، أو على الاقل انحسرت أعمالها بشكل كبير جداً عن تلك الدول، ملتفتة إلى بناء «الدولة الإسلامية» ومستخدمة أسلوبها المفضل اليوم في التمويل: «الفدية». وهو امر لن يتاح لها بحال يممت وجهها شطر الغرب ودوله، إلا أنها في المقابل حصدت مئات الملايين من الدولارات من خطف مواطنين أجانب[1]، الدول الأجنبية من أفضل «زبائن» الدولة الإسلامية، ولكن «الجهاد» في الغرب أمر آخر تماماً اليوم.

بكل الأحوال، فان من يتجول في مدينة الريحانية الحدودية التركية سيجد العشرات من الشبان القاعديين بلهجاتهم العربية أو الداغستانية أو الروسية، وقد حلقوا لحاهم قبل العبور إلى تركيا فبانت بشرة خدودهم بيضاء وبقي شعرهم الطويل وملامحهم القاسية وتجهمهم على حاله. وهم

(١) اجرت النيويورك تايمز تحقيقاً مستقلاً أظهر أن تنظيم القاعدة حصل خلال الأعوام القليلة الماضية على ١٢٥ مليون دولار من عمليات الخطف.

http://www.nytimes.com/30/07/2014/world/africa/ransoming-citizens-europe-be-comes-al-qaedas-patron.html?_r=0

ينتظرون هناك ما يسهل عودتهم إلى بلادهم أو الدخول مجدداً إلى سورية لكن إلى مناطق لا تزال تحت سيطرة التنظيم.

العديدون من القاعديين تخلوا عن القتال بعد الاشتباك مع الجيش الحر، وخصوصاً مع قوات جيش المجاهدين والجبهة الإسلامية، وعشرات من هؤلاء سلموا أنفسهم وسلاحهم إلى المقاتلين السوريين، وطلبوا اعادتهم إلى تركيا، وهكذا كان، واعلن البعض منهم انه لا يريد حمل السلاح ضد ابناء الشعب السوري «المسلمين»، بعد أن نكلوا بالسكان المحليين واحتقروا الفصائل المقاتلة في الثورة لأشهر طويلة.

في بدايات العام ٢٠١٤ نشبت معركة بين القوات الثورية في الأرياف الشمالية وبين داعش، وخلال عشرة أيام تمكن مقاتلو القرى وجيش المجاهدين والجبهة الإسلامية من القضاء على داعش بشكل شبه كامل في أغلب مناطق الريفين الحلبي والإدلبي، وبقي لداعش مواقع في كفرحمرة واطراف عندان ومطار منغ وأعزاز، أي حيث كانت التشكيلات التابعة للجيش الحر تضطهد السكان فذهب أبناء هذه القرى إلى حضن داعش، ثم عادت داعش وغيرت تموضعها متخلية عن هذه المناطق لمصلحة قرى في الريف الشرقي الحلبي.

لكن العمود الفقري في معركة طرد داعش كان المدنيين أنفسهم في المناطق التي اخرجت منها، سكان الريف هم من قام بإحداث التحول الكبير وأنقذ سورية سريعاً من خطر داعش، ثم عادت وسقطت عندان وكفرحمرة وحريتان بيد الجيش الحر في وقت لاحق من شتاء العام ٢٠١٤ بعد أن اضطر مقاتلو القاعدة العراقية إلى إخلائها بسبب الضغط الشعبي وحصار القوى الثورية وتخلوا عنها متوجهين إلى الرقة أو متسللين إلى تركيا.

تركيا من ناحيتها، وبُعيد انتهاء المعركة ووصول المئات من المقاتلين الداعشيين الفارين من وجه اهالي سورية إلى أراضيها، ونتيجة ضغوط دولية، قررت إغلاق الحدود، وبدأت تتسارع اعمال حفر الخندق الحدودي، وباتت تتعامل بقسوة مع محاولات التهريب، لم يعد العنصر التركي يسمح بالمرور لمن لا يحمل هوية، ولا حتى لمن يحمل هوية ليست له، بل بات يدقق بكل تفاصيل البطاقات، وإن كان العبور من تركيا إلى سورية مسموحا بالهوية السورية، فان العبور من سورية إلى تركيا ممنوع من دون جواز سفر رسمي.

هذا الاجراء جديد بالنسبة إلى السوريين، في الماضي القريب كان يكفي أن تقدم بطاقة هوية سورية حتى يدعك الأمن العام التركي تعبر من تركيا إلى سورية، وبحال تم ايقافك على الحدود من سورية إلى تركيا فان حظك في اعادة الكرة بعد ساعة أو أقل سيكون أكبر من المرة الأولى، التشديد الذي بدأت تطبقه السلطات التركية شتاء العام ٢٠١٤ اتى غير مبرر بالنسبة إلى السوريين.

وأدّت هذه الإجراءات إلى ارتفاع اسعار جوازات السفر المزورة، والتي كان يمكن الحصول عليها من دوائر النظام السوري بمبلغ ٨٠٠ دولار أميركي، وباتت أغلب الجوازات لا تعمل على الحدود التركية، وتلك الصادرة عن الدوائر الرسمية السورية بموجب رشى كبيرة يدقق فيها الأتراك كونها حديثة الإصدار، ولا تحمل أي دمغة وتم إصدارها في نهاية العام ٢٠١٣ أو بداية ٢٠١٤، وبالتالي فانها لم تعط اصحابها حرية الحركة المطلوبة في العبور من جانب إلى آخر، وفي شهري اذار ونيسان العام ٢٠١٤ بات الأمن العام التركي

يتعمد اتلاف جواز السفر السوري إذا شك بانه مزور أو مستصدر من الدوائر السورية ولا يحمل معلومات صحيحة، وحتى لو كانت عليه سمات دخول وخروج تركية صالحة.

وعلى امتداد مسافة أكثر من ٥٢ كيلومتراً من الحدود المشتركة بين البلدين (هي المسافة التي قطعتها مرة برفقة أحد القادة الميدانيين) أصبح بإمكان أي زائر مشاهدة الإجراءات التركية، حيث ومن منتصف شهر كانون الثاني ٢٠١٤ بدأت أعمال حفر خندق وانتهت بسرعة لم تتجاوز مدتها الشهر، ومنع المدنيون من عبوره، ولو ارتشى الجنود الأتراك بالدخان كما جرت العادة في الأعوام الأخيرة.

وفي بداية شهر آذار من العام ٢٠١٤ وعلى مجرى نهر العاصي يلقي رجل سوري بثلاث علب دخان إلى جندي تركي، أحد المهربين ينصح الراشي بتوفير دخانه «هؤلاء مجندون، تماماً مثل المجندين لدينا، لا يمكنهم فعل أي شيء»، يصرخ الذي ارسل الدخان إلى الجندي التركي «الله لا يسامحك». بينما يبتسم الجندي ويقول تشكرات، ويشعل سيجارة. المهربون يقفون أمام الخندق المكشوف نهاراً، ولا حول لهم ولا قوة، نسأل أحدهم عن الوضع «لا أعرف ماذا اقول لك، منذ الصباح لم يعبر أي شخص، وهناك المئات ينتظرون، ولا يميز الأتراك بين رجل وامرأة، هم يوقفون أيّ واحد ويضربون الذين يحاولون الهروب، سواء أكان رجلاً ام عجوزاً أم طفلاً، ولا تنتظروا الليل ففي الليل يبدِّل الضباط».لم يعد من السهل العبور من فوق الخنادق، ومن يحاول ويقع بين ايدي حرس الحدود التركي يتعرض للضرب، ويُعاد إلى سورية فوراً من الطريق التي عبرها.

وفي حين كان الرجل يتحدث عن صعوبة التهريب، كانت عائلة سورية تتعرض للضرب على ايدي جنود اتراك فيما يراقبهم عن كثب عنصر تركي يرتدي ثياباً مدنياً ويظهر تحت كنزته القطنية مسدسه، ثم تُعاد العائلة لتعبر مجدداً الخندق الذي سبق أن اجتازته في محاولتها العبور.

٥٢ كيلومتراً، يمكنك في بعض مسالكها مشاهدة بلدة الريحانية التي تضخمت بفعل الهجرة السورية، وحيث يقول لك بعض أبنائها أنها تنشط بالحياة والتجارة بعد الهجرة السورية غير الشرعية إليها، بينما يقول آخرون إنهم تعرضوا لاجتياح السوريين، بعد أن كانت بلدتهم سياحية وهادئة وممراً يرتاح فيه القادمون إلى تركيا براً من سورية.

ومن أعالي الجبال المطلة على الريحانية من الجانب السوري يمكن مشاهدة رتل الشاحنات الكبيرة، والتي تصطف خلف بعضها، بعدما منعت السلطات التركية عبورها إلى سورية، فراح اصحابها يصطفون في الدور بانتظار عبور معدوم في بعض الأيام وبطيء لا يتجاوز ٥٠ شاحنة في اليوم، في حين أن عدد الشاحنات المنتظرة يتضاعف كل يوم حتى تحدث البعض عن أربعين كيلومتراً من الشاحنات المنتظرة.

غير بعيد إلا بضعة كيلومترات تنشط حركة أخرى على الحدود المغلقة، عشرات من خراطيم المياه الغليظة تمتد من الجانب السوري إلى الجانب التركي، تمر في الجانب السوري فوق الأرض، وصولاً إلى أمتار قبل الخندق الحدودي، ثم تختفي تحت الأرض ولكنها تعود لتظهر في الخندق مكشوفة لكل من يرغب أن يرى، ولمن يملك من الجرأة ما يكفي لتصويرها تحت انظار الحراسة التركية.

عند وصول أعمال حفر الخندق إلى هذه الناحية من الحدود المشتركة، أغلقت الشرطة التركية والخفر تماماً الحدود، وقمعت المخالفات بقسوة، وفي النصف الأخير من شهر كانون الثاني ٢٠١٤ قطعت كل أنابيب النفط، التي تهرب المازوت السوري، والثروة السورية، إلى تركيا بأبخس الأسعار، ثم بعدها بأيام، وبعد استكمال حفر النفق، أعيد مد الخراطيم ثانية، وكما المرة الأولى، برعاية رسمية من بعض مجموعات الجيش الحر في الجانب السوري، وببعض المتنفذين الأتراك.

النفط يعبر كل الوقت، وأن كان هناك أوقات ليلية للتهريب الكبير، وفي الجانب السوري قرب الأنابيب نشأ ما يشبه قرية أعمال، أو منطقة صناعية، دزينات من السيارات الناقلة للنفط والمازوت من دير الزور إلى الحدود مع تركيا، البعض يهرّب النفط المكرر محلياً والبعض يهرّب النفط الواصل من مناطق النظام، النفط يأتي من مناطق العشائر بأسعار متهاودة، حيث تم وضع اليد على الآبار من دون كلفة، وأمنت العشائر حمايته، بينما السوق التركية متعطشة للنفط مع الضرائب الحكومية المرتفعة هناك. مقاتلون من الجيش الحر انتدبوا إلى دير الزور للمشاركة في الأعمال الحربية هناك، وعادوا ثانية إلى حلب، يروون أن آبار النفط هناك تحميها العشائر بأسلحة «نحلم بالحصول عليها هنا في حلب» ومنها يصدر النفط ويتجه إلى كل الاطراف.

وفي المنطقة الصناعية الخاصة بالتهريب، وقرب برج مراقبة تركي نمت اعمال بسيطة، مطاعم صغيرة وخيم تبيع السندويشات والمرطبات وورش صغيرة مرتجلة لاصلاح السيارات، أي كل ما يلزم لإتمام عمليات المهربين

بيسر وراحة. بينما بهت لون الشجر جراء الغبار المتطاير من الأرض وعوادم السيارات، وتركت الأرض دون عناية بعد أن بات أصحابها في غنى عن أعمال الزراعة الشاقة.

بعد قرية الحامضة السورية وعلى ضفة نهر العاصي السورية، امتدت أقنية تهريب من نوع آخر، ثمة شبكة تهريب سورية تركية مشتركة، يحمل أعضاؤها أجهزة لاسلكية للتواصل فيما بينهم، هذه الشبكة تستخدم مجرى النهر لتعبر، وغير بعيد عن ثكنة تركية صغيرة وتحت اعين برج المراقبة التركي الضخم.

الا أن الأمور لا تجري بهذه البساطة، فاغلب الاوقات ينتشر جنود اتراك على الضفة التركية، يمنعون أي أحد من الاقتراب من ضفتهم، ما عدا المزارعين الاتراك، الذين يتحركون بالجرارات الزراعية الموصولة بقاطرات صغيرة للتحميل. وعلى الضفة السورية تنتشر العائلات السورية التي اتت من مختلف المناطق، أزمة اللجوء تزداد، والإجراءات التركية تعيق رحيل اللاجئين إلى أرض آمنة، بعدما حول النظام حلب إلى ارض محروقة بالبراميل المتساقطة من طائراته منذ بداية العام ٢٠١٤.

العائلات السورية تحمل ما خف وزنه من ثياب وأغراض، وتنتظر رحمة الضابط التركي الذي سيترك حيزاً صغيراً كل بضع ساعات لعبور اللاجئين، وهو إجراء ينتظره المهربون، وأداة تهريبهم حلة طبخ ضخمة، تتسع لسبعة أشخاص، وسعر الانتقال من ضفة إلى أخرى ٢٥٠ ليرة سورية (١,٦٠ دولار أميركي)، ومن الضفة الأخرى سيطلب سائق الجرار الزراعي ٥٠٠ ليرة سورية (٣,٣٠ دولارات أميركية) لنقلك إلى قرية حجي باشا التركية، قرب موقف الباصات.

الجنود الأتراك يبقون كل النهار، ومع سقوط الظلام لا يرحل هؤلاء، بل تصل سيارات حرس الحدود، وتبدأ عملية تهريب بالتقسيط، لا يقطع الجنود الأتراك الحبال الممتدة بين ضفتي النهر، بل يتركونها وكأنها هنا منذ الأزل، ولكنهم يلاحقون العابرين، ويحرقون الاعشاب حول المرتفع الصغير الذي يستخدمه العابرون للوصول إلى الأرض الزراعية، لمنعهم من الاختباء بين الاعشاب، ثم ترحل سيارة الدورية التركية، وتعود أعمال التهريب، وعلى مسافة ٥٠٠ متر يمكن مشاهدة ثلاثة معابر مائية تنتظر حلل الطبخ إلى جانبها في النهار، وتنشط في عبورها ليلاً.

المهرب في الضفة السورية يغتاظ من تشديد الضابط، تلقائياً يخبرك أن هناك عدة ساعات في اليوم متروكة للعبور الحر، ولكن الضابط الموجود حالياً يبالغ في المنع، ويصرخ المهرب السوري عبر جهاز الارسال اللاسلكي لزميله التركي «قل لهذا الضابط أنه لو كان رجلاً لأتى إلى هنا». ثم يصمت، وبعد أن يمنع الضابط دفعة أخرى من العابرين ويعيدها يعود المهرب للصراخ في جهازه «سأقيم له عرساً مشهوداً الليلة».

مهرّب آخر على مبعدة مئة متر من الأول يجلس القرفصاء على الضفة شديدة الانحدار، وحوله يجلس العشرات من المنتظرين لدورهم في العبور، بينما تقف سيارة حرس الحدود أو الجندرمة امامهم على الضفة الأخرى، ومن داخل السيارة يتحدث الضابط عبر الميكروفون إلى المهرب، والجنود الأتراك يبحثون بين الاعشاب عن سوريين هربوا إلى ضفتهم.

يسمع الجميع صوت الضابط التركي وهو يتحدث، بينما الأضواء الكشافة تضيء العتمة، والنيران المشتعلة في الأعشاب على الجانب التركي تشي بدفء

مفقود في صقيع الليلة السورية، المهرب السوري يقول «تمام تمام» ويتحدث بالتركية مجيباً الصوت الصادر من السيارة المصفحة التركية، ثم يضيف مخاطباً أحد الجنود الأتراك «قل لضابطك أن السهرة طويلة الليلة، السهرة صبّاحية (حتى الصباح)، والكل سيدخل هذه الليلة (إلى الأراضي التركية)».

في الجانب التركي، وبعد أن يقطع المهرب التركي بجراره المنطقة الزراعية مخفياً ١٤ لاجئاً ولاجئة سوريين في المقطورة الصغيرة، ويقبض مبلغ ٧٠٠٠ ليرة منهم (حوالي ٤٧ دولاراً أميركياً)، يتركهم أمام موقف الباصات في قرية حجي باشا، حيث تقف الباصات التركية المتجهة إلى كل المناطق القريبة، هناك سيكون قد تجمع مئات من اللاجئين بعائلاتهم وأطفالهم، من مختلف المناطق السورية الحدودية، من حلب إلى اللاذقية، عبر أكثر من عشرة مناطق نهرية للتهريب بحلل الطبخ، وستضاعف الباصات التركية من أجرة نقلهم إلى وجهاتهم، سواء الريحانية أو أنطاكيا، ليحلوا بشكل غير شرعي على قائمة اللاجئين المضطرين للعمل في تركيا أو العودة إلى الموت في سورية. غير أن المعبر المائي هذا أقفل لاحقاً في صيف العام ٢٠١٤، ولم يبدأ شهر حزيران إلا وكان قد شهد مقتل ثلاثة أشخاص برصاص الأمن الحدودي التركي، بحسب مصادر سورية، وتم إغراق العبارات الحديدية التي كانت يوماً تستخدم للطهي، وبقيت شبكة انابيب البلاستيك النفطية وحدها تعمل في تلك الأنحاء بأمان.

سورية ما بعد الخلافة

تموز العام ٢٠١٤ يكتب القاضي حسين حمادة على صفحته في الفايسبوك تعليقاً مقتضباً » نعم إنه مفترق طرق... إما سورية أو الغرق»، وحمادة هو أحد كبار القضاة الدستوريين المنشقين الذين خسروا كل شيء خلال مراحل الصراع السوري إلا أملاً بأن تتحد القوى العسكرية في رؤية سياسية تجمعها مع كل أطياف المعارضة في الداخل والخارج.

ولكن هيهات، لقد تشظّى الواقع السوري وخرجت كل الأمراض وسادت شريعة الغاب، اصبحت القوة العسكرية تصوغ القوانين بمعزل عن الأرضية الاجتماعية والثقافية للسوريين.

وليس أخطر ما تواجهه المناطق المحررة في سورية تمدد الدولة الإسلامية بعد إعلان الخلافة وظهور الخليفة أبو بكر البغدادي في الموصل، ولا استعادة النظام السوري لمناطق شاسعة في الشمال ولا سيما في محافظة حلب،

أو سقوط المدينة الصناعية ومقر «المجلس البلدي لمحافظة حلب» التابع للائتلاف المعارض بيد الجيش السوري ضمن منطقة المدينة الصناعية في الشيخ نجار، بل أكبر المخاطر هي تلك التي تتمثل في أمراء الحرب المتسولين للمساعدات في الخارج والضاربين خبط عشواء في الادارة والقتال.

دخلت الثورة في العسكرة وأسقطت سلميتها، وأدخلها الخوف والمغامرون وبعض الدول الداعمة في الاسلمة، ركض قادة القتال نحو إسلام عنيف بسذاجة مدهشة، تماماً كما ركضت ألوية شمال حلب وغربها نحو المدينة، ووقعت الثورة في فخ الأسلمة كما وقع قادة ألوية حلب في فخ المدينة وصعوبة الدفاع عنها.

وبينما تحولت جبهة النصرة إلى أكبر القوى المفلسة وترشحت لتكون أصغر ألوية داعش لا يزال هناك من يدافع عنها بين القوى المقاتلة، مذكراً بالبساطة الاستثنائية التي سادت لحظة إعلان يوم جمعة «كلنا جبهة نصرة».

ومن أسلمة إلى عجز عن الدفاع عن المناطق في وجه استشراس داعش، ثم إلى انتفاضة مولها الأميركيون والسعوديون ضد داعش في إدلب والريفين الشمالي والغربي لحلب، بالتزامن مع انعقاد مؤتمر جنيف ٢، وأدّت عملية الانتفاضة في النهاية إلى إبعاد شبح المنظمة الدموية إلى حين، بقي في القوى الثورية من لم يشاهد التحولات جيدا، ومن لم يتعلم العبر بهدوء، ومن اعتبر أن نهب المدن وقتل الاسرى وتشتت العديد من الفصائل والتحول من إسلام إلى آخر أشد فتكاً ومن قوى ثورة إلى قوى حرب أهلية إلى إمارات هامشية متقاتلة مجرد «أخطاء في الثورة» وليس تشوّهاً بنيوياً يستدعي عمليات جراحية طارئة ودقيقة.

كل ذلك آلاف العائلات تنزح من منطقة إلى منطقة كلما عنّ لطائرات النظام تركيز قصفها على مجموعة قرى بعينها، وتحوّلت العائلات إلى مدمنين على صناديق الإغاثة التي تحمل إعلام دول متنازعة في ما بينها حول الطرق التي يجب استغلال الثورة السورية من خلالها.

يروي لي أحد القادة المحليين أنه وبعدما بدأ بالاحتكاك بمجموعات الدول الداعمة بقي بمفرده في أحد الأيام وراح يبكي، وانه طلب الاستعانة بأصدقاء من خارج الأرض السورية لإفهامه ما يجري حوله، إلا أن المحيطين به من فصيله اعترضوا تحت مسميات شتى.

يتمتع القادة المحليون بصيت سيئ، واغلبهم مارس السرقة تحت شعار تمويل الثورة، وأغلبهم أيضاً يمكن احالته على اية محكمة عسكرية لقيامه بجرائم الحرب مع ثقة كاملة بأنه سيدان عدة مرات، الأغلبية المطلقة من هؤلاء القادة لم يتلقّ أي تعليم يذكر، والأنكى انهم يستعينون بالعلماء، أي اصحاب العلوم الشرعية، وهؤلاء غالباً ما يكونون قد تعلموا الشريعة لفترات متقطعة أو في المعاهد التي انتشرت في سورية في الأعوام الأخيرة قبل الثورة، أما من يشتبه بعلمانيته فيُستبعد تلقائياً ويُعزل اجتماعياً حتى يخرج من البلاد أو من المناطق المحررة.

قلة أولئك المتعلمون الذين لا يزالون في المناطق الشمالية المحررة من سورية، لقد تم تفريغ هذه المناطق من متعلميها على دفعات، فمن لم ينجح النظام في قتله أو اعتقاله أو إعطائه جواز سفر وتسهيل خروجه، تكفّل قادة الفصائل المقاتلة باقصائه واتهامه بالتبعية للنظام سابقاً والتأخر في الانشقاق ومحاولة الركوب على الثورة، وفي النهاية انتشرت اطياف المتعلمين في شمال

الكرة الأرضية تاركة أرض الثورة لمن لا يتمكن من فهم خطورة ما يفعل.

ومن استعصى وكابر وحاول البقاء بأي ثمن ولو في منزله عثرت عليه داعش وتخلصت منه باسهل الطرق.

أما من بقي يقود القتال في المناطق الشمالية من سورية فقد بدوا موزعين بين فئة تعلم أن لا مفر لها خارج البلاد أضف أنها تتمتع بالسلطة والمال حاليا في الداخل وراحت تحصّن مناطقها دون أن يعنيها شيء من المناطق المتاخمة ولو سقطت كلها. وفئة أخرى لا تزال الرومانسية الإسلامية تعشش في ادمغتها وترى أن الجهد يجب أن يصب في إقامة دولة إسلامية وتطبيق شرع الله في المناطق التي تسيطر عليها حالياً.

الفئتان ترحّبان بالدعم الذي يصلهما من المخابرات المركزية الأميركية، وتعتبران أن كل ما تحصلان عليه مكسب من الأميركيين أو من غيرهم من الدول الداعمة، إلا أن الفئتين تتخوفان من أي مطلب أميركي ولو اتى لدعم العمل الدعوي الإسلامي، بكلمة أخرى: يسود اعتقاد بسيط بأن من الممكن الحصول على كميات كبيرة من الدعم ولكن من دون أي تعامل مع الجهات الداعمة، وهو تماماً عكس ما ساد ساسة المعارضة في الخارج من الحصول على كميات بسيطة من المال النقدي مقابل كل التعامل والتنازل للجهات الداعمة.

ترهل القيادات وموت المقاتلين

عاد ٤٩ مجنداً من إحدى الفصائل بعد أربعين يوماً من التدريبات المكثفة في إحدى القواعد الأميركية بالمنطقة العربية، لقد ادهش هؤلاء مدربيهم بقدرتهم على تلقي العلوم العسكرية الأولية وتنفيذ دروس الهجوم وحسن استخدام السلاح.

لا غرابة في الأمر، فلطالما كان اندفاع الشبان السوريين عالياً، إلا أنه وفي الأيام التي شهدت عودة هذه السريّة من التدريبات السريعة، كانت قوات النظام السوري تسقط منطقة الشيخ نجار أو المدينة الصناعية وما حولها من قرى صغيرة.

لم تكن تلك خطوة مفاجئة للجيش السوري، لقد سبق أن دخل الجيش إلى المناطق الخلفية للمدينة الصناعية في طريقه لفك الحصار عن السجن المركزي، لم تحرك قوى الأمر الواقع التي احتضنت الثورة في الريف

والمدينة الحلبيين ساكناً، بلغ ترهل هذه القوى حداً لم يعد معه مستغرباً أن تترك قوات الجيش السوري تتقدم من خلف مناطق هائلة وتترك الدولة الإسلامية لشأنها في الريف الشرقي وبعض الشمال في سورية.

سقطت المدينة الصناعية التي تمتد على أكثر من ٤٠ هكتاراً من الأراضي خلال يوم واحد، لم تتمكن القوى العسكرية من القيام برد فعل جدي، كان بالامكان سماع قائد أحد الفصائل المسلحة يصرخ في المركز الرئيسي للفصيل على ضباطه، ولكن النقاش كان حول الرواتب التي وصلت خلال الأيام الاخيرة من «مركز العمليات العسكرية» MOC، اما النقاش بشأن الشيخ نجار فقد خيض على هامش الاجتماعات المالية.

كل فصيل كان يتهم الآخرين بعدم الجدية في مواجهة الجيش النظامي، ويبدي تخوفه من الابتعاد عن مركز ثقله أو المناطق التي ينتمي إليها قادته، ويتهم كل الفصائل الأخرى بأنها ستتركه في الميدان بمفرده حال بدء الاشتباك، وكل فصيل يمكنه أن يعدد امثلة على ما يذهب اليه.

وحين أسأل أحد القادة العسكريين من المصريين العاملين مع فصيل محلي حول البرودة في رد الفعل على تقدم الجيش النظامي، يتحدث الرجل المتقدم في السن والشهير بانتمائه إلى تنظيم القاعدة، باستهتار حول توزيع القوى في الشمال مخافة تقدم قوات داعش وعودتها إلى الانتشار في حلب وإدلب.

غير أن الواقع يشير إلى مفارقة أخرى، ففي قرية تبعد كيلومترين عن مقر هذا القائد المصري يسكن خمسون من مقاتلي داعش وامرائها بعدما تزوجوا من نساء هذه القرية، ويرفض السكان السماح لاي كان المساس باصهرتهم،

ليس فقط لأنهم توقفوا عن القتال، بل لأن السكان يفضلون داعش على القوى المحلية الأخرى.

الأمر نفسه ينطبق على العديد من القرى في الأرياف الحلبية والإدلبية، وفي كفرحمرة على سبيل المثال ينتظر السكان المحليون عودة داعش، وكذلك في الدانا حيث لا يزال العشرات من مقاتلي داعش يخدمون تحت إمرة جبهة النصرة بانتظار عودة تنظيمهم، والأمر عينه وينطبق على مدينة أعزاز حيث يرفض السكان عودة ألوية الجيش الحر بعد أن ذاقوا من هذا الجيش وفصائله الظلم والنهب والسلب والتسلط، ولا تكاد تنتهي الأمثلة حول تفضيل سكان قرى لداعش على التفاهم مع سكان قرى أخرى مجاورة.

يقف أحد القادة العسكريين بين مجموعة من المتدربين قائلاً «من لا يلتزم الصلاة فلا حاجة لنا به، فليذهب إلى منزله» ينظر المتدربون إلى الرجل الذي اصبح قائدا في الصف الأول وهو لم يبلغ الثلاثين من العمر بعد، وبين هؤلاء المتدربين ما يزيد عن عشرة لم يتجاوزوا السادسة عشرة، الدورات المحلية ليست أكثر من تدريبات نمطية على الرياضة مستمدة من التدريبات التي كان يخضع لها المجندون في الجيش السوري، بينما الجهد الأكبر يُصبّ في الدروس الشرعية التي يتلقّاها الشبان خلال هذه الدورات. يرفض القائد الشاب وجود أي هامش في تجاوز الفريضة الدينية لدى المقاتلين، بينما يوظف تنظيمه ١٥٠ شخصاً للوقوف على الحواجز، الجزء الأكبر منهم تجاوز الأربعين من العمر واستخدم روابط القربى والعائلة والقرية للحصول على وظيفة حارس على حاجز. نمرّ في سيارة أحد القادة المحليين، يكاد القائد المحلي هذا أن يفقد صوابه حين نشاهد أربعة عناصر من حاجز قريب من قرية عنجارة وهم يجلسون قريبا من

منتصف الطريق، ويدخنون النارجيلة بعد تناولهم للإفطار الذي لم يتسنّ لهم الوقت لرفع صحونه كما يبدو.

يبدأ القائد في تقريع عنصر الحاجز بشدة، بينما بقي ثلاثة عناصر يتكئون قرب نارجيلتهم، اكتفى عنصر الحاجز بالقول انه لم يكن دوره في الحرس فيما ذهب زميله لأمر هام، ويكرر اعتذاره للقائد الميداني معيداً القول «يا شيخ جئت مكان فلان»، وحين ننطلق يقول صديق القائد الميداني «لقد تمنيت أن يسألك من انت حتى تقرّعني»، المصيبة لم تكن فقط في فوضى الحرس، بل في تقبلهم للتقريع من أي عابر سبيل.

غير أن الاهمال المشابه لا يثير اهتمام أحد تقريباً، فأغلب الحواجز ونقاط الحرس هي أماكن للنوم والاسترخاء لرجال تجاوزوا الأربعين ويبحثون عن فرص عمل مريحة، بينما الامتناع عن الصوم أو الصلاة قد يثير مشكلة هائلة، كذلك النقاش وابداء الرأي السياسي، والأمر نفسه وأكثر ينطبق على الاختلاف الديني والمذهبي، رغم أنني أشهد بأنني لم أصلّ يوماً ولا صمت بين صفوف الثوار، إلا أن تقبّلهم لي كان بصفتي زائراً أجنبياً.

ولكن في الكفة الأخرى وخلال حديث ودي مع قائد أحد الفصائل الكبرى اسأله عما إذا لم يحن الوقت بعد للتخفيف من ذقنه والعودة لرفع علم الثورة على مواقع فصيله، لا سيما أن المخابرات المركزية الأميركية صنفت فصيله من ضمن المعارضة المعتدلة وتجاوزت كونه من خارج تشكيلات الجيش الحر، القائد صاحب الصلاحيات المطلقة في فصيله يجيبني بأن قومه سينبذونه بحال مس بذقنه أو رفع علم الثورة، وهو نفسه يحذر بعض ضباطه من المغالاة في الوطنية والحفاظ على الطابع الإسلامي خشية عليهم من زملائهم في الفصيل نفسه.

المهزومون يتبنّون نظريات داعش

الساعة الثامنة موعد الإفطار في قرية أورم الصغرى، تهدر الطائرة التدريبية L39 في الجو، ثم تنقضّ، ويتواصل صوت الانقضاض ليتحول إلى صوتين قبل أن يتأكد الناس من انه برميل متفجر يهوي، ويسمع صوت انفجار هائل وترتج الأرض، أقل من دقيقة ويتكرر صوت انقضاض الطائرة، وهو الصوت الذي يصدره البرميل خلال هبوطه، ثم ينفجر البرميل الآخر في المكان عينه مستهدفاً من ركض لمساعدة المصابين جراء الانفجار الأول.

على اجهزة الاتصال يصدر صوت يطلب سيارات اسعاف لنجدة المصابين في أورم، يسأل مركز إسعاف قريب عن الإصابات «نساء وأطفال» يقول الصوت، ثم يضيف «مبنى لاجئين انهار».

دقائق وتبدأ سيارات الإسعاف بسلوك الطريق المؤدي إلى أورم الصغرى، ثم من الفراغ الأسود يهبط عمود من الشهب الأحمر، وتنفجر طلقات

رشاش الطائرة أولاً على مكان انفجار البرميل، ثم على الطريق، مصيبة بعض السيارات المتجهة إلى المكان، دقيقة أخرى وترمي الطائرة المغيرة بنيران رشاشها الثقيل على موقع انفجار البراميل مجدداً، وصوت يصدر عبر أجهزة الاتصال اللاسلكية التابعة للفصائل المقاتلة يطالب بإطفاء أضواء السيارات.

كلما شُغل الناس عن المشكلة الرئيسية في سورية، عادت المشكلة لتذكرهم باستعصائها، إنه النظام الذي يرفض الموت، ويقاتل آخذاً البلد وبشره ومبانيه وكل ما هو فوق سطح الأرض إلى الأسفل معه خلال انحداره البطيء إلى حفرة القبر.

إلا أن الفصائل السورية المختلفة مشغولة بقتال بعضها بعضاً، وبقتال دولة الخلافة الإسلامية، وبقتال الأكراد أحياناً، والشيعة المحاصرين في نبل والزهراء، وبتوزيع المساعدات على السكان، وحتى بتفعيل المدارس وتشغيل افران الخبز، وتوزيع المحروقات، وطبعاً جباية الأموال من المصادر الممكنة.

أدّى فشل مشاريع الحكومة السورية المؤقتة التابعة للمعارضة الخارجية إلى إطلاق يد القوى المحلية على كل تلاوين الحياة العامة في الداخل السوري، بعد أن بقيت المناطق المحررة تنتظر من ينجدها لتواصل حياتها بالحد الادنى، ومع تراجع إمكانات المعارضة الخارجية، وانحسار أي شكل من أشكال تدخلها في مفاصل الحياة المدنية، ما عدا تلك التي تظهر على التلفزيونات من زيارات لقادة يعودون إلى تركيا قبل مغيب الشمس، مع هذا التراجع والانحسار تحولت الفصائل المقاتلة إلى دويلات صغيرة،

وضعت يدها على إصلاح شبكات المياه والكهرباء وجمع النفايات، وحتى وضعت في بعض المناطق شبكات خليوية بمساعدة جهات غربية، وكذلك اعادة اطلاق عجلة التعليم في المدارس الرسمية، بمناهج غير معترف بها في أي مكان، وبأساتذة شبه متطوعين، وراحت توزع المساعدات التي تأتي من الدول الداعمة، وخصوصاً المملكة العربية السعودية ودولة قطر، وشُغلت هذه الفصائل عن الحرب بإدارة الحياة العامة.

عشرات آلاف الأطنان من الطحين تدخل من الدول المانحة، لا تراعي الحاجات في التوزيع على الفصائل، ومع صعوبة تحديد عدد السكان بسبب موجات النزوح المستمرة من وإلى المناطق، أصبح العامل الذي يحدد كميات الطحين الموزعة على هذا الفصيل أو ذاك هو الولاء، فحركة «حزم» على سبيل المثال تحصل على الحصة الأكبر من المساعدات السعودية، بينما يحصل جيش المجاهدين على الحصة القطرية الأكبر بصفته موالياً لقطر والاخوان المسلمين.

كان لواء التوحيد يحصل على الحجم الأكبر من المساعدات القطرية والإخوانية، بحسب ما يقول أحد الضباط المحليين الذين يعملون على تأمين السلاح والذخائر لفصيل يعتبر اليوم من كبار الفصائل في حلب، ويضيف الرجل أن لواء التوحيد انهار عملياً، ولم يبق منه أي شيء ما عدا الاسم وتهديد جيش النظام باخد آخر مواقعه في مدرسة المشاة، وحين انضم لواء التوحيد إلى الجبهة الإسلامية صار تمويله من المملكة العربية السعودية على الرغم من إخوانيته المعلنة.

بينما يحصل جمال معروف، الذي يمتلك جيشاً صغيراً قليلاً ما يشارك في القتال، على حصة كبيرة من المساعدات الأميركية والسعودية، بحسب

الضابط، يقول ضابط آخر على صلة بالمخابرات المركزية الأميركية أن الاخيرة وجهت إليه إنذاراً مبدية عدم رضاها عن مستوى عمله ولا عن نوعية الأعمال التجارية التي يقوم بها، وفي الوقت عينه بدأت مساعدات عسكرية ومالية تصل لمجموعة من الضباط المحيطين بجمال معروف، في محاولة لضرب الجيش الصغير الذي يمتلكه وتفتيته.

وتتسرب المساعدات الإغاثية التي يفترض أنها مجانية إلى الأفران والمطاحن التي تديرها جبهة النصرة، الفصيل المصنف من قبل العديد من الدول الداعمة كمنظمة إرهابية، فتشتري جبهة النصرة مئات وأحياناً آلاف اطنان الطحين في اكياس مطبوع عليها «المملكة العربية السعودية» أو «دولة قطر»، وتخبزها في الأفران التي تسيطر عليها وتعيد بيعها أو توزيع بعض منها على السكان المدنيين. كما تحصل دولة الخلافة (داعش) على حجم من المساعدات من السوق السوداء، أو ببساطة تصادر هذه المساعدات خلال مرور الشاحنات على حواجزها.

الخلاصة البسيطة أن الفصائل السورية المقاتلة فشلت في مواصلة القتال ابعد من حدود قراها كما فشلت في إدارة المناطق المدنية، ولكنها تمكنت من وراثة الدولة السورية الفاشلة أصلاً، إلى حين يتقرر مصير هذه المناطق ومن بقي فيها.

من الحدود الجنوبية لتركيا يعبر المقاتلون الأجانب، ومن هنا تراقب الدولة التركية، العضو في حلف الناتو، دخول مقاتلي دولة الخلافة، ويمكنك مشاهدة المقاتلين يعبرون الحدود المغلقة أمام المواطنين السوريين الذين يحاولون التسلل. النتيجة النهائية واحدة: الإسلاميون العرب والاجانب يعبرون، بينما الحدود عصية على السوريين.

«تركيا تعلم جيداً ما يجري على أراضيها» يقول ضابط مخابرات غربي شاب، يتحدث العربية والتركية بطلاقة وعلى اتصال يومي بضباط المخابرات الحدوديين، من الرقة إلى اللاذقية، ويضيف «وأيضاً تركيا تعلم جيداً ما يجري في الكيلومترات العشرة الأولى داخل الحدود، وعلى الرغم من اعتقاد ضباط المخابرات التركية أنهم يعرفون أبعد من ذلك، إلا أن معلوماتهم في الداخل تصبح مضللة».

في تركيا يزداد الوضع تعقيداً، المخابرات التركية التي تشرف على كل النشاطات الحدودية والمتعلقة بالثورة السورية «هي قسمان، قسم موال لرئيس الحكومة التركية، وقسم آخر علماني، والقسمان يتصارعان بنا» يقول ضابط ارتباط سوري شاب، يعمل على التنسيق ما بين القوى السورية في الداخل والمخابرات التركية.

وخلال الجلسة الطويلة مع الضابط الشاب يردُه اتصال من ضابط تركي، يبدو الشاب مربكاً، وحين يغلق هاتفه يعلق «لقد قال لي نسق مع الذين التقيتهم بالامس، وهو يعني المخابرات السعودية». يقول ويرمي يديه يائساً في الهواء.

المخابرات التركية كما يقول العديد من القادة المحليين في سورية والضباط المنشقون المقيمون في تركيا، لا تحبذ علاقة الأطراف السورية بالمخابرات السعودية، أو بالمخابرات المركزية الأميركية، على الرغم من أن الطرفين يعملان من الأراضي التركية، وهو ما يزيد الارباك لدى الفصائل السورية، التي تحصل على المساعدات العينية من الولايات المتحدة، ولكن بالأخص من السعودية، بينما تحصل على الاموال النقدية

من قطر، إضافة إلى بعض الذخيرة، غير أن كل ذلك يجب أن يمر عبر المخابرات التركية.

في شتاء العام ٢٠١٤ أنشئ مركز العمليات العسكرية MOC (Military operation center)، على أساس تولّيه إدارة العمليات وتنسيق الدعم بإشراف المخابرات المركزية الأميركية، إلا أن الأموال لا تزال تتدفق من غير رقابة فعلية، وجزء كبير منها يصل إلى جبهة النصرة، وكذلك إلى دولة الخلافة (داعش).

نجح المركز MOC بضبط المساعدات العينية والعسكرية الموجهة إلى الفصائل العسكرية، لكنه في الجوانب الأخرى بدا بعيداً عن التدخل، وخصوصاً في الناحية المالية النقدية، الاموال التي تتدفق في النهاية قد تكون مفيدة لكل الأطراف، في الصرف أو في التلقّي، أو حتى في لعب دور الترانزيت، فتدفق العملة الصعبة على تركيا ولو بآلاف وعشرات آلاف التحويلات الصغيرة سيشكل جرعة فيتامين جيدة للاقتصاد التركي المحلي وللعملة التركية التي تتراجع بشكل متواصل أمام الدولار الأميركي.

في اللحظة التي كان البغدادي يعلن فيها تولّيه الخلافة، والجيش السوري النظامي يتقدم في حلب باتجاه المدينة الصناعية، أدخل مركز MOC ثلاثة قواعد لاطلاق صواريخ «التاو» المضادة للدروع، حصلت حركة حزم على قاعدة، وكتائب نور الدين الزنكي على اثنتين، وأعلنت الزنكي قبل انتصاف شهر تموز عن استخدام صاروخ على دبابة T72 في المنطقة الصناعية عارضة تسجيل الفيديو على موقعها على اليوتيوب، بينما حصلت الزنكي وحزم على عدد محدود من الصواريخ التي تطلق

عن هذه القواعد بانتظار استخدام الموجود لديها قبل تسليمهما المزيد من الصواريخ.

إضافة إلى ذلك أرسل MOC عدداً من وسائل النقل (حوالي ٦٠ آلية) مدنية تصلح للاستخدمات العسكرية، وكمية بسيطة من الأسلحة التقليدية.

لكن على الرغم من كل ذلك، تجلس في لقاء بين قائدي فصيلين، أحدهما من حلب والاخر من الرقة، يبحث الرجلان سبل توحيد القوى المقاتلة، «لا حل إلا بمبايعة مجلس شورى، يجب أن نلزم الكل بمبايعة مجلس شورى أمام الله، وإلا فلا بد من بعض الدعشنة، نصفيّ الفصائل التي لا تبايع» يقترح القائد اللاجئ في تركيا بعد أن استولت داعش على منطقته وطردت مقاتليه أو ضمتهم إلى صفوفها بعد أن قتلت من قتلت منهم.

وحين تسأله لماذا لم تنجح هذه النظرية في الرقة؟ يجيب «لقد نجحت تماماً، لقد بايعنا مجلس شورى، وكانت الأمور على خير ما يرام، ولكن الله ابتلانا بداعش»، ولا يبدو بعدها من المجدي متابعة السؤال: كيف يمكن تقييم النجاح أذا كان تنظيم عشوائي كداعش يمكنه تصفية مجلس شورى؟

الأمم المتحدة تتصل بداعش

اعتمد مركز العمليات العسكرية MOC على تقييم الفصائل المقاتلة في سورية، بانتظار أن تثبت اعتدالها، وهو يعتبر أن الفصائل التي تحوز الضوء الاخضر معتدلة ويمكن تسليحها ودفع رواتب بعض مقاتليها (الف أو الف ومئتي مقاتل لكل فصيل جدي)، بينما التي تحوز الضوء البرتقالي فهي تحت المراقبة ولا تحصل إلا على بعض المساعدات غير القتالية وغير المالية، واما تلك التي تحوز الضوء الأحمر فلا تحصل على شيء حتى تغير من أوضاعها وأساليب عملها، وهي مهددة بوضعها على قوائم الإرهاب.

إلا أن هناك جهة أخرى تقوم بتقييم المجموعات العاملة على الساحة السورية، هذه الجهة هي دولة الخلافة (داعش) ولا أحد آخر، انها تقبل توبة الفصائل التي تتخلى عن التعاون مع الجيش الحر والغرب، وتنضمّ إلى مبايعة الخليفة أمير المؤمنين إبراهيم البغدادي، وهو ما حصل مع العديد

من اجنحة جبهة النصرة، ليس في دير الزور وحدها، وإنما في مناطق أخرى بقيت طي الكتمان نظراً لسيطرة فصائل أخرى على المناطق حيث تتواجد.

وكذلك انضمّ إلى داعش عدد من الفصائل السورية التي كانت إلى يوم قريب تتبع للجيش الحر أو لقوى سورية معتدلة، كلواء داوود، الذي انطلق بكل سلاحه ورجاله إلى الريف الشرقي في حلب، لمواجهة داعش، وهناك اعلن مبايعته لدولة الخلافة وانضم إلى من كان مفترضاً أن يواجههم.

وتلتزم داعش بالخطوط الحمراء التي تضعها الدول الكبرى، وحين تتجاوزها، كما حصل في الاستعراض العسكري في الرقة في الأول من شهر تموز، فهناك من ضباط الارتباط الغربيين في تركيا من يتحدث عن عملية سرية وقعت في معسكر لداعش في الرقة، حيث هبط كومندوس (مجهول الهوية) من مروحيات وقام بتصفية عدد كبير من المقاتلين الدواعش، وفجّر مستودعات ذخيرة قبل أن ينسحب. ويسألك الضابط الغربي بخبث «هل سمعت بتأكيدات لهذه الإشاعة؟» فيجيب ضابط سوري يتولى إدارة عمليات وتمثيل إحدى الدول الداعمة في الداخل، بأن «هذه الإشاعة مؤكدة بنسبة ٨٠ بالمئة» ثم يضيف بالعربية «ليست إشاعة على الإطلاق». وبينما تفقد جبهة النصرة عدداً من مجموعاتها لصالح دولة الخلافة، تخطط الأخيرة بعد ثبات محاورها في العراق، إلى العودة إلى المناطق التي خسرتها من سورية، وتعلن لمقربين منها أن ما بعد عيد الفطر في نهاية شهر الصوم (لعام ٢٠١٤) سيكون موعد الدخول مجدداً إلى مناطق الأرياف الشمالية في حلب وإدلب، تاركة الأرياف الأخرى لشأنها بانتظار أن يتقدم جيش النظام السوري ويكمل حصار حلب ويدخلها فاتحاً هو الآخر، على الاقل

هذه هي المعلومات التي تصل إلى ضباط جندوا انفسهم لاختراق داعش وأمرائها والحصول على معلومات من داخلها. ولا ينتصف شهر آب إلا وقوات الدولة الإسلامية تتقدم في الأرياف الحلبية.

التركمان من ناحيتهم ومنذ دخولهم الصراع عادوا إلى صفتهم القومية، وباتوا يعملون كقوات تركية على الاراضي السورية، وساعدهم الكثير من ابناء جلدتهم في تركيا منضمين للقتال إلى جانبهم، هم بالنسبة لداعش من الأعداء المرتدّين، شأنهم كشأن الاكراد، الذين دفعتهم داعش، وقبلها عدد من فصائل الجيش الحر، كلواء عاصفة الشمال، إلى احضان حزب العمال الكردستاني الموالي للنظام، ولم يجدوا بين الفصائل الثورية السورية من يدافع عن مناطقهم بوجه ثوار وجهاديين قرروا خوض مغامرات جانبية إضافة إلى الحرب الرئيسية المفترضة ضد النظام.

ومن يخترق داعش والمتابعين الميدانيين من قادة عسكريين، توقّعوا أن مناطق انتشار الاكراد والتركمان هي الحدود التي ستقف عندها داعش فاتحة معارك استنزاف طويلة.

وفي الانتظار فإن دولة الخلافة بقيادة أمير المؤمنين إبراهيم البغدادي تحصن نفسها بالحصول على موارد مالية ضخمة، حيث إضافة إلى النفط وكل مكونات ثروة القطاع العام وممتلكاته، فإن داعش اعتمدت بشكل كبير على تجارة الرهائن.

يروي أحد العائدين من سجون داعش أنه قضى شهراً ونصف مع قرابة ٤٠٠ موظف سوري تم توقيفهم على حواجز داعش، ولم يطلق سراحه

إلا بعد دفع فدية مالية بلغت ٣ آلاف دولار أميركي، بينما كان معهم في السجن أكثر من ١٠٠ من كبار الشخصيات التي تطلق عادة بمبالغ تصل إلى أكثر من عشرة أضعاف ما دفعه.

ومن الفدية إلى الجعالة، أو الضريبة التي تحصّلها داعش من مرور الشاحنات، إلى مصادرة الشاحنات ببضائعها، إلى الضرائب التي تجمعها من مواطنين محددين، إلى ضرائب تفرضها على اصحاب الاعمال، وصولاً طبعا إلى بيعها النفط الخام بألفي ليرة سورية (١٢ دولاراً) للبرميل الواحد، مشاركة اهل عشائر دير الزور بالنفط الخام، أو حتى مقصية بعض العشائر التي قاومتها من الاستفادة من النفط.

ولكن كل ذلك لا يكفي لإنعاش المناطق التي بات يعيش فيها السكان بأمن نسبي، لا سيما أن الطيران الحربي السوري لا يقصفها بعد سيطرة داعش عليها، فراح أمير المؤمنين البغدادي والناطق باسم التنظيم أبو محمد العدناني يدعوان الاختصاصيين من أطباء وعاملين اجتماعيين للعودة إلى المناطق التي تقع ضمن «الدولة الإسلامية» أي تحت سيطرة داعش.

في أحد مقاهي مدينة أنطاكيا، يتحدث أحد المسؤولين في مكتب الامم المتحدة عن الوضع المعيشي في المناطق التي تسيطر عليها دولة الخلافة (داعش)، «ربما كانت داعش جيدة في القتال إلا أنها في الأعمال الإغاثية سيئة للغاية». يقول قبل أن يعلن ما يرغب بنشره بين الاطراف السورية حتى لا تقوم الاخيرة بردة فعل سلبية لاحقاً «تعلمون أن مجلس الأمن سيقر قريبا ادخال المساعدات من المعابر التي يسيطر عليها فصائل المعارضة (اقر مجلس الأمن ادخال المساعدات يوم ١٤ تموز ٢٠١٤)،

وعند إقرار المعابر سيكون لداعش نصيب في المساعدات». يضيف المسؤول الأممي.

ويعتبر هذا المسؤول الذي يتخذ من تركيا مقراً لعمله أن الولايات المتحدة والامم المتحدة يعيشان خارج السياق الواقعي للأحداث، بينما على الأرض الجميع يعلم أن داعش تحكم مناطق شاسعة من سورية وتحت حكمها مئات الاف المواطنين المعرضين لخطر الجوع والمرض.

«لن أكذب عليكم» يقول المسؤول «لقد بدأنا سلسلة اتصالات بأمراء من داعش، لا تزال الاتصالات على مستوى أمراء محليين، ولكن النتيجة مذهلة» بحسب ما يعبر المسؤول، الذي يشير إلى أن الأمراء الجهاديين أبدوا حسن نية واحتراماً بالغاً للأمم المتحدة وأعمالها التي تزمع القيام بها في مناطقهم «لا شك بأنهم في أزمة، ونحن لم نقرر بعد رفع مستوى الاتصال بالقيادات العليا في داعش، ولكن في النهاية يمكن لداعش أن تشكل فريقاً لإدارة المساعدات، ونحن جاهزون لتلبية شروطها المنطقية، فاذا قالت داعش لا نريد اجانب في فريق الامم المتحدة فنحن سنلتزم ولن نرسل اجانب إلى سورية».

«لنكن واقعيين» يقول المسؤول وهو يتوجه إلى أحد القادة الميدانيين السوريين بالحديث «داعش باقية لفترة طويلة، وعلينا اطعام السوريين، ونحن نعلم أن لا ضمانات في التعامل مع هذا التنظيم» وينظر إلى القائد السوري الميداني، ويضيف «هل هناك من تحركات لداعش في مناطق الشمال الحدودية حالياً؟». يبدو السؤال محرجاً للقائد الميداني، الذي كان حينها بانتظار تقدم داعش في الشمال، بينما يجد هو نفسه صعوبة في تنسيق

أعمال القوى المعتدلة لتوجيه ولو ضربة محدودة لجيش النظام في مناطق حلب منعاً لحصار المدينة وتجويع ساكنيها.

إلا أنه وفي هذه الاثناء تنجح الدولة الإسلامية في أخذ جزء من الشعب السوري رهينة، تفاوض عليها مع بعض موظفي الأمم المتحدة للحصول على المزيد من الموارد، بينما يرى هؤلاء الموظفون أنفسهم أن مسؤوليهم في الامم المتحدة والمسؤولين الأميركيين في نيويورك بالكاد يعلمون بما يجري على الأرض، وأن قراراتهم تبنى على معطيات جزئية، أو بحسب الآراء المسبقة لمجموعة من الباحثين الذين يعرفون سورية من خلال خرائط google earth.

ملاك الثورة وشياطينها

ما أن انطلقت الثورة في سورية حتى ماجت الأرض ولم تعد إلى السكون للحظة، شهر ثم عام ثم ثلاثة اعوام من القتال المتواصل، انفرزت القوى، بين تلك التي تقاتل الثورة بالحديد والنار ولو أدى القتال إلى إفناء نصف الشعب السوري، وبين تلك التي تدعم توازن ما بين قوى الثورة وما بين النظام، مانعة أي طرف من الانتصار.

وما إن أطلقت الثورة حتى بدأت أمراضنا بالظهور إلى العلن، امراض عاشت وتطورت خلال مئة عام من الفشل المتكرر، والتجارب المجتزأة، والأفكار المستوردة، والتسويات التي لم تصلح لما بعد إطلاقها، انتشرت هذه الأمراض ببطء في أجساد مجتمعاتنا، وقاسى المجتمع السوري أقصى الأمراض في ظل قمع مرعب، منع المجتمع من التأوه والصراخ من آلامه الحادة.

حين انفجرت الثورة حصلت معجزتان، **الأولى** اشتعال الثورة في سورية،

والثانية استمرار السكان باحتضان ثورتهم. إلا أن العوارض المرضية ظهرت بفجاجتها وبدمويتها، وبنذالاتها كلها، خرجت كل الشياطين المكبوتة لدى نظام يرفض الموت، كما لدى أفراد الشعب ونخبه، الذين لم يتمكنوا من متابعة طريق مستقيم إلى النصر.

لم تكن الثورات في الماضي باقل دموية، هناك من يعتقد أن الثورات بيضاء ناصعة يطلقها حزبيون أو مثقفون هادئون، ويسير بها مواطنون مثاليون، وتنتهي بأيام أو أسابيع، ثمة من يصدق ما يقرأه في كتب الثورة البلشفية أو الفرنسية حرفياً، دون التعمق قليلاً أو التفكير بأعداد القتلى على المقاصل نسبة لعدد السكان، أو الذين أعدموا، أو الحرب الأهلية في روسيا بين البيض والحمر.

هناك من يعتقد أن الثورات تخرج فقط أفضل ما لدى الشعوب، وتنهي اسوأ ما لدى البشر والحكام، إلا اننا في العصر الحديث لم نعش سوى قليل من الثورات، ومن يدقق بما جرى في الثورة الإيرانية يعلم أن الثورات تحمل في جوفها أمراضاً ودماء وقتلاً وتصفية للحلفاء وحروب أهلية، وحروباً مع المحيط الذي قد يرى في قوى الثورة وتغيير الأنظمة المحيطة إضراراً بمصالحه المباشرة وتعريضاً لأمنه القومي. لم تختلف الثورة السورية كثيراً عما سبق، إلا أنها أتت على عفن شامل في المنطقة العربية، كان يمكن تدارك الأمور مع مصر وتونس، وتم اغراق ليبيا في صراع أكبر بقليل من الثورات المضادة في مصر وتونس، لكن سورية شأن آخر، إنها نقطة فائقة الأهمية للعديد من القوى الإقليمية والدولية، والتحول فيها كان سيفتح عصراً جديداً في المنطقة كلها، وسيعيد تركيب لوحة الشرق الأوسط بكاملها،

ومع دخول سورية في صراع متوازن طويل بين قوى التغيير المحلية وبين قوى النظام المهترئة، فان الوقت متاح تماماً للقوى الاقليمية والدولية المتصارعة لإعادة التفاوض الهادئ حول المستقبل وتقسيم النفوذ وتوزيع المكاسب من تسويات هناك وهناك، وأن كلف ذلك ٣٠٠ ألف أو أكثر من المواطنين السوريين، وتشريد نصف الشعب السوري.

في واشنطن تنهي مداخلتك حول تنظيم داعش، فتبدأ الأسئلة حول مستقبل الإرهاب في المنطقة، نسي الكل في الغرب التغيير في سورية، وعاد التركيز على أحد شياطين الثورة، الإرهاب الإسلامي.

وفي كل الدول التي تعتبر صديقة للشعب السوري باتت المؤتمرات ترتكز على مناقشة الإرهاب، جبهة النصرة وداعش والفصائل السورية المصنفة متشددة هي ما يجذب المؤتمرين الذين في النهاية يشكلون ما يشكلونه من مساهمة في صياغة القرارات الرسمية والوعي العام في دولهم.

يسير ملاك الثورة وحيداً، ويرقص حوله ألف شيطان وشيطان، وحين يغنّي ملاك الثورة «سورية لبست ثوب الحرية» فان الشياطين تغنّي «باقية باقية باقية وتمتد» و«شبيحة للأبد لأجل عيونك يا أسد»، عداك عن الصراخ المذهبي الذي يرتفع من الدول المحيطة كلبنان والعراق وتركيا.

لكنّ ملاك الثورة يرسم الابتسامة على وجوه مئات الآلاف والملايين من السكان السوريين، يعيشون اليوم في قراهم، وربما في لحظات قليلة يبتسمون، يضحكون، يتحدثون بحرية، يطلقون لحاهم، ثم يعودون إلى حلاقتها، يتجولون في الأسواق، يقاتل أبناؤهم مع هذا الفصيل أو ذاك،

هم انفسهم كانوا إلى بداية العام ٢٠١١ متجهمين طوال الوقت وصامتين أغلبه، خائفين من التحدث بحريتهم أمام أهل منزلهم.

لا شك بأن الشياطين المرافقة للثورة اليوم تثير العبوس والحزن والأسى وحتى المآسي بين الناس عامة في سورية، إلا أن حياة المواطنين تحولت مرة واحدة ولن تعود كما كانت، لن يعود من ذاق اليوم طعم الحرية بقدميه إلى الأسر، لا أسر داعش ولا أسر نظام يموت جارّاً خلفه شعبه وأرضه.

لن ينتصر ملاك الثورة خلال أيام ولا أسابيع كما كان يعتقد السوريون في بداية الثورة، لكن شياطينها الكثر سيغادرون آجلاً وليس عاجلاً، وستكون داعش والنظام السوري، وكل لصوص الهيكل وجلادي الشعب السوري مجرد ذكرى سيئة، لن يتمكن أحد من تأبيد اللحظة الراهنة، وأن كان المستقبل غير مضمون، إلا أن الماضي لن يبقى غداً.

ملاحق

ملحق رقم ١

كان من المفترض أن يكون بيان الخاطف هو الرقم (٣)، بعد أول بيان صدر لحظة الاختطاف، والثاني تم بثه عبر قناة الجزيرة، على أن يبدأ البيان الثالث بملاحظتين هما:

ملاحظة أولى: إن الهدف من بث شريط الفيديو هو تطمين الأهالي، ولا يقصد به أي هدف سياسي أو مالي.

ملاحظة ثانية: أن المقصود بثوار سورية الثوار السوريون في كل البلاد، والمجموعة اللبنانية المعتقلة بتصرف الثورة السورية وليست بتصرف مجموعة محددة تحمل اسم «ثوار سورية» كما أشكل الأمر على البعض سابقاً.

ثم يأتي نص البيان:

يمتلك ثوار سورية قدرات أمنية عالية على الحدود مع تركيا، وأثناء مرور

القافلة اللبنانية، راقبت مجموعة أمنية من الثوار تعامل القافلة اللبنانية مع الأمن العام السوري، وكانت القافلة مؤلفة من حافلتين، إحداهما تحمل لوحة دمشق، والأخرى لوحة حلب، واشتبه الثوار بأن هؤلاء مجاهدون إيرانيون آتون لدعم النظام، خاصة أن عنصراً من الأمن العام السوري التقى بهم في نقطة الأمن العام وأنزل كيساً وأدخله إلى المكاتب لمدة ٣٨ دقيقة، ثم أعاده إلى الباص. وتبين أن الأمن العام السوري سهل عبورهم أمنياً.

وبعد خروجهم من الاراضي التركية راقبناهم بشكل لصيق، واكتشفنا ٥ كاميرات فيديو صورت على مسافة ١٧ كيلومتراً، وقررت المجموعة الأمنية توقيف الحافلتين وتفتيشهما، وأوقفهم الثوار في أرض محررة على الطريق الرئيسي الرابط بين تركيا وحلب، وأنزل الرجال وبقي النساء في الحافلة، واعتبر أحد الأشخاص اللبنانيين أن العناصر هم من المخابرات السورية، فعرّف عن نفسه بالقول «انا عسكري لبناني من حزب الله».

فقرر قياديون في الثورة السورية توقيف الرجال، وأطلقوا النساء والشيوخ ولم يصادر غير البطاقات الشخصية وجوازات السفر والهواتف الخليوية.

بعد نصف ساعة مرت الحافلة الثانية على نفس النقطة على الطريق العام، فقام ثوار سورية بنفس التعامل مع الحافلة الأولى، وكان الثوار قد اوقفوا من الحافلتين ١١ شخصاً. دون أن يوقف أي من النساء أو السائقين، أو يطلب منهم النزول أو يحقق معهم.

واللبنانيين الـ١١ يتم التعامل معهم كضيوف وهم موزعين على ٣ شقق برفاهية كاملة، ويشاهدون التلفزيون، وكل اسبوع يزورهم حلاق، ولديهم

طبيب، والطعام على طلبهم، واحدهم مغرم بالنارجيلة وله شخص يهتم بإعداد نارجيلته. ويقوم على خدمتهم رجلين وامرأة مسنة تغسل ملابسهم.

وينفي ثوار سورية أن يكون أي منهم تحدث إلى أي وسيلة إعلامية، أي كانت أو أن أياً من المشاركين في العمل ظهر على أي وسيلة إعلامية لبنانية أو عربية أو عالمية، وليس لهم أي علاقة بالطائرة اللبنانية التي اتت إلى تركيا، بل كانت من اعمال الطابور الخامس أو السماسرة.

وبما أن حسن نصرالله لم يقدم اعتذاره للشعب السوري عن دعمه للنظام، وسلم التفاوض على المخطوفين إلى الحكومة اللبنانية، فقد قرر ثوار سورية أن يتم تسليم القرار النهائي بشأن المعتقلين إلى الدولة السورية المدنية الجديدة، وإلى البرلمان الجديد البديل عن النظام الحالي.

ان ثوار سورية قصدوا ايراد عبارة «تسليم المخطوفين إلى الدول المجاورة لسورية بدون استثناء» مع ما يمكن أن تثيره من لبس.

ان عملية توقيف اللبنانيين الـ١١ وابقائهم في ضيافة ثوار سورية لا ابعاد مذهبية له على الاطلاق.

ملحق رقم ٢

كلمة حسن نصرالله حول المخطوفين الـ ١١

في الأول من حزيران العام ٢٠١٢ يلقي الأمين العام لحزب الله خطابا ومما يرد فيه: نحن منذ اللحظة الأولى التزمنا على المستوى السياسي، سواء في حزب الله أو في حركة أمل، ودعونا أهالي المخطوفين وكل المحبين إلى ضبط النفس وإلى الهدوء وإلى الصبر. وقلنا أيضاً منذ البداية إن هؤلاء المخطوفين مواطنون لبنانيون، وبالتالي الدولة اللبنانية والحكومة اللبنانية هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن إعادتهم وإطلاق سراحهم وكرامتهم وسلامتهم وأمنهم، ونحن جميعاً، كقوى أو قيادات سياسية أو دينية نساعد الدولة، ولكن هذه هي مسؤولية الدولة.

وبالفعل، الدولة، برؤسائها، وعلى المستوى الحكومي، وعلى مستوى العديد من الوزراء، وعلى مستوى العديد من مؤسساتها أيضاً، هي تعمل

بجد، وأنا أشهد على ذلك، تعمل بجدّ في الليل والنهار من أجل إيصال هذه القضية إلى خاتمة طيبة.

من بداية هذا الحدث، وخلال الأيام الماضية، حصلت بعض الملابسات، لا مصلحة في التحدث عنها ولا التعليق عليها، من أجل قضية المخطوفين أنفسهم في المرحلة الحالية، في المستقبل ربما نتحدث أو لا نتحدث، (هذا) بحث آخر.

اليوم، وفي ظل المساعي الحثيثة التي يقوم بها المسؤولون اللبنانيون:

أولاً : نحن نؤكد على مسؤولية الحكومة والدولة في معالجة هذا الملف، ونحن نساعد، ولكن المسؤولية والطرف المعني بالتواصل، بالتفاوض، بالإجابة هي الدولة اللبنانية والحكومة اللبنانية.

ثانياً : يجب أن أشيد ونشيد جميعاً بصبر الأهالي وانضباطية ومناقبية الأهالي، بالحس العالي من المسؤولية لديهم، وأيضاً في هذه الأيام، أمام بعض أشكال الضغوط، بموقفهم الشريف والنبيل، وهذا طبعاً متوقع دائماً منهم ومن أمثالهم.

ثالثاً: أنا أدعو إلى مواصلة الهدوء وضبط النفس والصبر والتحمل وإعطاء المزيد من الفرصة أو الوقت للدولة لتواكب هذا الأمر وتتابعه وتصل فيه إلى النتيجة المطلوبة.

وأقول في النهاية كلمة للخاطفين: أنتم قلتم بالأمس إنه لا مشكلة لكم مع طائفة، جيّد، عليكم أن تثبتو ذلك. هؤلاء زوّار، هؤلاء أبرياء، يجب أن يعودو إلى أهلهم. إذا كان لكم مشكلة معي، هناك الكثير من الوسائل

والطرق لنحل هذه المشكلة، وهناك كثير من الأساليب والمستويات. لا أودّ الدخول في التفاصيل

«بدكم نحلّ بالحرب بالحرب، بدكم نحلّ بالسلم بالسلم، بدكم نحل بالحب بالحب، بدكم نحلّ كيف بدكم».

هذه مشكلة معي أو مع حزب الله أو مع حزب الله وحركة أمل أو مع جهة سياسية في لبنان، لها موقف من الأحداث في سورية، افصلوا موضوع الأبرياء «على جنب» وتعالوا حلوا مشكلتكم معنا. أما أن تتخذوا من الأبرياء رهائن من أجل حلّ هذه المشكلة بمعزل عن طبيعتها وحقيقتها، فهذا ظلم كبير يجب أن تنتهوا منه.

ملحق رقم ٣

مقالات

من المقالات التي نشرت خلال تلك الأيام والتي توضح تماماً الحسابات السياسية الضيقة لبعض الاطراف اللبنانية في عمليات الثورة في سورية أورد نموذجاً ها هنا:

هذه هي حقيقة فداء عيتاني

الياس قطار، الثلاثاء ٣٠ أكتوبر ٢٠١٢ ، جريدة البلد اللبنانية:

بين ساعةٍ وأخرى يؤمّ فداء عيتاني أرض بلاده... يعود حاملاً على جواز سفره ختماً تركياً وعلامة «مطرود» من الأراضي السورية ربما بتهمة «خيانة ثورةٍ» لا ينتمي إليها أصلاً وربما بتهمة «التذاكي» والفضول

المفرط... لا يهمّ. الأكيد أن قصّته أقلّ تعقيداً من قصّة المخطوفين التسعة لا بل سهلة جداً.

منذ إعلان وضع عيتاني الذي كان سباقاً في نقل صورة المخطوفين وأحاديثهم في الإقامة الجبرية، ارتسمت مئات السيناريوهات والفرضيات. فما حقيقة ما حصل؟ وأي دور للوزير مروان شربل في هذا الملفّ؟ ولمَ يستفيق النائب عقاب صقر منذ يومين مع ساعات الفجر الأولى؟ وهل تؤخر قضيّة عيتاني ملف المخطوفين اللبنانيين؟

بعيداً من كلّ السيناريوهات المرسومة، علمت «صدى البلد» من مصادر مواكبة للملفّ أن «سرّ توقيف عيتاني ووضعه في الإقامة الجبرية يكمن في إفراطه في التذاكي بعدما دخل مناطق عدة وصوّر فيها مجموعة عمليات ومقاتلين، علماً أن عدداً من النقاط التي بلغها عيتاني لم تكن في حسبان الثوار، وهو ما جعل بعضهم يشكّون في حقيقة تحركاته ومضمون ما ينقله صحافياً. وعززت هذه الشكوك أخبارٌ من بعض الجهاديين وتحديداً من حلب حيث كان موجوداً، واتهاماتٌ تؤكد أنه عميلٌ للنظام أو عميلٌ لحزب الله. كل هذه الأمور مجتمعة أجبرت الثوار على التحقق من حقيقة ما يفعله». وأكدت المصادر أنها «تبرّئ عيتاني من كلّ ما نُسِب اليه من اتهامات، ولكن هذا الإجراء كان لا بدّ أن يتمّ لأن حشريته الصحافية المشروعة والطبيعية لم تعد مقبولة في نظر الثوار». وكيف وصل إلى أبو إبراهيم؟ تجيب المصادر: «فور احتجازه هو نفسه من أكد أنه لا يعرف أحداً سوى أبو إبراهيم وأنه صديقه وطالب بأن يُقاد اليه في أعزاز عله يحلّ مشكلته». هذا وكان عيتاني حسب معلوماتٍ خاصة لـ «صدى البلد» لا يتردد في مناداة أبو إبراهيم بـ

«المعلم». أما الموقع الذي يظهر في الشريط المصوّر فيشي بأن المركز الخلفي الذي تظهر عليه عبارة «عاصفة الشمال» هو معسكرٌ للثوار في منطقة التل الأحمر المحاذية لهاتاي التركية.

«أنا مرتاحٌ بشكل كبير هنا، وأنا مع الثورة قلباً وقالباً» هذا ليس جل ما نطق به عيتاني للمصادر المتابعة، فما هو أخطر من ذلك حسبما علمت «صدى البلد» أن «عيتاني اتهم صراحة بعض الجهات اللبنانية بالوقوف وراء هذه العملية من خلال التحريض وبثّ الإشاعات الكاذبة» ولكن المصادر تنفي صحّة ما قاله الصحافي والإثبات على ذلك أن «هذه الجهات نفسها التي يتهمها عيتاني هي من اتصلت بالخاطفين راجيةً إطلاقه ولا تزال تعمل على تحريره بسرعة». قراءةٌ منطقية بسيطة تثبت أن عقاب صقر هو المقصود الأول خصوصاً أن أحد أقرباء عيتاني لم يتردد في اتهام صقر علناً بالوقوف وراء عملية توقيفه، وهو ما دفع لجنة متابعة ملف المخطوفين أمس إلى التمني على أهل عيتاني الإحجام عن التصاريح الإعلامية».

أما على الجبهة اللبنانية، فعلمت «صدى البلد» أن «الفيديو الذي بُثّ لفداء لطمأنة ذويه إلى أنه على قيد الحياة إنما هو ثمار جهود الوزير مروان شربل الذي يعمل في الظلّ ويؤثر سياسة التكتّم. فشربل لم ينأَ بنفسه عن الاتصال بأحد الوسطاء الناشطين في ملف المخطوفين ومطالبته بتأمين شريط فيديو لفداء ومعاملته بطريقة جيّدة والتسريع في ملفّ الإفراج عنه تمهيداً لاستكمال التفاوض على المخطوفين التسعة وحرصاً على ألا يكون ملفّ فداء عائقاً أمام الإفراج عن الباقين أو ضرباً من ضروب المماطلة». وأبعد من ذلك، وفي حال ثبت تاريخ إطلاق عيتاني خلال ٤٨ ساعة أو

كحدٍّ أقصى يوم غد، قد تتولى وزارة الداخلية والبلديات تأمين تأشيرة سفر للسفير علي عقل خليل ليتوجّه إلى أعزاز ويتسلّم عيتاني.

إذاً، عيتاني سيعود قريباً حاملاً معه قصّة غريبة وربما بعض الوثائق والصور... هذا الأمر ليس أكيداً... فالرجل الذي غادر بلده وصحيفته وآثر متابعة تحرك الثوار عن كثب يدفع اليوم ثمن «تذاكيه» أو «حشريته» أو رسوبه في امتحان «الوفاء».

على خطّ المخطوفين اللبنانيين، علمت «صدى البلد» أن إمكانية الإفراج عنهم خلال ١٠ أيام كحدٍّ أقصى واردة وهذا ما يعمل عليه المفاوضون. أما إلى حينها، فيُعمَل على إصدار فيديو جديد للمخطوفين خلال ٤٨ ساعة لطمأنة ذويهم لا أكثر، يتولى عيتاني تصويره وقد يحمله معه في طريقه إلى بيروت أو قد يُبثّ على الشاشات قبيل عودته أو بعدها. علمًا أن السفير خليل يقف وراء هذا الطرح بالتنسيق مع أحد المفاوضين الرئيسيين.

أما بالنسبة إلى المرحلة التي بلغتها المفاوضات، فستُستأنف بعد إطلاق عيتاني خصوصاً أن الرئيس سعد الحريري ما زال مصراً على إنهاء هذا الملف اليوم قبل الغد، مؤكداً في اتصال أخير مع أحد الوسطاء -علمنا بمضمونه- أنه مستعدٌ لمضاعفة المبلغ الذي عرضه أخيراً مقابل تسريع إطلاق المخطوفين، وهو الهدف الذي يعمل من أجله عقاب صقر ميدانياً.

http://www.albaladonline.com/ar/NewsDetails.aspx?pageid=54738

لهذه الأسباب انضمّ عيتاني إلى المخطوفين اللبنانيين في أعزاز

مصباح العلي جريدة الجمهورية اللبنانية ٢٩ تشرين الأول ٢٠١٢

بلغ عدد المخطوفين اللبنانيين ١٠ في مدينة أعزاز بعد احتجاز «لواء عاصفة الشمال» في حلب الصحافي فداء عيتاني، في خطوة مفاجئة أثارت الاستغراب نظراً لمواقف الأخير المتشددة في تأييد الثورة السورية وعمله الميداني إلى جانب الثوار في ريف حلب تحديداً، بما في ذلك متابعة قضية المخطوفين اللبنانيين.

ولعلّ سخرية القدر أن يحلّ عيتاني بنفسه على مضافة أعزاز، هو الذي رفض استخدام عبارات الخطف والاحتجاز أثناء تغطيته الصحافية لقضية المخطوفين اللبنانيين، بل حرص على اعتبارهم ضيوفاً لدى الثورة السورية وبمثابة شهود لنقل «فظائع» النظام السوري بحق شعبه، مُبدياً تعاطفه في مرحلة ما مع الجهة الخاطفة على حساب المخطوفين، فما الذي حصل؟ وما الذي تبدّل؟

أكدت المعلومات الواردة من مصادر الالوية والكتائب المعارضة لـ«الجمهورية» أن عيتاني في خير وصحة جيدة، وهو موجود في مكان قريب من المخطوفين اللبنانيين، أي ضمن منطقة آمنة في أعزاز وسيُطلق سراحه وسيتمّ إبعاده عن الاراضي السورية خلال الساعات أو الأيام المقبلة، مكررة موقف «لواء عاصفة الشمال» بأنّ اعتقاله كان للتحقيق معه بعد المعطيات المتعلقة بوجوده ودوره في ريف حلب وإبدائه حماسة مفرطة

ومبالغات أحياناً في دعم الثورة في سورية، ما لفت الانظار نحوه وجعله في دائرة الرصد والمتابعة، خصوصاً في ضوء إلحاحه للحصول على معلومات حساسة وبكثافة المادة المصوّرة التي في حَوزته عن عمليات المعارضة السورية والتي أثارت ريبة «تنسيقيات الثورة» في ريف حلب.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن انحسار الدور المركزي لقيادة «الجيش السوري الحر»، والذي كان يضطلع به انطلاقاً من مركز عملياته في انطاكيا وقرار القيادة نقل كل عملها إلى الداخل السوري، فضلاً عن غياب التنسيق العملي بين المجموعات، زاد من حدة التناقضات، بل لم يخلُ الأمر من حصول بعض النزاعات على الأرض أحيانا، ودوافعها واحدة هي الشهية المفتوحة لدى كل طرف لإظهار حكم قبضته وبسط نفوذه في منطقة ما؛ الأمر الذي أحدث هوّة في مكان ما تزيد من حدة الانقسامات بين المجموعات، والتي قد يستفيد منها النظام في المستقبل، ما دفع الجهات الداعمة للثورة السورية إلى توصية هذه المجموعات بضرورة التشدد في عملها الميداني والانضباط التام وسَدّ الثغرات، بما في ذلك تنظيم العمل الإعلامي ومتابعة جولات الإعلاميين كونها قد تكون سيفاً يتمتع بحدّين.

ولعلّ ما يبدو غامضاً هو سرعة تحوّل عيتاني من مصدر صحافي للتبشير بعدالة الثورة السورية وأحقية قضيتها، إلى الريبة المفاجئة من أدائه، بل واتهامه بدور مُعاد نسبياً، كذلك لا تقلّ عنه غرابة انقلاب مواقف عيتاني وسرعة تبدّل خياره السياسي من مؤيد لـ«حزب الله» وقوى ٨ آذار وخلفهما النظام السوري ضمن ما يسمّى «محور الممانعة»، إلى مناصر فجأة ومن دون مقدمات للثورة السورية وانحيازه لمطالب الغرب بإسقاط نظام الأسد،

حيث تحوّل داعماً للثورة في سورية بكل خطواتها، بل وتبرير كل أخطائها تحت عنوان تحميل نظام الأسد المسؤولية عن كل ما يجري، نافضاً يديه من تاريخ طويل لم يخلُ من الحدة أيضا في الممارسة السابقة، وكأنّ في القضية سراً ما.

ولا يخلو الحديث عن عيتاني ودوره عند بعض المعارضين السوريين من التلميح إلى أمر ما، خصوصا في ظل المعلومات المتوافرة عن اصراره على البقاء ضمن أمكنة القتال الخطرة وإصراره على المواكبة الميدانية في العمليات التي لا تخلو أيضاً من مخاطر كثيرة، كذلك مبالغته في إظهار تعاطفه مع الثوار، ما دفعهم مراراً إلى التساؤل عن الدوافع التي تدفع إعلامياً لبنانياً إلى فوهة البركان، والاستنتاج الطبيعي بشأن قطبة مخفية، خصوصاً انهم اشاروا إلى مسارعة خاطفيه لإصدار بيان صحافي والحرص على نشره قدر الامكان وذلك لطمأنة الرأي العام اللبناني والداعم للثورة السورية تحديداً، إلى أنّ الأمر يتعلق بسياق عمل الثورة والثوار.

أحد المسؤولين البارزين في الثورة في مدينة حلب رفض الكشف عن اسمه، شرح لـ«الجمهورية» أنّ الثوار لم يكونوا في وارد إحراج أنفسهم أمام جمهور عريض من اللبنانيين الداعمين للثورة السورية، ولكن على ما يبدو فإنّ ألوية «عاصفة الشمال» التي هي على صلة بقضية خطف اللبنانيين وجدت أنه من الأنسب احتجاز عيتاني لبعض الوقت بعد الريبة من عمله في ريف حلب، مع العلم أنها شرّعت الأبواب امامه واسعة في منطقة أعزاز تحديداً، بما في ذلك مقابلة المخطوفين والاطلاع على أوضاعهم. وينكر المسؤول صلة احتجاز عيتاني في أعزاز وفرض مغادرته الاراضي السورية بما يلفّ

مصير إطلاق سائر المخطوفين من غموض، ولكنه قال باقتضاب: «لقد تجاوز حدوده كثيراً».

وفسّر هذا الكلام بسرد بعض المعطيات المسموح بها، والتي لا تخلو من العوامل الداخلية اللبنانية، فقال: «نحن لا ننسى دعم عقاب صقر لعملنا، ولا نسمح لأحد بالاساءة اليه وإلى أشخاص آخرين لأجل حسابات داخلية في لبنان عند البعض والتي لا دخل لنا بها مطلقاً؛ مع العلم انّ صقر لم يتحمل فكرة احتجاز صحافي مطلقاً، وطالب الخاطفين بإطلاق عيتاني فوراً، كذلك تدخّل منذ بداية أزمة المخطوفين اللبنانيين في سبيل إنهاء قضيتهم، وقد تم إبرام اتفاق منجز أعاق تنفيذه اغتيال اللواء وسام الحسن».

وختم هذا المسؤول قائلاً: «الدور المفترض لأيّ مناصر لثورة الشعب السوري هو احترام خيارات هذه الثورة، واحترام إرادة الشعب السوري وقياداته وليس الدخول في زواريب ضيقة، وليس مسموحاً أبداً أن ينفخ البعض أدوارهم أكثر من اللزوم والسعي إلى مكاسب معينة على حساب دماء السوريين تحت عناوين التضامن والدعم».

http://www.aljoumhouria.com/news/index/38553

خطف الصحافي فداء عيتاني: جهة لبنانية نقلت معلومات «مو منيحة» عنه!

مروان طاهر الاحد ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٢ موقع شفاف الشرق الاوسط

أوردت صفحة «ثوار أعزاز»، على موقع التواصل الاجتماعي «facebook» أنّ الثوار السوريين أوقفوا الصحافي اللبناني فداء عيتاني.

وأضافت تنسيقيّة أعزاز في الثورة السورية «أن احتجاز الصحافي فداء عيتاني الذي يعمل مع قناة «lbc» وقنوات أخرى، جاء بسبب عدم تناسب عمله مع مسار الثورة السورية والثوار»، مشيرة إلى أن «عيتاني وُضِعَ تحت الاقامة الجبرية ولمدة قصيرة وسيتم الافراج عنه بعد استكمال باقي البيانات المطلوبة حوله»...ولفتت التنسيقيّة إلى أنّ «التقارير والفيديوات لم تثبت تورطه أو عمله مع أيّ طرف ضد الثورة، ولكن عمله كصحافي لم يعد يَلقى الموافقة على بقائه في المناطق الخاضعة لسيطرة الثوار».

المعلومات من بيروت أفادت أن هناك جهة لبنانية أبلغت الثوار السوريين في حلب عبر جهات سلفية بمعلومات خاطئة عن الصحافي عيتاني وآخرين عرف من بينهم ثائر غندور ونادر فوز وأن هؤلاء مخترقون من قبل جهات سياسية مناهضة للثورة السورية.

وفي اتصال مع الخاطفين أكد هؤلاء أن ما وجدوه مع عيتاني لا يشكل أي خرق لاي معلومات من شأنها الإضرار بالثورة السورية، إلا أنهم قالوا «إن المعلومات التي ترد عن عيتاني (مو منيحة)»!

يشار إلى أن الصحافيين الثلاثة ومعهم الصحافي خالد صاغية كانوا في عداد فريق عمل جريدة «الأخبار» اللبنانية، وهم غادروا الصحيفة تباعا على خلفية موقفهم المؤيد للثورة السورية، والذي لا ينسجم مع توجهات الصحيفة السياسية، كما يجمعهم أيضاً انتسابهم إلى صفوف الحزب الشيوعي اللبناني، وممارستهم العمل السياسي في صفوفه في مراحل ومراتب حزبية مختلفة.

فالصحافي عيتاني التحق بالحزب الشيوعي في ثمانينات القرن الماضي وعرف عنه يساريته المتطرفة على طريقة «غيفارا». عمل في صحيفة «النداء» التابعة للحزب الشيوعي وانتقل بعدها إلى صحيفة «السفير» ومنها إلى مكتب وزير البيئة «أكرم شهيب»، لينتقل إلى صفحة «إيلاف» الالكترونية منذ انطلاقتها، ليعود فيلتحق بصحيفة «الأخبار» فور انطلاقتها.

مع انطلاق الثورة السورية وجد عيتاني نفسه أمام معضلة اتباع نهج الصحيفة ورئيس تحريرها إبراهيم الأمين، أو الوقوف إلى جانب الثوار في سورية، فاختار الثورة وخرج من صحيفة «الأخبار»، ليمارس اعمالا حرة وفي محطة «ال بي سي»، وهو موجود في سورية لتصوير وثائقي إلى جانب تغطية إخبارية لمحطة «ال بي سي».

أما «ثائر غندور» و«نادر فوز» فكانا في عداد عناصر الشيوعي اللبناني أيضاً، وانتقلا إلى مناصرة الثورة السورية، ويعلنان مواقف لا تتناسب مع قوى ٨ آذار، من دون أن يلتحقا بقوى ١٤ آذار.

من جهته الصحافي «خالد صاغية»، هو من مؤسسي المجموعات اليسارية المستقلة، وأنشأ صفحة «شباب السفير»، وكان من أول الذين أعلنوا

انفتاحهم على ما كان يسمى بـ«المنطقة الشرقية»، اواخر تسعينيات القرن الماضي، كان صديقا شخصيا للإعلامي الراحل جوزيف سماحة فعمل إلى جانبه في تأسيس فريق عمل صحيفة «الأخبار»، إلى أن منعه رئيس تحريرها إبراهيم الأمين من كتابة نص الصفحة الاخيرة، فخرج من الأخبار ليلتحق بمحطة «ال بي سي».

الإعلاميون الاربعة عيتاني وفوز وغندور وصاغية، يجتمعون في شيوعيتهم ويختلفون في مهنيتهم إلا أنهم خرجوا من الأخبار بدفع من رئيس تحريرها وبسبب موقفهم المؤيد للثورة السورية.

بالنسبة لـ«الشفاف»، فنحن ضد اعتقال أي صحافي (حتى لو كان عضواً في «التيار الوطني»..!). ونطالب بالإفراج عن فداء عيتاني فوراً. يكفينا اعتقالات واغتيالات لصحافيين خلال ٤٠ عاماً الماضية من حكم البعث والقذاذفة وصدام وبشار وبن علي!

أفرجوا عن فداء عيتاني!

http://www.metransparent.com/spip.php?page=article&id_article=20452&lang=ar

الافراج عن فداء عيتاني اليوم

عفيف دياب جريدة الأخبار ٢٩ تشرين الأول ٢٠١٢

قالت مصادر إعلامية في «لواء عاصفة الشمال» في أعزاز في ريف حلب إنّ فداء عيتاني «سيخرج غداً إن شاء الله (أي اليوم الاثنين) ما لم تحدث تطورات ميدانية تؤخر الأمر». ولم توضح هذه المصادر ما إذا كان عيتاني سيبقى داخل الأراضي السورية أم أنّه سيلزم بمغادرتها إلى تركيا، فبيروت. وكشفت هذه المصادر لـ«الأخبار» أنّ «سوء الفهم بين الطرفين انتهى، وليس هناك ما يثير القلق». وتابعت إنّ وضع عيتاني في الإقامة الجبرية يهدف إلى «حمايته أولاً، والتأكد من بعض المعلومات عنه التي تبيّن لنا لاحقاً أنّها غير دقيقة».

وتابعت هذه المصادر: إنّ عيتاني الذي وصل إلى حلب قبل نحو أسبوعين «أوقف احتياطياً» بعد «معلومات وفرتها مجموعة من الثوار في حلب أثارت شكوكنا، ما ألزمنا التدقيق في صحة هذه المعلومات ومصدرها». وأضافت أنّ عيتاني «أثبت لنا أنّه كان صادقاً مهنياً وسياسياً، ونحن نعرفه جيداً ونعرف مدى دعمه لنا إعلامياً».

وفي اتصالات أجرتها «الأخبار» مع أكثر من قائد عسكري وسياسي في حلب، أكّد هؤلاء أنّ الصحافي اللبناني في وضع مريح و«لم ينزعج من قرار وضعه في الإقامة الجبرية». وتابعوا إنّ «فداء يتفهم الوضع ويعرف دقة ما نمر به في حلب وريفها». وأكّدوا أنّه بخير وبصحة جيدة كما ظهر في الفيديو أمس، و«يتمتع بحرية الحركة داخل المقر الإعلامي للواء عاصفة

الشمال». وكشفوا أنّ النائب اللبناني عقاب صقر «تواصل معنا، ونحن على تواصل معه لحظة بلحظة من أجل فداء». وأكدت معلومات «الأخبار» أنّ النائب صقر أجرى فعلاً اتصالات بقادة ميدانيين في أعزاز تتعلق باحتجاز عيتاني، وقد استفسر بداية عن أسباب احتجازه. وأشارت المعلومات إلى أنّ صقر تلقى اتصالات هاتفية من مؤسسات إعلامية لبنانية وعربية، طالبةً منه التدخل لدى أصدقائه في أعزاز للإفراج عن عيتاني. وقال متصلون بصقر لـ«الأخبار» إنّ الأخير شدد في تواصله الهاتفي مع محتجزي فداء على وجوب الإفراج عنه فوراً، وعلى «الاهتمام به وعدم التعرض له». وكان فداء الذي يتابع ميدانياً مجريات الأعمال العسكرية في حلب وريفها الغربي، ويتابع وضع اللبنانيين المخطوفين هناك، قد بنى علاقات متينة مع قادة في «الجيش السوري الحر». وقد وفرت له هذه الصلات سهولة في التحرك على أرض محافظة حلب، وصولاً إلى إدلب وريفها. وخلال زياراته المتكررة لها، تراكمت علاقة الثقة بينه وبين الجيش الحر الذي أعطى عيتاني كل المعلومات التي يريدها لعمله الصحافي وإعداد تقارير لمحطات تلفزيونية، علماً بأنّ عيتاني كان أول صحافي يفتح الطريق أمام الصحافيين اللبنانيين إلى أعزاز. وفي آخر اتصال هاتفي مع فداء الخميس الماضي، أكّد أنّه في وضع جيد و«موجود في جنوب حلب برفقة الثوار»، مضيفاً إنّه سيعود إلى لبنان بعد عيد الأضحى. وأوضح أنّ «واجبه المهني يحتّم عليه البقاء هناك لمتابعة التطورات الميدانية إثر اتفاق الهدنة بين النظام السوري والجيش الحر ومراقبة مدى حسن تنفيذه».

ملحق رقم ٤

مقابلة مع أبو أسامة التونسي

في دارة عزة (الريف الغربي لحلب) أوقفنا حاجز للدولة الإسلامية، وحين أخذنا إلى مقر الدولة الإسلامية طلبنا مقابلة أحد المسؤولين في التنظيم لإجراء مقابلة صحافية، فتم اقتيادنا إلى بلدة الدانا بمرافقة عنصرين من المقاتلين الجهاديين بسلاحهما الكامل، وانتظرنا قرب أحد حواجز الدانا التابعة لتنظيم القاعدة، حتى وصل الأمير إلى مقر القاعدة، أو الدولة الإسلامية، ثم أُدخلنا بعد أن تخلصنا من كل الأجهزة الالكترونية التي نحملها.

على مدخل المقر وقف شابان، كلٌّ بقناعه الأسود وسلاحه على صدره، وقفة تأهب، وعلى مدخل المقر أيضاً كانت أم تسأل عن ولدها الذي اختفى، وذهبت دون أن تجد جواباً. وفي المقر كان العشرات من المقاتلين، بعضهم ملثم أو يرتدي قناعاً، والبعض الآخر سافر الوجه، أغلبهم من

خارج سورية، وخاصة من تونس، حيث أن أمير الدانا أبو أسامة تونسي الأصل. في الطابق الأول كان والي حلب أبو أثير جالساً في غرفة كبيرة خلف مكتبه، صافحنا دون النهوض من خلف المكتب، وعلى المقاعد كان هناك ١٨ من أعضاء التنظيم، جميعهم ملثمون بالأسود، من أبو أسامة التونسي إلى آخر مقاتل، أبو أثير توقع أن الحديث هو حول الوضع في الدانا وحدها، ولكنني وجهت الأسئلة إلى أمور أخرى، أجابني أبو أسامة عن كل ما يتعلق بالدانا، وعما هو أبعد من الدانا، تحدّث قليلاً أبو أثير.

يقول أبو أسامة ويشارك أبو إثراء في الحديث: أن «المظاهرة (في الدانا يوم الجمعة الخامس من تموز) لم تخرج ضد دولة الإسلام، بل ضد الإسلام، هناك خلايا نائمة تابعة للنظام موجودة في كل المناطق المحررة، وأكبر دليل هو كتابة صفحة لهم، على الإنترنت أن الجيش السوري يجب أن يتدخل لأن الدانا تستغيث ضد الإرهابيين، والصفحة المعنية هي صفحة أسود باب الهوى على الفيسبوك».

يضيف «القناة الأخبارية السورية قالت أن قواتنا الباسلة قامت بمهاجمة الإرهابيين (في الدانا)». أما الذين خرجوا في المظاهرة «فإن سألت عن السيرة الذاتية لهم تجدهم منشقين حديثاً، وبائعي مخدرات، حتى أن المجلس العسكري وقع على سحب السلاح من هؤلاء الشبيحة». «هناك فصيلان سيئان مسيطران على الدانا، والجيش الحر تبرأ منهما، ودخل أفراد من الجيش الحر بغية إعانتنا عليهما، ونحن رفضنا أن يتدخل أحد».

«يوم الجمعة أبقينا كل عناصرنا في مقراتها، ولم يخرج (للصلاة) إلا الأنصار (السوريون من التنظيم القاعدي)، وفوجئنا بهم (الفصائل من الجيش الحر أبناء الدانا) يأتون إلى المقر في تظاهرة شارك بها حوالي ٨٠ شخصا، فاعتقلنا نصفهم،

والنصف الآخر سلم سلاحه، اذ كان جزء منهم مسلحاً، ولاحقاً أطلقنا سراح من كان أعزل، ومن ثبت أنه أطلق النار وقتل من الأخوة المجاهدين فسيحال إلى المحكمة الشرعية (التابعة لدولة الإسلام في العراق والشام)».

«هذه المظاهرة وصلت إلى مقر دولة الإسلام، وأصلاً هي مبيتة وهم جهزوا أنفسهم بقناصين، وقبل المظاهرة بحوالي أسبوع أخبرنا ضابط من الجيش الحر أنه تم دعم هذه المجموعات من الخارج (من قبل جهة غير محددة) بمبلغ ٤٠ مليون ليرة سورية لشراء السلاح من أجل عملية الدانا، مع وعد بأن يكون لمن ينفذها شأن في مرحلة لاحقة بحال نجاحها». أبو إثراء، الذي يبدو مغرقاً في الحديث عن الدانا، وتاركاً المجال لأمير الدانا أبو أسامة في الاستفاضة في الشرح لما حصل مع مجموعتين من الجيش الحر، يستخف بسؤالي حول محاولة الدولة الإسلامية (القاعدة) السيطرة على الحدود السورية التركية، عبر ضرب المجموعات المتواجدة في أعزاز وفي الدانا، وقبلها السيطرة على قرية مشهد من قبل أبو البنات، وكلها مناطق حدودية، مما سيسهل على القاعدة منع الإمدادات عن مجموعات الجيش الحر وإسقاط المناطق تالياً بهدوء. يقول أبو إثراء حرفياً: «لو كنا نريد قطع الإمداد لكان من الأسهل علينا أن نأخذ مخازن الجيش الحر، وكل ما يدخل الآن من أسلحة نشتريه بالمال من الجيش الحر، لقد أصبح لدينا منهم ٢٠٠ صاروخ مضاد للطائرات، وكذلك صواريخ كونكورس». يقترب هنا أحد العناصر المسلحة والجالسة إلى يسار أبو إثراء، يهمس كلمات في أذنه، ثم يعود العنصر الملثم إلى مجلسه الأول. ويتابع أبو إثراء كلامه بالقول «علاقتنا جيدة مع الاخوة في الجيش الحر، ونحن ننسق في المعارك». أسأل «الاخوة في الجيش الحر؟ هل هم اخوتكم؟ ألا تعتبرونهم كفرة؟».

فيبتسم أبو إثراء بهدوء وترفع ويقول «لو كفرناهم لكان ذلك لمصلحتنا، لاننا كنا اخذنا اسلحتهم».

أتابع سؤالي: «طيب من هو الكافر منهم؟ من الذي تعتبرونه كافراً بنظركم؟»

فيجيب أبو إثراء «لا نكفر إلا من تعامل مع الغرب لمحاربة الإسلام، للأسف فإنه يتم تشويه صورة المجاهدين في أي مكان باتهامهم بأنهم تكفيريون، وبالمختصر من لا يحاربنا لا نحاربه، ولكن من يحاربنا أو يفكر أو ينوي أو يبيت محاربتنا فلن يجدنا إلا أشداء عند البأس».

اختم بسؤال: «وهل تضمنون حرية السكان وأمنهم وسلامتهم في المناطق التي تسيطرون عليها؟»

فيجيب أبو إثراء «المناطق التي تحت سيطرتنا نضمن أمنها وطعامها، وعلاقتنا بفصائل الجيش الحر جيدة، إلا من كان يتلقى منهم أموالاً من الخارج».

بعدها أخذنا أبو أسامة في جولة وتركنا نصور حاجزين للدولة الإسلامية في الدانا، وطلب منا تصوير مدرسة لتعليم القرآن قال إن المتظاهرين اعتدوا عليها وحطموها عند أسواق الدانا، كما طلب منا تصويره قرب منزله، حيث حضن طفلاً صغيراً من أطفاله، وهو يرتدي القناع الأسود، وعلى صدره رشاشه من عيار ٩ ملم، ووجهه مغطى بالقناع الأسود، ربما ليوحي لنا بأنه ليس فقط مجاهداً، بل أب وعائلته أصبحت في سورية، أو ليقول أن وجه طفله العاري سيُغطى بالأسود حين يكبر هو أيضاً.

ملحق رقم ٥

صور

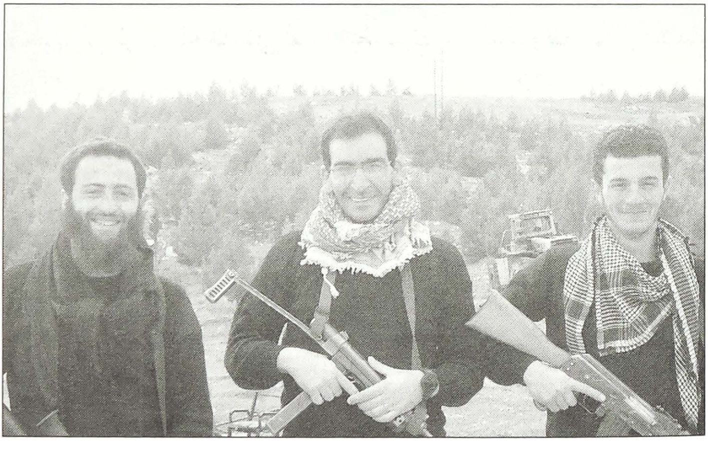

الكاتب في أحد المواقع العسكرية التابعة للجيش الحر،
حاملا سلاح حماية شخصي

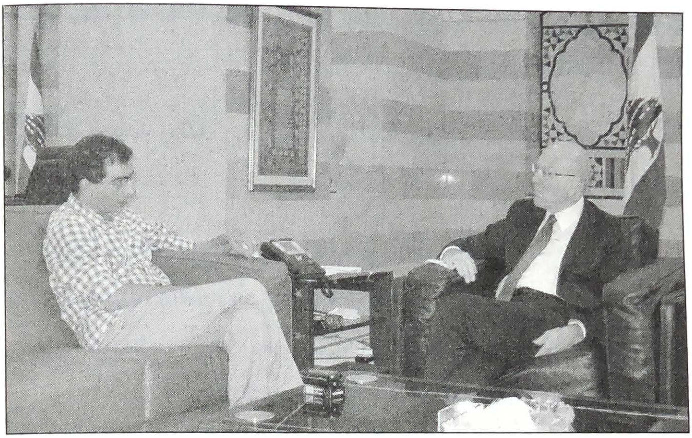

ميقاتي: «لماذا لا يتحرك نصرالله... إنهم شيعة»
(آب ٢٠١٢)

مع الرهينة علي زغيب في سجن الجبل الأحمر
التابع للخاطف عمار الداديخي

متحف معرة النعمان وقد عبثت به قوات النظام وقوات الثورة
(كانون الثاني ٢٠١٣)

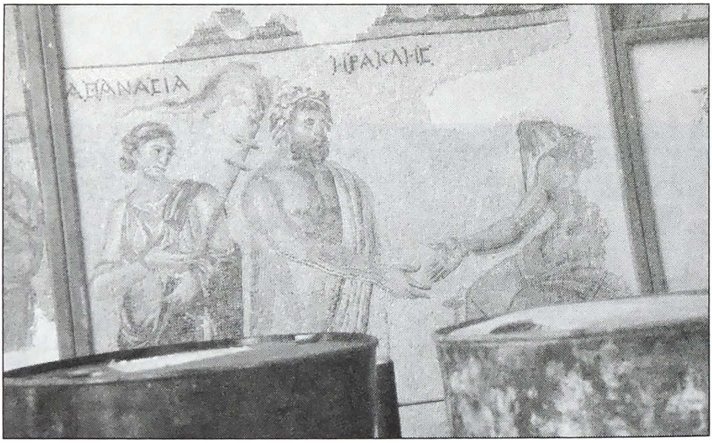

موزاييك من متحف معرة النعمان
وقد وضعت أمامها براميل الوقود للدبابات

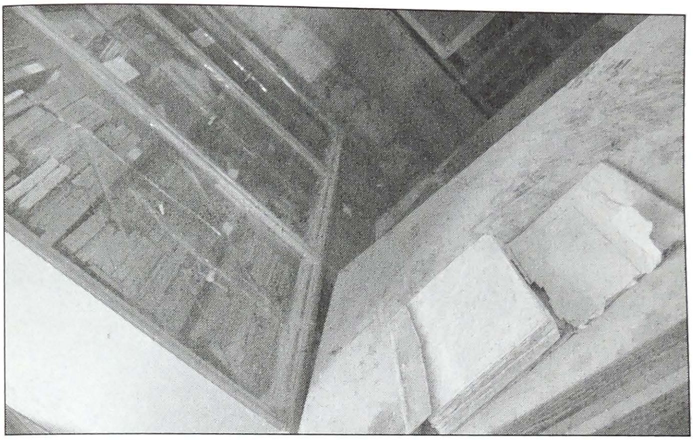

المخطوطات النادرة التي نجا بعضها من السرقة في متحف معرة النعمان
(كانون الثاني ٢٠١٣)

في الوسط عمار الداديخي خاطف اللبنانيين الاحد عشر، والى يساره الشيخ
منير مسؤوله الشرعي

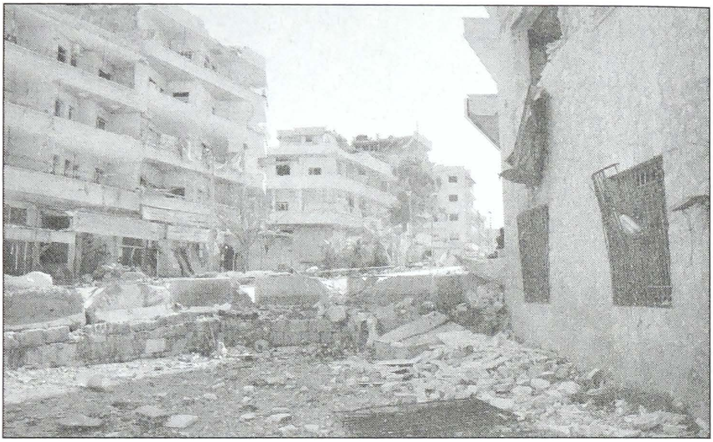

أحد شوارع
معرة النعمان

الشيخ علي يعظ مقاتليه في مسجد حسن البصري في صلاح الدين في حلب
(تموز ٢٠١٢)

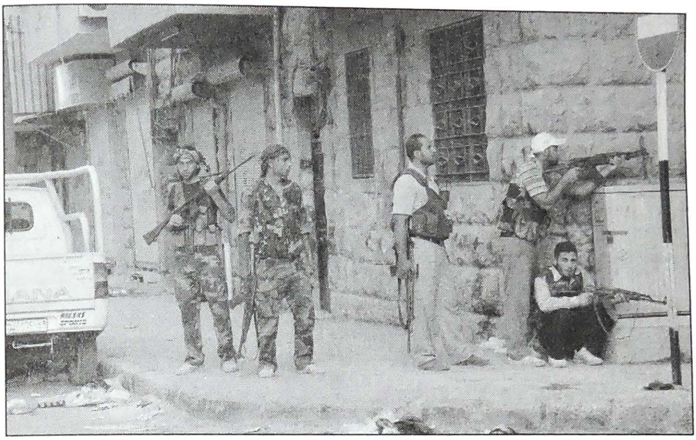

الاشتباكات الأولى في مدينة حلب
صيف العام ٢٠١٢

تمثال أبو العلاء المعري
وقد قطع رأسه وأنزل عن منصبه

القوات التابعة للجيش الحر تحضر لاحدى العمليات العسكرية في حلب
(تموز ٢٠١٢)

استراحة المقاتلين في احد مساجد صلاح الدين
في مدينة حلب

طفلة نازحة في كهف استقرّت به عائلتها
في ريف إدلب

معرة النعمان
بعد أيام من تحريرها

مقاتل يُخلي أطفاله في أول أيام الدخول الى الكلاسة في مدينة حلب
(تموز ٢٠١٢)

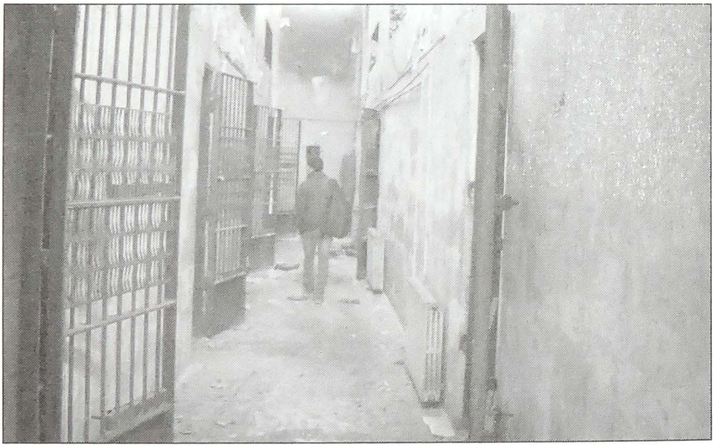

في سجن معرة النعمان
بعد تحريره

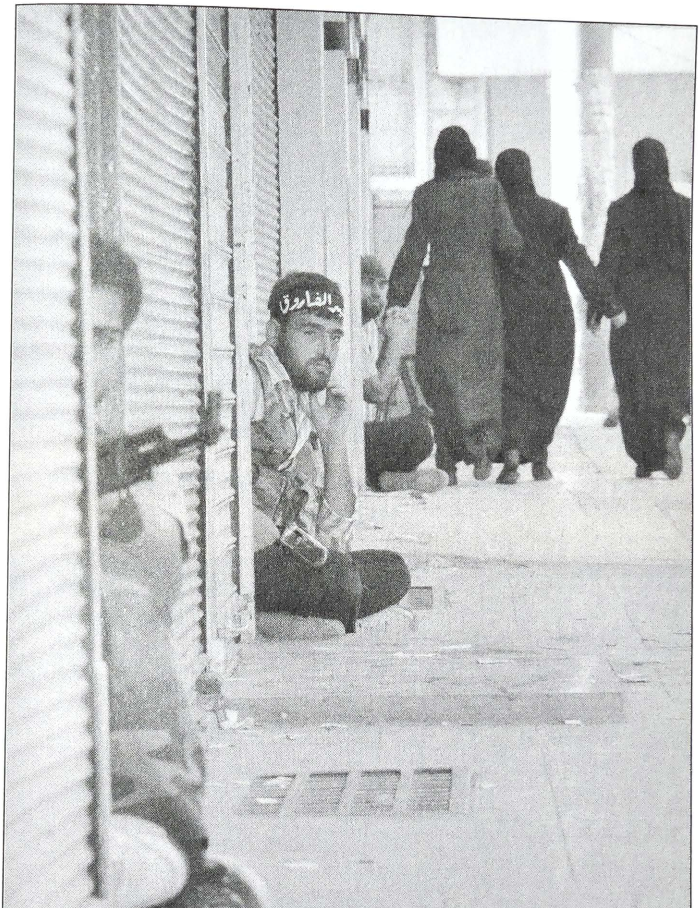

أول دخول
إلى شوارع مدينة حلب

المؤلف

ولد في بيروت ـ ١٩٦٨

صحافي وكاتب تحقيقات عُني بالحركات الإسلامية الجهادية.

عمل في عدد من الصحف والمواقع الإلكترونية، منها «**النداء**» و«**السفير**» و«**الأخبار**» اللبنانية. شارك في تغطية الحروب الإسرائيلية على لبنان منذ العام ١٩٩٣، وواكب حروباً وعمل في العراق وليبيا وغزة وسورية.

أكثر من التردد على المناطق السورية المحررة من قوات النظام منذ منتصف ٢٠١٢ متابعاً قضايا الثورة والحرب هناك. وقدم رؤيته في تطور النزاع في سورية إلى عدد من مراكز الفكر والقرار والجهات الدبلوماسية في العواصم الغربية.

صدر له:

- «**نهاية الروح الحزينة**»، مجموعة قصصية.
- «**عن حياة لا تغادرنا**»، رواية.
- «**الجهاديون في لبنان أو التاريخ المكتوم للجهاديين**».

فهرس الأعلام

أ

آل الحريري ٢٤٢
أل الأسد ٩٧، ١٦٨
ابراهيم، خالد ١٤، ١٥٨، ٢٢٨
ابراهيم، عباس ٢٤٢
أبو ابراهيم ١١٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٤٤٠
أبو إثراء ٣٢٨، ٣٢٩ ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦،
أبو أسامة التونسي ٣١٠، ٣١٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٦
أبو بدري ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢
أبو بصير الجبلاوي ٣٢٩، ٣٣٠
أبو بكر البغدادي ٣٥٥، ٣٥٧، ٤٠٣، ٤١٦، ٤٢٢
أبو البنات الروسي ٢٩٨

أبو حسن التركي ٣٠٨
أبو سعيد لولي ٣٠٢
أبو سليمان (الشيخ) ٧٩، ١١٧
أبو الشوق ٢١٤، ٢٤٤، ٢٧٧
أبو عمر الشيشاني ٢٩٨
أبو عمر الكويتي ٢٩٨
أبو فراس ١٠٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣
أبو محمود ٢٢٧، ٢٣١
أبو القعقاع ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٧
أبو المجد (المقدم) ٢٧١
أبو محمد الجولاني ٣٢١، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧
أبو محمد العدناني ٤٢٢
إدريس، سليم ٣٢٩
الأسد، بشار ٢٢٨، ٢٧٧، ٣٠٦، ٣١٩، ٣٣٢، ٣٣٨، ٣٣٩، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٩
الأسد، حافظ ٣٠، ٩١، ١٠٠، ٣٣٢، ٣٣٨، ٣٣٩
أغاسي، محمود غول ٣٣٢
الأمين، ابراهيم ٤٤٨، ٤٤٩

ب

باروت، محمد جمال ٣٠
باريش، منهل ٢٧٦، ٢٧٨
بري، نبيه ١٧١
البغدادي، ابراهيم ٤٢١
بن علي، زين العابدين ٤٤٩
بن لادن، أسامة ٣٣٣
بوتلر، جورج ١٧٠
بوش، جورج ٢٢٠
بيرقدار، فرج ٤٥

ج

الجابري، سعد الله ٦٣، ١٤٢
جمعة، أحمد ١٢٩، ١٣٤، ٢٢٨
جميل (القاضي) ١٠٢
جنبلاط، وليد ٢٣٦، ٢٤٣

ح

الحاج صالح، ياسين ٤٥
الحجي مارع انظر صالح عبد القادر
الحريري، رفيق ٣٣٦
الحريري، سعد ١٧٢، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٤٤٢

الحسن، طارق محمد ١٤، ٨٣
حسن، عمر ١٧٨
الحسن، وسام ٢١٠، ٢٤٥، ٤٤٦
حسين، صدام ٤٤٩
حمادة، حسين ٤٠٣
حمامي، كمال ٣٢٩
حمود، هاني ٢٤٢، ٢٤٦
حنونو، صالح ٣٠٢

خ

خالد، محمد ٢٧٧، ٢٧٨
خدام، عبد الحليم ٣٠
الخطيب، حمزة ٩٠، ٩٢، ٩٧
خليفة، مصطفى ٤٥
خليل، علي عقل ٤٤٢

د

الداديخي، عمار ١٥، ١٦، ١٨، ٢٧، ١١٢، ١١٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧١، ١٧٥، ٢١٣، ٢٢١، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٩٧، ٢٩٩
دربالة، طارق ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣١

ر

راشد، حسن ٣٠٩، ٣١٠
رايس، كونداليزا ٣٣٧

ز

الزرقاوي، أبو مصعب ٣٣٣، ٣٣٥
زغيب، علي ١٦٨، ١٦٩، ٢١٦، ٢١٧
زمزم، عبده ٣٠١، ٣٠٢

س

سعيدو، علي (الشيخ) ١٤٤، ١٤٧، ٣١٠، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥
سماحة، جوزيف ٤٤٩

ش

شربل، مروان ٢٣٥، ٢٤٣، ٤٤٠، ٤٤١
شهاب الدين ، توفيق (الشيخ)٧٩، ١٠٩، ١١٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٢، ١٣٦، ١٤٧، ١٦٢، ٣٠١
شهاب الدين وليد ١٤، ١٠٥، ١٤١، ١٦٢، ٢١٢، ٢٤١
شهيب، أكرم ٤٤٨

شوقي، محمد ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٩، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٧٨
شومان، أبو محمد ٢٤٦، ٢٤٧

ص

صاغية، خالد ٣٦، ٤٢، ٤٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٤٤٨، ٤٤٩
الصالح، عبد القادر ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨
صفا، وفيق ٢٥٠
صقر، عقاب ١٢٩، ٢١٣، ٢١٥، ٢٢١، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٥١

ض

الضاهر، بيار ٤٢، ٤٣، ١١٤، ١١٨، ١١٩، ١٣٧، ١٣٨، ١٦٩، ١٧٤، ٢٤٢، ٢٩٩

ط

طارق ١٦٥، ١٧٨، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥
طاهر، مروان ٤٤٧

ظ

الظواهري، أيمن ٣٤٣، ٣٤٩، ٣٥٧

ع

عبد الكريم، علي ٤٧
العرعور، عدنان ١٥١
عرفات، ياسر ٢٠٧
عفش، أحمد ١٢١، ١٢٢
علوش، زهران ٣٢١
العلي، مصباح ٤٤٣
عيتاني، حسام ١٣، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٩
عيتاني، فداء ٢٣٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١
عيتاني، محمد الأمين ٢٤٥
عيدي، حسن ١٠٥، ١٠٦

غ

غندور، ثائر ١٣٩، ٢٣٥، ٢٣٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩

ف

فوز، نادر ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩

ق

قاشوش، ابراهيم ١٣٤، ٢٢٨
القذافي، معمر ٢٨
القش، فادي ٣٢٨
قطار، الياس ٤٣٩
قيس ٢٢٦، ٢٢٨

ل

لطوف، صبحي ١٤، ٩٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٣، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٥، ١٣٩، ١٤١، ١٤٤، ١٦٢، ٢٠١، ٢٠٢، ٣٠٧

م

المالكي، نوري ٣٨
مبارك، حسني ٢٩
معروف، جمال ٤١٣
المعري، أبو العلاء ٢٨١، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٩
المعلم، وليد ٣٣٧
منير (الشيخ) ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٤٤
ميقاتي، نجيب ١٧٢، ٢٤٣

ن

ناصيف، أبو محمود ٢٢٦
نرش، ربيع ٢٣٦
نصر الله، حسن (السيد) ٤٧، ١٧٢، ١٧٣، ٤٣٣، ٤٣٥
نمر (النقيب) ١٤، ١٢٧، ١٣٤، ١٣٥
نور، محمد ١٢٩، ١٦٩، ٢١٢ه

هـ

هرموش، حسين ١٣٣

ي

اليازجي، بولس (المطران) ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠١
يوحنا إبراهيم (المطران) ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١

فهرس الأماكن

أ

آسيا ٣٤٤
إدلب ١٦، ٧٨، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٩، ١٥١، ١٧٨، ١٩٢، ٢٥١، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٩٨، ٣٠٤، ٣١٠، ٣٢٧، ٣٣٤، ٣٧٢، ٣٧٩، ٣٩٠، ٣٩٢، ٤٠٤، ٤٢٠، ٤٥١
أدما ٤٣
الأردن ٩٢، ٣٣٣
إسرائيل ٣٥، ١٣١، ٢٥١
اسطنبول ١٧، ١٢١، ١٥٩، ١٧٤، ٢٣٨
الاسكندرون ٢٩٨
أطمة (قرية) ٣٠٨
أعزاز (بلدة) ٤٤، ٧٢، ٧٥، ٨٠، ١٣٥، ١٤٠، ١٦٤، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ٢٣٤، ٢٤٧، ٣٥٩، ٣٧٥، ٣٩٥، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٥
أفريقيا ٣٤٤
أفغانستان ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٦٦

ألمانيا ٢٠٥
الأنبار ٣٦
أنطاكيا ٣٢٩، ٤٢٢
أنقرة ٢٣٨، ٢٤٩
أورم (قرية) ٤١١
أوروبا ١٠٢، ٣٤٤
ايران ٣٧، ٣٨، ٩٤، ١٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٦٢، ٣٨٠

ب

باب عمرو ٥٤
البحرين ٣٣
برنياس ١٢١
بغداد ٤٦
بلاد الشام ٣٤٨، ٣٤٩
بنغازي ٢٨
بيروت ١٧، ٢٧، ٢٩، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٦٠، ١٠٩، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢٢، ١٣٧، ١٣٩، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٦، ٢٠٧، ٢١١، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٩، ٢٩٣، ٣٨٥، ٤٤٢، ٤٤٧، ٤٥٠

ت

تركيا ٢١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٢، ١٤٥، ١٦٢، ١٦٨، ١٧١، ١٨٥، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٧، ٣٣٠، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٧٣، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤١٢، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٧، ٤٣١، ٤٥٠
تونس ٣٣، ٣٤، ٩٠، ١٩٨، ٤٢٦، ٤٥٤

ج

الجبل الأحمر ٣٥٠
جبل قاسيون ٣٣٥
جبيل ٤٣
الجزيرة العربية ١١
الجولان ٣١٣

ح

حجي باشا (قرية) ٤٠٠، ٤٠٢
حريتان ٣٩٥
حلب ١٦، ٤١، ٤٤، ٤٦، ٤٩، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦٠، ٦١، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٨٧، ٨٨، ٩٢، ٩٤، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١١٣، ١١٥، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٩، ١٨١، ١٩١، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٨، ١٩٩،٢٠٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٨، ٢٥٠، ٢٨٢، ٢٩١، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١٣، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣٤، ٣٤٥، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٧٩، ٣٩٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤١٣، ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢٤، ٤٤٠، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٤
حماه ٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٩، ٣٩٠، ٣٩٢
حمص ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٨٥، ٩١، ٩٩، ٢٨٢، ٣٩٠
حيان ١٣٤

خ

خان العسل ٤٥، ٦٤، ٧٥، ١٤٤، ٢١١، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٢٠

د

دار عزة (بلدة) ١٤٣، ٣٧١
درعا ٣٢، ٣٣، ٩١، ٩٢، ٩٩، ٣٢٨
دمشق ٣٣، ٦٥، ٧٠، ٩٩، ١١٣، ١٤٧، ٢٦٢، ٣٣٢، ٣٣٥
دير الزور ٢٧١، ٣٣٤، ٣٧٢، ٣٩٢، ٣٩٩، ٤٢٠
الدانا ٢٥٧،٣٢٩،٣٣٠،٤٠٩

ر

الرقة ٩٩، ٣٣٤، ٣٧٢، ٣٩٢، ٤١٥، ٤٢٠

روسيا ٣٦٢، ٤٢٦
الرياض ٣٣٤، ٣٣٥
الريحانية ١١٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٣٩٨

ز

الزهراء (قرية) ٣٠٩، ٣٨١، ٣٨٢، ٤١٢
سراقب (مدينة) ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٩٥
سرمدا (قرية) ١١١، ١٨٦، ٢٥٦
السعودية ٣٧، ٣٨، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٦٦، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥
السودان ٣٣٣

ش

الشرق الأوسط ٤٢٧
الشيخ سليمان (قرية) ٣٠٩، ٣٧١
الشام١٥٨، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٦، ٣٤٤، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٦٣، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٩٢، ٤٥٥

ط

طهران ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٥

ع

العراق ٣٥، ٣٧، ٣٨، ١٢٤، ١٥٨، ١٩٠، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٧٧، ٣٨٢، ٣٩٢، ٣٩٤، ٤٢٠، ٤٢٧، ٤٥٥
عندان ١٢٦، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٣، ٣١٠، ٣٧١، ٣٩٥

ف

فرنسا ٢٦٩

ق

القامشلي ٣٢٩
القاهرة ٢٩
قبتان الجبل (قرية) ١٣٤، ١٣٦،

١٣٩، ١٤١، ١٦٢، ١٦٩، ١٧٥، ٢٠٨، ٢١٨، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٧٥، ٢٩١، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١
قطر ١٣٠، ٣٣٥، ٣٦٦، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٦

ك

كفر حمرة ٣٧٥، ٣٩٥، ٤٠٩
كفرنبل ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٨

ل

اللاذقية ٣٢٩، ٣٩٠، ٣٩٢، ٤١٥
لبنان ١٧، ٢١، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٥، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٨، ٧٧، ٨٠، ٨٥، ١١٥، ١١٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٥٨، ١٧٤، ١٨٧، ٢٠٦، ٢١٠، ٢٣٩، ٢٦٥، ٣٠٢، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٦٣، ٤٢٧، ٤٤٦، ٤٥١
ليبيا ٢٨، ٣٣، ٣٤، ٤٦، ١٢٤، ٤٢٦

م

مارع ١٢٧، ١٢٨، ١٤٠، ٢٤٤
مشهد ٤٥٥
مصر ٢٩، ٣٣، ٣٤، ٤٦، ٨٢، ٩٠، ١٩٨، ٤٢٦
معرة النعمان ٢٨١، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧
المغرب ٣٥٣
الموصل ٤٠٣

ن

نُبل (قرية) ٣٠٩، ٤١٢
نيويورك ٤٢٤

و

الوادعة (قرية) ١٤٤
واشنطن ٤٢٧
الولايات المتحدة الأميركية ٢٧١، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٥٢، ٤١٥، ٤٢٣

ي

اليمن ٣٣، ٣٣٣

فداء عيتاني

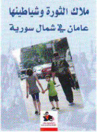

ملاك الثورة وشياطينها عامان في شمال سورية

يروي الكتاب سيرة الثورة السورية، منذ بداياتها، وكما عايشها الكاتب وسمع عنها ممن شاركوا فيها منذ أيامها الأولى، وكيف تطورت حتى استولت تنظيمات إسلامية متطرفة على الأرض مبعدةً القوى التي شاركت في بدايات الثورة والعمل المسلح عن تقرير مصيرها بنفسها، ويكشف جوانب من عملية اعتقاله إثر مشاركته في المفاوضات لإطلاق عدد من المخطوفين اللبنانيين في الشمال السوري، ويختم الكتاب في المرحلة التي بدأت فيها عملية مواجهة التنظيمات الإسلامية الجهادية تأخذ منحى تناحرياً في سورية.

يعد الكتاب شهادة ميدانيّة عن تطورات الثورة السوريّة في الشمال بشكل عام إذ ينقل تفاصيلها وسياقها وتطوراتها بشكل دقيق وموضوعي. يضاف إلى ذلك أنه يشكل شهادة لقضية هامة أغفلت من البحث في الدراسات السوريّة هي «الخطف» بكل أنواعه وصولاً إلى الخطف المسيّس؛ وهي ظواهر عنف اجتماعي برزت على هامش الثورة بعد رفع غطاء الاستبداد، وغياب الدولة ووظائفها. وتأتي هنا قضية «الحُجاج المخطوفين» لتكون رواية الكاتب هي الرواية الأدق من بين الروايات التي برزت وظهرت خلال شهور الاختطاف الطويلة.

ومع أن الكتاب ليس أكاديمياً، فهو يعالج جميع الظواهر الرئيسيّة في الثورة السوريّة (انطلاقها، سيروتها، تطوراتها، الانتقال من السلمية إلى العسكرة، التسلح، العامل الخارجي، التدين، الجماعات الجهاديّة... إلخ).